

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿اللَّهُ﴾

[٢] ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

فيه خمس مسائل:

**الأولى** - قوله: ﴿الم. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هذه السورة مدنية بإجماع. وحكى النقاش أن أسمها في التوراة طَيْبَةُ، وقرأ الحسن وعمر بن عُيَيْد وعاصم بن أبي النُّجُود وأبو جعفر الرُّوَاسِيُّ<sup>(١)</sup> ﴿الم. الله﴾ بقطع ألف الوصل على تقدير الوقف على ﴿الم﴾ كما يقدر الوقف على أسماء الأعداد في نحو واحد، إثنان، ثلاثة، أربعة، وهم واصلون. قال الأخفش سعيد: ويجوز ﴿الم الله﴾ بكسر الميم لالتقاء الساكنين. قال الزجاج: هذا خطأ، ولا تقوله العرب لثقله. قال النحاس: القراءة [الأولى]<sup>(٢)</sup> قراءة العامة، وقد تكلم فيها النحويون القدماء؛ فمذهب سيبويه أن الميم فتحت لالتقاء الساكنين، وأختاروا لها الفتح لثلاثي يجمع بين كسرة وياء وكسرة قبلها. وقال الكسائي: حروف التهجي إذا لقيتها ألف وصل فحذفت ألف الوصل حرّكتها بحركة الألف فقلت: الم الله، والم أذكر، والم أقربت. وقال الفراء: الأصل ﴿الم الله﴾ كما قرأ الرواسي فألقت حركة الهمزة على الميم. وقرأ عمر بن الخطاب ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. وقال خازن: في مصحف عبد الله ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. وقد تقدّم ما للعلماء [من آراء]<sup>(٣)</sup> في الخروف التي في أوائل السور في أول ﴿البقرة﴾<sup>(٤)</sup>. ومن حيث جاء في هذه السورة ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ جملة قائمة بنفسها فتصوّر تلك الأقوال كلها.

(١) في «القاموس وشرحه» (مادة رأس): «وبنو رؤاس» (بالضم): حي من عامر بن صعصعة. قال الأزهرى: وكان أبو عمر الزاهد يقول في أبي جعفر الرواسي أحد القراء والمحدثين أنه الرواسي، بفتح الراء وبالواو من غير همز، منسوب إلى رؤاس قبيلة من سليم، وكان ينكر أن يقول الرواسي بالهمزة كما يقوله المحدثون وغيرهم. قلت: ويعني بأبي جعفر هذا محمد بن سادة الرواسي، ذكر ثعلب أنه أول من وضع نحو الكوفيين، وله تصانيف.

(٢) التكملة عن إعراب القرآن للنحاس. (٣) زيادة يقتضيها السياق. (٤) راجع ١/١٥٤.

الثانية - روى الكِسَائِيُّ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه صَلَّى العشاء فاستفتح «آل عمران» فقرأ ﴿الم. الله لا إله إلا هو الحي القيّام﴾ فقرأ في الركعة الأولى بمائة آية، وفي الثانية بالمائة الباقية. قال علمائنا: ولا يقرأ سورة في ركعتين، فإن فعل أجزاءه. وقال مالك في المجموعة: لا بأس به، وما هو بالشأن.

قلت: الصحيح جواز ذلك. وقد قرأ النبي ﷺ بالأعراف في المغرب فزفها في ركعتين. خرّجه النَّسَائِيُّ أيضاً، وصحّحه أبو محمد عبد الحق، وسيأتي.

الثالثة - هذه السورة ورد في فضلها آثار وأخبار؛ فمن ذلك ما جاء أنها أمانٌ من الحيات، وكثرٌ للصُّغْلوك، وأنها تُحَاجُّ عن قارئها في الآخرة، ويُكْتَبُ لمن قرأ آخرها في ليلة قِيَام ليلة، إلى غير ذلك. ذكر الدارِمِيُّ أبو محمد في مسنده حدّثنا أبو عُبيد القاسم بن سلام قال حدّثني عُبيد الله الأشجعيّ قال: حدّثني مُسَرَّر قال حدّثني جابر<sup>(١)</sup>، قبل أن يقع فيما وقع فيه، عن الشَّعْبِيِّ قال قال عبد الله: نِعَمْ كَثُرَ الصُّغْلوك سورة «آل عمران» يقوم بها في آخر الليل. حدّثنا محمد بن سعيد حدّثنا عبد السلام عن الجُرَيْرِيِّ<sup>(٢)</sup> عن أبي السَّيْلِيل<sup>(٣)</sup> قال: أصاب رجل دماً قال: فأوى إلى وادي مَجَنَّة: وإد لا يمشي فيه أحدٌ إلا أصابته حَيَّةٌ، وعلى شَفِير الوادي راهبان؛ فلَمَّا أَمسى قال أحدهما لصاحبه: هلك والله الرجل! قال: فافتتح سورة «آل عمران» قال: فقرأ سورة طَبِيبَةً لعله سينجو. قال: فأصبح سليماً. وأُسند عن مَكْحُول قال: من قرأ سورة «آل عمران» يوم الجمعة صلت عليه الملائكة إلى الليل. وأُسند عن عثمان بن عفان قال: من قرأ آخر سورة «آل عمران» في ليلة كتب له قيام ليلة. في طريقه ابنُ لَهِيْعَةَ. وخرّج مسلم عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكَلَابِيِّ قال سمعت النبي ﷺ يقول: «يُؤْتَى

(١) هو جابر بن يزيد بن الحارث الجُعْفِيُّ. توفي سنة ١٢٨ هـ. قال ابن سعد: كان يدلس وكان ضعيفاً جداً في رأيه وروايته. وقال العجلي: كان ضعيفاً يغلو في التشيع. وقال أبو بدر: كان جابر يهيج به مرة في السنة مِرَّةً فيهدي ويخلط في الكلام. فلعل ما حكى عنه كان في ذلك الوقت. وقال الأشجعي مبيّناً ما وقع فيه بأنه ما كان من تغير عقله. «عن تهذيب التهذيب».

(٢) الجريري: بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما، وهو سعيد بن إلياس، ينسب إلى جرير بن عباد. «عن تهذيب التهذيب». (٣) أبو السليل (بفتح المهملة وكسر اللام) هو ضريب (بالتصغير) بن نقيز، ويقال نقيز، ويقال نفيل. «عن تهذيب التهذيب».

بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدّمه سورة البقرة وآل عمران - وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثالٍ ما نسيتهنَّ بعدُ، قال: - كأنهما غمامتان أو ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بينهما شَرْقٌ<sup>(١)</sup>، أو كأنَّهما جِرْقَانِ<sup>(٢)</sup> من طير صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عن صاحبهما. وخرَجَ أيضاً عن أبي أُمامة الباهلي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه اقرأوا الزُّهْرَاوَيْنِ البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غَيَّائَتَانِ أو كأنهما فِرْقَانِ من طير صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عن أصحابهما اقرأوا سورة البقرة فإنَّ أخذها بركة وتركها حسرةٌ ولا يستطيعها البطلة». قال معاوية<sup>(٣)</sup>: وبلغني أن البطلة السَّحَرَةُ.

الرابعة - للعلماء في تسمية «البقرة وآل عمران» بالزُّهْرَاوَيْنِ ثلاثة أقوال:

الأول - أنهما النِّيرَتَانِ، مأخوذ من الزَّهر والزُّهْرَةُ؛ فإمّا لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما؛ أي من معانيهما.

وإمّا لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة، وهو القول الثاني.

الثالث - سُمِّيَا بذلك لأنهما أشتركتا فيما تضمنه اسم الله الأعظم؛ كما ذكره أبو داود وغيره عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ إِسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(٤)</sup> والتي في آل عمران ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أخرجه ابن ماجه أيضاً. والغمام: السحاب الملتفت، وهو الغَيَايَةُ إذا كانت قريباً من الرأس، وهي الظُّلَّةُ أيضاً. والمعنى: أن قارئهما في ظِلِّ ثوابهما؛ كما جاء «الرجل في ظِلِّ صدقته»<sup>(٥)</sup> وقوله: «تُحَاجَّانِ» أي يخلق الله من يجادل عنه بثوابهما، ملائكة كما جاء في بعض الحديث: «إِنْ مِنْ قَرَأَ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الْآيَةَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعِينَ مَلَكًا يُسْتَغْفِرُونَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وقوله: «بينهما شَرْقٌ» قُدِّدَ بسكون الراء وفتحها،

(١) الشرق: الضوء. وسكون الراء فيه أشهر من فتحها.

(٢) في الأصول: «فرقان» بالفاء. والتصويب عن «صحيح مسلم». والفرق: القطعة. والحرز والحزبة: الجماعة من كل شيء.

(٣) هو معاوية بن سلام أحد رجال سند هذا الحديث. (٤) راجع ٢/ ١٩٠.

(٥) كذا في نسخة: جـ وهو الصحيح، وكشف الخفاء ١/ ٤٢٤. وفي الأصول الأخرى: إن المؤمن.

وهو تنبيه على الضياء؛ لأنه لما قال: «سُودَاوَان» قد يُتَوَهَّم أنهما مُظْلِمَتَان، فنفى ذلك بقوله «بينهما شَرْق». ويعني بكونهما سوداوان أي من كثافتهما التي بسببها حالتا بين مَنْ تحتها وبين حرارة الشمس وشدة اللَّهَب. والله أعلم.

**الخامسة -** صَدُرَ هذه السورة نزل بسبب وفد نَجْرَان فيما ذكر محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير، وكانوا نصارى وَقَدُوا على رسول الله ﷺ بالمدينة في سَتِين رَاكِبًا، فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلاً، في الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يرجع أمرهم: العاقب<sup>(١)</sup> أميرُ القوم وذو آرائهم وأسمه عبد المسيح، والسيدُ ثمالهم<sup>(٢)</sup> وصاحب مُجْتَمَعِهِمْ وأسمه الأنيهم، وأبو حارثة بن عَلَقَمَةَ أحد بكر بن وائل أَسَفَقَهُمْ وعالمهم؛ فدخلوا على رسول الله ﷺ أثر صلاة العصر، عليهم ثياب الحِجْرَاتِ<sup>(٣)</sup> جُبَّتْ وَأُزْدِيَةٌ. فقال أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا وفدًا مثلهم جَمَالًا وَجَلَالَةً. وحانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد النبي ﷺ إلى المَشْرِقِ. فقال النبي ﷺ: «دَعُوهُمْ». ثم أقاموا بها أياماً يُنَاطِرُونَ رسول الله ﷺ في عيسى ويزعمون أنه ابن الله، إلى غير ذلك من أقوال شنيعة مضطربة، ورسول الله ﷺ يردّ عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يُبْصِرُونَ، ونزل فيهم صَدْرُ هذه السورة إلى ثِيَفٍ وثمانين آية؛ إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة<sup>(٤)</sup>، حسب ما هو مذكور في سيرة ابن إسحاق<sup>(٥)</sup> وغيره.

[٣] ﴿رَكَعًا عَلَيْكَ الرُّكُوبَ وَالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

[٤] ﴿مِن قَبْلُ هَكَذَا فَنَاسٍ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

(١) السيد والعاقب هما من رؤسائهم وأصحاب مراتبهم، والعاقب يتلو السيد.

(٢) الشمال (بالكسر). الملجأ والغياث والمطعم في الشدة.

(٣) الحبريات (بكسر الحاء وفتح الباء جمع حبرة): ضرب من الثياب اليمانية.

(٤) في الأصول: الابتهاال، والصواب ما أثبت، باهل القوم بعضهم بعضاً وتباهلوا وتبهلوا: تلاعنوا والمباهلة: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا.

(٥) راجع «سيرة ابن هشام» ص ٤٠١ طبع أوروبا.



قوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ يعني القرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق، وقيل: بالحجة الغالبة. والقرآن نزل نجوماً: شيئاً بعد شيء؛ فلذلك قال «نَزَلَ» والتنزيل مرة بعد مرة. والتوراة والإنجيل نزلا دفعة واحدة؛ فلذلك قال «أُنْزِلَ». والباء في قوله «بِالْحَقِّ» في موضع الحال من الكتاب، والباء متعلقة بمحذوف، التقدير آتيا بالحق. ولا تتعلق بـ «نَزَلَ»، لأنه قد تعدى إلى مفعولين أحدهما بحرف جر، ولا يتعدى إلى ثالث. و «مُصَدِّقاً» حال مؤكدة غير منتقلة؛ لأنه لا يمكن أن يكون غير مصدق، أي غير موافق؛ هذا قول الجمهور. وقدّر فيه بعضهم الانتقال، على معنى أنه مصدق لنفسه ومصدق لغيره.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا بَيَّنَّ يَدَيَّهِ﴾ يعني من الكتب المنزلة، والتوراة معناها الضياء والنور؛ مشتقة من وَرَى الرَّزْدُ وَوَرِي لَغْتَانِ إِذَا خَرَجْتَ نَارَهُ. وَأَصْلُهَا تَوْرِيَّةٌ عَلَى وَزْنِ تَفَعَّلَ، التاء زائدة، وتحركت الياء وقبلها فتحة فقلبت ألفاً. ويجوز أن تكون تَفَعَّلَ فتنقل الزاء من الكسر إلى الفتح؛ كما قالوا في جارية: جَارَاة، وفي ناصية ناصاة<sup>(١)</sup>؛ كلاهما عن الفراء. وقال الخليل: أَصْلُهَا فَوَعَلَةٌ؛ فالأصل وَوَرِيَّةٌ، قُلِبَتِ الْوَاوُ الْأُولَى تَاءً كَمَا قُلِبَتْ فِي تَوَلَّجَ<sup>(٢)</sup>، وَالْأَصْلُ وَوَلَجَ فَوَعَلٌ مِنْ وَلَجَتْ، وَقُلِبَتِ الْيَاءُ أَلْفًا لِحَرَكَتِهَا وَأَنْفَتْحَ مَا قَبْلَهَا. وَبِنَاءِ فَوَعَلَةٍ أَكْثَرُ مِنْ تَفَعَّلَةٍ. وَقِيلَ: التَّوْرَةُ مَأْخُوذَةٌ مِنَ التَّوْرِيَّةِ، وَهِيَ التَّعْرِضُ بِالشَّيْءِ وَالْكَتْمَانُ لْغَيْرِهِ؛ فَكَانَ أَكْثَرُ التَّوْرَةِ مَعَارِضُ وَتَلْوِيحَاتُ مِنْ غَيْرِ تَضْرِيحٍ وَابْتِضَاحٍ؛ هَذَا قَوْلُ الْمُؤَرِّجِ. وَالْجُمْهُورُ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٣)</sup> يعني التوراة. والإنجيل إفْعِيلٌ مِنَ النَّجْلِ وَهُوَ الْأَصْلُ، وَيَجْمَعُ عَلَى أَنَا جِيلٍ، وَتُورَاةٌ عَلَى تَوَارٍ؛ فَالْإِنْجِيلُ أَصْلٌ لِّلْعُلُومِ وَحِكْمٍ. وَيُقَالُ: لَعَنَ اللَّهُ نَاجِلِيَّهِ، يَعْنِي وَالِدِيهِ، إِذْ كَانَا أَصْلَهُ. وَقِيلَ: هُوَ مَنْ نَجَّلْتُ الشَّيْءَ إِذَا اسْتَخْرَجْتَهُ؛ فَالْإِنْجِيلُ مُسْتَخْرَجٌ بِهِ عُلُومٌ وَحِكْمٌ؛ وَمِنْهُ سُمِّيَ الْوَلَدُ وَالنَّسْلُ نَجَلًا لَخُرُوجِهِ؛ كَمَا قَالَ:

إِلَى مَغْشَرٍ لَمْ يُورِثِ اللُّؤْمَ جَدُّهُمْ أَصَاغَرَهُمْ وَكُلٌّ فَخَلَ لَهُمْ نَجْلٌ

(١) هي لهجة طائية، يقولون في مثل جارية جارة، وناصية ناصاة وكاسية كاساة.

(٢) التولج: كناس الظبي أو الوحش الذي يلج فيه. (٣) راجع ٢٩٥/١١.

والتَّجَلُّلُ الماء الذي يخرج من النَّزْرِ. وَأَسْتَنْجَلْتُ الأرضُ، وبها نَجَالٌ إذا خرج منها الماء، فسَمِّيَ الإنجِيلُ به؛ لأنَّ الله تعالى أخرج به دَارِسًا من الحق عافياً. وقيل: هو من التَّجَلُّلِ في العين (بالتحريك) وهو سَعَتْهَا؛ وطعنة نَجْلَاء، أي واسعة؛ قال:

رُبَّمَا ضَرْبَةٌ بِسَيْفٍ صَقِيلٍ      بَيْنَ بُضْرَى وَطَعْنَةٍ نَجْلَاءِ

فسَمِّيَ الإنجيلُ بذلك؛ لأنه أصلٌ أخرجهم له من وَسَّعَهُ عليهم ونُوراً وضياء. وقيل: التَّنَاجُلُ التَّنَازُعُ؛ وسَمِّيَ إنجيلاً لتَنَازُعِ الناس فيه. وحكى شَمِرٌ عن بعضهم: الإنجيلُ كُلُّ كتاب مكتوب وافر السطور. وقيل: نَجَلُ عَمَلٍ وصنْعٍ؛ قال:

وَأُنْجِلُ فِي ذَاكَ الصَّنِيعِ كَمَا نَجَلُ

أي أعمل وأصنع. وقيل: التوراة والإنجيل من اللغة السُريانية. وقيل: الإنجيل بالسُريانية إنكليون<sup>(١)</sup>؛ حكاه الثعلبي. قال الجوهري: الإنجيل كتاب عيسى عليه السلام يذكر ويؤنث؛ فمن أنث أراد الصحيفة، ومن ذكر أراد الكتاب. قال غيره: وقد يُسَمَّى القرآن إنجيلاً أيضاً؛ كما روي في قصة مناجاة موسى عليه السلام أنه قال: «يا رب أرى في الألواح أقواماً أناجيلُهم في صدورهم فأجعلهم أمّتي». فقال الله تعالى له: «تلك أمة أحمد» ﷺ، وإنما أراد بالأنجيل القرآن. وقرأ الحسن: «والأنجيل» بفتح الهمزة، والباقون بالكسر مثل الإكليل، لغتان. ويحتمل [أن سمع]<sup>(٢)</sup> أن يكون مما عرّبه العرب من الأسماء الأعجمية، ولا مثال له في كلامها.

قوله تعالى: ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني القرآن ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ قال ابن فورك<sup>(٣)</sup>: التقدير هدى للناس المتقين؛ دليله في البقرة ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فرد هذا العام إلى ذلك الخاص. و«هدى» في موضع نصب على الحال. و﴿ الْفُرْقَانِ ﴾ القرآن. وقد تقدّم.

(١) في بعض كتب اللغة: إنجيل لفظ يوناني.

(٢) الزيادة من نسخة: ب.

(٣) ابن فورك (بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء) هو أبو بكر بن محمد بن الحسن بن فورك، المتكلم الأصولي الأديب النحوي الواعظ الأصهباني، توفي سنة ست وأربعمائة. (عن ابن خلكان).

[٥] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

هذا خبر عن علمه تعالى بالأشياء على التفصيل؛ ومثله في القرآن كثير. فهو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون؛ فكيف يكون عيسى إلهاً أو ابن إله وهو تخفى عليه الأشياء!

[٦] ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَعْرِزُ الْحَكِيمُ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾ أخبر تعالى عن تصويره للبشر في أرحام الأمهات. وأصل الرحم من الرخمة، لأنها مما يتراحم به. وأشتقاق الصورة من صاره إلى كذا إذا أماله؛ فالصورة ماثلة إلى شبيهه وهيئة. وهذه الآية تعظيم لله تعالى، وفي ضمنها الرد على نصارى نجران، وأن عيسى من المصوّرين، وذلك مما لا ينكره عاقل. وأشار تعالى إلى شرح التصوير في سورة «الحج»<sup>(١)</sup> و «المؤمنون». وكذلك شرحه النبي ﷺ في حديث ابن مسعود، على ما يأتي هناك [بيانه]<sup>(٢)</sup> إن شاء الله تعالى. وفيها الرد على الطبائعين أيضاً إذ يجعلونها فاعلة مستبدة. وقد مضى الرد عليهم في آية التوحيد<sup>(٣)</sup> وفي مسند ابن سنجر - وأسمه محمد بن سنجر - حديث «إن الله تعالى يخلق عظام الجنين وغضاريفه»<sup>(٤)</sup> من مني الرجل وشحمه ولحمه من مني المرأة. وفي هذا أدل دليل على أن الولد يكون من ماء الرجل والمرأة، وهو صريح [في]<sup>(٥)</sup> قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾<sup>(٦)</sup>. وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان وفيه: أن اليهودي قال للنبي ﷺ: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك»؟.

(١) راجع ٦/١٢ فما بعد وص ١٠٩ فما بعد. (٢) الزيادة من نسخة: ب. (٣) راجع ٢٠١/٢.

(٤) الغضاريف: جمع غضروف (بضم الغين) وهو كل عظم رخص يؤكل، وهو مارب الأنف، ونغض الكشف (العظم الرقيق على طرفها)، ورءوس الأضلاع، ورهابة الصدر (عظم في الصدر مشرف على البطن)، وداخل قوف الأذن.

(٥) الزيادة في: ج. (٦) راجع ٣٤٠/١٦.

قال: أسمع بأذني، قال: جئتكَ أسألك عن الولد. فقال النبي ﷺ: «ماء الرجل أبيضُ وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعَا فعَلَا مِنِّي الرجلُ مِنِّي المرأةُ أَذْكَرَا بِأَذْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِذَا عَلَا مِنِّي المرأةُ مِنِّي الرجلُ أَنَا بِأَذْنِ اللَّهِ»<sup>(١)</sup> الحديث. وسيأتي بيانه آخر «الشورى»<sup>(٢)</sup> إن شاء الله تعالى.

الثانية - قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يعني من حُسْنٍ وَقُبْحٍ وَسَوَادٍ وَبَيَاضٍ وَطُولٍ وَقِصَرٍ وَسَلَامَةٍ وَعَادَةٍ، إلى غير ذلك من الشقاء والسعادة. وذكر عن إبراهيم بن أدهم أن القراء اجتمعوا إليه ليسمعوا ما عنده من الأحاديث، فقال لهم: إني مشغول عنكم بأربعة أشياء، فلا أتفرغ لرواية الحديث. ف قيل له: وما ذاك الشغل؟ قال: أحدها أنني أتفكر في يوم الميثاق حيث قال: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي». فلا أدري من أي الفريقين كنتُ في ذلك الوقت. والثاني حيث صُوِّرْتُ في الرَّحِمِ فقال الملك الذي هو موكلٌ على الأرحام: «يا ربَّ شَقِيٌّ هو أم سعيد» فلا أدري كيف كان الجواب في ذلك الوقت. والثالث حين يقبضُ ملكُ الموتِ رُوحِي فيقول: «يا ربَّ مع الكفر أم مع الإيمان» فلا أدري كيف يخرج الجواب. والرابع حيث يقول: ﴿وَأَمَّا زُورَ الْيَوْمِ أَتِيهَا الْمُجْرِمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> فلا أدري في أي الفريقين أكون. ثم قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا خالق ولا مصوِّر [سواه]<sup>(٤)</sup>؛ وذلك دليل على وحدانيته، فكيف يكون عيسى إليها مُصَوِّراً وهو مُصَوَّرٌ. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب. ﴿الْحَكِيمُ﴾ ذو الحكمة أو المُحْكِم، وهذا أخصّ بما ذكر من التصوير.

[٧] ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

(١) راجع الحديث في صحيح مسلم ٩٩/١ طبع بولاق. (٢) راجع ٤٨/١٦ فما بعد.

(٣) راجع ٤٦/١٥. (٤) زيادة لا بد منها.

فيه تسع مسائل:

**الأولى -** خرّج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين ساء بهم الله فأحذروهم». وعن أبي غالب قال: كنت أمشي مع أبي أمامة وهو على حمار له، حتى إذا أنتهى إلى درج مسجد دمشق فإذا رءوس منصوبة؛ فقال: ما هذه الرءوس؟ قيل: هذه رءوس خوارج يجاء بهم من العراق. فقال أبو أمامة: كلاب النار كلاب النار! شر قتلى تحت ظل السماء، طوبى لمن قتلهم وقتلوه - يقولها ثلاثاً - ثم بكى. فقلت: ما يبكيك يا أبا أمامة؟ قال: رحمة لهم، إنهم كانوا من أهل الإسلام فخرجوا منه؛ ثم قرأ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ إلى آخر الآيات. ثم قرأ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾<sup>(١)</sup>. فقلت: يا أبا أمامة، هم هؤلاء؟ قال نعم. قلت: أشيء تقوله برأيك أم شيء سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: إني إذا لجريء إني إذا لجريء! بل سمعته من رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع ولا خمس ولا ست ولا سبع، ووضع أصبعيه في أذنيه، قال: وإلا فصمتا - قالها ثلاثاً - ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة واحدة في الجنة وسائرهم في النار ولتزيدن عليهم هذه الأمة واحدة واحدة في الجنة وسائرهم في النار».

**الثانية -** اختلف العلماء في المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة؛ فقال جابر بن عبد الله، وهو مقتضى قول الشعبي وسفيان الثوري وغيرهما: المحكمات من آي القرآن ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره. والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما أستاثر الله تعالى بعلمه

دون خلقه. قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

قلت: هذا أحسن ما قيل في المتشابه. وقد قدمنا في أوائل سورة البقرة عن الربيع بن خيثم أن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء؛ الحديث. وقال أبو عثمان: المحكم فاتحة الكتاب التي لا تجزىء الصلاة إلا بها. وقال محمد بن الفضل: سورة الإخلاص، لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط. و[قد] قيل: القرآن كله محكم: لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾<sup>(١)</sup>. وقيل: كله متشابه؛ لقوله: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾<sup>(٢)</sup>.

قلت؛ وليس هذا من معنى الآية في شيء؛ فإن قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أي في النظم والرضف وأنه حق من عند الله. ومعنى ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾، أي يشبه بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً. وليس المراد بقوله ﴿آيَاتٌ مُّخَكَّمَاتٌ﴾<sup>(٣)</sup> وأخرى مُتَشَابِهَاتٌ هذا المعنى، وإنما المتشابه في هذه الآية من باب الاحتمال والاشتباه، من قوله: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾<sup>(٤)</sup> أي ألتبس علينا، أي يحتمل أنواعاً كثيرة من البقر. والمراد بالمحكم ما في مقابلة هذا، وهو ما لا التباس فيه ولا يحتمل إلا وجهاً واحداً. وقيل: إن المتشابه ما يحتمل وجوهاً، ثم إذا رُدَّت الوجوه إلى وجه واحد وأبطل الباقي صار المتشابه محكماً. فالمحكم أبداً أصل ترد إليه الفروع؛ والمتشابه هو الفرع. وقال ابن عباس: المحكمات هو قوله في سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾<sup>(٥)</sup> إلى ثلاث آيات، وقوله في بني إسرائيل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا﴾<sup>(٦)</sup>. قال ابن عطية: وهذا عندي مثال أعطاه في المحكمات. وقال ابن عباس أيضاً؛ المحكمات ناسخة وحرامه وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به، والمتشابهات المنسوخات ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به. وقال ابن مسعود وغيره: المحكمات الناسخات، والمتشابهات المنسوخات؛ وقاله قتادة والربيع والضحاك. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكمات هي التي فيها حجة الرب

(٣) راجع ٤٥١/١.

(٢) راجع ١٤٨/١٥.

(١) راجع ٢/٩.

(٥) راجع ٢٤٨/١٠.

(٤) راجع ١٣٠/٧ فما بعد.

وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه. والمتشابهات لهنّ تصريف وتحريف وتأويل، أبتلى الله فيهنّ العباد؛ وقاله مجاهد وأبن إسحاق. قال أبن عطية: وهذا أحسن الأقوال في هذه الآية. قال النحاس: أحسن ما قيل في المحكمات، والمتشابهات أنّ المحكمات ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره؛ نحو ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾<sup>(٢)</sup>. والمتشابهات نحو ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾<sup>(٣)</sup> يرجع فيه إلى قوله جل وعلا: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ وإلى قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾<sup>(٤)</sup>.

قلت: ما قاله النحاس يبين ما اختاره أبن عطية، وهو الجاري على وَضْع اللسان؛ وذلك أن المخكّم أسم مفعول من أخكّم، والإحكام الإثقان؛ ولا شك في أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردد، إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته وإتقان تركيبها، ومتى اختلّ أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال. والله أعلم. وقال أبن خويزَمَنَدَاد: للمتشابه وجوة، والذي يتعلق به الحكم ما اختلف فيه العلماء أيّ الآيتين نسخت الأخرى؛ كقول عليّ وأبن عباس في الحامل المتوفى عنها زوجها تعتدّ أفصى الأجلين. فكان عمر وزيد بن ثابت وأبن مسعود وغيرهم يقولون وضع الحمل، ويقولون: سورة النساء<sup>(٥)</sup> القصرى نسخت أربعة أشهر وعشراً. وكان عليّ وأبن عباس يقولان لم تنسخ. وكأختلافهم في الوصية للوارث هل نسخت أم لم تُنسخ. وكتعارض الآيتين أيهما أولى أن تقدّم إذا لم يعرف النسخ ولم توجد شرائطه؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾<sup>(٦)</sup> يقتضي الجمع بين الأقارب من ملك اليمين، وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾<sup>(٧)</sup> يمنع ذلك. ومنه أيضاً تعارض الأخبار عن النبي ﷺ وتعارض الأقيسة، فذلك المتشابه. وليس من المتشابه أن تقرأ الآية بقراءتين ويكون الاسم<sup>(٧)</sup> محتملاً أو مجملاً يحتاج إلى تفسير؛ لأن الواجب منه قدر ما يتناوله الاسم أو جميعه. والقراءتان كالأيتين يجب العمل بموجبهما جميعاً؛ كما قرئ:

(١) راجع ٢٤٦/٢٠. (٢) راجع ١٢٣/١١. (٣) راجع ٢٦٧/١٥. (٤) راجع ٢٤٥/٥.

(٥) هي سورة الطلاق. ومراده منها «وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ» آية ٤.

(٦) راجع ١١٦/٥ و ١٢٤. (٧) في نسخة: ب، الأمر.

﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ﴾ بالفتح والكسر، على ما يأتي بيانه «في المائدة»<sup>(١)</sup> إن شاء الله تعالى.

**الثالثة -** روى البخاري<sup>(٢)</sup> عن سعيد بن جبير قال قال رجل<sup>(٣)</sup> لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ. قال: ما هو؟ قال: ﴿فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾<sup>(٤)</sup> وقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾<sup>(٥)</sup> وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾<sup>(٦)</sup> وقال: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾<sup>(٧)</sup> فقد كنتموا في هذه الآية. وفي النازعات ﴿أُمِّ السَّمَاءِ بَنَاهَا. إِلَى قَوْلِهِ: دَحَاهَا﴾<sup>(٨)</sup> فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال: ﴿أَتُنْكُمُ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ... إِلَى: طَائِعِينَ﴾<sup>(٩)</sup> فذكر في هذا خلق الأرض قبل خلق السماء. وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾<sup>(١٠)</sup>. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾<sup>(١١)</sup>. ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾<sup>(١٢)</sup> فكانه كان ثم مضى. فقال ابن عباس: ﴿فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ في النفخة الأولى، ثم ينفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون؛ ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون. وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، وقال المشركون: تعالوا نقول: لم نكن مشركين؛ فختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم؛ فعند ذلك عرف أن الله لا يكتُم حديثًا، وعنده يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين. وخلق الله الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات في يومين، ثم دحا الأرض أي بسطها فأخرج منها الماء والمرعى، وخلق فيها الجبال والأشجار والآكام وما بينها في يومين آخرين؛ فذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾. فنخلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام، وخلقت السماء في يومين. وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يعني نفسه<sup>(١٣)</sup>

(١) راجع ٨٠/٦.

(٢) الحديث في البخاري في كتاب التفسير (سورة السجدة). وبين ما في البخاري وما في الأصول اختلاف في بعض الكلمات.

(٣) هو نافع بن الأزرق الذي صار بعد ذلك رأس الأزارقة من الخوارج (القسطلاني).

(٤) راجع ١٥١/١٢. (٥) راجع ٨١/١٥. (٦) راجع ١٩٨/٥. (٧) راجع ٤٠١/٦.

(٨) راجع ٢٠١/١٩ فما بعد. (٩) راجع ٣٤٢/١٥.

(١٠ - ١١ - ١٢) سورة النساء. (١٣) عبارة البخاري (سمى نفسه).



ذلك، أي لم يزل ولا يزال كذلك؛ فإن الله لم يزد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد. ويحك! فلا يختلف عليك القرآن؛ فإن كلا من عند الله.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُ مُمْتَصِبَاتٍ﴾ لم تصرف «أَخْرُ» لأنها عدلت عن الألف واللام؛ لأن أصلها أن تكون صفة بالألف واللام كالكبر والصغر؛ فلما عدلت عن مجرى الألف واللام منعت الصرف. أبو عبيد: لم يصرفوها لأن واحدها لا ينصرف في معرفة ولا نكرة. وأنكر ذلك المبرد وقال: يجب على هذا ألا ينصرف غَضَابٌ وَعِطَاشٌ. الكسائي: لم تنصرف لأنها صفة. وأنكره المبرد أيضاً وقال: إن لبدا وحطما صفتان وهما منصرفان. سيبويه: لا يجوز أن تكون أَخْرُ معدولة عن الألف واللام؛ لأنها لو كانت معدولة عن الألف واللام لكان معرفة، ألا ترى أن سَحَرَ<sup>(١)</sup> معرفة في جميع الأقاويل لما كانت معدولة [عن السحر]، وَأَمْسٍ في قول من قال: ذهب أَمْسٍ معدولاً عن الأَمْسِ؛ فلو كان آخر معدولاً أيضاً عن الألف واللام لكان معرفة، وقد وصفه الله تعالى بالنكرة.

الخامسة - قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ الذين رفع بالابتداء، والخبر ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾. والزيف الميل؛ ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأبصار. ويقال: زاغ يزيف زيفاً إذا ترك القصد؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. وهذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة بها في ذلك الوقت إلى نصارى نجران. وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: إن لم يكونوا الحرورية<sup>(٣)</sup> وأنواع الخوارج فلا أدري من هم. قلت: قد مرّ هذا التفسير عن أبي أمامة مرفوعاً، وحسبك.

السادسة - قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ قال شيخنا أبو العباس رحمة الله عليه: متبعو التشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلباً للتشكيك

(١) أي إذا أردت به سحر ليلتك. فإن نكرته صرفته.

(٢) راجع ٨٢/١٨.

(٣) راجع الهامش ٢- ٢٥١/٢.

في القرآن وإضلال العوام، كما فعلته الزنادقة والقرامطة<sup>(١)</sup> الطاعنون في القرآن؛ أو طلباً لا اعتقاد ظواهر المتشابه، كما فعلته المجسّمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية حتى أعتقدوا أن الباري تعالى جسم مجسم وصورة مصوّرة ذات وجه وعين ويد وجنب ورجل وأصبع، تعالى الله عن ذلك؛ أو يتبعوه على جهة إبداء تأويلاتها وإيضاح معانيها، أو كما فعل صبيغ<sup>(٢)</sup> حين أكثر على عمر فيه السؤال. فهذه أربعة أقسام:

الأول - لا شك في كفرهم، وأن حكم الله فيهم القتل من غير أستتابه.

الثاني - [الصحيح]<sup>(٣)</sup> القول بتكفيرهم، إذ لا فرق بينهم وبين عباد الأصنام والصور، ويستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا كما يفعل بمن ارتدّ.

الثالث - أختلفوا في جواز ذلك بناء على الخلاف في جواز تأويلها. وقد عرف أن مذهب السلف ترك التعرّض لتأويلها مع قطعهم باستحالة ظواهرها، فيقولون أمرّوها كما جاءت. وذهب بعضهم إلى إبداء تأويلاتها وحملها على ما يصح حمله في اللسان عليها من غير قطع بتعيين مجمل منها.

الرابع - الحكم فيه الأدب البليغ، كما فعله عمر بصبيغ. وقال أبو بكر الأنباري: وقد كان الأئمة من السلف يعاقبون من يسأل عن تفسير الحروف المشكلات في القرآن، لأن السائل إن كان يبغي بسؤاله تخليد البدعة وإثارة الفتنة فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزير، وإن لم يكن ذلك مقصده فقد أستحق العتب بما أجترم من الذنب، إذ أوجد للمنافقين الملحدّين في ذلك الوقت سبيلاً إلى أن يقصدوا ضعفة المسلمين بالتشكيك والتضليل في تحريف القرآن عن مناهج التنزيل وحقائق التأويل. فمن ذلك ما حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي أنبأنا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن صبيغ بن عسل

(١) القرامطة: فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك ومانى، وكانوا يبيعون المحرّمات. (راجع عقد الجمان للعبّي في حوادث سنة ٢٧٨).

(٢) صبيغ (وزان أمير) بن شريك بن المنذر بن قطن بن قشع بن عسل (بكسر العين) بن عمرو بن يربوع التميمي، وقد ينسب إلى جدّه الأعلى فيقال: صبيغ بن عسل. راجع «القاموس وشرحه» مادة «صبيغ وعسل».

(٣) الزيادة من نسخ: ب، ز، د.

قَدِيمَ الْمَدِينَةِ فَجَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ مِثْلِهِ الْقُرْآنُ وَعَنْ أَشْيَاءٍ؛ فَبَلَغَ ذَلِكَ عَمْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَبَعَثَ إِلَيْهِ عَمْرَ فَأَحْضَرَهُ وَقَدْ أَعَدَّ لَهُ عَرَاجِينَ مِنْ عَرَاجِينَ النَّخْلِ. فَلَمَّا حَضَرَ قَالَ لَهُ عَمْرُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ صَبِيغٌ. فَقَالَ عَمْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ عَمْرُ؛ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ فَضَرَبَ رَأْسَهُ بِعَرَجُونٍ فَشَجَّهَ، ثُمَّ تَابَعَ ضَرْبَهُ حَتَّى سَالَ دَمُهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَقَدْ وَاللَّهِ ذَهَبَ مَا كُنْتُ أَجْدُ فِي رَأْسِي. وَقَدْ اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَاتُ فِي أَدْبِهِ، وَسَيَّاتِي ذِكْرَهَا فِي «الذَّارِيَّاتِ». ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلْهَمَهُ التَّوْبَةَ وَقَذَفَهَا فِي قَلْبِهِ فَتَابَ وَحَسَنَتْ تَوْبَتُهُ. وَمَعْنَى «أَبْتِغَاءِ الْفِتْنَةِ» طَلَبُ الشُّبُهَاتِ وَاللَّبْسِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَفْسُدُوا ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَيَرُدُّوا النَّاسَ إِلَى زِيغِهِمْ. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَى «أَبْتِغَاءِ تَأْوِيلِهِ» أَنَّهُمْ طَلَبُوا تَأْوِيلَ بَعْثِهِمْ وَإِحْيَائِهِمْ، فَأَعْلَمَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ تَأْوِيلَ ذَلِكَ وَوَقْتَهُ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: وَالِدَلِيلِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ» - أَيُ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ مِنَ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ وَالْعَذَابِ - «يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ» - أَيُ تَرْكُوهُ - «قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ»<sup>(١)</sup> أَيُ قَدْ رَأَيْنَا تَأْوِيلَ مَا أَنْبَأْتَنَا بِهِ الرَّسُلُ. قَالَ: فَالْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ» أَيُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَتَى الْبَعْثُ إِلَّا اللَّهُ.

السابعة - قوله تعالى: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ» يقال: إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْيَهُودِ مِنْهُمْ حَمِيٌّ بْنُ أَخْطَبٍ دَخَلُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: بَلَّغْنَا أَنَّهُ نَزَلَ عَلَيْكَ «الْم»، فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِي مَقَالَتِكَ فَإِنَّ مَلِكًا أَمَّتَكَ يَكُونُ إِحْدَى وَسَبْعِينَ سَنَةً؛ لِأَنَّ الْأَلِفَ فِي حِسَابِ الْجَمَلِ وَاحِدٌ، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ، وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ، فَنَزَلَ «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ». وَالتَّأْوِيلُ يَكُونُ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ، كَقَوْلِكَ: تَأْوِيلُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عَلَى كَذَا. وَيَكُونُ بِمَعْنَى مَا يُؤَوَّلُ الْأَمْرُ إِلَيْهِ. وَأَشْتَقَاقُهُ مِنْ آلِ الْأَمْرِ إِلَى كَذَا يُؤَوَّلُ إِلَيْهِ، أَيُ صَارَ. وَأَوَّلَتُهُ تَأْوِيلًا أَيُ صِيرْتُهُ. وَقَدْ حَدَّثَهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ فَقَالُوا: هُوَ إِبْدَاءُ أَحْتِمَالٍ فِي اللَّفْظِ مَقْصُودٌ بِدَلِيلٍ خَارِجٍ عَنْهُ. فَالتَّفْسِيرُ بَيَانُ اللَّفْظِ؛ كَقَوْلِهِ «لَا رَيْبَ فِيهِ» أَيُ لَا شَكَّ. وَأَصْلُهُ مِنَ الْفَسْرِ وَهُوَ الْبَيَانُ؛ يُقَالُ: فَسَرْتُ

الشيء (مخففاً) أفسره (بالكسر) فسراً. والتأويل بيان المعنى؛ كقوله لا شك فيه عند المؤمنين. أو لأنه حق في نفسه فلا يقبل ذاته الشك وإنما الشك وصف الشاك. وكقول ابن عباس في الجد أبا؛ لأنه تأول قول الله عز وجل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾.

**الثامنة -** قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ اختلف العلماء في ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ هل هو ابتداء كلام مقطوع مما قبله، أو هو معطوف على ما قبله فتكون الواو للجمع. فالذي عليه الأكثر أنه مقطوع مما قبله، وأن الكلام تم عند قوله «إِلَّا اللَّهُ» هذا قول ابن عمر وابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، وهو مذهب الكسائي والأخفش والفراء وأبي عبيد [وغيرهم]<sup>(١)</sup>. قال أبو نهيك الأسدي: إنكم تصلون هذه الآية وإنها مقطوعة. وما أنتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾. وقال مثل هذا عمر بن عبد العزيز، وحكى الطبري نحوه عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس و«يقولون» على هذا خبر «الراسخون». قال الخطابي: وقد جعل الله تعالى آيات كتابه الذي أمرنا بالإيمان به والتصديق بما فيه قسمين: محكماً ومتشابهاً؛ فقال عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...﴾ إلى قوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ فأعلم أن المتشابه من الكتاب قد استأثر الله بعلمه، فلا يعلم تأويله أحد غيره، ثم أثنى الله عز وجل على الراسخين في العلم بأنهم يقولون آمنا به. ولولا صحة الإيمان منهم لم يستحقوا الثناء عليه. ومذهب أكثر العلماء أن الوقف التام في هذه الآية إنما هو عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ وأن ما بعده استئناف كلام آخر، وهو قوله ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾. وروي ذلك عن ابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وعائشة. وإنما روي عن مجاهد أنه نسق «الراسخون» على ما قبله وزعم أنهم يعلمونه. واحتج له بعض أهل اللغة فقال: معناه والراسخون في العلم يعلمونه قائلين آمنا: وزعم أن موضع «يقولون» نصب على الحال. وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه؛ لأن العرب لا تضمير الفعل والمفعول معاً، ولا تذكر حالاً إلا مع ظهور الفعل؛ فإذا لم يظهر فعل فلا يكون حال؛ ولو جاز ذلك لجاز

أن يقال: عبد الله ركباً، بمعنى أقبل عبد الله ركباً؛ وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله: عبد الله يتكلم يصلح بين الناس؛ فكان «يصلح» حالاً له؛ كقول الشاعر - أنشدنيه أبو عمر قال أنشدنا أبو العباس ثعلب -:

أرسلتُ فيها قِطْماً لُكَاكَا<sup>(١)</sup> يَقْصُرُ يَمْشِي وَيَطُولُ بَارِكَا

أي يقصر ماشياً؛ فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده، وأيضاً فإنه لا يجوز أن ينفي الله سبحانه شيئاً عن الخلق ويثبت لنفسه ثم يكون له في ذلك شريك. ألا ترى قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعَتِهَا إِلَّا هُوَ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾<sup>(٤)</sup>، فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه بعلمه لا يُشْرِكُهُ فيه غيره. وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾. ولو كانت الواو في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾<sup>(٥)</sup> للنسق لم يكن لقوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ فائدة. والله أعلم.

قلت: ما حكاه الخطابي من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره فقد روي عن ابن عباس أن الراسخين معطوف على أسم الله عز وجل، وأنهم داخلون في علم المتشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به؛ وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم. و«يقولون» على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخين؛ كما قال:

الريحُ تَبْكِي شَجْوَهَا والبرقُ يَلْمَعُ فِي الغَمَامَةِ

وهذا البيت يحتمل المعنيين؛ فيجوز أن يكون «البرق» مبتدأ، والخبر «يلمع» على التأويل الأول، فيكون مقطوعاً مما قبله. ويجوز أن يكون معطوفاً على الريح، و«يلمع» في موضع الحال على التأويل الثاني أي لامعاً. واحتج قائلو هذه المقالة أيضاً بأن الله سبحانه مدحهم

(١) في الأصول: «أرسلت فيها رجلاً» والتصويب عن اللسان وشرح القاموس. والقطم: الغضبان؛ وفحل قطم وقطم وقطيم: صؤول. والقطم أيضاً: المشتهي اللحم وغيره. واللكالك (بضم اللام الأولى وكسر الثانية): الجمل الضخم المرمى باللحم. قال أبو علي الفارسي: «يقصر إذا مشى لانخفاض بطنه وضخمه وتقاربه من الأرض، فإذا برك رأته طويلاً لارتفاع سنامه؛ فهو باركاً أطول منه قائماً». (اللسان مادة لكك). (٢) راجع ١٣/٢٢٥. (٣) راجع ٧/٣٣٥. (٤) راجع ١٣/٣٢٢.

(٥) في الأصول: «والراسخون معا للنسق».

بالرسوخ في العلم؛ فكيف يمدحهم وهم جهال! وقد قال ابن عباس: أنا ممن يعلم تأويله. وقرأ مجاهد هذه الآية وقال: أنا ممن يعلم تأويله؛ حكاه عنه إمام الحرمين أبو المعالي.

قلت - وقد ردّ بعض العلماء هذا القول إلى القول الأول فقال: وتقدير تمام الكلام «عند الله» أن معناه وما يعلم تأويله إلا الله يعني تأويل المتشابهات، والراسخون في العلم يعلمون بعضه قائلين آمنا به كل من عند ربنا بما نُصب من الدلائل في المُخَكَّم ومَن من رده إليه. فإذا علموا تأويل بعضه ولم يعلموا البعض قالوا آمنا بالجميع كل من عند ربنا، وما لم يحيط به علمنا من الخفايا مما في شرعه الصالح فعلمه عند ربنا. فإن قال قائل: قد أشكل على الراسخين بعض تفسيره حتى قال ابن عباس: لا أدري ما الأَوَّاه ولا ما غُسلين، قيل له: هذا لا يلزم؛ لأن ابن عباس قد علم بعد ذلك ففسر ما وقف عليه. وجواب أقطع من هذا وهو أنه سبحانه لم يقل وكل راسخ فيجب هذا، فإذا لم يعلمه أحد علمه الآخر. ورجح ابن فورك أن الراسخين يعلمون التأويل وأطنب في ذلك؛ وفي قوله عليه السلام لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» ما يبين لك ذلك، أي علمه معاني كتابك. والوقف على هذا يكون عند قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾. قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وهو الصحيح؛ فإن تسميتهم راسخين يقتضي أنهم يعلمون أكثر من المُخَكَّم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب. وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع! لكن المتشابه يتنوع، فمنه ما لا يعلم البتة كأمر الروح والساعة مما أستاثر الله بغيبه، وهذا لا يتعاطى علمه أحد لا ابن عباس ولا غيره. فمن قال من العلماء الحُذَّاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه فإنما أراد هذا النوع، وأما ما يمكن حمله على وجوه في اللغة ومَنَاح في كلام العرب فيتأول ويُعلم تأويله المستقيم، ويُزال ما فيه مما عسى أن يتعلق من تأويل غير مستقيم؛ كقوله في عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾<sup>(١)</sup> إلى غير ذلك. فلا يُسمَّى أحد راسخاً إلا بأن يعلم من هذا النوع كثيراً بحسب ما قُدِّر له. وأما من يقول: إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخال الراسخين في علم التأويل؛ لكن تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح.

والرسوخ: الثبوت في الشيء، وكل ثابت راسخ. وأصله في الأجرام أن يرسخ الجبل والشجر في الأرض؛ قال الشاعر:

لقد رَسَخْتُ في الصِّدْرِ مِنِّي مَوَدَّةٌ لِلنَّيْلِ أَبَتْ آيَاتُهَا أَنْ تَغْيَرَا

ورسَخ الإيمان في قلب فلان يَزْسَخ رسوخاً. وحكى بعضهم: رسخ الغديرُ: نَصَب ماؤه؛ حكاه ابن فارس فهو من الأضداد. ورَسَخ ورَضَخ ورَضُن ورَسَب كله ثبت فيه. وسئل النبي ﷺ عن الراسخين في العلم فقال: «هُوَ مَنْ بَرَّتْ يَمِينُهُ وَصَدَقَ لِسَانُهُ وَأَسْتَقَامَ قَلْبُهُ». فإن قيل: كيف كان في القرآن متشابه والله يقول: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup> فكيف لم يجعله كله واضحاً؟ قيل له: الحكمة في ذلك - والله أعلم - أن يظهر فضل العلماء؛ لأنه لو كان كله واضحاً لم يظهر فضل بعضهم على بعض. وهكذا يفعل من يصنّف تصنيفاً يجعل بعضه واضحاً وبعضه مشكلاً. ويترك للجُثُوة<sup>(٢)</sup> موضعاً؛ لأن ما هان وجوده قلّ بهأوه. والله أعلم.

التاسعة - قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ فيه ضمير عائد على كتاب الله تعالى مُحْكَمِهِ ومُتَشَابِهِهِ؛ والتقدير: كله من عند ربنا. وحذف الضمير لدلالة «كلّ» عليه؛ إذ هي لفظة تقتضي الإضافة. ثم قال: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ما يقول هذا ويؤمن ويقفُ حيث وقفَ ويدعُ أتباع المتشابه إلا ذو لبّ، وهو العقل. ولُبّ كل شيء خالصه؛ فلذلك قيل للعقل لبّ. و «أولو» جمع ذو.

[٨] ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ في الكلام حذف تقديره يقولون. وهذا حكاية عن الراسخين. ويجوز أن يكون المعنى قل يا محمد، ويقال: إزاغة القلب فساداً

(١) راجع ١٠/١٠٨.

(٢) كذا وردت هذه الكلمة في أكثر الأصول، وفي بعضها وردت بهذا الرسم من غير إعجام، ومعناها: الجماعة.

ومَثَل عن الدِّين، أفكانوا يخافون وقد هُدُوا أن ينقلهم الله إلى الفساد؟ فالجواب أن يكونوا سألوا إذ هداهم الله ألاَّ يبتليهم بما يثقل عليهم من الأعمال فيعجزوا عنه؛ نحو ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾<sup>(١)</sup>. قال ابن كيسان: سألوا ألاَّ يزيغوا فيزيغ الله قلوبهم؛ نحو ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> أي ثبتنا على هدايتك إذ هديتنا وألاَّ نزيغ فنستحق أن نزيغ قلوبنا. وقيل: هو منقطع مما قبل؛ وذلك أنه تعالى لما ذكر أهل الزيغ عقب ذلك بأن علم عباده الدعاء إليه في ألا يكونوا من الطائفة الذميمة التي ذُكرت وهي أهل الزيغ. وفي الموطأ عن أبي عبد الله الصنابحي أنه قال: قدِمْتُ المدينة في خلافة أبي بكر الصديق فصليت وراءه المغرب، فقرأ في الركعتين الأوليين بآم القرآن وسورة من قصار المُفَصَّل، ثم قام في الثالثة، فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعتة يقرأ بآم القرآن وهذه الآية ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ الآية. قال العلماء: قراءته بهذه الآية ضربٌ من القنوت والدعاء لما كان فيه من أمر أهل الردة. والقنوت جائز في المغرب عند جماعة من أهل العلم، وفي كل صلاة أيضاً إذا دهم المسلمين أمرٌ عظيم يُفزعهم ويخافون منه على أنفسهم. وروى الترمذي من حديث شهر بن حوشب قال قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه «يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك». فقلت: يا رسول الله، ما أكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك! قال: «يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ». فتلا معاذ<sup>(٣)</sup> ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾. قال: حديث حسن. وهذه الآية حجة على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يضل العباد<sup>(٤)</sup>. ولو لم تكن الإزاغة من قبلة لما جاز أن يُدعى في دفع ما لا يجوز عليه فعله. وقرأ أبو واقد الجراح «لا تُزِغْ قُلُوبَنَا» بإسناد الفعل إلى القلوب، وهذه رغبة إلى الله تعالى. ومعنى الآية على القراءتين ألا يكون منك خلق الزيغ فيها فتزيغ.

(١) راجع ٢٧٠/٥. (٢) راجع ٨٢/١٦.

(٣) هو أحد رجال سند هذا الحديث.

(٤) يعني قولهم إن العباد هم الخالقون لأفعالهم.



**الثانية -** قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي من عندك ومن قبلك تفضلاً لا عن سبب منا ولا عمل. وفي هذا استسلام وتطارح. وفي «لَدُنْ» أربع لغات: لَدُنْ بفتح اللام وضم الدال وجزم النون، وهي أفصحها؛ وبفتح اللام وضم الدال وحذف النون؛ وبضم اللام وجزم الدال وفتح النون؛ وبفتح اللام وسكون الدال وفتح النون. ولعل جُهَال المتصوِّفة وزنادقة الباطنية يتشبثون بهذه الآية وأمثالها فيقولون: العلم ما وهبه الله ابتداءً من غير كسب، والنظرُ في الكتب والأوراق حجابٌ. وهذا مردود على ما يأتي بيانه في هذا الموضع. ومعنى الآية: هب لنا نعيماً صادراً عن الرحمة؛ لأن الرحمة راجعة إلى صفة الذات فلا يتصور فيها الهبة. يقال: وهب يَهَب؛ والأصل يُوْهب بكسر الهاء. ومن قال: الأصل يوهب بفتح الهاء فقد أخطأ؛ لأنه لو كان كما قال لم تحذف الواو، كما لم تحذف في يُوَجِّل. وإنما حذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة؛ ثم فتح بعد حذفها لأن فيه حرفاً من حروف الحلق.

[٩] ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَاوِدٌ لِلنَّاسِ لَيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلَفُ أَلَيْسَ كَذَلِكَ﴾

أي باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم، وفي هذا إقرار بالبعث ليوم القيامة. قال الزجاج: هذا هو التأويل الذي عليمه الراسخون وأقرّوا به، وخالف الذين أتبعوا ما تشابه عليهم من أمر البعث حتى أنكروه. والريْبُ الشك، وقد تقدّمت محامله في البقرة<sup>(١)</sup>. والميعاد مفعال من الوعد.

[١٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾

معناه بَيِّن، أي لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً. وقرأ السُّلَمِيُّ<sup>(٢)</sup> «لَنْ يُغْنِيَ» بالياء لتقدّم الفعل ودخول الحائل بين الاسم والفعل. وقرأ الحسن «يُغْنِي» بالياء وسكون الياء الآخرة للتخفيف؛ كقول الشاعر:

(١) راجع ١٥٩/١. (٢) السلمي (بضم السين) هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين الصوفي الأزدي. عن «تذكرة الحفاظ وأنساب السمعاني».

كَفَى بِالْيَأْسِ مِنْ أَسْمَاءٍ كَافِيٍّ      وَلَيْسَ لِسُقْمِهَا إِذْ طَالَ شَافِيٍّ  
وكان حقّه أن يقول كافياً، فأرسل الياء. وأنشد الفراء في مثله:

كَانَ أَيْدِيَهُنَّ بِالْقَاعِ الْفَرِيقُ      أَيْدِي جَوَارٍ يَتَعَاطِينَ الْوَرِيقُ

الْفَرِيقُ وَالْفَرَقَةُ لَغَتَانِ<sup>(١)</sup> فِي الْقَاعِ. وَ «مِنْ» فِي قَوْلِهِ «مِنْ اللَّهِ» بِمَعْنَى عِنْدَ؛ قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ. ﴿أُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ وَالْوُقُودُ أَسْمٌ لِلْحَطَبِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي «الْبَقَرَةِ»<sup>(٢)</sup>. وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَمَجَاهِدٌ وَطَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ «وُقُودٌ» بِضَمِّ الْوَاوِ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ حَطَبٌ وَقُودُ النَّارِ. وَيَجُوزُ فِي الْعَرَبِيَّةِ إِذَا ضُمَّ الْوَاوُ أَنْ تَقُولَ أَفُودَ مِثْلَ أَفُتَّتَ. وَالْوُقُودُ بِضَمِّ الْوَاوِ الْمَصْدَرُ؛ وَقُدَّتِ النَّارُ تَقْدً إِذَا أَشْتَعَلَتْ. وَخَرَجَ ابْنُ الْمُبَارَكِ مِنْ حَدِيثِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُظْهِرُ هَذَا الدِّينَ حَتَّى يَجَاوِزَ الْبَحَارَ وَحَتَّى تَخَاضَ الْبَحَارُ بِالْخَيْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ثُمَّ يَأْتِي أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ فَلِذَا قَرِئُوا قَالُوا مَنْ أَفْرَأُ مِنَّا مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟ ثُمَّ التَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: هَلْ تَرَوْنَ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟» قَالُوا لَا. قَالَ: «أُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ».

[١١] ﴿كَذَّابٌ أَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوهُمْ فِي شَدِيدٍ الْعِقَابِ﴾

الدَّابُّ الْعَادَةُ وَالشَّانُ. وَدَابُّ الرَّجُلِ فِي عَمَلِهِ يَدَابُّ دَابًّا وَدَعْوَبًّا إِذَا جَدَّ وَاجْتَهَدَ، وَأَدَابَتُهُ أَنَا. وَأَدَابٌ بَعِيرُهُ إِذَا جَهَدَهُ فِي السَّيْرِ. وَالدَّائِبَانِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ. قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: وَسَمِعْتُ يَعْقُوبَ يَذْكُرُ «كَذَّابٌ» بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ، وَقَالَ لِي وَأَنَا غُلِيٍّ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ يَجُوزُ «كَذَّابٌ»؟ فَقُلْتُ لَهُ: أَظْنَهُ مِنْ دَثِبٍ يَذَّابُ دَابًّا. فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنِّي وَتَعَجَّبَ مِنْ جُودَةِ تَقْدِيرِي عَلَى صَغَرِي؛ وَلَا أَدْرِي أَيْقَالَ أَمْ لَا. قَالَ النُّحَاسُ: «وَهَذَا الْقَوْلُ خَطَأً، لَا يُقَالُ

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ. وَالَّذِي فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِ مِنْ مَعْجَمَاتِ اللُّغَةِ أَنَّهُ الْفَرِيقُ (بِفَتْحِ الْقَافِ وَكَسْرِ الرَّاءِ) وَالْفَرَقُ (بِفَتْحِ الْقَافِ وَالرَّاءِ) وَالْفَرِيقُ (بِكَسْرِ الْقَافِ وَكَسْرِ الرَّاءِ). وَالْقَاعُ الْفَرِيقُ: الطَّيْبُ الَّذِي لَا حِجَارَةَ فِيهِ.

(٢) رَاجِعْ ١/٢٣٥.

الْبَقَّةِ دَبِّبَ، وإنما يقال: دَابَّ يَدَابُّ دُؤُوبًا [وَدَابًّا] <sup>(١)</sup>؛ هكذا حكى النحويون، منهم الفراء  
حكاه في كتاب المصادر؛ كما قال امرؤ القيس:

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحَوِيرِثِ قَبْلَهَا      وَجَارَتِهَا أُمُّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلٍ <sup>(٢)</sup>

فَأَمَّا الدَّابُّ فَإِنَّهُ يَجُوزُ؛ كما يقال: شَعَرٌ وَشَعَرٌ وَنَهَرٌ وَنَهَرٌ؛ لأن فيه حرفاً من حروف  
الحلق». وأختلفوا في الكاف؛ فقليل: هي في موضع رفع تقديره دَابُّهُمْ كَدَابُّ آل  
فرعون، أي صنيع الكفار معك كصنيع آل فرعون مع موسى. وزعم الفراء أن المعنى:  
كفرت العرب ككفر آل فرعون. قال النحاس: لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا،  
لأن كفروا داخله في الصلة. وقيل: هي متعلقة بـ «أَخَذَهُمُ اللَّهُ»، أي أخذهم أخذاً كما  
أخذ آل فرعون. وقيل: هي متعلقة بقوله «لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ» أي لم  
تُغْنِ عَنْهُمْ غَنَاءَ كما لم تُغْنِ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ عَنْ آل فرعون. وهذا جواب لمن تخلف  
عن الجهاد وقال: شغلنا أموالنا وأهلونا. ويصح أن يعمل فيه فعلٌ مقدّر من لفظ  
الوقود، ويكون التشبيه في نفس الاحتراق. ويؤيد هذا المعنى «وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ  
الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ  
الْعَذَابِ» <sup>(٣)</sup>. والقول الأول أرجح، وأختاره غير واحد من العلماء. قال ابن عرفة:  
«كَدَابِّ آلِ فِرْعَوْنَ» أي كعادة آل فرعون. يقول: أعتاد هؤلاء الكفرة الإلحاد والإعنات  
للنبي ﷺ كما أعتاد آل فرعون من إعنات الأنبياء؛ وقال معناه الأزهرى. فأما قوله في  
سورة (الأنفال) «كَدَابِّ آلِ فِرْعَوْنَ» <sup>(٤)</sup> فالمعنى جُوزِي هؤلاء بالقتل والأسر كما جُوزِي  
آل فرعون بالغرق والهلاك.

قوله تعالى: «بِآيَاتِنَا» يحتتمل أن يريد الآيات المثلوة، ويحتتمل أن يريد الآيات  
المنصوبة للدلالة على الوحدانية. «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

(١) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس.

(٢) أم الحويرث: هي «هر» أم الحارث بن حصين بن ضمضم الكلابي، وكان امرؤ القيس يشبب بها  
في أشعاره. وأم الرباب من كلب أيضاً. ومأسل: موضع. يقول: لقيت من وقوفك على هذه الديار  
وتذكرك أهلها كما لقيت من أم الحويرث وجارتها. (عن شرح المعلقات).

(٣) راجع ٣١٨/١٥.

(٤) راجع ٢٩/٨.

[١٢] ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ مَكْرُومٌ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

يعني اليهود . قال محمد بن إسحاق : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً ببدر وقدم المدينة جمع اليهود فقال : «يا معشر اليهود أحذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أنني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم»، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك قتلت أقواماً أغماراً<sup>(١)</sup> لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة! والله لو قاتلنا لعرفت أننا نحن الناس. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ مَكْرُومٌ﴾ بالتاء يعني اليهود: أي تهزمون ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ إلى جَهَنَّمَ في الآخرة. فهذه رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس. وفي رواية أبي صالح عنه أن اليهود لما فرحوا بما أصاب المسلمين يوم أُحُد نزلت. فالمعنى على هذا ﴿سَعْيُهُمْ مَكْرُومٌ﴾ بالياء، يعني قريشاً، ﴿وَيُحْشَرُونَ﴾ بالياء فيهما، وهي قراءة نافع.

قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ يعني جهنم؛ هذا ظاهر الآية. وقال مجاهد: المعنى بشس ما مهدوا لأنفسهم، فكان المعنى: بشس فعلهم الذي أذاهم إلى جهنم.

[١٣] ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقُرْآنِ فَتُفْتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَافِرٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْكَلْبِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي علامة. وقال «كان» ولم يقل «كانت» لأن «آية» تأنسها غير حقيقي. وقيل: ردها إلى البيان، أي قد كان لكم بيان؛ فذهب إلى المعنى وترك اللفظ؛ كقول امرئ القيس:

(١) الأغمار: جمع غمر (بضم) وهو الجاهل الغر الذي لم يجزب الأمور.

بَرَهْرَهَةً رُّودَةً رَخْصَةً كُخْرُوعِيَّةَ الْبَانَةِ الْمُتَفَطِّرُ<sup>(١)</sup>

ولم يقل المنفطرة؛ لأنه ذهب إلى القضيبي. وقال الفراء: ذكره لأنه فرّق بينهما بالصفة، فلما حالت الصفة بين الاسم والفعل ذُكِرَ الفعل. وقد مضى هذا المعنى في البقرة في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿فِي فِتْنَتَيْنِ التَّقَاتِ﴾ يعني المسلمين والمشرّكين يوم بدر ﴿فِتْنَةً﴾ قرأ الجمهور «فئة» بالرفع، بمعنى إحداهما فئة. وقرأ الحسن ومجاهد «فئة» بالخفض «وَأُخْرَى كَافِرَةٌ» على البدل. وقرأ ابن أبي عبله بالنصب فيهما. قال أحمد بن يحيى: ويجوز النصب على الحال، أي التقاتا مختلفتين مؤمنة وكافرة. قال الزجاج: النصب بمعنى أعني. وسمّيت الجماعة من الناس فئة لأنها يُفَاء إليها، أي يرجع إليها في وقت الشدة. وقال الزجاج: الفئة الفرقة، مأخوذة من فأوت رأسه بالسيف - ويقال: فأيته - إذا فلقته<sup>(٣)</sup>. ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفئتين هي إلى يوم بدر. وأختلف من المخاطب بها؛ فقليل: يحتمل أن يخاطب بها المؤمنون، ويحتمل أن يخاطب بها جميع الكفار، ويحتمل أن يخاطب بها يهود المدينة؛ وبكل احتمال منها قد قال قوم. وفائدة الخطاب للمؤمنين تثبيت النفوس وتشجيعها حتى يقدموا على مثلهم وأمثالهم كما قد وقع.

قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ قال أبو علي: الرؤية في هذه الآية رؤية عين؛ ولذلك تعدّت إلى مفعول واحد. قال مكّي والمهدوي: يدل عليه ﴿رَأَى الْعَيْنِ﴾. وقرأ نافع «تَرَوْنَهُمْ» بالتاء والباقون بالياء<sup>(٤)</sup>. ﴿مِثْلِهِمْ﴾ نصب على الحال من الهاء والميم في «تَرَوْنَهُمْ». والجمهور من الناس على أن الفاعل يترون هم المؤمنون، والضمير المتصل هو للكفار. وأنكر أبو عمرو أن يقرأ

(١) البرهرة: الرقيقة الجلد، أو هي الملساء المترجحة. والرودة والرودة: الشابة الحسنة السريعة الشباب مع حسن غذاء. والرخصة: اللينة الخلق. والخروبة: القضيبي الغضي اللدن. والبانة: واحد شجر البان. والمنفطر: المتشقق. يقال: قد أنفطر العود إذا أنشق وأخرج ورقه. عن «شرح الديوان».

(٢) راجع ٢٥٧/٢ و ٢٦٨.

(٣) الذي في نسخ: أوب وجد: قلعته، والمثبت ما في المعاجم.

(٤) الذي في تفسير النيسابوري: «تَرَوْنَهُمْ بقاء الخطاب أبو جعفر ونافع وسهل ويعقوب الباقيون بالياء».

«ترونها» بالتاء؛ قال: ولو كان كذلك لكان مثليكم. قال النحاس: وإذا لا يلزم، ولكن يجوز أن يكون مثلي أصحابكم. قال مكي: «تَرَوْنَهُمْ» بالتاء جرى على الخطاب في «لَكُمْ» فيحسن أن يكون الخطاب للمسلمين، والهاء والميم للمشركين. وقد كان يلزم من قرأ بالتاء أن يقرأ مثليكم بالكاف، وذلك لا يجوز لمخالفة الخط؛ ولكن جرى الكلام على الخروج من الخطاب إلى الغيبة؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾<sup>(١)</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾<sup>(٢)</sup> فخطب ثم قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ فرجع إلى الغيبة. فالهاء والميم في «مِثْلِيهِمْ» يحتمل أن يكون للمشركين، أي ترون أيها المسلمون المشركين مثلي ما هم عليه من العدد؛ وهو بعيد في المعنى؛ لأن الله تعالى لم يُكْثِر المشركين في أعين المسلمين بل أعلمنا أنه قَلَّ لهم في أعين المؤمنين، فيكون المعنى ترون أيها المؤمنون المشركين مثليكم في العدد وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، فقلَّل الله المشركين في أعين المسلمين فأراهم إياهم مثلي عدتهم لتقوى أنفسهم ويقع التجاسر، وقد كانوا أعلموا أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار، وقلَّل المسلمين في أعين المشركين ليَجْتَزُّوا عليهم فينقذ حكم الله فيهم. ويحتمل أن يكون الضمير في «مِثْلِيهِمْ» للمسلمين، أي ترون أيها المسلمون المسلمين مثلي ما أنتم عليه من العدد، أي ترون أنفسكم مثلي عددكم؛ فعل الله ذلك بهم لتقوى أنفسهم على لقاء المشركين. والتأويل الأول أولى؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾<sup>(٣)</sup> وقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْنَهُمْ فِي أُعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾. وروي عن ابن مسعود أنه قال: قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أظنهم مائة. فلما أخذنا الأسارى أخبرونا أنهم كانوا ألفاً. وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: بل كثر الله عدد المؤمنين في عيون الكافرين حتى كانوا عندهم ضعفيهم. وضعَّف الطبري هذا القول. قال ابن عطية: وكذلك هو مردود من جهات. بل قلَّل الله المشركين في أعين المؤمنين كما تقدَّم. وعلى هذا التأويل كان يكون «ترون» الكافرين، أي ترون أيها الكافرون المؤمنين مثليهم، ويحتمل مثليكم، على ما تقدَّم. وزعم الفراء أن المعنى

تَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ ثَلَاثَةً أََمْثَالَهُمْ. وهو بعيدٌ غير معروف في اللغة. قال الزجاج: وهذا باب الغلط، فيه غلط في جميع المقاييس؛ لأننا إنما نعقل مثل الشيء مساوياً له، ونعقل مثليه ما يساويه مرتين. قال ابن كيسان: وقد بين الفراء قوله بأن قال: كما تقول وعندك عبدٌ: أحتاج إلى مثله، فأنت محتاج إليه وإلى مثله. وتقول: أحتاج إلى مثليه، فأنت محتاج إلى ثلاثة. والمعنى على خلاف ما قال، واللغة. والذي أوقع الفراء في هذا أن المشركين كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين يوم بدر؛ فتوهم أنه لا يجوز أن يكونوا يرونهم إلا على عدتهم، وهذا بعيد وليس المعنى عليه. وإنما أراهم الله على غير عدتهم لجهتين: إحداهما أنه رأى الصلاح في ذلك؛ لأن المؤمنين تقوى قلوبهم بذلك. والأخرى أنه آية للنبي ﷺ. وسيأتي ذكر وقعة بدر<sup>(١)</sup> إن شاء الله تعالى. وأما قراءة الياء فقال ابن كيسان: الهاء والميم في «يرونهم» عائدة على «وَأُخْرَى كَافِرَةٌ» والهاء والميم في «مِثْلَهُمْ» عائدة على «فِتْنَةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وهذا من الإضمار الذي يدل عليه سياق الكلام، وهو قوله: «يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ». فدل ذلك على أن الكافرين كانوا مثلي المسلمين في رأي العين وثلاثة أمثالهم في العدد. قال: والرؤية هنا لليهود. وقال مكي: الرؤية للفئة المقاتلة في سبيل الله، والمرئية الفئة الكافرة: أي ترى الفئة المقاتلة في سبيل الله الفئة الكافرة مثلي الفئة المؤمنة، وقد كانت الفئة الكافرة ثلاثة أمثال المؤمنة فقللهم الله في أعينهم على ما تقدم. والخطاب في «لكم» لليهود. وقرأ ابن عباس وطلحة «تَرَوْنَهُمْ» بضم التاء، والسلمي بالتاء مضمومة على ما لم يسم فاعله.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ تقدم معناه والحمد لله.

[١٤] ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْثَمِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَكُ الْحَيَوَةِ الَّذِي نَسِيَ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ﴿١١﴾﴾.

(١) في ص ١٩٠ فما بعد من هذا الجزء.

فيه إحدى عشرة مسألة:

**الأولى** - قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ﴾ زين من التزيين . وأختلف الناس من المزيّن؛ فقالت فرقة: الله زَيْنَ ذلك؛ وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذكره البخاري . وفي التنزيل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾<sup>(١)</sup>؛ ولما قال عمر: الآن يا ربّ حين زينتها لنا! نزلت ﴿قُلْ أُوْبِتْكُمْ يَخْيِرُ مِنْ ذَلِكَ﴾ وقالت فرقة: المزيّن هو الشيطان؛ وهو ظاهر قول الحسن، فإنه قال: مَنْ زَيْنَهَا؟ ما أحْدُ أَشَدَّ لها دَمًا من خالقها . فتزيين الله تعالى إنما هو بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجيلة على الميل إلى هذه الأشياء . وتزيين الشيطان إنما هو بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوها . والآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخ لمعاصري محمد ﷺ من اليهود وغيرهم . وقرأ الجمهور ﴿زَيْنَ﴾ على بناء الفعل للمفعول، ورفع «حُبَّ». وقرأ الضحّاك ومجاهد ﴿زَيْنَ﴾ على بناء الفعل للفاعل، ونصب «حُبَّ». وحركت الهاء من «الشّهوات» فرقا بين الاسم والنعت . والشّهوات جمع شهوة وهي معروفة . ورجل شهوان<sup>(٢)</sup> للشيء، وشيء شهوي أي مُشْتَهَى . وأتباع الشهوات مردّ وطاعتها مهلكة . وفي صحيح مسلم: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» رواه أنس عن النبي ﷺ . وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره وبالصبر عليها . وأن النار لا يُنْجَى منها إلا بترك الشهوات ويطام النفس عنها . وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «طريق الجنة حزن»<sup>(٣)</sup> برّونة وطريق النار سهل بسهوة؛ وهو معنى قوله: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» . أي طريق الجنة صعبة المسلك فيه أعلى ما يكون من الرّواي ، وطريق النار سهل لا غِلْظ فيه ولا وعورة ، وهو معنى قوله «سهل بسهوة» وهو بالسين المهملة .

(١) راجع ١٠/٣٥٣.

(٢) هذه عبارة الصحاح الذي يعتمد عليه المؤلف كثيراً . وفي الأصول: «الشهوان للشيء» .

(٣) الحزن (بفتح فسكون): المكان الغليظ الخشن . والبروة (بالضم والفتح): ما أرتفع من الأرض . والسهوة: الأرض اللينة التربة .



**الثانية -** قوله تعالى: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ بدأ بهنّ لكثرة تشوّف النفوس إليهنّ؛ لأنهنّ حبايل الشيطان وفتنة الرجال. قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أشدّ على الرجال من النساء» أخرجه البخاريّ ومسلم. ففتنة النساء أشدّ من جميع الأشياء. ويقال: في النساء فتنتان، وفي الأولاد فتنة واحدة. فأما اللتان في النساء فأحدهما أن تؤدّي إلى قطع الرّحم؛ لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأمّهات والأخوات. والثانية يُبتلى بجمع المال من الحلال والحرام. وأما البنون فإن الفتنة فيهم واحدة، وهو ما أُبتلي بجمع المال لأجلهم. وروى عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «لا تُسكنوا نساءكم الغُرف ولا تُعلّموهنّ الكتاب». حذرهم<sup>(١)</sup> رسول الله ﷺ؛ لأن في إسكانهنّ الغرف تطلّعاً إلى الرجال، وليس في ذلك تخصّيصٌ لهن ولا سِتْر؛ لأنهن قد يُشرفنّ على الرجال فتحدث الفتنة والبلاء، ولأنهن قد خُلِقن من الرجل؛ فهمتها في الرجل والرجل خُلِق فيه الشهوة وجعلت سكناً له؛ فغير مأمون كل واحد منهما على صاحبه. وفي تعلمهنّ الكتاب هذا المعنى من الفتنة وأشد. وفي كتاب الشّهاب عن النبي ﷺ: «أعروا النساء يَلْزَمْنَ الحِجَالَ». فعلى الإنسان إذا لم يصبر في هذه الأزمان أن يبحث عن ذات الدّين ليسلم له الدّين؛ قال ﷺ: «عَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبْتُ<sup>(٢)</sup> يَدَاكَ» أخرجه مسلم عن أبي هريرة. وفي سنن أبن ماجه عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «لا تَزَوَّجُوا النساء لحسَنِهِنَّ فعسى حسنُهن أن يُزويهنّ ولا تزوجوهنّ لأموالهن فعسى أموالهن أن تُطغيهنّ ولكن تزوجوهن على الدّين ولأمة سؤداء خرماء<sup>(٣)</sup> ذات دين أفضل».

**الثالثة -** قوله تعالى: ﴿وَالْبَيْنِ﴾ عطف على ما قبله. وواحد من البنين أبن. قال الله تعالى مخبراً عن نوح: ﴿إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي﴾<sup>(٤)</sup>. وتقول في التصغير «بُنْي» كما قال لقمان. وفي الخبر أن النبي ﷺ قال للأشعث بن قيس: «هل لك من أبنة حمزة من

(١) الزيادة في د.

(٢) ترب الرجل: آتقر، أي لصق بالتراب؛ وأترب إذا أستغنى. وهذه الكلمة جارية على السنة العرب، لا يريدون بها الدعاء على المخاطب، وإنما يريدون الحث والتحريض.

(٣) خرماء: مقطوعة بعض الأنف ومثقوبة الأذن.

(٤) راجع ٤٥/٩.

ولد؟ قال؟ نعم، لي منها غلام وَلَوِ دُذْتُ أَنْ لِي بِهِ جَفَنَةٌ مِنْ طَعَامٍ أَطْعَمَهَا مَنْ بَقِيَ مِنْ بَنِي جَبَلَةٍ. فقال النبي ﷺ: «لَنْ قُلْتُ ذَلِكَ إِنْهُمْ لَشَمْرَةُ الْقُلُوبِ وَقَرَّةُ الْأَعْيُنِ وَإِنْهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَمَجْبَنَةٌ»<sup>(١)</sup> مَبْخَلَةٌ مَحْزَنَةٌ.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرُ﴾ القناطير جمع قنطار، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ إِخْدَاهُنَّ قَنْطَارًا﴾<sup>(٢)</sup> وهو العُقْدَةُ الكبيرة من المال، وقيل: هو أَسْمٌ لِلْمِغْيَارِ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ؛ كما هو الرطل والربع. ويقال لِمَا بَلَغَ ذَلِكَ الْوِزْنَ: هذا قنطار، أي يعدل القنطار. والعرب تقول: قُنْطَرُ الرَّجُلِ إِذَا بَلَغَ مَالَهُ [أَنْ] يوزن بالقنطار. وقال الزجاج: الْقَنْطَارُ مَا خُوِذَ مِنْ عَقْدِ الشَّيْءِ وَأَحْكَامِهِ؛ تقول العرب: قنطرت الشيء إذا أحكمته؛ ومنه سميت القنطرة لإحكامها. قال طرفة:

كَقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أَقْسَمَ رَبُّهَا لَتُكْتَفَنَ حَتَّى تُشَادَّ بِقَرْمَدٍ<sup>(٣)</sup>

والقنطرة المعقودة؛ فكانَ القنطار عَقْدُ مَالٍ. وأختلف العلماء في تحرير حَدِّهِ كم هو على أقوال عديدة؛ فروى أبي بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية»؛ وقال بذلك معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر وأبو هريرة وجماعة من العلماء. قال ابن عطية: «وهو أصح الأقوال، لكن القنطار على هذا يختلف باختلاف البلاد في قدر الأوقية». وقيل: اثنا عشر ألف أوقية؛ أسنده البستي في مسنده الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «القنطار اثنا عشر ألف أوقية الأوقية خير مما بين السماء والأرض». وقال بهذا القول أبو هريرة أيضاً. وفي مسند أبي محمد الدارمي عن أبي سعيد الخدري قال: «من قرأ في ليلة عشر آيات كُتِبَ مِنَ الذَّاكِرِينَ، ومن قرأ بمائة آية كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، ومن قرأ بخمسمائة آية إلى الألف أصبح وله قنطار من الأجر» قيل:

(١) أي أن الأبناء يجعلون آباءهم يجنبون خوفاً من الموت فيصيب أبناءهم اليتيم وآلامه، ويجعلونهم يسخلون فلا ينفقون فيما ينبغي أن ينفق فيه إيثاراً لهم بالمال، ويجعلونهم يحزنون عليهم إن أصابهم مرض ونحوه.

(٢) راجع ٩٩/٥.

(٣) القرمذ الآجر والحجارة.

وما القنطار؟ قال: «ملء مسك ثوبٍ ذهباً». موقوف؛ وقال به أبو نضرة العبدي. وذكر ابن سيده أنه هكذا بالسريانية. وقال النقاش عن ابن الكلبي أنه هكذا بلغة الروم. وقال ابن عباس والضحاك والحسن: ألف ومائتا مثقال من الفضة؛ ورفع الحسن. وعن ابن عباس: اثنا عشر ألف درهم من الفضة، ومن الذهب ألف دينار دية الرجل المسلم؛ وروي عن الحسن والضحاك. وقال سعيد بن المسيب: ثمانون ألفاً. قتادة: مائة رطل من الذهب أو ثمانون ألف درهم من الفضة. وقال أبو حمزة الثمالي<sup>(١)</sup>: القنطار بإفريقية والأندلس ثمانية آلاف مثقال من ذهب أو فضة. السدي: أربعة آلاف مثقال. مجاهد: سبعون ألف مثقال؛ وروي عن ابن عمر. وحكى مكّي قولاً أن القنطار أربعون أوقية من ذهب أو فضة؛ وقاله ابن سيده في المحكم، وقال: القنطار بلغة بَزْرَ ألف مثقال. وقال الربيع بن أنس: القنطار المال الكثير بعضه على بعض؛ وهذا هو المعروف عند العرب، ومنه قوله: «وَأَتَيْتُمْ إِخْدَاهُنَّ قِنْطَارًا» أي مالا كثيراً. ومنه الحديث: «إِنَّ صَفْوَانَ بْنِ أُمِيَّةٍ قَنْطَرٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَنْطَرٌ أَبُوهُ» أي صار له قنطار من المال. وعن الحكم: القنطار هو ما بين السماء والأرض. وأختلفوا في معنى «المَقْنَطَرَةِ» فقال الطبري وغيره: معناه المَضْعَفَةُ، وكأنَّ القناطير ثلاثة والمقنطرة تسع. وروي عن الفراء أنه قال: القناطير جمع القنطار، والمقنطرة جمع الجمع، فيكون تسع قناطير. السدي: المقنطرة المضروبة حتى صارت دنائير أو دراهم. مكّي: المقنطرة المُكَمَّلَةُ؛ وحكاها الهروي؛ كما يقال: يَدْرُ مُبَدَّرَةٌ، وآلافٌ مؤلَّفة. وقال بعضهم. ولهذا سمي البناء القنطرة لتكاثر البناء بعضه على بعض. ابن كيسان والفراء: لا تكون المقنطرة أقل من تسع قناطير. وقيل: المَقْنَطَرَةُ إشارة إلى حضور المال وكونه عتيداً. وفي صحيح البستي عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين».

(١) الثمالي (بضم المثلثة وتخفيف الميم ولام): نسبة إلى ثماله بطن من الأزرد.

**الخامسة -** قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ الذهب مؤنثة<sup>(١)</sup>؛ يقال: هي الذهب الحسنه، جمعها ذهاب<sup>(٢)</sup> وذُؤُوب. ويجوز أن يكون جمع ذُهَبَة، ويجمع على الأذْهَاب. وذهب فلان مذهباً حسناً. والذهب: مكيالٌ لأهل اليمن. ورجل ذَهَبَ إذا رأى معدن الذهب فدهش. والفضة معروفة، وجمعها فِضَضٌ. فالذهب مأخوذة من الذَّهَاب، والفضة مأخوذة من أَنْفَضَ الشيء تفرَّق؛ ومنه فَضَضْتُ القوم فأنفضوا، أي فَرَّقْتَهُمْ فَتَفَرَّقُوا. وهذا الاشتقاق يُشعر بزوالهما وعدم ثبوتهما كما هو مشاهد في الوجود. ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قول بعضهم:

النَّارُ آخِرُ دِينَارٍ نَطَقَتْ بِهِ      وَالْهَمُّ آخِرُ هَذَا الدَّزْهِمِ الْجَارِي  
وَالْمَرَّةُ بَيْنَهُمَا إِنْ كَانَ ذَا وَرَعٍ      مُعَذِّبُ الْقَلْبِ بَيْنَ الْهَمِّ وَالنَّارِ

**السادسة -** قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلِ﴾ الخيل مؤنثة. قال ابن كيسان: حَدَّثَتْ عَنْ أَبِي عبيدة أنه قال: واحد الخيل خائل، مثل طائر وطير، وضائن وضين؛ وسمي الفرس بذلك لأنه يختال في مشيه. وقال غيره: هو أسم جمع لا واحد له من لفظه، واحده فرس، كالقوم والرهط والنساء والإبل ونحوها. وفي الخبر من حديث علي عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْفَرَسَ مِنَ الرِّيحِ وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا تَطِيرُ بِلَا جَنَاحِ». وَهَبُ بْنُ مُثَبِّهٍ: خَلَقَهَا مِنْ رِيحِ الْجَنُوبِ. قال وهب: فليس تسبيحة ولا تكبيرة ولا تهليلة يكبرها صاحبها إلا وهو يسمعها فيجيبه بمثلها. وسيأتي لذكر الخَيْلِ ووصفها في سورة «الأنفال»<sup>(٣)</sup> ما فيه كفاية إن شاء الله تعالى. وفي الخبر: «إِنَّ اللَّهَ عَرَضَ عَلَى آدَمَ جَمِيعَ الدَّوَابِّ، فَقِيلَ لَهُ: أَخْتَرْ مِنْهَا وَاحِداً فَأَخْتَارَ الْفَرَسَ؛ فَقِيلَ لَهُ: أَخْتَرْتَ عِزَّكَ؛ فَصَارَ أَسْمُهُ الْخَيْرُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَسَمَّيْتَ خَيْلاً لِأَنَّهَا مَوْسُومَةٌ بِالْعِزِّ فَمِنْ رُكْبِهِ أَعْتَزَّ بِنَخْلَةِ اللَّهِ لَهُ وَيَخْتَالُ بِهِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى. وَسَمِيَ فَرَساً

(١) هذا رأي المؤلف، وقد ذكره شارح القاموس (في مادة ذهب). والمشهور أن الذهب يذكر ويؤنث كما في معجمات اللغة.

(٢) في الأصول: والذي في معجمات اللغة أن الذهب يجمع على أذهاب وذؤوب وذهبان (بكسر أوله) كبرق وبرقان وذهبان (بضم أوله) كحمل وحملان. فلعل ما في الأصول محرف عن «ذهبان».

(٣) راجع ٣٥/٨.

لأنه يفترس مسافات الجو أفتراس الأسد وثباناً، ويقطعها كاللتهام بيديه على شيء خبطاً وتناولاً، وسمي عربياً لأنه جيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاء عن رفع قواعد البيت، وإسماعيل عربي، فصار له نِحْلة من الله تعالى فسمي عربياً. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لا يدخل الشيطان داراً فيها فرس عتيق». وإنما سمي عتيقاً لأنه قد تخلص من الهجانة<sup>(١)</sup>. وقد قال ﷺ: «خير الخيل الأدهم الأقرح<sup>(٢)</sup> الأرثم<sup>(٣)</sup> ثم الأقرح المحجل<sup>(٤)</sup>»<sup>(٥)</sup> طلق اليمين فإن لم يكن أدهم فكُميت على هذه الشية. أخرجه الترمذي عن أبي قتادة. وفي مسند الدارمي عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أريد أن أشتري فرساً [فأيها أشتري]<sup>(٦)</sup>؟ قال: «اشترِ أدهم أرثم محجلاً<sup>(٧)</sup>» طلق اليمين أو من الكُميت على هذه الشية تغنم وتسلم. وروى النسائي عن أنس قال: لم يكن أحب إلي رسول الله ﷺ بعد النساء من الخيل. وروى الأئمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الخيْل ثلاثة لرجلٍ أجر ولرجلٍ ستر ولرجلٍ وزر» الحديث بطوله، شهرته أغنت عن ذكره. وسيأتي ذكر أحكام الخيل في «الأنفال»<sup>(٨)</sup> و«النحل» بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى.

**السابعة -** قوله تعالى: «المُسَوِّمة» يعني الراعية في المروج والمسارح؛ قاله سعيد بن جبیر. يقال: سامت الدابة والشاة إذا سرحت تسوم سوماً فهي سائمة. وأسمتها أنا إذا تركتها لذلك فهي مسامة. وسوّمتها تسويماً فهي مُسَوِّمة. وفي سنن أبْنِ ماجه عن عليّ قال: نهى

(١) الهجين الذي ولدته برذونة من حصان عربي.

(٢) الأقرح: ما في جبهته قرحة، وهي بياض يسير في وجه الفرس دون الغرّة. والأرثم: أبيض الأنف والشفة العليا. والمحجل: أن تكون قوائمه الأربع بيضا يبلغ منها ثلث الوظيف (مستدق الذراع والساق أو ما فوق الرسغ إلى الساق) أو نصفه أو ثلثيه بعد أن يتجاوز الأرساغ ولا يبلغ الركبتين والعرقوبين. وطلق اليمين: لا تحجيل فيها. والكُميت: ما لونه بين السواد والخمرة. والشية: كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره.

(٣) زيادة عن السنن الترمذي.

(٤) زيادة عن سنن الدارمي.

(٥) في مسند الدارمي والأصول: «محجل».

(٦) راجع ٣٦/٨ و ٧٣/١٠.

رسول الله ﷺ عن السَّوْمِ<sup>(١)</sup> قبل طلوع الشمس، وعن ذبح ذوات الدّر. السوم هنا في معنى الرعي. وقال الله عز وجل: ﴿فِيهِ تُسَيَّمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. قال الأخطل:

مثل أبْنِ بزعة<sup>(٣)</sup> أو كآخر مثله أولى لك<sup>(٤)</sup> أبْنِ مِسِيمة الأجمال

أراد أبْنِ راعية الإبل. والسوام: كل بهيمة ترعى، وقيل: المعدة للجهاد؛ قاله أبْنِ زيد. مجاهد: المِسْوَمَةُ المطَهَّمَةُ الحسان. وقال عكرمة: سَوَمَهَا الحسن؛ وأختاره النحاس، من قولهم: رجل وسيم. وروي عن أبْنِ عباس أنه قال: المسومة المعلمة بشيات الخيل في وجوها، من السِما وهي العلامة. وهذا مذهب الكِسائِي وأبي عبيدة.

قلت: كل ما ذكر يحتمله اللفظ، فتكون راعية مَعْدَّة حساناً مُعْلَمَةً لِتُعَرَفَ من غيرها. قال أبو زيد: أصل ذلك أن تجعل عليها صوفة أو علامة تخالف سائر جسدها لتبين من غيرها في المرعى. وحكى أبْنِ فارس اللغوي في مجمله: المِسْوَمَةُ المَرْسَلَةُ وعليها ركبائها. وقال المؤرّج<sup>(٥)</sup>: المِسْوَمَةُ المَكْوِيَّة. المبرّد: المعروفة في البلدان. أبْنِ كيسان: البُلُقُ. وكلها متقارب من السِما. قال النابغة:

وَضُمِرَ كَالْقِدَاحِ مُسَوِّمَاتٍ عَلَيْهَا مَغْشَرٌ أَشْبَاهُ جِنِّ

**الثامنة** - قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ قال أبْنِ كيسان: إذا قلت نَعَمَ لم تكن إلا للإبل، فإذا قلت أَنْعَامَ وقعت للإبل وكل ما يرعى. قال الفراء: هو مُدْكَرٌ ولا يؤنث؛ يقولون:

(١) في حاشية السندي على سنن أبْنِ ماجه واللسان (مادة سوم) عند الكلام عن هذا الحديث: «السوم: أن يساوم بسلعته، ونهي عن ذلك في ذلك الوقت لأنه وقت يذكر الله فيه فلا يشتغل بغيره. ويحتمل أن المراد بالسوم الرعي؛ لأنها إذا رعت الرعي قبل شروق الشمس وهو عليه ند أصابها منه داء قتلها؛ وذلك معروف عند أهل المال من العرب».

(٢) راجع ٨٢/١٠.

(٣) كذا في ديوانه. ورواية «الأغاني» (٣١٩/٨) طبع دار الكتب المصرية: «كابن البزيعه...». والذي في «الأصول»: «ضل أبْنِ بزعة...». ويعني بآبْنِ بزعة: شداد بن المنذر أخا حصين الذهلي. وقوله «كآخر مثله» يعني حوشب بن رؤيم.

(٤) أولى لك: ويل لك، فهي كلمة تقال في مقام التهديد والوعيد. وقال الأصمعي: معناه قاربه ما يهلكه، أي نزل به.

(٥) المؤرّج (كمحدث): أبو فيد عمرو بن الحارث السدوسي النحوي البصري، أحد أئمة اللغة والأدب.

هَذَا نَعَمٌ وَارِدٌ، وَيَجْمَعُ أَنْعَاماً. قَالَ الْهَرَوِيُّ: وَالنَّعَمُ يَذْكُرُ وَيُؤْتَى، وَالْأَنْعَامُ الْمَوَاشِي مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ؛ وَإِذَا قِيلَ: النَّعَمُ فَهُوَ الْإِبِلُ خَاصَّةً. وَقَالَ حَسَنٌ:

وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أُنَيْسٌ خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءٌ

وَفِي سَنَنِ أَبِي نَجَّارٍ عَنْ عُرْوَةَ الْبَارِقِيِّ يَرْفَعُهُ قَالَ: «الْإِبِلُ عِزٌّ لِأَهْلِهَا وَالْغَنَمُ بَرَكَةٌ وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِي الْخَيْلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وَفِيهِ عَنْ أَبِي عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الشَّاةُ مِنْ دَوَابِّ الْجَنَّةِ». وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَغْنِيَاءَ بِاتِّخَاذِ الْغَنَمِ، وَالْفُقَرَاءَ بِاتِّخَاذِ الدَّجَاجِ. وَقَالَ: عِنْدَ اتِّخَاذِ الْأَغْنِيَاءِ الدَّجَاجِ يَأْذَنُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَلَاكِ الْقَرْيَةِ. وَفِيهِ عَنْ أُمِّ هَانِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «اتَّخِذِي غَنَمًا فَإِنَّ فِيهَا بَرَكَةً». أَخْرَجَهُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ عَنْ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ وَكِيعٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أُمِّ هَانِيَةَ، إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

التاسعة - قوله تعالى: ﴿وَالْحَرْثُ﴾ الْحَرْثُ هُنَا أَسْمٌ لِكُلِّ مَا يُحْرَثُ، وَهُوَ مُصْدَرٌ سَمِّيَ بِهِ؛ تَقُولُ: حَرَّثَ الرَّجُلُ حَرْثًا إِذَا أَثَارَ الْأَرْضَ لِمَعْنَى الْفَلَاحَةِ؛ فَيَقَعُ أَسْمُ الْحَرْثِ عَلَى زَرْعِ الْحَبُوبِ وَعَلَى الْجَنَّاتِ وَعَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نَوْعِ الْفَلَاحَةِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «أَحْرَثَ لَدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا». يَقَالُ حَرْثٌ وَأَحْرَثْتُ؛ وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ «أَحْرَثُوا هَذَا الْقُرْآنَ» أَيِ فَكَّشُوهُ. قَالَ أَبُو الْأَعْرَابِيِّ: الْحَرْثُ التَّفْقِيشُ؛ وَفِي الْحَدِيثِ: «أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ الْحَارِثُ» لِأَنَّ الْحَارِثَ هُوَ الْكَاسِبُ، وَأَحْرَثَ الْمَالُ كَسْبَهُ، وَالْمَحْرَثُ مُسْعِرُ النَّارِ وَالْحَرَاثُ مَجْرَى الْوَتَرِ فِي الْقَوْسِ، وَالْجَمْعُ أُخْرَثَةٌ، وَأَحْرَثَ الرَّجُلُ نَافَقَتَهُ أَهْزَلَهَا. وَفِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ: مَا فَعَلْتُ نَوَاضِحَكُمْ<sup>(١)</sup>؟ قَالُوا: حَرَّثْنَاهَا يَوْمَ بَدْرٍ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: يَعْنُونَ هَزَلْنَاهَا؛ يَقَالُ: حَرَّثَ الدَّابَّةَ وَأَحْرَثَهَا، لَغْتَانِ. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ وَقَدْ رَأَى سِكَّةً<sup>(٢)</sup>

(١) النواضح من الإبل التي يستقى عليها؛ واحداها ناضح. والخطاب للأنصار: وقد قعدوا عن تلقيه لما حج؛ وأراد معاوية بذكر نواضحهم تقريعا لهم وتعريضا، لأنهم كانوا أهل زرع وحراث وسقي؛ فأجابوه بما أسكتهم، فهم يريدون بقولهم «هزلناها يوم بدر» التعريض بقتل أشياخه يوم بدر. (النهاية).

(٢) السكة (بكسر السين وتشديد الكاف المفتوحة): الحديدة التي تحرث بها الأرض.

وشيثاً من آلة الحرث فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل هذا بيت قوم إلا دخله الذل». قيل: إن الذل هنا ما يلزم أهل الشغل بالحرث من حقوق الأرض التي يطالبهم بها الأئمة والسلاطين. وقال المهلب: معنى قوله في هذا الحديث والله أعلم الحَضَّ على معالي الأحوال وطلب الرزق من أشرف الصناعات؛ وذلك لما خشي النبي ﷺ على أمته من الاشتغال بالحرث وتضييع ركوب الخيل والجهاد في سبيل الله؛ لأنهم إن اشتغلوا بالحرث غلبتهم الأمم الراكبة للخيال المتعيشة من مكاسبها؛ فحضرهم على التعيش من الجهاد لا من الخلود<sup>(١)</sup> إلى عمارة الأرض ولزوم المهنة. ألا ترى أن عمر قال: تمعددوا<sup>(٢)</sup> وأخشوشنوا وأقطعوا<sup>(٣)</sup> الركب وثبوا على الخيل وثباً لا تغلبنكم عليها رعاة الإبل. فأمرهم بملازمة الخيل، ورياضة أبدانهم بالوثوب عليها. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال قال النبي ﷺ: «ما من مسلم غرس غرساً أو زرع زرعاً فياكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة».

قال العلماء: ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال، كل نوع من المال يتمول به صنف من الناس؛ أما الذهب والفضة فيتمول بها التجار، وأما الخيل المسومة فيتمول بها الملوك، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي، وأما الحرث فيتمول بها أهل الرساتيق<sup>(٤)</sup> فتكون فتنة كل صنف في النوع الذي يتمول، فأما النساء والبنون ففتنة للجميع.

**العاشرة -** قوله تعالى: «ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أي ما يتمتع به فيها ثم يذهب ولا يبقى. وهذا منه تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة. روى ابن ماجه وغيره عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة». وفي الحديث: «ازهد في الدنيا يحبك الله» أي في متاعها من الجاه والمال الزائد على الضروري. قال ﷺ: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه

(١) اللغة الفصحى «من الإخلاد». (٢) يقال: تمعدد الغلام إذا شب وغلظ. وقيل: أراد

تشبهوا بعيش معد بن عدنان وكانوا أهل غلظ وقشف؛ أي كونوا مثلهم ودعوا التئيم وزى العجم.

(٣) في مسند الإمام أحمد بن حنبل: «والقوا الركب» جمع ركاب: هي الرواحل من الإبل، أو جمع ركوب وهي كل ما يركب من دابة.

(٤) الرساتيق: السواد والقرى واحدها رستاق، وفي ز: البساتين.



الخصال بيت يسكنه وثوب يُوارِي عورته وجِلْفٌ<sup>(١)</sup> الخبز والماء» أخرجه الترمذي من حديث المقدم بن معد يكرب. وسئل سهل بن عبد الله: بِمَ يسهل على العبد ترك الدنيا وكل الشهوات؟ قال: بتشاغله بما أمر به.

الحادية عشرة - قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ ابتداءً وخبر. والمآب المرجع؛ أب يؤوب إياباً إذا رجع؛ قال امرؤ القيس:

وقد طوفت في الآفاق حتى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ  
وقال آخر:

وكل ذي غِيْبَةٍ يـُـؤُوبُ وغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يـُـؤُوبُ

وأصل مآب مأوب، قلبت حركة الواو إلى الهمزة وأبدل من الواو ألف، مثل مقال. ومعنى الآية تقليل الدنيا وتحقيرها والترغيب في حسن المرجع إلى الله تعالى في الآخرة.

[١٥] ﴿قُلْ أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ  
بِالْعَامِلِينَ﴾.

منتهى الاستفهام عند قوله «مِنْ ذَٰلِكُمْ»، «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا» خبر مقدم، و «جَنَّات» رفع بالابتداء. وقيل: منتهاه «عِنْدَ رَبِّهِمْ»، و «جَنَّات» على هذا رفع بابتداء مضمّر تقديره ذلك جَنَّات. ويجوز على هذا التأويل «جَنَّاتٍ» بالخفض بدلاً من «خَيْرٍ» ولا يجوز ذلك على الأول. قال ابن عطية: وهذه الآية والتي قبلها نظير قوله عليه السلام: «تُنكح المرأة لأربع لِمَالِهَا وحسبها وجمالها ودينها فأظفر بذات الدين تَرَبَّتْ<sup>(٢)</sup> يَدَاكَ» خرّجه مسلم وغيره. فقوله «فَأظْفَرُ بذات الدين» مثال لهذه الآية. وما قبلُ مثالٌ للأولى. فذكر تعالى هذه تسليّة عن الدنيا وتقويةً لِنفوس تاركِها. وقد تقدّم في البقرة معاني<sup>(٣)</sup> ألفاظ هذه الآية.

(١) الجلف (بكسر فسكون): الخبز وحده لا آدم معه، وقيل: هو الخبز الغليظ اليابس.

(٢) راجع هامشة ١ ص ٢٩ من هذا الجزء. (٣) راجع ٢٣٨/١ فما بعد.

والرضوان مصدر من الرضا، وهو أنه إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى لهم «تريدون شيئاً أزيدكم؟» فيقولون: يا ربنا وأي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: «رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً» خرجه مسلم. وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ وَعَدُّ وَعِيدٌ﴾.

[١٦] ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

[١٧] ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَارِ﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ بدل من قوله ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وإن شئت كان رفعاً أي هم الذين، أو نصباً على المدح. ﴿رَبَّنَا﴾ أي يا ربنا. ﴿إِنَّا أَمْنَا﴾ أي صدقنا. ﴿فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ دعاء بالمغفرة. ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ تقدم<sup>(١)</sup> في البقرة. ﴿الصَّابِرِينَ﴾ يعني عن المعاصي والشهوات، وقيل: على الطاعات. ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ أي في الأفعال والأقوال. ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ الطائعين. ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ يعني في سبيل الله. وقد تقدم<sup>(٢)</sup> في البقرة هذه المعاني على الكمال. ففسر تعالى في هذه الآية أحوال المتقين الموعودين بالجنات.

وأختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَارِ﴾ فقال أنس بن مالك: هم السائلون المغفرة. قتادة: المصلون.

قلت: ولا تناقض، فإنهم يصلون ويستغفرون. وخص السحر بالذكر لأنه مظانّ القبول ووقت إجابة الدعاء. قال رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾<sup>(٣)</sup>: «إنه آخر ذلك إلى السحر» خرجه الترمذي وسيأتي. وسأل النبي ﷺ جبريل: «أي الليل أسمع؟» فقال: «لا أدري غير أن العرش يهتز عند السحر». يقال سحر وسحر، بفتح الحاء وسكونها، وقال الزجاج: السحر من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر الثاني، وقال ابن زيد: السحر هو سدس الليل الآخر.

(١) راجع المسألة الثانية ٤٣٣/٢.

(٢) راجع ١٧٨/١، ١٧٩، ٢٣٣، ٣٧١، وراجع المسألة الخامسة ٢١٣/٣.

(٣) راجع ٢٦٢/٩.

قلت: أصح من هذا ما روى الأئمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر» في رواية «حتى ينفجر الصبح» لفظ مسلم. وقد اختلف في تأويله؛ وأولى ما قيل فيه ما جاء في كتاب النسائي مفسراً عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالوا قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول ثم يأمر منادياً فيقول هل من داع يستجاب له هل من مستغفر يغفر له هل من سائل يعطى». صححه أبو محمد عبد الحق، وهو يرفع الإشكال ويوضح كل احتمال، وأن الأول من باب حذف المضاف، أي ينزل ملك ربنا فيقول. وقد روي «ينزل» بضم الياء، وهو يبين ما ذكرنا، وبالله توفيقنا. وقد أتينا على ذكره في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى».

مسألة - الاستغفار مندوب إليه ، وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين في هذه الآية وغيرها فقال: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾<sup>(١)</sup>. وقال أنس بن مالك: أمرنا أن نستغفر بالسكر سبعين استغفارة . وقال سفيان الثوري : بلغني أنه إذا كان أول الليل نادى مناد ليقم القانتون فيقومون كذلك يصلّون إلى السكر، فإذا كان عند السكر نادى مناد: أين المستغفرون<sup>(٢)</sup> فيستغفر أولئك ، ويقوم لمخرون فيصلون فيلحقون بهم . فإذا طلع الفجر نادى مناد: ألا ليقم الغافلون فيقومون من فرشهم كالموتى نثروا من قبورهم . وروي عن أنس سمعت النبي ﷺ يقول : « إن الله يقول إني لأهمّ بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى عمار بيوتي وإلى المتحابين فيّ وإلى المتجهدين والمستغفرين بالأسحار صرفت عنهم العذاب بهم» . قال مكحول : إذا كان في أمة خمسة عشر رجلاً يستغفرون الله كل يوم خمساً وعشرين مرة لم يؤاخذ الله تلك الأمة بعذاب العامة . ذكره أبو نعيم في كتاب الحلية له . وقال نافع : كان ابن عمر يحيى<sup>(٣)</sup> الليل ثم

(١) راجع ١٧/٣٧.

(٢) في نسخ الأصول: المستغفرين، عدا: ح. فمنها التصويب.

(٣) في أ: يقوم.

يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول لا. فيعاود الصلاة ثم يسأل، فإذا قلت نعم قعد يستغفر. وروى إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال: سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد يقول: يا رب، أمرتني فأطعتك، وهذا سحرٌ فأغفر لي. فنظرت فإذا [هو] <sup>(١)</sup> ابن مسعود.

قلت: فهذا كله يدل على أنه استغفار باللسان مع حضور القلب، لا ما قال ابن زيد أن المراد بالمستغفرين الذين يصلون صلاة الصبح في جماعة. والله أعلم. وقال لقمان لابنه: «يا بني لا يكن الديك أكيَسَ منك، ينادي بالأسحار وأنت نائم». والمختار من لفظ الاستغفار ما رواه البخاري عن شذاد بن أوس، وليس له في الجامع غيره، عن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما أستطعت أعوذ بك من شر ما صنعتُ أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» - قال - ومن قالها من النهار مُوقِنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو مُوقِنٌ بها فمات من ليله قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة». وروى أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث ابن لهيعة عن أبي صخر عن أبي معاوية عن سعيد بن جبير عن أبي الصَّهْبَاء البكري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم قال: «ألا أعلمك كلمات تقولهن لو كانت ذنوبك كمدب النمل - أو كمدب الدّر - لغفرها الله لك على أنه مغفور لك: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

[١٨] ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى - قال سعيد بن جبير: كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فلما نزلت هذه الآية خَرَزَنَ سُجْدًا. وقال الكلبي: لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه

جبران من أحبار أهل الشام؛ فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان! فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم». قالوا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم». قالوا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك. فقال لهما رسول الله ﷺ: «سَلَانِي». فقالوا: أخبرنا عن أعظم<sup>(١)</sup> شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ فأسلم الرجلان وصدقوا برسول الله ﷺ. وقد قيل: إن المراد بأولي العلم الأنبياء عليهم السلام. وقال ابن كيسان: المهاجرون والأنصار. مقاتل: مؤمنو أهل الكتاب. السدي والكلبي: المؤمنون كلهم؛ وهو الأظهر لأنه عام.

**الثانية -** في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم؛ فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه وأسم ملائكته كما قرن أسم العلماء. وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾<sup>(٢)</sup>. فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم. وقال ﷺ: «إِنَّ العلماء ورثة الأنبياء». وقال: «العلماء أُمَنَاءُ الله على خلقه». وهذا شرف للعلماء عظيم، ومحلُّ لهم في الدِّين خطير. وخرَّج أبو محمد عبد الغني الحافظ من حديث بركة بن نَشِيط - وهو عَنْكَل بن حَكَارَك وتفسيره بركة بن نَشِيط - وكان حافظاً، حَدَّثَنَا عمر بن المؤمل حَدَّثَنَا محمد بن أبي الحَصِيب حَدَّثَنَا عَنْكَل حَدَّثَنَا محمد بن إِسْحَاق حَدَّثَنَا شريك عن أبي إِسْحَاق عن البراء قال قال رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة». وفي هذا الباب [حديث] عن أبي الدرداء خرَّجه أبو داود.

**الثالثة -** روى غالب القطان قال: أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش فكنت أختلف إليه. فلما كان ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة قام فتهجد من الليل فقرأ بهذه الآية ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»، قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي [عند الله]<sup>(١)</sup> وديعة، وأن الدين عند الله الإسلام - قالها مراراً - فغدوت إليه وودعته ثم قلت: إني سمعتك تقرأ هذه الآية فما بلغك فيها؟ أنا عندك منذ سنة لم تحدّثني به. قال: والله لا حدّثتك به سنة. قال: فأقمت وكتبت على بابي ذلك اليوم، فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد قد مضت السنة. قال: حدّثني أبو وائل، عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «يُجَاءُ بِصَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيقول الله تعالى عبيدي عهد إليّ وأنا أحقّ من وفّي أَدْخِلُوا عبيدي الجنة». قال أبو الفرج الجوزي: غالب القَطَّان هو غالب بن خَطَّاف القَطَّان<sup>(٢)</sup>، يروي عن الأعمش حديث «شهد الله» وهو حديث مُغْضَل<sup>(٣)</sup>. قال ابن عديّ الضعف على حديثه بيّن. وقال أحمد بن حنبل: غالب بن خَطَّاف القَطَّان ثِقَةٌ ثَقَّة. وقال ابن معين: ثِقَّة. وقال أبو حاتم: صدوق صالح.

قلت: يكفيك من عدالته وثقته أن خرّج له البخاريّ ومسلم في كتابيهما، وحسبك. وروي من حديث أنس عن «النبي ﷺ» أنه قال: «مَنْ قَرَأَ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» عند منامه خلق الله له سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة. ويقال من أقرّ بهذه الشهادة عن عقد من قلبه فقد قام بالعدل. وروي عن سعيد بن جببر أنه قال: كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً لكل حيّ من أحياء<sup>(٤)</sup> العرب صنمٌ أو صنمان. فلما نزلت هذه الآية أصبحت الأصنام قد خرت ساجدة لله.

الرابعة - قوله تعالى: «شَهِدَ اللَّهُ» أي بيّن وأعلم؛ كما يقال: شهد فلان عند القاضي إذا بيّن وأعلم لمن الحقّ، أو على من هو. قال الزجاج: الشاهد هو الذي يعلم الشيء ويبيّنه؛ فقد دلّنا الله تعالى على وحدانيته بما خلّق وبيّن. وقال أبو عبيدة: «شهد الله» بمعنى قضى الله، أي أعلم. وقال ابن عطية: وهذا مردود من جهات. وقرأ الكسائي بفتح «أن» في قوله

(٢) بضم الخاء، وقيل بفتحها.

(١) الزيادة في نسخ ب، ز، ج.

(٤) في أ.

(٣) المعضل: ما سقط من إسناده اثنان فصاعداً.

«أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» وقوله «أَنَّ الدِّينَ». قال المبرد: التقدير: أن الدين عند الله الإسلام أنه لا إله إلا هو، ثم حذفت الباء كما قال أمرتُك الخير. أي بالخير. قال الكِسائي: أنصَبهما جميعاً، بمعنى شهد الله أنه كذا، وأن الدين عند الله. قال ابن كيسان: «أَنَّ» الثانية بدل من الأولى؛ لأن الإسلام تفسير المعنى الذي هو التوحيد. وقرأ ابن عباس فيما حكى الكِسائي «شَهِدَ اللَّهُ إِنَّهُ» بالكسر «أَنَّ الدِّينَ» بالفتح. والتقدير: شهد الله أن الدين الإسلام، ثم أبتدأ فقال: إنه لا إله إلا هو. وقرأ أبو المهلب وكان قارئاً - شَهِدَاءَ اللَّهِ بالنصب على الحال، وعنه «شَهِدَاءُ اللَّهِ». وروى شعبة عن عاصم عن زُرٍّ عن أُبَيٍّ عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ<sup>(١)</sup>: «أن الدين عند الله الحَنِيفِيَّةُ<sup>(٢)</sup> لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية». قال أبو بكر الأنباري: ولا يخفى على ذي تمييز أن هذا الكلام من النبي ﷺ على جهة التفسير، أدخله بعض من نقل الحديث في القرآن. و«قَائِمًا» نصب على الحال المؤكدة من اسمه تعالى في قوله «شَهِدَ اللَّهُ» أو من قوله «إِلَّا هُوَ». وقال الفراء: هو نصب على القطع، كان أصله القائم، فلما قُطعت الألف واللام نُصب كقوله: «وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا»<sup>(٣)</sup>. وفي قراءة عبد الله «القَائِمُ بِالْقِسْطِ» على النعت، والقِسْطُ العدل. «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» كرر لأن الأولى حَلَّتْ محلَّ الدعوى، والشهادة الثانية حَلَّتْ محلَّ الحكم. وقال جعفر الصادق: الأولى وصفٌ وتوحيدٌ، والثانية رَسْمٌ وتعليمٌ؛ يعني قولوا لا إله إلا الله العزيز الحكيم.

[١٩] ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأُولُوا الْآخِرَةِ وَأُولُوا الْأُولَىٰ﴾ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُولُوا الْأُولَىٰ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا جَاءَهُمْ أَوْلَىٰ بَشَرًا يَنْتَهُمُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِتَايَسَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ الدِّين في هذه الآية الطاعة والمِلَّة، والإسلام بمعنى الإيمان والطاعات؛ قاله أبو العالية، وعليه جمهور المتكلمين. والأصل في مسمى الإيمان

(١) في ح: يقول.

(٢) في ح: للحنيفة.

(٣) راجع ١٠/١١٤.

والإسلام التَّغَايُرُ؛ لحديث جبريل<sup>(١)</sup>. وقد يكون بمعنى المَرَادَفَةِ. فيسمى كل واحد منهما بأسم الآخر؛ كما في حديث وفد عبد القيس<sup>(٢)</sup> وأنه أمرهم بالإيمان [بالله]<sup>(٣)</sup> وحده وقال: «هل تدرّون ما الإيمان؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدّوا خمساً من المئتمن» الحديث. وكذلك قوله ﷺ: «الإيمان يضع وسبعون باباً فأدناها إمطة الأذى وأرفعها قول لا إله إلا الله» أخرجه الترمذي. وزاد مسلم «والحياء شعبة من الإيمان». ويكون أيضاً بمعنى التداخل، وهو أن يطلق أحدهما ويراد به مسماه في الأصل ومسمى الآخر، كما في هذه الآية إذ قد دخل فيها التصديق والأعمال؛ ومنه قوله عليه السلام: «الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان». أخرجه ابن ماجه، وقد تقدّم. والحقيقة هو الأول وضماً وشرعاً، وما عداه من باب التوسع. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية. أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب أنه كان على علم منهم بالحقائق، وأنه كان بغياً وطلباً للدنيا. قاله ابن عمر وغيره. وفي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى؛ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم؛ قاله الأخفش. قال محمد بن جعفر بن الزبير: المراد بهذه الآية النصارى، وهي توبيخ لنصارى نَجْرَانَ. وقال الربيع بن أنس: المراد بها اليهود. ولفظ الذين أوتوا الكتاب يعمّ اليهود والنصارى؛ أي «وما اختلف الذين أوتوا الكتاب» يعني في نبوة محمد ﷺ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ يعني بيان صفته ونبوته في كتبهم. وقيل: أي وما اختلف الذين أوتوا الإنجيل<sup>(٤)</sup> في أمر عيسى وفرّقوا فيه القول إلا من بعد ما جاءهم العلم بأن الله إله واحد، وأن عيسى عبد الله ورسوله. و«بغياً» نصب على المفعول من أجله، أو على الحال من «الذين». والله تعالى أعلم.

(١). راجع هذا الحديث في «صحيح البخاري ومسلم» في كتاب «الإيمان» الجزء الأول.

(٢) هو عبد القيس بن أقصى بن دعى، أبو قبيلة، كانوا يزلون البحرين وكان قدومهم عام الفتح وعلى رأسهم عبد الله بن عوف الأشج. (راجع كتاب «الطبقات الكبير» ج ١ قسم ثان ص ٥٤ طبع أوروبا، «شرح القسطلاني» ج ١ ص ١٩٣ طبع بولاق).

(٣) في ب، وز، وأ، ود.

(٤) في أ، ود: الكتاب.



[٢٠] ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أي جادلوك بالأقوال المزورة والمغالطات، فأسنِدْ أَمْرَكَ إلى ما كُلِّفْتَ من الإيمان والتبليغ وعلى الله نصرك. وقوله «وَجْهِيَ» بمعنى ذاتي؛ ومنه الحديث «سجد وجهي للذي خلقه وصوّره». وقيل: الوجه هنا بمعنى القصد؛ كما تقول: خرج فلان في وجه كذا. وقد تقدّم هذا المعنى في البقرة مستوفى<sup>(١)</sup>؛ والأوّل أولى. وعبر بالوجه عن سائر الذات إذ هو أشرف أعضاء الشخص وأجمعها للحواس. وقال:

أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ      لَهُ الْمُرْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلَالاً

وقد قال حذاق المتكلمين في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾<sup>(٢)</sup>: إنها عبارة عن الذات، وقيل: العمل الذي يقصد به وجهه. وقوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ «من» في محل رفع عطفًا على التاء في قوله «أَسْلَمْتُ» أي ومن اتبعني أسلم أيضاً، وجاز العطف على الضمير المرفوع من غير تأكيد للفصل بينهما. وأثبت نافع وأبو عمرو ويعقوب ياء «اتبعني» على الأصل، وحذف الآخرون أتباعاً للمصحف إذ وقعت فيه بغير ياء. وقال الشاعر:

لَيْسَ تُخْفِي يَسَارَتِي قَدَرُ يَوْمٍ      وَلَقَدْ تُخْفِي شِيمَتِي إِعْسَارِي

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعني اليهود والنصارى «والأُمِّيِّينَ» الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب. «أَسْلَمْتُمْ» استفهام معناه التقرير وفي ضمنه الأمر، أي أسلموا؛ كذا قال الطبري وغيره. وقال الزجاج: «أَسْلَمْتُمْ» تهديد. وهذا حسن، لأن المعنى أسلمتم أم لا. وجاءت العبارة في قوله «فَقَدِ اهْتَدَوْا» بالماضي مبالغة في الإخبار بوقوع الهدى لهم

(١) راجع ٧٥/٢.

(٢) راجع ١٦٥/١٧.

وتحصيله . و «البلاغ» مصدر بلغ بتخفيف عين الفعل ، أي إنما عليك أن تُبلغ . وقيل : إنه مما نسخ بالجهاد . وقال ابن عطية : وهذا يحتاج إلى معرفة تاريخ نزولها ؛ وأما على ظاهر نزول هذه الآيات في وقد نجران فإنما المعنى فإنما عليك أن تبلغ ما أنزل إليك بما فيه من قتال وغيره .

[٢١] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ

الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾

[٢٢] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ

نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ قال أبو العباس المبرد : كان ناس من بني إسرائيل جاءهم النبيون يدعونهم إلى الله عز وجل فقتلوه . فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمرهم <sup>(١)</sup> بالإسلام فقتلوه ؛ ففيهم نزلت هذه الآية . وكذلك قال معقل بن أبي مسكين : كانت الأنبياء صلوات الله عليهم تجيء إلى بني إسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم ، فيقوم قوم ممن أتبعهم فيأمرون بالقسط ، أي بالعدل ، فيقتلون . وقد روي عن ابن مسعود قال قال النبي ﷺ : « بشس القوم قوم يقتلون الذين يأمرهم بالقسط من الناس ، بشس القوم قوم لا يأمرهم بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، بشس القوم قوم يمشي المؤمن بينهم بالتيقّة » وروى أبو عبيدة بن الجراح أن النبي ﷺ قال : « قتل بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة رجل وأثنا عشر رجلاً من عبّاد بني إسرائيل فأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر فقتلوا جميعاً في آخر النهار من ذلك اليوم وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية » . ذكره المهدوي وغيره . وروى شعبة عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم سبعين نبياً ثم تقوم سوقُ بقلهم من آخر

(١) في ز : يأمرهم .

النهار. فإن قال قائل: الذين وُعظوا بهذا لم يقتلوا نبياً. فالجواب عن هذا أنهم رضوا فعل من قتل فكانوا بمنزلته؛ وأيضاً فإنهم قاتلوا النبي ﷺ وأصحابه وهموا بقتلهم؛ قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾<sup>(١)</sup>.

الثانية - دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدمة، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة. قال الحسن قال النبي ﷺ: «من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه». وعن دزة بنت أبي لهب قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال: مَنْ خَيْرُ الناس يا رسول الله؟ قال: «أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم لرحمه». وفي التنزيل: ﴿الْمُتَافِقُونَ وَالْمُتَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ ثم قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾<sup>(٢)</sup>. فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين؛ فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه. ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد، وإنما يقوم به السلطان إذ كانت إقامة الحدود إليه، والتعزير إلى رأيه، والحبس والإطلاق له، والنفي والتغريب؛ فينصب في كل بلدة رجلاً صالحاً قوياً عالماً أميناً ويأمره بذلك، ويمضي الحدود على وجهها من غير زيادة. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾<sup>(٣)</sup>.

الثالثة - وليس من شرط الناهي أن يكون عدلاً عند أهل السنة، خلافاً للمبتدعة حيث تقول: لا يغيره إلا عدل. وهذا ساقط؛ فإن العدالة محصورة في القليل من الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام في جميع الناس. فإن تشبثوا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾<sup>(٥)</sup> ونحوه، قيل لهم: إنما وقع الذم ها هنا على ارتكاب ما نهى عنه لا على نهي عن المنكر. ولا شك

(١) راجع ٣٩٧/٧. (٢) راجع ١٩٩/٨ و ٢٠٢. (٣) راجع ٧٢/١٢.

(٤) راجع ٣٦٤/١. (٥) راجع ٨١/١٨.

في أن النهي عنه ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه ، ولذلك يدور في جهنم كما يدور الحمار بالزحى ؛ كما بيناه في البقرة عند قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ <sup>(١)</sup> .

**الرابعة -** أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه ، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره ؛ فإن لم يقدر فبلسانه ، فإن لم يقدر فبقلبه ليس عليه أكثر من ذلك . وإذا أنكر بقلبه فقد أدى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك . قال : والأحاديث عن النبي ﷺ في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً ولكنها مقيدة بالاستطاعة . قال الحسن : إنما يُكَلِّمُ مؤمن يُرجى أو جاهل يُعَلِّمُ ؛ فأما من وضع سيفه أو سوطه فقال : أَتَقْنِي أَتَقْنِي فما لك وله . وقال ابن مسعود : يحسب المرء إذا رأى منكراً لا يستطيع تغييره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره . وروى ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « لا يحل للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه » . قالوا : يا رسول الله وما إذلاله نفسه ؟ قال : « يتعرض من البلاء لئلا لا يقوم له » .

قلت : وخَرَّجه ابن ماجه عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن بن جندب عن حذيفة عن النبي ﷺ ، وكلاهما قد تُكَلِّمُ فيه . وروي عن بعض الصحابة أنه قال : إن الرجل إذا رأى منكراً لا يستطيع النكير عليه فليقل ثلاث مرات « اللهم إن هذا منكراً » فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليه ، وزعم ابن العربي أن من رجا زواله وخاف على نفسه من تغييره الضرب أو القتل جاز له عند أكثر العلماء الاقتحام عند هذا الغرر <sup>(٢)</sup> ، وإن لم يرج زواله فأَيُّ فائدة عنده . قال : والذي عندي أن النية إذا خلصت فليقتحم كيف ما كان ولا يبالي .

قلت : هذا خلاف ما ذكره أبو عمر من الإجماع . وهذه الآية تدل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع خوف القتل . وقال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ <sup>(٣)</sup> . وهذا إشارة إلى الإذابة .

(١) راجع ١/٢٦٥ .

(٢) الغرر : الخطر . المصباح . (٣) راجع ١٤/٦٨ .

الخامسة - روى الأئمة عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، وبالبلسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء، يعني عوام الناس. فالمنكر إذا أمكنت إزالته باللسان للنهائي فليفعله، وإن لم يمكنه إلا بالعقوبة أو بالقتل فليفعل، فإن زال بدون القتل لم يجز القتل؛ وهذا تلقى من قول الله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي نَفِيلٍ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>. وعليه بنى العلماء أنه إذا دفع الصائل<sup>(٢)</sup> على النفس أو على المال عن نفسه أو عن ماله أو نفس غيره فله ذلك ولا شيء عليه. ولو رأى زيد عمراً وقد قصد مال بكر فيجب عليه أن يدفعه عنه إذا لم يكن صاحب المال قادراً عليه ولا راضياً به؛ حتى لقد قال العلماء: لو فرضنا<sup>(٣)</sup> [قودا]. وقيل: كل بلدة يكون فيها أربعة أهلها معصومون من البلاء: إمام عادل لا يظلم، وعالم على سبيل الهدى، ومشايخ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحرضون على طلب العلم والقرآن، ونساؤهم مستورات لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى.

السادسة - روى أنس بن مالك قال قيل: يا رسول الله، متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم». قلنا: يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: «الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالتكم». قال زيد: تفسير معنى قول النبي ﷺ «والعلم في رذالتكم» إذا كان العلم في الفساق. خرجه ابن ماجه. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في «المائدة»<sup>(٤)</sup> وغيرها إن شاء الله تعالى. وتقدم معنى «فَبَشِّرْهُمْ» و«حِطَّتْ» في البقرة<sup>(٥)</sup> فلا معنى للإعادة.

[٢٣] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) راجع ٣١٩/١٦. (٢) في د: القاتل.

(٣) بياض في أكثر الأصول. الزيادة من د و ب: يعني لو فرضنا أن دفع الجاني أدى إلى موته فأخذ فيه بالقود فلا عليه لأنه ناج عند الله. والله أعلم.

(٤) راجع ٢٥٣/٦. (٥) راجع ٢٣٨/١ و ٤٨/٣.

فيه ثلاث مسائل :

**الأولى -** قال ابن عباس : هذه الآية نزلت بسبب أن رسول الله ﷺ دخل بيت المِدرّاس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله . فقال له نُعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أي دين أنت يا محمد؟ فقال النبي ﷺ : «إني على ملة إبراهيم» . فقالا : فإن إبراهيم كان يهودياً . فقال النبي ﷺ : «فهللما إلى التوراة فهي بيننا وبينكم» . فأبى عليه فنزلت الآية . وذكر النقاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوة محمد ﷺ ؛ فقال لهم النبي ﷺ : «هللما إلى التوراة ففيها صفتي» فأبوا . وقرأ الجمهور «لِيُحْكَمْ» وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع «لِيُحْكَم» بضم الياء . والقراءة الأولى أحسن ؛ لقوله تعالى : ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ .

**الثانية -** في هذه الآية دليل على وجوب ارتفاع المدعو إلى الحاكم لأنه دعي إلى كتاب الله ؛ فإن لم يفعل كان مخالفاً يتعين عليه الزجر بالأدب على قدر المخالف والمخالف . وهذا الحكم جار عندنا بالأندلس وبلاد المغرب وليس بالديار المصرية . وهذا الحكم الذي ذكرناه مبين في التنزيل في سورة «النور» في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ - إِلَى قَوْلِهِ - بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>(١)</sup> . وأسد الزهري عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال : «من دعاه خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم ولا حق له» . قال ابن العربي : وهذا حديث باطل . أمّا قوله «فهو ظالم» فكلام صحيح . وأمّا قوله «فلا حق له» فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق قال ابن خُوَيزَرٍ مَنَدَادُ المَالِكِيِّ : واجب على كل من دُعي إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يُعلم أن الحاكم فاسق ، أو يُعلم عداؤه<sup>(٢)</sup> من المدعي والمدعى عليه .

**الثالثة -** وفيها دليل على أن شرائع من قبلنا شريعة لنا إلا ما علمنا نسخه ، وأنه يجب علينا الحكم بشرائع الأنبياء قبلنا ، على ما يأتي بيانه . وإنما لا نقرأ التوراة ولا نعمل

(١) راجع ٢٩٣/١٢ فيما بعد .

(٢) في الأصول : عداوة بين المدعي والمدعى عليه ؛ والتصويب من ز .

بما فيها لأن من هي في يده غير أمين عليها وقد غيرها وبدّلها، ولو علمنا أن شيئاً منها لم يتغير ولم يتبدّل جاز لنا قراءته. ونحو ذلك روي عن عمر حيث قال لكعب: إن كنت تعلم أنها التوراة التي أنزلها الله على موسى بن عمران فأقرأها. وكان عليه السلام عالماً بما لم يغيّر منها فلذلك دعاهم إليها وإلى الحكم بها. وسيأتي بيان هذا في «المائدة»<sup>(١)</sup> والأخبار الواردة في ذلك إن شاء الله تعالى. وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في ذلك. والله أعلم.

[٢٤] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن نَّمَسْنَا النَّارَ إِلَّا آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّمُوا فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَقْتُلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

إشارة إلى التولّي والإعراض، وأغترار منهم في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك من أقوالهم. وقد مضى الكلام في معنى قولهم: ﴿لَن نَّمَسْنَا النَّارَ﴾ في البقرة<sup>(٣)</sup>.

[٢٥] ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

خطاب للنبي ﷺ وأُمّتِهِ على جهة التوقيف والتعجّب، أي فكيف يكون حالهم أو كيف يصنعون إذا حشروا يوم القيامة وأضمحلت عنهم تلك الزخارف التي أدعوها في الدنيا، وجوزوا بما اكتسبوه من كفرهم وأجترائهم<sup>(٤)</sup> وقبيح أعمالهم. واللام في قوله «ليوم» بمعنى «في»؛ قاله الكسائي. وقال البصريون: المعنى لحساب يوم. الطبري: لما يحدث في يوم.

[٢٦] ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٦﴾

(١) راجع ٢١٢/٦. (٢) راجع ١٢٠/٦.

(٣) راجع ١٠/٢. (٤) في د: أجترامهم.

قال علي رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «لما أراد الله تعالى أن ينزل فاتحة الكتاب وآية الكرسي وشهد الله وقل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب تعلقن بالعرش وليس بينهن وبين الله حجاب وقلن يا رب تهبط بنا دار الذنوب وإلى من يعصيك فقال الله تعالى وعزتي وجلالي لا يقرأكن عبد عقب كل صلاة مكتوبة إلا أسكنته حظيرة القدس على ما كان منه، وإلا نظرت إليه بعيني المكنونة في كل يوم سبعين نظرة، وإلا قضيت له في كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، وإلا أعدته من كل عدو ونصرته عليه ولا يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت».

وقال معاذ بن جبل: أحبتست عن النبي ﷺ يوماً فلم أصل معه الجمعة فقال: «يا معاذ ما منعك من صلاة الجمعة؟» قلت: يا رسول الله، كان ليوحنا بن باري اليهودي عليّ أوقيّة من يتر وكان على بابي يرصدني فأشفقت أن يحبسني دونك.

قال: «أتحب يا معاذ أن يقضي الله دينك؟» قلت نعم. قال: «قل كل يوم قل اللهم مالك الملك - إلى قوله - بغير حساب رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي منهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء أقض عني ديني فلو كان عليك ملء الأرض ذهباً لأداه الله عنك». خَرَّجَهُ أَبُو نَعِيمٍ الْحَافِظُ، أَيْضاً عَنْ عَطَاءِ الْخِرَاسَانِيِّ أَنَّ مَعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ: عَلِمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ - أَوْ كَلِمَاتٍ - مَا فِي الْأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو بِهِمْ وَهُوَ مَكْرُوبٌ أَوْ غَارِمٌ أَوْ ذُو دَيْنٍ إِلَّا قَضَى اللَّهُ عَنْهُ وَفَرَّجَ هَمَّهُ، أَحْتَبَسْتُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَذَكَرَهُ. غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ عَطَاءٍ أَرْسَلَهُ عَنْ مَعَاذٍ.

وقال ابن عباس وأنس بن مالك: لما أفتتح رسول الله ﷺ مكة ووعد أمته ملك فارس والروم قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات! من أين لمحمد ملك فارس والروم! هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: نزلت دامغة لباطل نصارى أهل نجران في قولهم: إن عيسى هو الله؛ وذلك أن هذه الأوصاف تبين لكل صحيح الفطرة أن عيسى ليس في شيء منها. قال ابن إسحاق: أعلم الله عز وجل في هذه الآية بعنادهم وكفرهم، وأن عيسى ﷺ وإن كان الله تعالى



أعطاه آياتٍ تدل على نبوته من إحياء الموتى وغير ذلك فإن الله عز وجل هو المنفرد بهذه الأشياء؛ من قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾. وقوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فلو كان عيسى إلهاً كان هذا إليه؛ فكان في ذلك اعتبار وآية بيته<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ أختلف النحويون في تركيب لفظة «اللهم» بعد إجماعهم أنها مضمومة الهاء مشددة الميم المفتوحة، وأنها منادى؛ وقد جاءت خفيفة الميم في قول الأعشى:

كـدعوة من أبي رباح يسمعها اللهم<sup>(٢)</sup> الكبار

قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين: إن أصل اللهم يا الله، فلما استعملت الكلمة دون حرف النداء الذي هو «يا» جعلوا بدله هذه الميم المشددة فجاءوا بحرفين وهما الميمان عوضاً من حرفين وهما الياء والألف، والضممة في الهاء هي ضمة الاسم المنادى المفرد. وذهب الفراء والكوفيون إلى أن الأصل في اللهم يا الله أمئنا بخير؛ فحذف وخلط الكلمتين، وأن الضمة التي في الهاء هي الضمة التي كانت في أمئنا لما حذفت الهمزة أنتقلت الحركة. قال النحاس: هذا عند البصريين من الخطأ العظيم، والقول في هذا ما قاله الخليل وسيبويه. قال الزجاج: محال أن يترك الضم الذي هو دليل على النداء المفرد، وأن يجعل في أسم الله ضمة أم، هذا إلحاد في أسم الله تعالى. قال ابن عطية: وهذا غلو من الزجاج، وزعم أنه ما سمع قط يا أله أم، ولا تقول العرب يا اللهم. وقال الكوفيون: إنه قد يدخل حرف النداء على «اللهم» وأنشدوا على ذلك قول الراجز:

غفرت أو عذبت يا للهما

آخر:

وما عليك أن تقول لي كلما سبخت أو هللت يا للهم ما<sup>(٣)</sup>  
اردد علينا شيخنا مسلماً فإننا من خيره لن نعدما

(١) في ب و د: اعتباراً به بيته.

(٢) هكذا نسخ «الأصل» و«معاني القرآن» للفراء، وفي «اللسان»: لا هم الكبار، بتخفيف الميم.

(٣) في «اللسان»: يا للهما، وما في «الأصول ومعاني القرآن» ٢٠٣/١ و«الخزانة» ٣٥٨/١ هو ما أثبتناه.

آخر:

إني إذا ما حَدَثْتُ أَلَمَّا أقول يا اللَّهُمَّ يا اللَّهُمَّا  
قالوا: فلو كان الميم عوضاً من حرف النداء لما اجتمعوا. قال الزجاج: وهذا شاذٌ ولا  
يعرف قائله، ولا يترك له ما كان في كتاب الله وفي جميع دِيَوَانِ العرب؛ وقد ورد مثله في  
قوله<sup>(١)</sup>:

هما نفثا في فيّ من فَمَوْنِهِمَا على النَّابِجِ العَاوِي أَشَدَّ رِجَامِ  
قال الكوفيون: وإنما تزداد الميم مخففة في فَمَ وأبْنُمْ، وأما ميم مشددة فلا تزداد.  
وقال بعض النحويين: ما قاله الكوفيون خطأ؛ لأنه لو كان كما قالوا كان يجب أن  
يقال: «اللهم» ويُقتصر عليه لأنه معه دعاء. وأيضاً فقد تقول: أنت اللهم الرزاق. فلو  
كان كما أدعوا لكنت قد فصلت بجملتين بين الابتداء والخبر. قال النَّضْرُ بن شُمَيْل:  
من قال اللهم فقد دعا الله تعالى بجميع أسمائه كلها. وقال الحسن: اللهم تجمع  
الدعاء.

قوله تعالى: ﴿مَالِكِ الْمُلْكِ﴾ قال قتادة: بلغني أن النبي ﷺ سأل الله عز وجل أن  
يعطي أمته ملك فارس فأنزل الله هذه الآية. وقال مقاتل: سأل النبي ﷺ أن يجعل الله له  
ملك فارس والروم في أمته؛ فعلمه الله تعالى بأن يدعو بهذا الدعاء. وقد تقدّم معناه.  
و «مالك» منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان؛ ومثله قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(٢)</sup> ولا يجوز عنده أن يوصف الله؛ لأنه قد ضمت إليه الميم.  
وخالفه محمد بن يزيد وإبراهيم بن السري<sup>(٣)</sup> الزجاج فقالا: «مالك» فتي الإعراب  
صفة لاسم الله تعالى، وكذلك ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. قال أبو علي؛ هو مذهب

(١) القائل هو الفرزدق. وصف شاعرين من قومه نزع في الشعر إليهما. وأراد بالنابج العاوي من  
هجاه، وجعل الهجاء كالمراجعة لجعله المهاجي كالكلب النابج؛ والرجام المراجعة. كذا عن شرح  
الشواهد. والرجام الحجارة.

(٢) راجع ٢٦٥/١٥.

(٣) في الأصول؛ والزجاج بالواو وليس بشيء. لأن الزجاج هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو  
إسحاق الزجاج.

أبي العباس المبرد؛ وما قاله سيبويه أضوب وأبين؛ وذلك أنه ليس في الأسماء الموصوفة شيء على حدّ «اللهم» لأنه أسم مفرد ضم إليه صوت، والأصوات لا توصف؛ نحو غاق وما أشبهه. وكان حكم الاسم المفرد ألا يوصف وإن كانوا قد وصفوه في مواضع. فلما ضمّ هنا ما لا يوصف إلى ما كان قياسه ألا يوصف صار بمنزلة صوت ضم إلى صوت؛ نحو حيّهل فلم يوصف. و «الْمُلْكُ» هنا النبوة؛ عن مجاهد. وقيل، الغلبة. وقيل: المال والعبيد. الزجاج: المعنى مالك العباد وما ملكوا. وقيل: المعنى مالك الدنيا والآخرة. ومعنى «تُؤْتِي الْمُلْكَ»<sup>(١)</sup> أي الإيمان والإسلام. «مَنْ تَشَاءُ» أي من تشاء أن تؤتیه إياه، وكذلك ما بعده، ولا بدّ فيه من تقدير الحذف، أي وتنزع الملك ممن تشاء أن تنزعه منه، ثم حذف هذا، وأنشد سيبويه:

ألا هل لهذا الدهر من متعلّل  
على الناس مهما شاء بالناس يفعل<sup>(٢)</sup>  
قال الزجاج: مهما شاء أن يفعل بالناس يفعل. وقوله: «تُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ» يقال: عز إذا علا وقهر وغلب؛ ومنه، «وعزّني في الخطاب»<sup>(٣)</sup>. «وَيُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ» ذل يذل ذلاً إذا غلب وعلا وقهراً<sup>(٤)</sup>. قال طرفة:

بطيء عن الجلى سريع إلى الخنا  
ذليل بأجماع الرجال ملهّد<sup>(٥)</sup>  
«يَبْدِكَ الْخَيْرُ» أي بيدك الخير والشر فحذف؛ كما قال: «سَرَابِيلُ تَقِيكُمُ الْحَرَّ»<sup>(٦)</sup>. وقيل: خص الخير لأنه موضع دعاء ورغبة في فضله. قال النقاش: بيدك الخير، أي النصر والغنيمة. وقال أهل الإشارات. كان أبو جهل يملك المال الكثير، ووقع في الرس<sup>(٧)</sup> يوم بدر، والفقراء ضهيّب وبلال وخبّاب لم يكن لهم مال، وكان ملكهم الإيمان «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ» تقيم الرسول يتيّم أبي طالب على رأس الرسّ حتى يُنادي أبدانا قد أنقلب

(١) في ز: تؤتي الإيمان.

(٢) البيت للأسود بن يعفر النهشلي. يقول: إن هذا الدهر يذهب ببهجة الإنسان وشبابه، ويتعلّل في فعله ذلك تعلل المتجنّي على غيره (عن شرح الشواهد). (٣) راجع ١٥/١٧٤. (٤) من ب ود.

(٥) الجلى: الأمر العظيم الذي يدعى له ذوو الرأي. والخنا: الفساد والفحش في المنطق. والذليل: المقهور، وهو ضدّ العزيز. وأجماع: جمع جُفْع، وهو ظهر الكف إذا جمعت أصابعك وضممتها. والملهّد: المضروب، وهو المدفع. (عن شرح المعلقات).

(٦) راجع ١٠/١٦٠. (٧) الرس: البشر المطوية بالحجارة.

إلى القليب: يا عثبة، يا شبيبة تعز من تشاء وتذل من تشاء. أي صهييب، أي بلال<sup>(١)</sup>، لا تعتقدوا أنا منعناكم من الدنيا<sup>(٢)</sup> ببغضكم. بيدك الخير ما منعكم من عجز ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إنعام الحق عام يتولى من يشاء.

[٢٧] ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ قَشَاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٧).

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدي في معنى قوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ الآية، أي تدخل ما نقص من أحدهما في الآخر، حتى يصير النهار خمس عشرة ساعة وهو أطول ما يكون، والليل تسع ساعات وهو أقصر ما يكون، وكذا ﴿تُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وهو قول الكلبي، وروي عن ابن مسعود. وتحتل ألفاظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار، كأن زوال أحدهما ولوج في الآخر. وأختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فقال الحسن: معناه تُخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، وروي نحوه عن سلمان الفارسي. وروى معمر عن الزهري أن النبي ﷺ دخل على نسائه فإذا بأمرأة حسنة الهيئة قال: «من هذه؟» قلن إحدى خالاتك. قال: «ومن هي؟» قلن: هي خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث. فقال النبي ﷺ: «سبحان الذي يخرج الحي من الميت». وكانت امرأة صالحة وكان أبوها كافراً. فالمراد على هذا القول موت قلب الكافر وحياة قلب المؤمن؛ فالموت والحياة مستعاران<sup>(٣)</sup>. وذهب كثير من العلماء إلى أن الحياة والموت في الآية حقيقتان؛ فقال عكرمة: هي إخراج الدجاجة وهي حية من البيضة وهي ميتة، وإخراج البيضة وهي ميتة من الدجاجة وهي حية. وقال ابن مسعود: هي النطفة تخرج من الرجل وهي ميتة وهو حي، ويخرج الرجل منها حياً وهي ميتة. وقال عكرمة والسدي: هي الحبة تخرج من السنبل والسنبل تخرج من الحبة، والنواة من النخلة والنخلة

(١) في ز: صهيياً وبلالاً.

(٢) في ز: منعناكم الدنيا، وفي د: إنما منعناكم.

(٣) في د، ب: يستعاران.

تخرج من النواة؛ والحياة في النخلة والسنبلة تشبيه. ثم قال: ﴿وَتَزْرُقُ مِنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير تضيق ولا تقتير؛ كما تقول: فلان يعطي بغير حساب؛ كأنه لا يحسب ما يعطي.

[٢٨] ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

فيه مسألتان:

الأولى - قال ابن عباس: نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء؛ ومثله ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾<sup>(١)</sup> وهناك يأتي بيان هذا المعنى. ومعنى ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي فليس من حزب الله ولا من أوليائه في شيء؛ مثل ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾<sup>(٢)</sup>. وحكى سيبويه «هو مني فرسخين» أي من أصحابي ومعني. ثم أستثنى وهي:

الثانية - فقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً﴾ قال معاذ بن جبل ومجاهد: كانت التقية في جِدَّة الإسلام قبل قوَّة المسلمين؛ فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوهم. قال ابن عباس: هو أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا يُقتل ولا يأتي مأثماً. وقال الحسن: التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة، ولا تقية في القتل. وقرأ جابر بن زيد ومجاهد والضحاك: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تَقِيَّةً» وقيل: إن المؤمن إذا كان قائماً بين الكفار فله أن يداريهم<sup>(٣)</sup> باللسان إذا كان خائفاً على نفسه وقلبه مطمئن بالإيمان. والتقية لا تحل إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم. ومن أكره على الكفر فالصحيح أن له أن يتصلب ولا يجيب<sup>(٤)</sup> إلى التلفظ بكلمة الكفر؛ بل يجوز له ذلك على ما يأتي بيانه في «النحل»<sup>(٥)</sup> إن شاء الله تعالى. وأمال حمزة والكسائي «تقاة»، وفخم الباقون؛ وأصل «تقاة» وقية علي وزن فُعلة؛ مثل

(٣) في ز: أن يداهنهم.

(٢) راجع ٢٤٦/٨.

(١) راجع ص ١٧٨ من هذا الجزء.

(٥) راجع ١٨٠/١٠.

(٤) في ب وز: ولا يجب التلفظ.

تُؤَدَّةً وَتُهْمَةً ، قلبت الواو تاء والياء ألفاً . وروى الضحاك عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري وكان بدرياً تقياً وكان له جلف من اليهود؛ فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال عبادة: يا نبي الله، إن معي خمسمائة رجل من اليهود، وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو. فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. وقيل: إنها نزلت في عمار بن ياسر حين تكلم ببعض ما أراد منه المشركون ، على ما يأتي بيانه في «النحل».

قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ قال الزجاج: أي ويحذركم الله إياه. ثم استغنوا عن ذلك بذا وصار المستعمل؛ قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾<sup>(١)</sup> فمعناه تعلم ما عندي وما في حقيقتي ولا أعلم ما عندك ولا ما في حقيقتك. وقال غيره: المعنى ويحذركم الله عقابه؛ مثل «وأسأل القرية». وقال: «تعلم ما في نفسي» أي مغيبني. فجعلت النفس في موضع الإضمار لأنه فيها يكون. ﴿وَالِىَ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ أي وإلى جزاء الله المصير. وفيه إقرار بالبعث.

[٢٩] ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فهو العالم بخفيات الصدور وما أشتملت عليه، وبما في السموات والأرض وما أحتوت عليه، علام الغيوب لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا يغيب عنه شيء، سبحانه لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة.

[٣٠] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْقَضًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

«يوم» منصوب متصل بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. يَوْمَ تَجِدُ﴾. وقيل: هو متصل بقوله: ﴿وَأِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ. يَوْمَ تَجِدُ﴾. وقيل: هو متصل بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. يَوْمَ تَجِدُ﴾ ويجوز أن يكون منقطعاً على إضمار أذكر؛ ومثله قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ. يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضُ﴾<sup>(١)</sup>. و«مُخْضَرًا» حال من الضمير المحذوف من صلة «ما» تقديره يوم تجد كل نفس ما عملته من خير محضراً. هذا على أن يكون «تجد» من وجدان الضالة. و«ما» من قوله ﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ﴾ عطف على «ما» الأولى. و«تَوَدَّ» في موضع الحال من «ما» الثانية. وإن جعلت «تَجِدُ» بمعنى تعلم كان «مُخْضَرًا» المفعول الثاني. وكذلك تكون «تَوَدَّ» في موضع المفعول الثاني؛ تقديره يوم تجد كل نفس جزاء ما عملت محضراً. ويجوز أن تكون «ما» الثانية رفعاً بالابتداء، و«تَوَدَّ» في موضع رفع على أنه خبر الابتداء، ولا يصح أن تكون «ما» بمعنى الجزاء؛ لأن «تَوَدَّ» مرفوع، ولو كان ماضياً لجاز أن يكون جزاء، وكان يكون معنى الكلام: وما عملت من سوء ودت لو أن<sup>(٢)</sup> بينها وبينه أمداً بعيداً؛ أي كما بين المشرق والمغرب. ولا يكون المستقبل إذا جعلت «ما» للشرط إلا مجزوماً؛ إلا أن تحمله على تقدير حذف الفاء، على تقدير: وما عملت من سوء فهي تود. أبو علي: هو قياس قول الفراء عندي؛ لأنه قال في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَطْعَمْتُهُمْ إِنَّكُمْ لَمَشْرُكُونَ﴾<sup>(٣)</sup>: إنه على حذف الفاء. والأمد: الغاية، وجمعه آماد. ويقال: أستولى على الأمد، أي غلب سابقاً. قال النابغة:

إِلَّا لِمِثْلِكَ أَوْ مِنْ أَنْتَ سَابِقُهُ      سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا أَسْتَوْلَى عَلَى الْأَمَدِ

والأمد: الغضب. يقال: أمد أمداً، إذا غضب [غضباً]<sup>(٤)</sup>.

[٣١] ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الحُبُّ: المحبة، وكذلك الحُبُّ بالكسر. والحِبُّ أيضاً الحبيب؛ مثلُ الحِندُن والحَدِيدِ؛ يقال أحبه فهو مُحِبٌّ، وحبّه يَحِبُّه (بالكسر) فهو مُحْبُوبٌ. قال الجوهري: وهذا شاذ؛ لأنه

(١) راجع ٣٨٢/٩. (٢) في د: لو كان.

(٣) راجع ٧٧/٧. (٤) الزيادة من د وفي ب: أي غضب.

لا يأتي في المضاعف يفعل بالكسر. قال أبو الفتح: والأصل فيه حُبُّ كظُرْف، فأسكنت الباء وأدغمت في الثانية. قال ابن الدّهان سعيد: في حَبِّ لغتان: حَبٌّ وأَحَبٌّ، وأصل «حَب» في هذا البناء حُبُّ كظُرْف؛ يدل على ذلك قولهم: حَبَّيت، وأكثر ما ورد في فعل من فَعَلَ. قال أبو الفتح: والدلالة على أَحَبِّ قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ بضم الياء. و﴿آتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ و«حَبٌّ» يرد على فَعَلَ لقولهم حَبِيب. وعلى فعل كقولهم محبوب: ولم يرد أسم الفاعل من حَبِّ المتعدي، فلا يقال: أنا حَابٌّ. ولم يرد أسم المفعول من أفعل إلا قليلاً؛ كقوله:

مَنِّي بمنزلة المَحَبِّ المَكْرُم<sup>(١)</sup>

وحكى أبو زيد: حَبِيتُهُ أَحَبُّهُ. وأنشد:

فرأى لولا تفرُّه ما حَبِيتُهُ ولا كان أدنى من عَوَيْف وهاشم

وأنشد:

لَعُمْرُكَ إِنِّي وَطَلابٌ مَضِرٌّ لَكَالمُزْدَادِ مِمَّا حَبَّ بَعْدًا

وحكى الأصمعيّ فتح حرف المضارعة مع الباء وحدها. والحُبُّ الخابية، فارسيّ معرّب، والجمع حِبَابٌ وحَبِيتٌ؛ حكاه الجوهريّ. والآية نزلت في وفد نَجْران إذ زعموا أن ما آدعوه في عيسى حُبٌّ لله عز وجل؛ قاله محمد بن جعفر بن الزبير. وقال الحسن وأبن جريج: نزلت في قوم من أهل الكتاب قالوا: نحن الذين نُحِبُّ ربنا. وروى أن المسلمين قالوا: يا رسول الله، واللّه إنا لنُحِبُّ ربنا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾. قال ابن عرفة: المحبة عند العرب إرادة<sup>(٢)</sup> الشيء على قصد له. وقال الأزهري: محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما وأتباعه أمرهما؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾. ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يغفر لهم. وقال سهل بن عبد الله: علامة حُبِّ الله حب القرآن، وعلامة حب

(١) هذا عجز بيت لعنرة في معلقته وصدره:

ولقد نزلت فلا تظني غيره

(٢) في ب و د: إرادتها.



القرآن حب النبي ﷺ. وعلامة حب النبي ﷺ حب السنة، وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبي ﷺ وحب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه، وعلامة حب نفسه أن يبغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الرزاد والبُلغة. وروى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ قال: «على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس» خرجه أبو عبد الله الترمذي. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «من أراد أن يحبه الله فعليه بصدق الحديث وأداء الأمانة وألا يؤدي جاره». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال إني أحب فلاناً فأحبه قال فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء - قال - ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول إني أبغض فلاناً فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه - قال - فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض». وسيأتي لهذا مزيد بيان في آخر سورة «مريم»<sup>(١)</sup> إن شاء الله تعالى. وقرأ أبو رجاء العطاردي ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾<sup>(٢)</sup> بفتح الباء، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ عطف على «يُحِبِّكُمْ». وروى محبوب عن أبي عمرو بن العلاء أنه أدغم الراء من «يغفر» في اللام من «لكم». قال النحاس: لا يجوز الخليل وسيبويه إدغام الراء في اللام، وأبو عمرو أجل من أن يغلط في مثل هذا ، ولعله كان يخفي الحركة كما يفعل في أشياء كثيرة.

[٣٢] ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ يأتي بيانه في «النساء»<sup>(٣)</sup>.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ شرط، إلا أنه ماض لا يعرب. والتقدير فإن تولوا على كفرهم وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم كما تقدم.

(١) راجع ١١/١٦٠.

(٢) كذا في الأصول، راجع البحر ٣/٤٣١، في الشواذ ص ٢٠: يحبيكم بفتح الباء.

(٣) راجع ٥/٢٥٨.

وقال «فَإِنَّ اللَّهَ». ولم يقل «فإنه» لأن العرب إذا عظمت الشيء أعادت ذكره؛ وأنشد  
سيبويه:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء      نَعَصَ الموتُ ذَا الغنى والفَقِيرَ<sup>(١)</sup>

[٣٣] ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ أصطفى أختار، وقد تقدّم في  
البقرة<sup>(٢)</sup>. وتقدّم فيها اشتقاق آدم<sup>(٣)</sup> وكنيته، والتقدير إن الله أصطفى دينهم وهو دين  
الإسلام؛ فحذف المضاف. وقال الزجاج: أختارهم للنبوة على عالمي زمانهم.  
«ونوحاً» قيل إنه مشتق من ناح ينوح، وهو أسم أعجمي إلا أنه أنصرف لأنه على ثلاثة  
أحرف، وهو شيخ المرسلين، وأول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام  
بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر القربات، ومن قال: إن إذريس  
كان قبله من المؤرّخين فقد وهم على ما يأتي بيانه في «الأعراف»<sup>(٤)</sup> إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ تقدّم في البقرة معنى الآل  
وعلى ما يطلق مستوفى<sup>(٥)</sup>. وفي البخاريّ عن ابن عباس قال: آل إبراهيم وآل عمران  
المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنْ أُولَى  
النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقيل:  
آل إبراهيم إسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وأن محمداً ﷺ من آل إبراهيم.  
وقيل: آل إبراهيم نفسه، وكذا آل عمران؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ  
وَآلُ هَارُونَ﴾<sup>(٦)</sup>. وفي الحديث: «لقد أُعْطِيَ مِزْمَاراً مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»؛ وقال  
الشاعر:

(١) البيت لسودة بن عديّ. وقيل: لامية بن أبي الصلت. (عن شرح الشواهد).

(٢) راجع ١٣٣/٢.

(٣) راجع ٢٧٩/١.

(٤) راجع ٢٣٢/٧.

(٥) راجع ٣٨١/١.

(٦) راجع ٢٤٧/٣.

وَلَا تَبْكُ<sup>(١)</sup> مَيِّتًا بَعْدَ مَيِّتٍ أَحَبَّهُ عَلِيٌّ وَعَبَّاسٌ وَأَلُّ أَبِي بَكْرٍ  
وقال آخر:

يُلاقِي مَنْ تَذَكَّرِ آلَ لَيْلَى كَمَا يَلْقَى السَّلِيمُ مِنَ الْعِدَادِ<sup>(٢)</sup>

أراد من تذكر ليلي نفسها. وقيل: آل عمران آل إبراهيم؛ كما قال: ﴿ذُرِّيَّةَ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ﴾. وقيل: المراد عيسى، لأن أمه ابنة عمران. وقيل: نفسه كما ذكرنا. قال مقاتل: هو عمران أبو موسى وهارون، وهو عمران بن يضر بن فاهات بن لاوى بن يعقوب. وقال الكلبي: هو عمران أبو مريم، وهو من ولد سليمان عليه السلام. وحكى السهيلي: عمران بن ماتان، وأمرأته حنة (بالنون). وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل بقضهم وقضيضهم من نسلهم. ولم ينصرف عمران لأن في آخره ألفاً ونوناً زائدتين. ومعنى قوله: «عَلَى الْعَالَمِينَ» أي على عالمي زمانهم، في قول أهل التفسير. وقال الترمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي: جميع الخلق كلهم. وقيل «عَلَى الْعَالَمِينَ»: على جميع الخلق كلهم إلى يوم الصور، وذلك أن هؤلاء رُسلٌ وأنبياء فهم صفوة الخلق؛ فأما محمد ﷺ فقد جازت<sup>(٣)</sup> مرتبته الاصطفاء لأنه حبيب ورحمة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٤)</sup> فالرسل خلقوا للرحمة، ومحمد ﷺ خلق بنفسه رحمة، فلذلك صار أماناً للخلق، لما بعثه الله مِنْ الخلق العذاب إلى نفخة الصور. وسائر الأنبياء لم يحلوا هذا المحل؛ ولذلك قال عليه السلام: «أنا رحمة مهداة» يخبر أنه بنفسه رحمة للخلق من الله. وقوله «مهداة» أي هدية من الله للخلق. ويقال: اختار آدم بخمسة أشياء: أولها أنه خلقه بيده في أحسن صورة بقدرته، والثاني أنه علّمه الأسماء كلها، والثالث أمر الملائكة بأن يسجدوا له، والرابع أسكنه الجنة، والخامس جعله أبا البشر. واختار نوحاً بخمسة

(١) في الأصول: «ولا تنس» والتصويب من تفسير ابن عطية، والبيت لأراكة بن عبد الله الثقفي في رثاء النبي ﷺ. أي أحبه علي وعباس وأبو بكر، ويريد جميع المؤمنين (ابن عطية) والذي يروى: أجنه: أي ستره في التراب.

(٢) العداد: أعتياج وجع اللدغ، وذلك إذا تمت له سنة مذ يوم لدغ حاج به الألم. وقيل: عداد السليم أن تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء، وما لم تمض قيل: هو في عداده.

(٣) في ب ود: حازت. (٤) راجع ٣٥٠/١١.

أشياء: أولها أنه جعله أبا البشر؛ لأن الناس كلهم غرقوا وصار ذريته هم الباقين، والثاني أنه أطال عمره؛ ويقال: طوبى لمن طال عمره وحسن عمله، والثالث أنه أستجاب دعاءه على الكافرين والمؤمنين، والرابع أنه حمله على السفينة، والخامس أنه كان أول من نسخ الشرائع؛ وكان قبل ذلك لم يحرم تزويج الخالات والعمات. وأختار إبراهيم بخمسة أشياء: أولها أنه جعله أبا الأنبياء؛ لأنه روي أنه خرج من صلبه ألف<sup>(١)</sup> نبي من زمانه إلى زمن النبي ﷺ، والثاني أنه أتخذة خليلاً، والثالث أنه أنجاه من النار، والرابع أنه جعله إماماً للناس، والخامس أنه أبتلاه بالكلمات فوقفه حتى أتمهن. ثم قال: «وَأَلَّ عِمْرَانُ» فإن كان عمران أبا موسى وهارون فإنما أختارهما على العالمين حيث بعث على قومه المَنّ والسلوى وذلك لم يكن لأحد من الأنبياء في العالم. وإن كان أبا مريم فإنه أصطفى له مريم بولادة عيسى بغير أب ولم يكن ذلك لأحد في العالم. والله أعلم.

[٣٤] ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

تقدم في البقرة معنى الذرية وأشتقاقها<sup>(٢)</sup>. وهي نصب على الحال؛ قاله الأخفش. أي في حال كون بعضهم من بعض، أي ذرية بعضها من ولد بعض. الكوفيون: على القطع. الزجاج: بدل، أي أصطفى ذرية بعضها من بعض، ومعنى بعضها من بعض، يعني في التناصر في الدين؛ كما قال: «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ»<sup>(٣)</sup> يعني في الضلالة؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: في الاجتناء والاصطفاء والنبوة. وقيل: المراد به التناسل، وهذا أضعفها.

[٣٥] ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

[٣٦] ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنْ أَلَاؤُنِي وَلَئِي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَلَئِي لَأُعِيدَنَّهَا إِلَيَّ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

(١) في هذا نظر لأن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً كما ورد في الخبر، أكثرهم من ذريته عليه السلام.

(٢) راجع ١٠٧/٢. (٣) راجع ١٩٩/٨.

فيه ثمان مسائل:

**الأولى** - قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ قال أبو عبيدة: «إذ» زائدة. وقال محمد بن يزيد: التقدير أذكر إذ. وقال الزجاج: المعنى وأصطفى آل عمران إذ قالت أمرات عمران. وهي حَتَّة (بالحاء المهملة والنون) بنت فاقود بن قنبل أم مريم جدّة عيسى عليه السلام، وليس بأسم عربي ولا يعرف في العربية حَتَّة أسم امرأة. وفي العربية أبو حَتَّة البدريّ، ويقال فيه: أبو حَبَّة (بالباء بواحدة) وهو أصح، وأسمه عامر، ودير حَتَّة بالشام، ودير آخر<sup>(١)</sup> أيضاً يقال له كذلك؛ قال أبو نؤاس:

يا دَيْرَ حَتَّةٍ مِنْ ذاتِ الْكُفْرِاحِ<sup>(٢)</sup> مَنْ يَصْخُ عَنْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِالصَّاحِي

وحَتَّة في العرب كثير، منهم أبو حَبَّة الأنصاري، وأبو السَّنابل بن بَعْكك المذكور في حديث سُبَيْعَةَ<sup>(٣)</sup> حَبَّة، ولا يعرف حَتَّة بالخاء المعجمة<sup>(٤)</sup> إلا بنت يحيى بن أكثم القاضي، وهي أم<sup>(٥)</sup> محمد بن نصر، ولا يعرف حَتَّة (بالجيم) إلا أبو حَتَّة، وهو خال ذي الرُّمَّة الشاعر. كل هذا من كتاب ابن مأكولاً.

**الثانية** - قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ تقدم معنى النذر<sup>(٦)</sup>، وأنه لا يلزم العبد إلا بأن يلزمه نفسه. ويقال: إنها لما حملت قالت: لئن نَجَّاني الله ووضعت

(١) هو «دير حنة» بالحيرة من بناء نوح (راجع مسالك الأبصار ٣١٢/١ طبعة دار الكتب المصرية).

(٢) الأكرح (بالضم ثم الفتح وياء ساكنة وراء ألف وحاء): مواضع تخرج إليها النصاري في أعيادهم. (عن القاموس). وفي مسالك الأبصار: (أنها قباب صفار يسكنها رهبان يقال للواحد منها الكرح).

(٣) هي سبيعة بنت الحارث الأسلمية، كانت زوجة لسعد بن خولة فمات عنها بمكة فقال لها أبو السنابل حبة: إن أجلك أربعة أشهر وعشر، وقد كانت وضعت بعد وفاة زوجها بليال، قيل خمس وعشرون ليلة، وقيل أقل من ذلك، فلما قال لها أبو السنابل ذلك أتت إلى النبي ﷺ فأخبرته فقال لها: «قد حللت فأنكحي من شئت». روى عنها فقهاء أهل المدينة وفقهاء أهل الكوفة من التابعين حديثها هذا. وذكر ابن سعد أن أبا السنابل بن بعكك قد كان فيمن خطبها. وذكر ابن البرقي أنه تزوجها وأولدها أبنة سنابل. (راجع الاستيعاب وتهذيب التهذيب وأبن سعد).

(٤) وفي المشتبه للذهبي: بالخاء المعجمة ونون.

(٥) الذي في المشتبه: «زوجة محمد».

(٦) راجع ٣/٣٣٠.

ما في بطني لجعلته مُحَرَّرًا. ومعنى «لك» أي لعبادتك. «محرراً» نصب على الحال، وقيل: نعت لمفعول محذوف، أي إني نذرت لك ما في بطني غلاماً محرراً، والأول أولى من جهة التفسير وسياق الكلام والإعراب: أما الإعراب فإن إقامة النعت مقام المنعوت لا يجوز في مواضع، ويجوز على المجاز في أخرى، وأما التفسير فقليل إن سبب قول امرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة لا تَلِد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان، وأنها كانت تحت شجرة فَبَصُرَتْ بطائر يَزُقُّ فَرْخاً فتَحَرَّكَتْ نفسها لذلك، ودعت ربها أن يَهَبَ لها ولداً، ونذرت إن ولدت أن تجعل ولدها<sup>(١)</sup> مُحَرَّرًا: أي عتيقاً خالصاً لله تعالى، خادماً للكنيسة حَيِّساً عليها، مُفَرَّغاً لعبادة الله تعالى. وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، وكان على أولادهم أن يطيعوهم. فلما وضعت مريم قالت: «رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى» يعني أن الأنثى لا تصلح لخدمة الكنيسة. قيل لما يضييها من الحَيْض والأذى. وقيل: لا تصلح لمخالطة الرجال. وكانت ترجو أن يكون ذَكَراً<sup>(٢)</sup> فلذلك حَرَّرَتْ.

**الثالثة -** قال ابن العربي: «لا خلاف أن امرأة عمران لا يتطرق إلى حملها نذر لكونها حرّة، فلو كانت أمراًته أمة فلا خلاف أن المرء لا يصح له نذر في ولده وكيفما تصرف حاله؛ فإنه إن كان الناذر عبداً فلم يتقرر له قول في ذلك؛ وإن كان حراً فلا يصح أن يكون مملوكاً له، وكذلك المرأة مثله؛ فأَيُّ وجه للنذر فيه؟ وإنما معناه - والله أعلم - أن المرء إنما يريد ولده للأنس به والاستنصار والتسلي، فطلبت هذه المرأة الولد أنساً به وسكوناً إليه؛ فلما منّ الله تعالى عليها به نذرت أن حَظَّها من الأنس به متروك فيه، وهو على خدمة الله تعالى موقوف، وهذا نذر الأحرار من الأبرار. وأرادت به مُحَرَّرًا من جهتي، محرراً من رِقِّ الدنيا وأشغالها؛ وقد قال رجل من الصُّوفِيَّةِ لأمّه: يا أُمّة: ذَرِينِي لِلَّهِ أَتَعْبُدُ لَهُ وَأَتَعْلَمُ الْعِلْمَ، فَقَالَتْ: نَعَمْ. فسار حتى تبَصَّرَ ثم عاد إليها فذَقَّ الباب، فقالت مَنْ؟ فقال لها: أَبْنُكَ فلان، قالت: قد تركناك لله ولا نعود فيك.

**الرابعة -** قوله تعالى: «مُحَرَّرًا» مأخوذ من الحُرِّيَّةِ التي هي ضدُّ العُبُودِيَّةِ؛ من هذا تحرير الكتاب، وهو تخليصه من الاضطراب والفساد. وروى خُصِيفٌ عن عِكْرَمَةَ ومجاهد:

(١) في ب: ما ولدته. (٢) في ب ود: غلاماً.

أن المحرّر الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا. وهذا معروف في اللغة أن يقال لكل ما خلّص: حرّ، ومحرّر بمعناه؛ قال ذو الرّمة:

والْقُرْطُ فِي حُرّةِ الدَّفْرِى مُعَلَّقُهُ      تباعد الجبلُ منه فهو يَضْطَرِبُ<sup>(١)</sup>

وطين حرّ لا رمل فيه، وباتت فلانة بليلة حرّة إذا لم يصل إليها زوجها أوّل ليلة؛ فإن تمكّن منها فهي بليلة شيّاء.

**الخامسة** - قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ قال ابن عباس: إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النذر إلا الذكور، فقبل الله مريم. «وأُنْثَىٰ» حال، وإن شئت بدلٌ. فقيل: إنها ربّتها حتى ترعرعت وحينئذ أرسلتها؛ رواه أشهب عن مالك: وقيل: لفتها في خرقتها وأرسلت بها إلى المسجد، فوقت بنذرها وتبرأت منها ولعل الحجاب لم يكن عندهم كما كان في صدر الإسلام؛ ففي البخاري ومسلم أن امرأة سوداء كانت تقمّ المسجد على عهد رسول الله ﷺ فماتت. الحديث.

**السادسة** - قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ هو على قراءة من قرأ «وضعت» بضم التاء من جملة كلامها؛ فالكلام متصل. وهي قراءة أبي بكر وأبن عامر، وفيها معنى التسليم لله والخضوع والتزويه له [أن يخفى<sup>(٢)</sup> عليه شيء]، ولم نقله على طريق الإخبار لأن علم الله في كل شيء قد تقرّر في نفس المؤمن، وإنما قالته على طريق التعظيم والتزويه لله تعالى. وعلى قراءة الجمهور هو من كلام الله عز وجل قدّم، وتقديره أن يكون مؤخّراً بعد ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَدُرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ والله أعلم بما وضعت؛ قاله المهدوي. وقال مكّي: هو إعلام من الله تعالى لنا على طريق التثبيت فقال: والله أعلم بما وضعت أم مريم قالته أو لم نقله. ويقوّي ذلك أنه لو كان من كلام أم مريم لكان وجه الكلام: وأنت أعلم بما وضعت؛ لأنها نادته في أوّل الكلام في قولها: رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ. وروى عن ابن عباس «بما وضعت» بكسر التاء، أي قيل لها هذا.

(١) الذفريان: ما بين يمين العنق ويساره، وتباعد الجبل منه، أي تباعد جبل العنق من القرط لأنها طويلة العنق ليست بوقصاء، ومعلقه، أي مكان تعليقه.

(٢) الزيادة من ب و د.

السابعة - قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ استدل به بعض الشافعية على أن المطاوعة في نهار رمضان لزوجها على الوطء لا تساويه في وجوب الكفارة عليها، أبى العربي، وهذه منه غفلة، فإن هذا خبر عن شرع من قبلنا وهم لا يقولون به، وهذه الصالحة إنما قصدت بكلامها ما تشهد له به بينة حالها ومقطع كلامها، فإنها نذرت خدمة المسجد في ولدها، فلما رآته أنثى لا تصلح وأنها عورة أعتذرت إلى ربها من وجودها لها<sup>(١)</sup> على خلاف ما قصدته فيها. ولم ينصرف «مريم» لأنه مؤنث معرفة، وهو أيضاً أعجمي؛ قاله النحاس. والله تعالى أعلم.

الثامنة - قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ يعني خادم الرب في لغتهم. ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾ يعني مريم. ﴿وَوَدَّرَيْتَهَا﴾ يعني عيسى. وهذا يدل على أن الذرية قد تقع على الولد خاصة. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة [الشيطان]<sup>(٢)</sup> إلا أبى مريم وأمه» ثم قال أبو هريرة: أقرءوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَوَدَّرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. قال علماؤنا: فأفاد هذا الحديث أن الله تعالى استجاب دعاء أم مريم، فإن الشيطان ينخس جميع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وأبناها. قال قتادة: كل مولود يطعن الشيطان في جنبه حين يولد غير عيسى وأمه جعل بينهما حجاب فأصابته الطعنة الحجاب ولم ينفذ لهما منه شيء، قال علماؤنا: وإن لم يكن كذلك بطلت الخصوصية بهما، ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال الممسوس وإغواؤه فإن ذلك ظن فاسد؛ فكم تعرّض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ومع ذلك فعصمهم<sup>(٣)</sup> الله مما يؤرمه الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾<sup>(٤)</sup>. هذا مع أن كل واحد من بني آدم قد وكل به قرينه من الشياطين؛ كما قال رسول الله ﷺ ﴿مَرْيَمُ وَأَبْنُهَا وَإِنَّ عَصِمَا مِنْ نَخْسِهِ فَلَمْ يَعَصِمَا مِنْ مِلَازِمَتِهِ لَهَا وَمِقَارَنَتِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) في ب: له، وفي ز: من وجود مالها.

(٢) زيادة من «صحيح مسلم».

(٣) كذا في ب ود بالقاء. (٤) راجع ٢٨/١٠.



[٣٧] ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

[٣٨] ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ المعنى : سلك بها طريق السعداء ؛ عن ابن عباس . وقال قوم : معنى التقبل التكفل في التربية والقيام بشأنها . وقال الحسن : معنى التقبل أنه ما عذبها ساعة قط من ليل ولا نهار . ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يعني سوى مخلقها من غير زيادة ولا نقصان ، فكانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام واحد . والقبول والنبات مصدران على غير المصدر ، والأصل تَقَبَّلًا وَإِنْبَاتًا . قال الشاعر :

أَكْفُرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي      وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمَائَةِ الرُّتَاعَا

أراد بعد إعطائك ، لكن لما قال «أنبتها» دل على نبت ؛ كما قال امرؤ القيس :

فَصِرْنَا إِلَى الْحَسَنِ وَرَقَّ كَلَامُنَا      وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيْ إِذْلالِ

وإنما مصدر ذلت ذُلٌّ ، ولكنه رده على معنى أذللت ؛ وكذلك كل ما يرد عليك في هذا الباب . فمعنى تقبل وقيل واحد ، فالمعنى فقبلها ربها بقبول حسن . ونظيره قول رؤبة :

وَقَدْ تَطَوَّيْتُ أَنْطَوَاءَ الْحِضْبِ<sup>(١)</sup>

[الأفعى]<sup>(٢)</sup> لأن معنى تَطَوَّيْتُ وَأَنْطَوَيْتِ واحد ؛ ومثله قول القطامي :

وخيّر الأمر ما أستقبلت منه      وليس بأن تتبعه اتباعا

لأن تتبع وأتبع واحد . وفي قراءة ابن مسعود ﴿وَأَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ تَتْرِيلًا﴾<sup>(٣)</sup> لأن معنى نزل وأنزل واحد . وقال المفضل : معناه وأنبتها فنبت نباتًا حسنًا . ومراعاة المعنى أولى

(١) الحضب (بفتح الحاء وكسرهما وسكون الضاد).

(٢) الزيادة في نسخ : ج ، ب ، د . (٣) راجع ٢٤/١٣ .

كما ذكرنا. والأصل في القبول الضم؛ لأنه مصدر مثل الدخول والخروج، والفتح جاء في حروف قليلة؛ مثل الولوع والوزوع؛ هذه الثلاثة لا غير؛ قاله أبو عمرو والكسائي والأئمة. وأجاز الزجاج «بِقَبُول» بضم القاف على الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي ضَمَّها إليه. أبو عبيدة: ضَمِنَ القيام بها. وقرأ الكوفيون «وكفلها» بالتشديد، فهو يتعدى إلى مفعولين؛ والتقدير وكفلها رُثُها زكريا، أي ألزمه كفالتها وقدر ذلك عليه ويسره له. وفي «مصحف أبي» «وأكفلها» والهمزة كالتشديد في التعدي؛ وأيضاً فإن قبله «فتقبلها» وأنبتها» فأخبر تعالى عن نفسه بما فعل بها؛ فجاء «كفلها» بالتشديد على ذلك. وخففه الباقون على إسناد الفعل إلى زكريا. فأخبر الله تعالى أنه هو الذي تولَّى كفالتها والقيام بها؛ بدلالة قوله: ﴿أَتَاهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾. قال مكِّي: وهو الاختيار؛ لأن التشديد يرجع إلى التخفيف، لأن الله تعالى إذا كفلها زكريا كفلها بأمر الله، ولأن زكريا إذا كفلها فعن مشيئة الله وقدرته؛ فعلى ذلك فالقراءتان متداخلتان. وروى عمرو بن موسى عن عبد الله بن كثير وأبي عبد الله المُزَنِّي «وكفلها» بكسر الفاء. قال الأخفش: يقال كَفَّلَ يَكْفُلُ وَكَفَّلَ يَكْفُلُ وَلَمْ أَسْمَعْ كَفَّلَ، وقد ذُكِرَتْ. وقرأ مجاهد «فتقبلها» بإسكان اللام على المسألة والطلب. «رَبَّهَا» بالنصب نداء مضاف. «وأنبتها» بإسكان التاء «وكفلها» بإسكان اللام «زكرياء» بالمد والنصب. وقرأ حفص وحمزة والكسائي «زكريا» بغير مد ولا همز، ومدّه الباقون وَهَمْزُوه. وقال الفراء: أهل الحجاز يمدّون «زكرياء» ويُقْصِرُونَهُ، وأهل نجد يحذفون منه الألف ويصرفونه فيقولون: زكريّ. قال الأخفش: فيه أربع لغات: المد والقصر، وزكريّ بتشديد الياء والصرف، وزكّر ورأيت زكريا. قال أبو حاتم: زكري بلا صرف لأنه أعجمي وهذا غلط؛ لأن ما كان فيه «يا» مثل هذا أنصرف مثل كرسّي ويحيى، ولم ينصرف زكرياء في المد والقصر لأن فيه ألف تأنيث والعجمة والتعريف.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ المِحْرَاب في اللغة أكرم موضع في المجلس. وسيأتي له مزيد بيان في سورة «مريم»<sup>(١)</sup>. وجاء في الخبر: إنها كانت في غرفة كان زكريا يصعد إليها بسلم. قال وَضَّاحُ الْيَمَنِ<sup>(٢)</sup>:

رَبَّةُ مِحْرَابٍ إِذَا جِئْتُهَا لَمْ أَلْفَهَا حَتَّى أَرْتَقِيَ سُلَّمًا

أي رَبَّةُ غرفة. روى أبو صالح عن ابن عباس قال: حملت امرأة عمران بعد ما أسنت فندرت ما في بطنها محرراً فقال لها عمران: ويحك! ما صنعت؟ رأيت إن كانت أنثى؟ فأغتما لذلك جميعاً. فهلك عمران وحنة حامل فولدت أنثى فتقبلها الله بقبول حسن، وكان لا يُحرّر إلا الغلمان فتساهم عليها الأخبار بالأقلام التي يكتبون بها الوحي، على ما يأتي. فكفلها زكريا وأخذ لها موضعاً فلما أسنت جعل لها محراباً لا يرتقى إليه إلا بسلم، وأستأجر لها ظئراً وكان يُغلق عليها باباً، وكان لا يدخل عليها إلا زكريا حتى كبرت، فكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله فتكون عند خالتها وكانت خالتها امرأة زكريا في قول الكلبي. قال مقاتل: كانت أختها امرأة زكريا، وكانت إذا طهرت من حیضتها وأغتسلت ردها إلى المحراب. وقال بعضهم: كانت لا تحيض وكانت مطهرة من الحيض. وكان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء في القَيْظ وفاكهة القَيْظ في الشتاء فقال: يا مريم أنى لك هذا؟ فقالت: هو من عند الله. فعند ذلك طمع زكريا في الولد وقال: إن الذي يأتيها بهذا قادر أن يرزقني ولداً. ومعنى «أنى» من أين؟ قاله أبو عبيدة. قال النحاس: وهذا

(١) راجع ٨٤/١١. (٢) في «الأصول»: «قال عدي بن زيد» والتصويب عن «الأغاني» و«لسان العرب» و«شرح القاموس». وهذا البيت من قصيدة لوضاح اليمن أولها:

يابنة الواحد جودي فما إن تصرمين فيما أو لما

وفي د: لم أدن. راجع ترجمته في «الأغاني» ٢٠٩/٦ - ٢٤٠ طبع دار الكتب المصرية.

فيه تساهل؛ لأن «أين» سؤال عن المواضع و«أنتى» سؤال عن المذاهب والجهات. والمعنى من أي المذاهب ومن أي الجهات لك هذا. وقد فرّق الكُميت بينهما فقال:

أنتى ومن أين أبك الطرب      من حيث لا صَبوة ولا ريب

و«كَلَمًا» منصوب بـ «وَجَدَ»، أي كلّ دَخَلَة. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَزِرُّ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قيل: هو من قول مريم، ويجوز أن يكون مستأنفاً؛ فكان ذلك سبب دعاء زكريا وسؤاله الولد.

الثانية - قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ هنالك في موضع نصب؛ لأنه ظرف يستعمل للزمان والمكان وأصله للمكان. وقال الْمُفَضَّل بن سَلَمَة: «هنالك» في الزمان و«هنالك» في المكان، وقد يجعل هذا مكان هذا. و﴿هَبْ لِي﴾ أعطني. ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ من عندك. ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي نَسَلاً صالحاً. والذُرِّيَّة تكون واحدة وتكون جمعاً ذكراً وأنثى، وهو هنا واحد. يدل عليه قوله ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾<sup>(١)</sup> ولم يقل أولياء، وإنما أتت «طَيِّبَةً» لتأنيث لفظ الذرية؛ كقوله:

أبوك خليفة ولدته أخرى      وأنت خليفة ذاك الكمال

فأنت ولدته لتأنيث لفظ الخليفة. ورُوي من حديث أنس قال قال النبي ﷺ: «أي رجل مات وترك ذُرِّيَّة طيبة أجرى الله له مثل أجر عملهم ولم ينقص من أجورهم شيئاً». وقد مضى في «البقرة» اشتقاق الذرية<sup>(٢)</sup>. و﴿طَيِّبَةً﴾ أي صالحة مباركة. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي قابله؛ ومنه<sup>(٣)</sup>: سمع الله لمن حمده.

الثالثة - دلّت هذه الآية على طلب الولد، وهي سُنّة المرسلين والصدّيقين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾<sup>(٤)</sup>. وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: أراد عثمان أن يتبتّل فنهاه رسول الله ﷺ، ولو أجاز له ذلك لاختصينا. وخرج ابن ماجه عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «النكاح من سُنّتي فمن لم يعمل بسُنّتي فليس مِنّي وتزوّجوا فإنني مكاثِرٌ بكم الأمم ومن كان

(١) راجع ٧٧/١١. (٢) راجع المسألة التاسعة عشرة ١٠٧/٢.

(٣) في ب: ومنه قوله. (٤) راجع ٣٢٧/٩.

ذَا طَوَّلَ فَلْيَتَنَكَّحْ وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ<sup>(١)</sup>. وفي هذا ردٌّ على بعض جُهَالِ المتصوِّفة حيث قال: الذي يطلب الولد أحق، وما عَرَفَ أنه [هو]<sup>(٢)</sup> الغبيُّ الأخرق؛ قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم الخليل: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾. وقد ترجم البخاري على هذا «باب طلب الولد». وقال عليه السلام لأبي طلحة حين مات ابنه «أعرستم الليلة؟» قال نعم. قال: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما». قال فحملت. في البخاري: قال سفيان فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولادٍ كلهم قد قرءوا القرآن. وترجم أيضاً «باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة» وساق حديث أنس بن مالك قال قال أم سليم: يا رسول الله، خادمك أنس أدع الله له. فقال: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ». وقال عليه السلام: «اللَّهُمَّ أَغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ وَأَخْلِفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ». خرجه البخاري ومسلم. وقال عليه السلام: «تَزَوَّجُوا الْوُلُودَ الْوَدُودَ فَإِنِّي مَكَاثِرُ بِكُمْ الْأُمَمِ». أخرجه أبو داود. والأخبار في هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد وتندب إليه؛ لما يرجوه الإنسان من نفعه في حياته وبعد موته. قال عليه السلام: «إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث» فذكر «أو ولد صالح يدعو له». ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية.

**الرابعة-** فإذا ثبت هذا فالواجب على الإنسان أن يتضرع إلى خالقه في هداية ولده وزوجه بالتوفيق لهما والهداية والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا مُعِينَيْنِ له على دينه ودنياه حتى تعظم منفعتهم بهما في أولاه وأخراه؛ ألا ترى قول زكريا ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾<sup>(٤)</sup> وقال: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾. وقال: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾. ودعا رسول الله عليه السلام لأنس فقال: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ». خرجه البخاري ومسلم، وحسبك.

(١) الوجاء: أن ترض عروق أنثى الفحل رضا يذهب شهوة النكاح وهو شبيه بالخضاء. أراد أن الصوم يقطع شهوة النكاح كما يقطعها الوجاء.

(٢) كذا في ب، ود.

(٣) راجع ١١٢/١٣ و ٨٢. (٤) راجع ٨١/١١.

[٣٩] ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قرأ حمزة والكسائي «فناداه» بالألف على التذكير، ويُميلانها لأن أصلها الياء، ولأنها رابعة. وبالألف قراءة ابن عباس وابن مسعود، وهو اختيار أبي عبيد. وروي عن جرير عن مُغيرة عن إبراهيم قال: كان عبد الله يذكر الملائكة في [كل] <sup>(١)</sup> القرآن. قال أبو عبيد: نراه أختار ذلك خلافاً على المشركين لأنهم قالوا: الملائكة بنات الله. قال النحاس: هذا احتجاج لا يُحصل منه شيء؛ لأن العرب تقول: قالت الرجال، وقال الرجال، وكذا النساء، وكيف يحتج عليهم بالقرآن، ولو جاز أن يحتج عليهم بالقرآن بهذا لجاز أن يحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ ولكن الحجة عليهم في قوله عز وجل: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ <sup>(٢)</sup> أي فلم يشاهدوا، فكيف يقولون إنهم إناث فقد علم أن هذا ظن وهوى. وأما «فناداه» فهو جائز على تذكير الجمع، «ونادته» على تأنيث الجماعة. قال مكِّي: والملائكة ممن يعقل في التفسير فجري في التأنيث مجرى ما لا يعقل، تقول: هي الرجال، وهي الجدوع، وهي الجمال، وقالت الأعراب. ويقوي ذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ وقد ذكر في موضع آخر فقال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ <sup>(٣)</sup> وهذا إجماع. وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ <sup>(٤)</sup> فتأنيث هذا الجمع وتذكيره حسنان. وقال السدي: ناداه جبريل وحده؛ وكذا في قراءة ابن مسعود. وفي التنزيل ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ <sup>(٥)</sup> يعني جبريل، والروح الرُوحى. وجائز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع. وجاء في التنزيل ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ <sup>(٦)</sup> يعني نُعيم بن مسعود؛ على ما يأتي. وقيل: ناداه جميع الملائكة، وهو الأظهر. أي جاء النداء من قبلهم.

(١) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس.

(٢) راجع ٧٣/١٦.

(٣) راجع ٣٩/٧.

(٤) راجع ٣١٢/٩.

(٥) راجع ٦٧/١٠.

(٦) راجع ص ٢٧٩ من هذا الجزء.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ «وهو قائم» ابتداء وخبر «يُصَلِّي» في موضع رفع، وإن شئت كان نصباً على الحال من المضمَر. «أَنَّ اللَّهَ» أي بأن الله. وقرأ حمزة والكسائي<sup>(١)</sup> «إِنَّ» أي قالت إن الله؛ فالنداء بمعنى القول. «يبشرك» بالتشديد قراءة أهل المدينة. وقرأ حمزة «يُبَشِّرُكَ» مخففاً؛ وكذلك حميد بن القيس المكي إلا أنه كسر الشين وضم الياء وخفف الباء. قال الأخفش: هي ثلاث لغات بمعنى واحد.

دليل الأولى هي قراءة الجماعة أن ما في القرآن من هذا من فعل ماضٍ أو أمر فهو بالثقل؛ كقوله تعالى: ﴿قَبَشْرُ عِبَادِي﴾<sup>(٢)</sup> «قَبَشْرُهُ بِمَغْفِرَةٍ» ﴿قَبَشْرُنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾<sup>(٣)</sup> «قَالُوا بَشْرُنَاكَ بِالْحَقِّ»<sup>(٤)</sup>. وأما الثانية وهي قراءة عبد الله بن مسعود فهي من بَشَّرَ يُبَشِّرُ وهي لغة تهامة؛ ومنه قول الشاعر:

بَشَرْتُ عِيَالِي إِذْ رَأَيْتُ صَحِيفَةً  
أَتَتْكَ مِنَ الْحِجَاجِ يُتْلَى كِتَابُهَا

وقال آخر<sup>(٥)</sup>:

وَإِذَا رَأَيْتَ الْبَاهِشِينَ<sup>(٦)</sup> إِلَى التَّدَى  
فَاعْنَهُمْ وَأَبْشِرْ بِمَا بَشَرُوا بِهِ

وأما الثالثة فهي من أبشَر يُبَشِّرُ إِبْشَاراً قال:

يَا أُمَّ عَمْرُو أَبْشِرِي بِالْبُشْرَى  
مَوْتٌ ذَرِيعٌ وَجَرَادٌ عَظْلَى<sup>(٨)</sup>

قوله تعالى: ﴿يَبْخَى﴾ كان أسمه في الكتاب الأول حياً، وكان أسم سارة زوجة إبراهيم عليه السلام يسارة، وتفسيره بالعربية لا تلد، فلما بُشِّرَتْ بإسحاق قيل لها: سارة، سمّاها

(١) كذا في الأصل وإعراب القرآن للنحاس، والذي في البحر وخرائب القرآن للنيسابوري وأبن عطية: وقرأ ابن عامر وحمة «إن الله» بكسر الهمزة، وقرأ الباقر بفتح الهمزة.

(٢) راجع ٢٤٣/١٥ وص ١١ وص ١١٢. وفي أكثر الأصول: «عبادي» بالياء وهو رسم ورش في مصاحف المغرب. (٣) راجع ٦٩/٩. (٤) راجع ٣٥/١٠.

(٥) كذا في الأصول والبغوي. والذي في البحر وأبن عطية: «وفي قراءة عبد الله بن مسعود يبشرك بضم الياء وتخفيف الشين المكسورة من أبشر، وهكذا قرأ في كل القرآن».

(٦) هو عطية بن زيد، وقال ابن بري هو لعبد القيس بن خفاف البرجمي. (عن اللسان).

(٧) قال أبو عبيد: يقال للإنسان إذا نظر إلى شيء فأعجبه وأشتهاه فتناوله وأسرع نحوه وفرح به: يش إلىه.

(٨) جراد عاظلة وعظلى: لا تبرح. في اللسان: «أراد أن يقول: يا أم عامر فلم يستقم له البيت فقال يا أم عمرو، وأم عامر كنية الضبع: ومن كلامهم للضبع: أبشري بجراد عظلى، وكم رجال قتلى».

بذلك جبريل عليه السلام. فقالت: يا إبراهيم لِمَ نقص من أسمي حرف؟ فقال إبراهيم ذلك لجبريل عليهما السلام. فقال: «إن ذلك الحرف زيد في أسم أبني لها من أفضل الأنبياء أسمه حيّ وسمي يحيى». ذكره النقاش. وقال قتادة: سمي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان والنبوة. وقال بعضهم: سُمي بذلك لأن الله تعالى أحياه به الناس بالهَدْي. وقال مقاتل: اشتق أسمه من أسم الله تعالى حيّ فسُمي يحيى. وقيل: لأنه أحيا به رحم أمه.

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني عيسى في قول أكثر المفسرين. وسمي عيسى كلمة لأنه كان بكلمة الله تعالى التي هي «كن» فكان من غير أب. وقرأ أبو السَّمَال العَدَوِّي «بكلمة» مكسورة الكاف ساكنة اللام في جميع القرآن، وهي لغة فصيحة مثل كَيْفَ وَفِيْخَذ. وقيل: سُمي كلمة لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله تعالى. وقال أبو عبيد: معنى «بكلمة من الله» بكتاب من الله. قال: والعرب تقول أنشدني كلمة أي قصيدة؛ كما روي أن الحُوَيْدَرَةَ<sup>(١)</sup> ذُكِرَ لِحَسَّانَ فقال: لعن الله كلمته، يعني قصيدته. وقيل غير هذا من الأقوال. والقول الأول أشهر وعليه من العلماء الأكثر. و«يحيى» أول من آمن بعيسى عليهما السلام وصدّقه، وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين. ويقال بستة أشهر. وكانا أبني خالة، فلما سمع زكريا شهادته قام إلى عيسى فضمّه إليه وهو في خِزْفِه. وذكر الطبري أن مريم لما حملت بعيسى حملت أيضاً أختها بيحيى؛ فجاءت أختها زائرة فقالت: يا مريم أشعرت أني حملت؟ فقالت لها مريم: أشعرت أنت أني حملت؟ فقالت لها: وإني لأجد ما في بطني يسجد لما في بطنك. وذلك أنه روي أنها أحسّت جنينها يخزّ برأسه إلى ناحية بطن مريم. قال السدي: فذلك قوله ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾. «ومصدقاً» نصب على الحال. ﴿وَسَيِّدًا﴾ السيد: الذي يسود قومه ويُتَتَهَى إلى قوله، وأصله سَيُّود يُقال: فلان أسود من

(١) الحويدرة تصغير الحادرة وهو لقب غلب عليه، وأسمه قطبة بن محصن بن جرول. ويعني حسان بن ثابت رضي الله عنه قصيدته التي مطلعها:

بكرت سمية غدونا فتمتعني      وغدت غدوّ مفارق لم يربع

(راجع المفضليات ص ٤٨ طبع أوروبا وكتاب الأغاني ٣/ ٢٧٠ طبع دار الكتب المصرية).



فلان، أفعل من السيادة؛ ففيه دلالة على جواز تسمية الإنسان سيِّداً كما يجوز أن يسمى عزيزاً أو كريماً. وكذلك رُوي عن النبي ﷺ أنه قال لبني قُرَيْظَةَ: «قوموا إلى سيِّدكم». وفي البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال في الحسن: «إن أباي هذا سيِّدٌ ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» وكذلك كان، فإنه لما قُتل علي رضي الله عنه بايعه أكثر من أربعين ألفاً وكثير ممن تخلف عن أبيه وممن نكث بيعته، فبقي نحو سبعة أشهر خليفة بالعراق وما وراءها من خُراسان، ثم سار إلى معاوية في أهل الحجاز والعراق وسار إليه معاوية في أهل الشام؛ فلما تراءى الجمعان بموضع يقال له «مَسْكِن» من أرض السَّوَادِ بناحية الأنبار كره الحسنُ القتالَ لعلمه أن إحدى الطائفتين لا تغلب حتى تهلك أكثر الأخرى فيهلك المسلمون؛ فسَلِمَ الأمر إلى معاوية على شروط شرطها عليه، منها أن يكون الأمر له من بعد معاوية؛ فالتزم كل ذلك معاوية فصدَّق قوله عليه السلام: «إن أباي هذا سيِّدٌ» ولا أسود ممن سوَّده الله تعالى ورسوله. قال قتادة في قوله تعالى «وَسَيِّداً» قال: في العلم والعبادة. ابن جبير والضحاك: في العلم والثَّقَى. مجاهد: السيِّد الكريم. ابن زيد: الذي لا يغلبه الغضب. وقال الزجاج: السيِّد الذي يفوق أقرانه في كل شيء من الخير. وهذا جامع. وقال الكسائي: السيِّد من المَعِزِّ المَسْنُون. وفي الحديث «ثَبَّتِي مِنَ الضَّأْنِ خَيْرَ مِنَ السَّيِّدِ الْمَعِزِّ». قال:

سواءً عليه شاةٌ عامٍ دَنَتْ له      لِيَذْبَحَهَا لِلضَّيْفِ أم شاةٌ سيِّدٍ

﴿وَحَصُورًا﴾ أصله من الحصر وهو الحبس. حَصَرَنِي الشيء وأَحْصَرَنِي إذا حبَسَنِي. قال ابن ميادة:

وما هَجُرُ لَيْلَى أن تكون تباعدت      عليك ولا أن أخْصَرْتَكَ شُغُولُ

وناقة حصور: ضيقة الإحليل. والحصُور الذي لا يأتي النساء كأنه مُحَجَّم عنهن؛ كما يقال: رجل حصور وحصير إذا حبَسَ رِفْدَه ولم يخرج ما يخرجُه النَّدَامَى. يقال: شرب القوم فحَصِرَ عليهم فلان، أي بَخِلَ؛ عن أبي عمرو. قال الأخطل:

وشارِبٍ مُزْبِجٍ بالكأس نادمني لا بِالْحَصُورِ ولا فيها سِوَارٍ<sup>(١)</sup>  
وفي التنزيل ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾<sup>(٢)</sup> أي محبساً: والحِصِيرُ الملك لأنه  
محبوب. وقال لييد:

وَقُمَاقِمٍ<sup>(٣)</sup> غُلِبَ الرِّقَابُ كأنهم حِنٌّ لدى باب الحِصِيرِ قيام  
فيحیی عليه السلام حصور، فعول بمعنى مفعول لا يأتي النساء: كأنه ممنوع مما يكون  
في الرجال؛ عن ابن مسعود وغيره. وفعل بمعنى مفعول كثير في اللغة، من ذلك  
حلوب بمعنى محلوبة؛ قال الشاعر:

فيها اثنتان وأربعون حَلُوبَةً سُوداً كخافية الغراب الأَسْحَمِ<sup>(٤)</sup>  
وقال ابن مسعود أيضاً وأبن عباس وأبن جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَعطاء وأبو الشَّعْثَاءِ والحسنُ  
والسُّدِّيُّ وأبن زيد: هو الذي يَكْفَتُ عن النساء ولا يقربهن مع القدرة. وهذا أصح  
[الأقوال لو]<sup>(٥)</sup> جهين: أحدهما أنه مَذْحُ وثناءٌ عليه، والثناء إنما يكون عن الفعل المكتسب  
دون الحبلة في الغالب. الثاني أن فعولاً في اللغة من صيغ الفاعلين؛ كما قال<sup>(٦)</sup>:

ضَرُوبٌ بنصل السِّيفِ سُوْقَ سِمَانِهَا إِذَا عَدِمُوا زَادَا فَإِنَّكَ عَاقِرُ  
فالمعنى أنه يحصر نفسه عن الشهوات. ولعلّ هذا كان شرعه؛ فأما شرعنا فالنكاح، كما  
تقدم. وقيل: الحصور العَيْنُ الذي لا ذَكَرَ له يتأتى له به النكاح ولا ينزِلُ؛ عن ابن عباس  
أيضاً وسعيد بن المسيب والضحاك. وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال: سمعت رسول  
الله ﷺ يقول: «كُلُّ أبنِ آدَمَ يلقي الله بذنب قد أذنبه يعذب به عليه إن شاء أو يرحمه إلّا يحيى

(١) سوار: معرب وثاب. وقد روى «سار» بوزن سعار، أي أنه لا يسر في الإناء سؤرا بل يشتهه كله.

(٢) راجع ٢٢٤/١٠.

(٣) القماقم من الرجال: السيد الكثير الخير الواسع الفضل. والقماقم العدد الكثير.

(٤) البيت لعنترة العبسي في معلقته. والخوافي: أواخر ريش الجناح مما يلي الظهر.

(٥) كذا في د. قلت: هذا هو اللائق بالعصمة النبوية.

(٦) البيت لأبي طالب بن عبد المطلب. مدح رجلاً بالكرم فيقول: يضرب بسيفه سوق السماء من

الإبل للأضياف إذا عدموا الزاد ولم يظفروا بجواد لشدة الزمان وكلبه، وكانوا إذا أرادوا نحر الناقة ضربوا  
ساقها بالسيف فخرت ثم نحروها. (عن شرح الشواهد).

أَبْنِ زَكَرِيَّا فَإِنَّهُ كَانَ سَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ»- ثم أهوى النبي ﷺ بيده إلى قِذَاءٍ<sup>(١)</sup> مِنَ الْأَرْضِ فَأَخَذَهَا وَقَالَ: «كَانَ ذَكَرُهُ [هَكَذَا]<sup>(٢)</sup>» مثل هذه القذاة». وقيل: معناه الحابس نفسه عن معاصي الله عز وجل. ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال الزجاج: الصالح الذي يؤدي لله ما أفترض عليه، وإلى الناس حقوقهم.

[٤٠] ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

قيل: الرب هنا جبريل، أي قال لجبريل: رب - أي يا سيدي - أنى يكون لي غلام؟ يعني ولداً؛ وهذا قول الكلبي. وقال بعضهم: قوله «رب» يعني الله تعالى. «أنى» بمعنى كيف، وهو في موضع نصب على الظرف. وفي معنى هذا الاستفهام وجهان: أحدهما أنه سأل هل يكون له الولد وهو وأمراته على خالیهما أو يُردّان إلى حال مَنْ يَلِدُ؟ الثاني سأل هل يُرزق الولد من أمراته العاقر أو من غيرها. وقيل: المعنى بأي منزلة أستوجب هذا وأنا وأمراتي على هذه الحال؛ على وجه التواضع. ويروى أنه كان بين دعائه والوقت الذي بُشِّرَ فيه أربعون سنة، وكان يوم بُشِّرَ أبْنِ تِسْعِينَ سَنَةً وَأَمْرَاتِهِ قَرِيبة السنّ منه. وقال ابن عباس والضحاك: كان يوم بُشِّرَ أبْنِ عَشْرِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ وَكَانَتْ أَمْرَاتِهِ بِنْتُ ثَمَانَ وَتِسْعِينَ سَنَةً؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ﴾ أي عَقِيمٌ لَا تَلِدُ. يقال: رجل عاقر وأمرأة عاقر بيّنة العقر. وقد عَقُرَتْ وَعَقُرَ (بضم القاف فيهما) تَعَقُرُ عَقْرًا صَارَتْ عَاقِرًا، مثل حسنت تحسن حسناً؛ عن أبي زيد. وعَقَارَةٌ أَيْضًا. وأسماء الفاعلين من فَعَلَ فَعِيلَةٌ، يقال: عظمت فهي عظيمة، وظرفت فهي ظريفة. وإنما قيل عاقر لأنه يراد به ذات عَقْرٍ على النسب، ولو كان على الفعل لقال: عقرت فهي عقيرة كأن بها عقرًا، أي كبرا من السنّ يمنعه من الولد. والعاقر: العظيم من الرمل لا ينبت شيئاً. والعقر أيضاً مهر المرأة إذا وُطئت على شُبْهَةٍ. وبيضة العقر: زعموا هي بيضة الديك؛ لأنه يبيض في عمره بيضة واحدة إلى الطول. وعقر النار أيضاً.

(١) القذاة: ما يقع في العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك.

(٢) من د.

وسطحها ومعظمها. وعُقِرَ الحوض: مؤخره حيث تقف الإبل إذا وردت؛ يقال: عُقِرَ وعُقِرَ مثل عُسْر وعُسْر، والجمع الأعقار فهو لفظ مشترك. والكاف في قوله «كذلك» في موضع نصب، أي يفعل الله ما يشاء مثل ذلك. والغلام مشتق من الغُلْمَة وهو شدة طلب النكاح. وأغتلم الفحل غُلْمَة هاج من شهوة الضراب. وقالت لَيْلَى الأَخِيلِيَّة:

شفاهها من الداء الغُضال الذي بها غلامٌ إذا هَرَّ القناة سقاها  
والغلام الطار الشارب. وهو بين الغُلْمَة والغُلْمِيَّة، والجمع الغُلْمَة والغلمان. ويقال: إن الغنَلم الشاب والجارية أيضاً. والغنَلم: ذكر السُلْحَفَة. والغنَلم موضع. وأغتلم البحر هاج وتلاطمت أمواجه.

[٤١] ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿١١﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ «جعل» هنا بمعنى صير لتعديه إلى مفعولين. و «لي» في موضع المفعول الثاني. ولما بُشِّرَ بالولد ولم يَبْعُدْ عنده هذا في قدرة الله تعالى طلب آية - أي علامة - يعرف بها صحة هذا الأمر وكونه من عند الله تعالى؛ فعاقبه الله تعالى بأن أصابه السكوت عن كلام الناس لسؤاله الآية بعد مُشَافَهَةِ الملائكة إياه؛ قاله أكثر المفسرين. قالوا: وكذلك إن لم يكن من مرض خرس أو نحوه ففيه على كل حال عقاب ما. قال ابن زيد: إن زكريا عليه السلام لما حملت زوجته منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو مع ذلك يقرأ التوراة ويذكر الله تعالى؛ فإذا أراد مقابلة أحد لم يطقه.

الثانية - قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ الرمز في اللغة الإيماء بالشفقتين، وقد يستعمل في الإيماء بالحاجين والعينين واليدين؛ وأصله الحركة. وقيل: طلب تلك الآية زيادة طمأنينة. المعنى: تَمَّ النعمة بأن تجعل لي آية، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة؛ فقيل له: ﴿آيَتُكَ

أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ أَي تَمْنَعُ مِنَ الْكَلَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ ۚ دَلِيلُ هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ بَشْرَى الْمَلَائِكَةِ لَهُ. ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾<sup>(١)</sup> أَي أَوْجَدْتُكَ بِقُدْرَتِي فَكَذَلِكَ أَوْجَدَ لَكَ الْوَلَدَ. وَأَخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ النَّحَاسَ وَقَالَ: قَوْلُ قَتَادَةَ إِنْ زَكَرِيَّا عَوَّقَ بِتَرْكِ الْكَلَامِ قَوْلَ مَرْغُوبٍ عَنْهُ ۚ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْبِرْنَا أَنَّهُ أَذْنَبَ وَلَا أَنَّهُ نَهَاهُ عَنْ هَذَا ۚ وَالْقَوْلُ فِيهِ أَنَّ الْمَعْنَى أَجْعَلْ لِي غَلَامَةً تَدُلُّ عَلَى كَوْنِ الْوَلَدِ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ مَغْيِبًا عَنِّي. وَ«رَمَزًا» نَصَبَ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ ۚ قَالَهُ الْأَخْفَشُ. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: رَمَزَ يَرْمِزُ وَيَرْمِزُ. وَقُرِئَ «إِلَّا رَمَزًا» بِفَتْحِ الْمِيمِ وَ«رَمَزًا» بِضَمِّهَا وَضَمَّ الرَّاءِ، الْوَاحِدَةُ رَمَازَةٌ.

**الثالثة -** فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِشَارَةَ تَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْكَلَامِ وَذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ السَّنَةِ، وَآكَدَ الْإِشَارَاتِ مَا حَكَمَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَمْرِ السُّودَاءِ حِينَ قَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللَّهُ؟» فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: «أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». فَأَجَازَ الْإِسْلَامُ بِالْإِشَارَةِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الدِّيَانَةِ الَّذِي يَحْرُزُ الدَّمَ وَالْمَالَ وَتَسْتَحِقُّ بِهِ الْجَنَّةَ وَيُنَجِّي بِهِ مِنَ النَّارِ، وَحَكَمَ بِإِيمَانِهَا كَمَا يَحْكُمُ بِنَطْقٍ مِنْ يَقُولُ ذَلِكَ ۚ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ عَامِلَةً فِي سَائِرِ الدِّيَانَةِ، وَهُوَ قَوْلُ عَامَةِ الْفُقَهَاءِ. وَرَوَى أَبُو الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ الْأَخْرَسَ إِذَا أَشَارَ بِالطَّلَاقِ إِنَّهُ يَلْزَمُهُ. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي الرَّجُلِ يَمْرُضُ فَيُخْتَلُّ لِسَانُهُ فَهُوَ كَالْأَخْرَسِ فِي الرَّجْعَةِ وَالطَّلَاقِ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: ذَلِكَ جَائِزٌ إِذَا كَانَتْ إِشَارَتُهُ تُعْرَفُ، وَإِنْ شَكَّ فِيهَا فَهِيَ بَاطِلٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسٍ وَإِنَّمَا هُوَ اسْتِحْسَانٌ. وَالْقِيَاسُ فِي هَذَا كُلُّهُ أَنَّهُ بَاطِلٌ ۚ لِأَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا تَعْقِلُ إِشَارَتُهُ. قَالَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ بَطَّالٍ: وَإِنَّمَا حَمَلَ أَبَا حَنِيفَةَ عَلَى قَوْلِهِ هَذَا أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ السَّنَنَ الَّتِي جَاءَتْ بِجَوَازِ الْإِشَارَاتِ فِي أَحْكَامِ مُخْتَلِفَةِ فِي الدِّيَانَةِ<sup>(٢)</sup>. وَلَعَلَّ الْبُخَارِيَّ حَاوَلَ بِتَرْجُمَتِهِ «بَابُ الْإِشَارَةِ فِي الطَّلَاقِ وَالْأُمُورِ الرَّدِّ عَلَيْهِ». وَقَالَ عَطَاءٌ: أَرَادَ بِقَوْلِهِ ﴿أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ صَوْمَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. وَكَانُوا إِذَا صَامُوا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا رَمَزًا. وَهَذَا فِيهِ بُعْدٌ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

**الرابعة -** قَالَ بَعْضُ مَنْ يَجِيزُ نَسْخَ الْقُرْآنِ بِالسَّنَةِ: إِنْ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ مُنِعَ الْكَلَامَ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا صَمْتَ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ»<sup>(٣)</sup>. وَأَكْثَرُ

(١) رَاجِعُ ٨٤/١١. (٢) فِي د: مِنَ الدِّيَانَةِ. (٣) وَفِي الْبَحْرِ وَأَبْنُ عَطِيَّةٍ «لَا صَمْتَ

يَوْمٍ». وَرَوَايَةُ أَبِي دَاوُدَ «لَا صَمَاتُ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ» رَاجِعُ الْحَدِيثِ فِي اللِّسَانِ مَادَّةُ صَمَتَ.

العلماء على أنه ليس بمنسوخ، وأن زكريا إنما منع الكلام بآفة<sup>(١)</sup> دخلت عليه منعتة إياه، وتلك الآفة<sup>(٢)</sup> عدم القدرة على الكلام مع الصحة؛ كذلك قال المفسرون. وذهب كثير من العلماء إلى أنه «لا صَمَتَ يوماً إلى الليل» إنما معناه عن ذكر الله، وأما عن الهَدَر وما لا فائدة فيه، فالصمت عن ذلك حسن.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أمره بالآ يترك الذكر في نفسه مع اعتقال لسانه؛ على القول الأول. وقد مضى في البقرة<sup>(٣)</sup> معنى الذكر. وقال محمد بن كعب القرطبي: لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا بقول الله عز وجل ﴿الْأَتُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَآذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ ولرخص للرجل يكون في الحرب بقول الله عز وجل: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾<sup>(٤)</sup>. وذكره الطبري. «وسَبِّحْ» أي صل؛ سميت الصلاة سُبْحَةً لما فيها من تنزيه الله تعالى عن السوء. و«العشي» جميع عشية. وقيل: هو واحد. وذلك من حين تزول الشمس إلى أن تغيب؛ عن مجاهد. وفي الموطأ عن القاسم بن محمد قال: ما أدرت الناس إلا وهم يصلون الظهر بعشي. «والإبكار» من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

[٤٢] ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِيكَةُ يَمْرُؤُكُمْ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي اختارك، وقد تقدّم<sup>(١)</sup>. «وطَهَّرَكِ» أي من الكفر؛ عن مجاهد والحسن. الزجاج: من سائر الأنداس من الحيض والنفاس وغيرهما، وأصطفاك لولادة عيسى ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يعني عالمي زمانها؛ عن الحسن وأبن جريج وغيرهما. وقيل: ﴿على نساء العالمين﴾ أجمع إلى يوم الصور، وهو الصحيح على ما نبينه، وهو قول الزجاج وغيره. وكرر الاصطفاء لأن معنى الأول الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثاني لولادة عيسى. وروى مسلم عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «كمل

(١) في د: بآية، وتلك الآية.

(٢) راجع ١/٣٣١.

(٣) راجع ٨/٣٢.

(٤) راجع ٢/١٣٣.

من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . قال علماؤنا رحمة الله عليهم: الكمال هو التناهي والتمام؛ ويقال في ماضيه «كمل» بفتح الميم وضمها، ويكمل في مضارعه بالضم ، وكمال كل شيء بحسبه . والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة . ولا شك أن أكمل نوع الإنسان الأنبياء ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين . وإذا تقرّر هذا فقد قيل : إن الكمال المذكور في الحديث يعني به النبوة فيلزم عليه أن تكون مريم عليها السلام وآسية نبيتين ، وقد قيل بذلك . والصحيح أن مريم نبيّة ؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين حسب ما تقدّم ويأتي بيانه أيضاً في «مريم»<sup>(١)</sup> . وأما آسية فلم يرد ما يدل على نبوتها دلالة واضحة بل على صدّيقيتها وفضلها، على ما يأتي بيانه في «التحريم»<sup>(٢)</sup> .

وروي من طرق صحيحة أنه عليه السلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة: «خير نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد» . ومن حديث ابن عباس عن النبي ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» . وفي طريق آخر عنه: «سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة» . فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة؛ فإن الملائكة قد بلغت الوحي عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء ؛ فهي إذاً نبيّة والنبي أفضل من الولي فهي أفضل من كل النساء: الأولين والآخرين مطلقاً . ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية . وكذلك رواه موسى بن عقبة عن كُريب عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية» . وهذا حديث حسن يرفع الإشكال . وقد خصّ الله مريم بما لم يؤته أحداً من النساء؛ وذلك أن روح القدس كلمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة؛ فليس هذا لأحد من النساء . وصدّقت بكلمات

ربها ولم تسأل آية عندما بُشِّرَتْ كما سأل زكريا ﷺ من الآية؛ ولذلك سماها الله في تنزيله صِدِّيقَةً فقال: ﴿وَأَمَّهُ صِدِّيقَةٌ﴾<sup>(١)</sup>. وقال: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ بِالْأُولَادِ﴾<sup>(٢)</sup> فشهد لها بالصديقية وشهد لها بالتصديق لكلمات البشرى وشهد لها بالقنوت. وإنما بشر زكريا بغلام فلحظ إلى كبر سنه وعقامة رحم أمراته فقال: أنى يكون لي غلام وأمرأتي عاقر؛ فسأل آية؛ وبشرت مريم بالغلام فلحظت أنها بكرٌ ولم يمسهها بشر فقيل لها: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾<sup>(٣)</sup> فأقتصرت على ذلك؛ وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل آية ممن يعلم كُتِبَ هذا الأمر، ومن لامرأة في جميع نساء العالمين من بنات آدم ما لها من هذه المناقب! ولذلك روي أنها سبقت السابقين مع الرسل إلى الجنة؛ جاء في الخبر عنه ﷺ: «لو أقسمت لبرزت لا يدخل الجنة قبل سابقي أمتي إلا بضعة عشر رجلاً منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم ابنة عمران». وقد كان يحق على من أنتحل علم الظاهر وأستدل بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» وقوله حيث يقول: «لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَدِي وَمِفْتَاحُ الْكَرَمِ بِيَدِي وَأَنَا أَوَّلُ خَطِيبٍ وَأَوَّلُ شَفِيعٍ وَأَوَّلُ مُبَشِّرٍ وَأَوَّلُ وَأَوَّلٍ». فلم ينل هذا السؤدد في الدنيا على الرسل إلا لأمر عظيم في الباطن. وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله في التنزيل بالصديقية والتصديق بالكلمات إلا لمرتبة قريبة دانية. ومن قال لم تكن نبية قال: إن رؤيتها للملك كما روي جبريل عليه السلام في صفة وحية الكلبي حين سؤاله عن الإسلام والإيمان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء والأول أظهر وعليه الأكثر. والله أعلم.

[٤٣] ﴿يَحْمِيصُ أَقْنِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّكْعَتَيْنِ﴾.

أي أطيلي القيام في الصلاة؛ عن مجاهد. قتادة: أديمي الطاعة. وقد تقدّم القول في القنوت<sup>(٤)</sup>. قال الأوزاعي: لما قالت لها الملائكة ذلك قامت في الصلاة حتى وُرمَت

(١) راجع ٢٥٠/٦. (٢) راجع ٢٠٣/١٨.

(٣) راجع ٩١/١١.

(٤) راجع ٨٦/٢ و ٢١٣/٢.



قدمها وسالت دماً وقيحاً عليها السلام. ﴿وَأَسْجُدِي وَأَزْكَعِي﴾ قدّم السجود ها هنا على الركوع لأن الواو لا توجب الترتيب؛ وقد تقدّم الخلاف في هذا في البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>. فإذا قلت: قام زيد وعمرو جاز أن يكون عمرو قام قبل زيد، فعلى هذا يكون المعنى وأركعي وأسجدي. وقيل: كان شرعهم السجود قبل الركوع. ﴿مَعَ الرَّائِعِينَ﴾ قيل: معناه أفعلي كفعلهم وإن لم تصلي معهم. وقيل: المراد به صلاة الجماعة. وقد تقدّم في البقرة<sup>(٢)</sup>.

[٤٤] ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي الذي ذكرنا من حديث زكريا ويحيى ومريم عليهم السلام من أخبار الغيب. ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ فيه دلالة على نبوة محمد ﷺ حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن قرأ الكتب؛ وأخبر عن ذلك وصدقه أهل الكتاب بذلك؛ فذلك قوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ فرد الكناية إلى «ذلك» فلذلك ذُكر. والإيحاء هنا الإرسال إلى النبي ﷺ. والوحي يكون إلهاماً وإيماء وغير ذلك. وأصله في اللغة إعلام في خفاء؛ ولذلك صار الإلهام يسمى وحياً؛ ومنه ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ﴾<sup>(٤)</sup> وقيل: معنى ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أمرتهم؛ يقال: وحى وأوحى، ورمى وأرمى بمعناه. قال العجاج:

أوحى لها القرار فاستقرت

أي أمر الأرض بالقرار. وفي الحديث: «الوحي الوحي» وهو السرعة؛ والفعل منه توحيت توحياً. قال ابن فارس: الوحي الإشارة والكتابة والرسالة، وكل ما ألقىته إلى غيرك

(١) راجع ٣٤٤/٢. (٢) راجع المسألة الخامسة وما بعدها ٣٤٤/١.

(٣) راجع ٣٦٣/٦. (٤) راجع ١٣٣/١٠.

حتى يعلمه وحى كيف كان. والوحى السريع. والوَحَى الصَّوْت؛ ويقال: أَسْتَوْحِينَاهُمْ أي أَسْتَصْرِخْنَاهُمْ. قال:

### أوحيت ميموناً لها<sup>(١)</sup> والأزراق

الثانية - قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي وما كنت يا محمد لديهم، أي بحضرتهم وعندهم ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ جمع قَلَم، من قَلَمَه إذا قطعه. قيل: قداحهم وسهامهم. وقيل: أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة، وهو أجود؛ لأن الأزلام قد نهى الله عنها فقال ﴿ذَلِكُمْ فَسَنَقْ﴾<sup>(٢)</sup>. إلا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التي كانت عليها الجاهلية تفعلها. ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ أي يحضنها، فقال زكريا: أنا أحق بها، خالتها عندي. وكانت عنده أشيع بنت فاقود أخت حَتَّة بنت فاقود أم مريم. وقال بنو إسرائيل: نحن أحق بها، بنت عالمنا. فأقترعوا عليها وجاء كل واحد بقلمه، وأنفقوا أن يجعلوا الأقلام في الماء الجاري فمن وقف قلمه ولم يجره الماء فهو حاضنها. قال النبي ﷺ: «فجرت الأقلام وعال قلم زكريا». وكانت آية له؛ لأنه نبي تجري الآيات على يديه. وقيل غير هذا. و﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ ابتداء وخبر في موضع نصب بالفعل المضمر الذي دل عليه الكلام؛ التقدير: ينظرون أيهم يكفل مريم. ولا يعمل الفعل في لفظ «أي» لأنها استفهام.

الثالثة - أستدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القُرعة، وهي أصل في شرعنا لكل من أراد العدل في القسمة، وهي سنة عند جمهور الفقهاء في المستوين في الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظنة عن يتولى قسمتهم، ولا يفضل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد أتباعاً للكتاب والسنة. ورد العمل بالقُرعة أبو حنيفة وأصحابه، وردوا الأحاديث الواردة فيها، وزعموا أنها لا معنى لها وأنها تشبه الأزلام التي نهى الله عنها. وحكى ابن المنذر عن أبي حنيفة أنه جَوَّزَهَا وقال: القرعة في القياس لا تستقيم، ولكننا تركنا القياس في ذلك وأخذنا بالآثار والسنة. قال أبو عبيد: وقد عمل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء: يونس وزكريا ونبينا محمد ﷺ. قال ابن المنذر. وأستعمال القرعة

كالإجماع من أهل العلم فيما يقسم بين الشركاء، فلا معنى لقول من ردها. وقد ترجم البخاري في آخر كتاب الشهادات (باب القرعة في المشكلات وقول الله عز وجل ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾) وساق حديث النعمان بن بشير: «مثل القائم على حدود الله والمُذهِن<sup>(١)</sup> فيها مثل قوم أستهموا على سفينة...» الحديث. وسيأتي في «الأنفال»<sup>(٢)</sup> إن شاء الله تعالى، وفي سورة «الزخرف»<sup>(٣)</sup> أيضاً بحول الله سبحانه، وحديث أم العلاء، وأن عثمان بن مظعون طار لهم سهمه في الشكنى حين أقرعت الأنصار سُكنى المهاجرين، الحديث، وحديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها؛ وذكر الحديث.

وقد اختلفت الرواية عن مالك في ذلك؛ فقال مرة: يقرع للحديث. وقال مرة: يسافر بأوفقهن له في السفر. وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا». والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. وكيفية القرعة مذكورة في كتب الفقه والخلاف. وأحتج أبو حنيفة بأن قال: إن القرعة في شأن زكريا وأزواج النبي ﷺ كانت مما لو تراضوا عليه دون قرعة لجاز. قال ابن العربي: «وهذا ضعيف لأن القرعة إنما فائدتها استخراج الحكم الخفي عند التشاح»<sup>(٤)</sup>؛ فأما ما يخرج التراضي [فيه]<sup>(٥)</sup> فباب آخر، ولا يصح لأحد أن يقول: إن القرعة تجري مع موضع التراضي، فإنها لا تكون أبداً مع التراضي وإنما تكون فيما يتشاح الناس فيه ويضنُّ به. وصفة القرعة عند الشافعي ومن قال بها: أن تُقطع رقاع صفار مستوية فيكتب في كل رقعة أسم ذي السهم ثم تجعل في بنادق طين مستوية لا تفاوت فيها ثم تجفف قليلاً ثم تلقى في ثوب رجل لم يحضر ذلك ويغطي عليها ثوبه ثم يدخل يده ويخرج، فإذا أخرج أسم رجل أعطي الجزء الذي أقرع عليه.

(١) كذا في نسخ الأصل، وهو لفظ البخاري عن النعمان في «كتاب المظالم». وروايته. في «كتاب الشهادات»: «... مثل المذهن في حدود الله والواقع فيها مثل...». والمذهن الذي يراني.

(٢) راجع ٣٩٢/٧.

(٣) راجع ٨٦/١٦.

(٤) تشاح الخصمان: أراد كل أن يكون هو الغالب. (٥) زيادة عن أحكام القرآن لابن العربي.

**الرابعة -** ودلت الآية أيضاً على أن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدّة، وقد قضى النبي ﷺ في ابنة حمزة - وأسمها أمة الله - لجعفر وكانت عنده خالتها، وقال: «إنما الخالة بمنزلة الأم» وقد تقدّمت في البقرة هذه المسألة<sup>(١)</sup>. وخرج أبو داود عن عليّ قال: خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدم بأبنة حمزة فقال جعفر: أنا أخذها أنا أحق بها ابنة عمي وخالتها عندي، وإنما الخالة أم. فقال عليّ: أنا أحق بها ابنة عمي وعندي ابنة رسول الله ﷺ فهي أحق بها. وقال زيد: أنا أحق بها، أنا خرجت إليها وسافرت وقدمت بها؛ فخرج النبي ﷺ فذكر حديثاً قال: «وأما الجارية فأقضي بها لجعفر تكون مع خالتها وإنما الخالة أم». وذكر ابن أبي خيثمة أن زيد بن حارثة كان وصيّ حمزة، فتكون الخالة على هذا أحق من الوصي ويكون ابن العم إذا كان زوجاً غير قاطع بالخالة في الحضانة وإن لم يكن محرماً لها.

[٤٥] ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَتَرْتِمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٥﴾ ۝

[٤٦] ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦﴾ ۝

دليل على نبوتها كما تقدّم. و «إذ» متعلقة بـ «يختصمون». ويجوز أن تكون متعلقة بقوله: «وما كُنتَ لديهم». «بكلمة منه» وقرأ أبو السّمان «بكلمة منه»، وقد تقدّم. «اسمُهُ الْمَسِيحُ» ولم يقل اسمها لأن معنى كلمة معنى ولد. والمسيح لقب لعيسى ومعناه الصديق؛ قاله إبراهيم النخعي. وهو فيما يقال معرب وأصله الشين وهو مشترك. وقال ابن فارس: والمسيح العرق، والمسيح الصديق، والمسيح الدرهم الأطلس<sup>(٢)</sup> لا نقش فيه. والمَسْحُ الجماع؛ يقال مسحها<sup>(٣)</sup>. والأَمْسَحُ: المكان الأملس. والمسحاء المرأة الرّسحاء التي لا أسنّ لها. وبفلان مَسْحَةٌ من جمال. والمسائح قيسيّ جباد، واحداً مَسِيحَة. قال:

(١) راجع ١٦٤/٣.

(٢) كذا في بعض النسخ، والمصباح، وفي «اللسان»: الطلس: المحو، والطلس كتاب قد محي ولم ينعم محوه، ثم قال: والأطلس الثوب الخلق. وفي ز: الدرهم الأملس لا نقش عليه.

(٣) الظاهر أن هنا سقطاً كان الأصل: يقال مسحها إذا جامعها.

لَهَا مَسَائِحُ زُورٌ فِي مَرَافِضِهَا لِيَنْ وَلِيَسَ بِهَا وَهْنٌ وَلَا زَقَتْ<sup>(١)</sup>

وأختلف في المسيح ابن مريم مماذا أخذ؛ فقيل: لأنه مسح الأرض، أي ذهب فيها فلم يستكن بكن. وروي عن ابن عباس أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برىء؛ فكأنه سمي مسيحاً لذلك، فهو على هذا فعيل بمعنى فاعل. وقيل: لأنه ممسوح بدهن البركة، كانت الأنبياء تُمسح به، طيب الرائحة؛ فإذا مُسح به عُلِمَ أنه نبي. وقيل: لأنه كان ممسوح الأخمصين. وقيل: لأن الجمال مسحه، أي أصابه وظهر عليه. وقيل: إنما سمي بذلك لأنه مسح بالطهر<sup>(٢)</sup> من الذنوب. وقال أبو الهيثم: المسيح ضد المسيح؛ يقال: مسحه الله أي خلقه خلقاً حسناً مباركاً، ومسحه أي خلقه خلقاً ملعوناً قبيحاً. وقال ابن الاعرابي: المسيح الصديق، والمسيخ الأعور، وبه سمي الدجال. وقال أبو عبيد: المسيح أصله بالعبرانية مشيحاً بالشين فعرب كما عرب موسى بموسى. وأما الدجال فسمي مسيحاً<sup>(٣)</sup> لأنه ممسوح إحدى العينين. وقد قيل في الدجال مسيح بكسر الميم وشد السين. وبعضهم يقول كذلك بالخاء المنقوطة. وبعضهم يقول مسيح بفتح الميم وبالخاء والتخفيف؛ والأول أشهر وعليه الأكثر. سمي به لأنه يسبح في الأرض أي يطوفها ويدخل جميع بلدانها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس؛ فهو فعيل بمعنى فاعل، فالدجال يمسح الأرض مِخَنَةً، وابن مريم يمسحها مِخَنَةً. وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول. وقال الشاعر:

إِنَّ الْمَسِيحَ يَقْتُلُ الْمَسِيخَا

وفي «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة» الحديث. ووقع في حديث عبد الله بن عمرو «إلا الكعبة وبيت المقدس» ذكره أبو جعفر الطبري. وزاد أبو جعفر الطحاوي: «ومسجد الطور»؛ رواه من حديث جُنَادَةَ بن أَبِي أُمَيَّة عن بعض أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ. وفي حديث أبي بكر بن أبي شيبة عن سمرة بن جُنْدُب عن النبي ﷺ:

(١) زور: جمع زوراء وهي المائلة. والوهن الضعف، والرقق: ضعف العظام. (٢) في ز: التطهر في ب و د: التطهير. (٣) في ز، د: مسيخا - بالمعجمة - وأنه ممسوخ إحدى العينين.

«وأنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبيت المقدس وأنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس» وذكر الحديث. وفي «صحيح مسلم»: «فبينا هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودين<sup>(١)</sup> واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان<sup>(٢)</sup> كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرّفه فيطلبه حتى يدرّكه بباب لدّ فيقتله»<sup>(٣)</sup> الحديث<sup>(٤)</sup> بطوله. وقد قيل: إن المسيح أسم لعيسى غير مشتق سماه الله به. فعلى هذا يكون عيسى بدلاً من المسيح من البذل الذي هو هو. وعيسى أسم أعجمي فلذلك لم ينصرف وإن جعلته عربياً لم ينصرف في معرفة ولا نكرة؛ لأن فيه ألف تأنيث. ويكون مشتقاً من عاسه يعوسه إذا ساسه وقام عليه. «وجيهاً» أي شريفاً ذا جاهٍ وقدر، وأنتصب على الحال؛ قاله الأخفش. «ومن المقرّبين» عند الله تعالى وهو معطوف على «وجيهاً» أي ومقرّباً؛ قاله الأخفش. وجمع وجيه وجهاً ووجهاً. «ويكلم الناس» عطف على «وجيهاً»؛ قاله الأخفش أيضاً. و«المهد» مضجع الصبي في رضاعه. ومهدت الأمر هيأته ووطّأته. وفي التنزيل «فلائفسهم يمهّدون»<sup>(٥)</sup>. وأمهّد الشيء أرتفع كما يمهّد سنام البعير. «وكهلاً» الكهل بين حال الغلومة وحال الشيخوخة. وأمرأة كهلة. وأكتهلت الروضة إذا عمها الثور. يقول: يكلم الناس في المهد آية، ويكلمهم كهلاً بالوحي والرسالة. وقال أبو العباس: كلهم في المهد حين برأ أمّه فقال: «إني عبّد الله»<sup>(٦)</sup> الآية. وأما كلامه وهو كهل فإذا أنزله الله تعالى [من السماء]<sup>(٧)</sup> أنزله على صورة ابن ثلاث وثلاثين سنة وهو الكهل فيقول لهم: «إني عبد الله» كما قال في المهد. فهاتان آيتان وحجتان. قال المهدي: وفائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد ويعيش إلى أن يكلمهم كهلاً، إذ كانت العادة أن من تكلم في المهد لم يعيش.

(١) قوله: مهرودين، أي في شقين أو حلتين. وقيل: الثوب المهرود الذي يصبغ بالورس ثم بالزعفران.

(٢) الجمان (بضم الجيم وتخفيف الميم): حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار.

(٣) لد (بضم اللام وتشديد الدال): قرية في فلسطين قريبة من بيت المقدس.

(٤) راجع صحيح مسلم ٣٧٦/٢ طبع بولاق.

(٥) راجع القرطبي ٤٤/١٤.

(٦) راجع ١٠٢/١١. (٧) الزيادة عن البحر لأبي حيان.

قال الزجاج: «وكهلاً» بمعنى ويكلم الناس كهلاً. وقال الفراء والأخفش: هو معطوف على «وجيهاً». وقيل: المعنى ويكلم الناس صغيراً وكهلاً. وروى ابن جريج عن مجاهد قال: الكهل الحليم. قال النحاس: هذا لا يُعرف في اللغة، وإنما الكهل عند أهل اللغة من ناهز الأربعين. وقال بعضهم: يقال له حَدَثٌ إلى ست عشرة سنة. ثم شَابَ إلى اثنتين وثلاثين. ثم يَكْتَهَلُ في ثلاثٍ وثلاثين؛ قاله الأخفش. «ومن الصالحين» عطف على «وجيهاً» أي وهو من العباد الصالحين. ذكر أبو بكر بن أبي شيبة حَدَّثَنَا عبد الله بن إدريس عن حُصَيْنٍ عن هلال بن يساف. قال: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى وصاحب يوسف وصاحب جريج، كذا قال: «وصاحب يوسف». وهو في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج وصاحب الجبار وبيننا صبي يرضع من أمه» وذكر الحديث بطوله<sup>(١)</sup>. وقد جاء من حديث ضُهِيب في قصة الأخدود «أن امرأة جيء بها لتلقى في النار على إيمانها ومعها صبي». في غير كتاب مسلم «يرضع فتقاعست أن تقع فيها فقال الغلام يا أمه أصبري فإنك على الحق». وقال الضحاك: تكلم في المهد ستة: شاهد يوسف وصبي ماشطة امرأة فرعون وعيسى ويحيى وصاحب جريج وصاحب الجبار. ولم يذكر الأخدود، فأسقط صاحب الأخدود وبه يكون المتكلمون سبعة. ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السلام: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» بالحصص فإنه أخبر بما كان في علمه مما أوحى إليه في تلك الحال، ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بما شاء من ذلك فأخبر به.

قلت: أما صاحب يوسف فيأتي الكلام فيه، وأما صاحب جريج وصاحب الجبار وصاحب الأخدود ففي «صحيح مسلم». وستأتي قصة الأخدود في سورة «البروج»<sup>(٢)</sup> إن شاء الله تعالى. وأما صبي ماشطة [أمرأة] فرعون، فذكر البيهقي عن ابن عباس قال قال النبي ﷺ: «لما أسرى بني سِزْت في رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة قالوا ماشطة

(١) راجع «صحيح مسلم» ٢/٢٧٦ طبع بولاق راجع ج ١٩.

(٢) راجع ٢٨٤/١٩.

أبنة فرعون وأولادها سقط مشطها من يديها فقالت: بسم الله فقالت أبنة فرعون: أبي؟ قالت: ربّي وربك ورب أبيك قالت أولك رب غير أبي؟ قالت: نعم ربّي وربك ورب أبيك الله - قال - فدعاها فرعون فقال: ألك رب غيري؟ قالت: نعم ربي وربك الله - قال - فأمر بنفورة من نحاس فأحميت ثم أمر بها لتلقى فيها قالت: إن لي إليك حاجة - قال: ما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي في موضع واحد قال: ذاك لك لما لك علينا من الحق. فأمر<sup>(١)</sup> بهم فألقوا واحداً بعد واحد حتى بلغ رضيعاً فيهم فقال قعي يا أمه ولا تقاعسي فإننا على الحق - قال - وتكلم أربعة وهم صغار: هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم.

[٤٧] ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (١٧).

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ أي يا سيدي. تخاطب جبريل عليه السلام؛ لأنه لما تمثّل لها قال لها: إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكياً. فلما سمعت ذلك من قوله استفهمت عن طريق الولد فقالت: أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر؟ أي بنكاح. [في سورتها]<sup>(٢)</sup> ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾<sup>(٣)</sup> ذكرت هذا تأكيداً؛ لأن قولها ﴿لَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا﴾ يشمل الحرام والحلال. تقول: العادة الجارية التي أجراها الله في خلقه أن الولد لا يكون إلا عن نكاح أو سفاح. وقيل: ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئاً، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد: أم قبل زوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداءً؟ فزوي أن جبريل عليه السلام حين قال لها ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾. نفخ في جيب درعها وكتمها؛ قاله ابن جريج. قال ابن عباس: أخذ جبريل رُذُن<sup>(٤)</sup> قميصها بأصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى. وقيل غير ذلك على ما يأتي بيانه في سورتها إن شاء الله تعالى. وقال بعضهم: وقع نفخ جبريل في رحمها فعلمت

(١) يبدو هنا سقط في كل الأصول، فقله: واحداً بعد واحد من قصة أصحاب الأخدود لا صلة له بما قبله. راجع ٢٨٦/١٩.

(٢) الزيادة في نخ: ب. ود. أي في سورة مريم ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

(٣) راجع ٩١/١١. (٤) الرذن (بالضم) أصل الكم.



بذلك. وقال بعضهم: لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذريته فجعل بعض الماء في أصلاب الآباء وبعضه في أرحام الأمهات فإذا اجتمع الماء ان صاراً ولداً، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعاً في مريم بعضه في رحمها وبعض في صلبها، فنفخ فيه جبريل لتهييج شهوتها؛ لأن المرأة ما لم تهيج شهوتها لا تحبل، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل وقع الماء الذي كان في صلبها في رحمها فأختلط الماءان فعلمت بذلك؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرُ﴾ يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾. وقد تقدّم في «البقرة» القول فيه مستوفى<sup>(١)</sup>.

[٤٨] ﴿وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

[٤٩] ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَأَلْبَرِمَ وَأُنْخِ الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ قال ابن جريج: الكتاب الكتابة والخط. وقيل: هو كتاب غير التوراة والإنجيل علمه الله عيسى عليه السلام. ﴿وَرَسُولًا﴾ أي ونجعله رسولاً. أو يكلمهم رسولاً. وقيل: هو معطوف على قوله «وجيهاً». وقال الأخفش: وإن شئت جعلت الواو في قوله «ورسولاً» مفعمة والرسول حالاً للهاء، تقديره ويعلمه الكتاب رسولاً. وفي حديث أبي ذر الطويل «وأول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى عليه السلام». ﴿أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ﴾ أي أصور وأفدّر لكم ﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ قرأ الأعرج وأبو جعفر «كهية» بالتشديد. الباقون بالهمز.

والطير يذكر ويؤنث. ﴿فَأَنْفَخُ فِيهِ﴾ أي في الواحد منه أو منها أو في الطين فيكون طائراً. وطائر وطَير مثل تاجر وتَجَر. قال وَهَب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليتميز فعل الخلق من فعل الله تعالى. وقيل: لم يخلق غير الخُفَّاش لأنه أكمل الطير خلقاً ليكون أبلغ في القدرة، لأن لها ثدياً وأسناناً وأذناً، وهي تحيض وتطهر وتلد. ويقال: إنما طلبوا خُلِقَ خُفَّاش لأنه أعجب من سائر الخلق؛ ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور، فيكون له الضرع يخرج منه اللبن، ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يُسفر جداً، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويحيض كما تحيض المرأة. ويقال: إن سؤالهم كان له على وجه التعمت فقالوا: أخلق لنا خُفَّاشاً وأجعل فيه روحاً إن كنت صادقاً في مقاتلتك؛ فأخذ طيناً وجعل منه خفّاشاً ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض؛ وكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله، كما أن النفخ من جبريل والخلق من الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ الْكَمَةِ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الأكمة: الذي يولد أعمى؛ عن ابن عباس. وكذا قال أبو عبيدة قال: هو الذي يولد أعمى؛ وأنشد لرؤبة:

فَأَرْتَدُّ أَرْتَادَ الْأَكْمَةِ

وقال ابن فارس: الكمة العمى يولد به الإنسان وقد يعرض. قال سويد:

كَمَّهَتْ عَيْنَاهُ حَتَّى أَبْيَضَتْ

مجاهد: هو الذي يُبصر بالنهار ولا يُبصر بالليل. عكرمة: هو الأعمش، ولكنه في اللغة العمى؛ يقال كَمِهَ يَكْمُهُ كَمَها وكَمَّهَتْها أنا إذا أعميتها. والبرص معروف وهو بياض يعتري الجلد، والأبرص القمر، وسامُ أْبْرَصَ معروف، ويجمع على الأبارص. وخُصَّ هذان بالذكر لأنهما عيَّان. وكان الغالب على زمن عيسى عليه السلام الطبُّ فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك ﴿وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قيل: أحياناً أربعة أنفس: العاذر وكان صديقاً له، وابن العجوز

وأبنة العاشر وسام بن نوح؛ فالله أعلم، فأما العاذر فإنه كان قد توفي قبل ذلك بأيام فدعا الله فقام بإذن الله وودكه يقطر فعاش وولد له، وأما ابن العجوز فإنه مَرَّ به يُحْمَل على سريريه فدعا الله فقام وليس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله، وأما بنت العاشر فكان أتى عليها ليلة فدعا الله فعاشت بعد ذلك وولد لها؛ فلما رأوا ذلك قالوا: إنك تحيي من كان موته قريباً فلعلهم لم يموتوا فأصابتهم سكتة فأحيى لنا سام بن نوح. فقال لهم: دلوني على قبره فخرج وخرج القوم معه حتى أنتهى إلى قبره فدعا الله فخرج من قبره وقد شاب رأسه. فقال له عيسى: كيف شاب رأسك ولم يكن في زمانك شيب؟ فقال: يا روح الله، إنك دعوتني فسمعت صوتاً يقول: أجب روح الله، فظننت أن القيامة قد قامت، فمن هول ذلك شاب رأسي. فسأله عن النزع فقال: يا روح الله، إن مرارة النزع لم تذهب عن حنجرتي؛ وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة، فقال للقوم: صدقوه فإنه نبي؛ فأمن به بعضهم وكذبه بعضهم وقالوا: هذا سحر. وروي من حديث إسماعيل بن عياش قال: حدثني محمد بن طلحة عن رجل أن عيسى ابن مريم كان إذا أراد أن يحيي الموتى صلى ركعتين يقرأ في الأولى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾. وفي الثانية «تنزيل السجدة» فإذا فرغ حمد الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء: يا قديم يا خفي يا دائم يا فزُد يا وثر يا أحد يا صمد؛ ذكره البيهقي وقال: ليس إسناده بالقوي<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي بالذي تأكلونه وما تدخرون. وذلك أنهم لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا: أخبرنا بما نأكل في بيوتنا وما ندخر للغد؛ فأخبرهم فقال: يا فلان أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا وأدخرت كذا وكذا؛ فذلك قوله «وأنبئكم» الآية. وقرأ مجاهد والزهرري والسختياني «وما تدخرون» بالذال المعجمة مخففاً. وقال سعيد بن جبير وغيره: كان يخبر الصبيان في الكتاب بما يدخرون حتى منعهم آبائهم من الجلوس معه. فتادة: أخبرهم بما أكلوه من المائدة وما آدخروه منها خفية.

(١) هذا الحديث لا يصح لأن السورتين من القرآن ولا يجوز أن يكون شيء من القرآن من الكتب السابقة.

[٥٠] ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

[٥١] ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا﴾ عطف على قوله: ﴿وَرَسُولًا﴾. وقيل: المعنى وجئتكم مصدقاً. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ﴾ لما قبلي. ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ﴾ فيه حذف، أي ولا حل لكم جئتكم. ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني من الأطعمة. قيل: إنما أحل لهم عيسى عليه السلام ما حُرِّم عليهم بذنوبهم ولم يكن في التوراة، نحو أكل الشحوم وكل ذي ظفر. وقيل: إنما أحل لهم أشياء حُرِّمتها عليهم الأحبار ولم تكن في التوراة محرمة عليهم. قال أبو عبيدة: يجوز أن يكون «بعض» بمعنى كل؛ وأنشد ليبيد:

تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا      أَوْ يَرْتَبُ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة؛ لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل في هذا الموضع، لأن عيسى عليه السلام إنما أحل لهم أشياء مما حُرِّمَ عليها موسى من أكل الشحوم وغيرها ولم يحل لهم القتل ولا السرقة ولا فاحشة. والدليل على هذا أنه روي عن قتادة أنه قال: جاءهم عيسى بالآيتين مما جاء به موسى صلى الله عليهما وعلى نبينا؛ لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياء من الشحوم فجاءهم عيسى بتحليل بعضها. وقرأ التَّخَعَّى «بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» مثل كرم، أي صار حراماً. وقد يوضع البعض بمعنى الكل إذا انضمت إليه قرينة تدل عليه؛ كما قال الشاعر<sup>(٢)</sup>:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقَ بَعْضُنَا      حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

يريد بعض الشر أهون من كله. ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إنما وحد وهي آيات<sup>(٣)</sup> لأنها جنس واحد في الدلالة على رسالته.

(١) في د: ما روى.

(٢) هو طرفة بن العبد؛ خاطب به عمرو بن هند الملك، وكنيته أبو منذر حين أمر بقتله.

(٣) في د: آياته.

[٥٢] ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أي من بني إسرائيل. وأحسّ معناه علم ووجد؛ قاله الزجاج. وقال أبو عبيدة: معنى «أحس» عرف، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة. والإحساس: العلم بالشيء؛ قال الله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾<sup>(١)</sup> والحس القتل؛ قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَحْشُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾<sup>(٢)</sup>. ومنه الحديث في الجراد «إِذَا حَسَّهُ الْبُرْدُ». ﴿مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ أي الكفر بالله. وقيل: سمع منهم كلمة الكفر. وقال الفراء: أرادوا قتله. ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ استنصر عليهم. قال السدي والثوري وغيرهما: المعنى مع الله، فإلى بمعنى مع، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> أي مع. والله أعلم. وقال الحسن: المعنى من أنصاري في السبيل إلى الله؛ لأنه دعاهم إلى الله عز وجل. وقيل: المعنى من يضم نصرته إلى نصره الله عز وجل. فإلى على هذين القولين على بابها، وهو الجيد. وطلب النصر ليحتمي بها من قومه ويظهر الدعوة؛ عن الحسن ومجاهد. وهذه سنة الله في أنبيائه وأوليائه. وقد قال لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾<sup>(٤)</sup> أي عشيرة وأصحاب ينصرونني. ﴿قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي أنصار نبيه ودينه. والحواريون أصحاب عيسى عليه السلام، وكانوا اثني عشر رجلاً؛ قاله الكلبي وأبو رزق.

وأختلف في تسميتهم بذلك؛ فقال ابن عباس: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا صيادين. ابن أبي نجیح وأبن أزطاة: كانوا قصارين فسموا بذلك لتبييضهم الثياب. قال عطاء: أسلمت مريم عيسى إلى أعمال شتى، وآخر ما دفعته إلى الحواريين وكانوا قصارين وصباغين، فأراد معلّم عيسى السفر، فقال لعيسى: عندي ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمتك الصبغة فأصبغها. فطبخ عيسى حباً<sup>(٥)</sup> واحداً وأدخله جميع الثياب وقال: كوني بإذن الله على ما أريد منك. فقدم الحواري والثياب كلها في الحب فلما رآها قال: قد أفسدتها؛

(١) راجع ١٦٢/١١. (٢) راجع ٢٣٥/٤. (٣) راجع ١٠/٥.

(٤) راجع ٧٨/٩. (٥) الحب بالضم: الغابية.

فأخرج عيسى ثوباً أحمر وأصفر وأخضر إلى غير ذلك مما كان على كل ثوب مكتوب عليه صبغه؛ فعجب الحواري، وعلم أن ذلك من الله ودعا الناس إليه فأمنوا به؛ فهم الحواريون. قتادة والضحاك: سموا بذلك لأنهم كانوا خاصة الأنبياء. يريدان لنقاء<sup>(١)</sup> قلوبهم. وقيل: كانوا ملوكاً، وذلك أن الملك صنع طعاماً فدعا الناس إليه فكان عيسى على قصعة فكانت لا تنقص، فقال الملك له: من أنت؟ قال: عيسى ابن مريم. قال: إني أترك ملكي هذا وأتبعك. فأنطلق بمن أتبعه معه، فهم الحواريون؛ قاله ابن عون. وأصل الحَوَر في اللغة البياض، وحَوَرَت الثياب ببيضتها، والحَوَارَى من الطعام ما حَوَرَ، أي ببيض، وأحَوَرَ أبيض، والجَفَنَةُ المحوَرَة: المبيضة بالسنام، والحواري أيضاً الناصر؛ قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي حواري وحواري الزبير». والحواريات: النساء لبياضهن؛ وقال:

فَقُلْ لِلْحَوَارِيَّاتِ يَبْكِينَ غَيْرَنَا      وَلَا تَبْكُنَا إِلَّا الْكَلَابُ النَّوَابِخُ

[٥٣] ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ أي يقولون ربنا آمنة. ﴿بِمَا أُنزِلَتْ﴾ يعني في كتابك وما أظهرته من حكمك. ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ يعني عيسى. ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني أمة محمد ﷺ؛ عن ابن عباس. والمعنى أثبت أسماءنا مع أسمائهم واجعلنا من جملتهم. وقيل: المعنى فاكْتُبْنَا مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق.

[٥٤] ﴿وَمَكْرُؤٌ وَّمَكْرٌ لِلَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤٌ وَّمَكْرٌ لِلَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ يعني كفار بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، أي قتله<sup>(٢)</sup>. وذلك أن عيسى عليه السلام لما أخرجهم قومه وأمه من بين أظهرهم عاد إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطؤوا على الفتك به، فذلك مكرهم. ومكر الله: استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون؛ عن الفراء وغيره. قال ابن عباس: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة. وقال الزجاج: مكر الله مجازاتهم على مكرهم؛ فسمى الجزاء بأسم الابتداء؛ كقوله:

(١) في ز: لصفاء. (٢) في ز: بقتله.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. وقد تقدّم في البقرة. وأصل المكر في اللغة الاحتيال والخداع. والمكر: خَدَالَةُ<sup>(٣)</sup> الساق. وأمرأة ممكورة الساقين. والمكر: ضرب من الثياب. ويقال: بل هو المَغْرَةُ؛ حكاه ابن فارس. وقيل: «مكر الله» إلقاء شبهة عيسى على غيره ورفع عيسى إليه، وذلك أن اليهود لما اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيت هارباً منهم فرفعه جبريل من الكوة إلى السماء، فقال ملكهم لرجل منهم خبيث يقال له يهوذا: أدخل عليه فأقتله، فدخل الخَوْخَةُ فلم يجد هناك عيسى وألقى الله عليه شبهة عيسى، فلما خرج رأوه على شبهة عيسى فأخذوه وقتلوه وصلّبوه. ثم قالوا: وجهه يشبه وجه عيسى، وبدنه يشبه بدن صاحبنا؛ فإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى! وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا! فوقع بينهم قتال فقتل بعضهم بعضاً؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾. وقيل غير هذا على ما يأتي. ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أسم فاعل من مَكَرَ يَمْكُرُ مَكْرًا. وقد عدّه بعض العلماء في أسماء الله تعالى فيقول إذا دعا به: يا خير الماكرين أمكر لي. وكان عليه السلام يقول في دعائه: «اللهم امكر لي ولا تمكر عليّ». وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. والله أعلم.

[٥٥] ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ العامل في «إذ» مكروا، أو فعل مضمر. وقال جماعة من أهل المعاني منهم الضحّاك والفراء في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ على التقديم والتأخير؛ لأن الواو لا توجب الرتبة. والمعنى: إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء؛ كقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾<sup>(٤)</sup>؛ والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً. قال الشاعر:

(١) راجع ٢٠١/١. (٢) راجع ٤٢١/٥.

(٣) في «اللسان»: حسن خدالة الساقين أي أملاؤها وأستدارتها.

(٤) راجع ٢٦٠/١١.

أَلَا يَا نَخْلَةَ مَنْ ذَاتِ عِزِّكَ وَرَحْمَةِ اللَّهِ السَّلَامُ عَلَيْكَ

أي عليك السلام ورحمة الله. وقال الحسن وأبن جريج: معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت؛ مثل توفيت مالي من فلان أي قبضته. وقال وهب بن منبه: توفى الله عيسى عليه السلام ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه إلى السماء. وهذا فيه بعد؛ فإنه صح في الأخبار عن النبي ﷺ نزوله وقتله الدجال على ما بيناه في كتاب التذكرة، وفي هذا الكتاب حسب ما تقدم، ويأتي. وقال ابن زيد: متوفيك قابضك، ومتوفيك ورافعك واحد ولم يمت بعد. وروى ابن طلحة عن ابن عباس معنى متوفيك مميتك. الربيع بن أنس: وهي وفاة نوم؛ قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ (١) أي يُنيمكم لأن النوم أخو الموت؛ كما قال ﷺ لما سئل: أفي الجنة نوم؟ قال: «لا، النوم أخو الموت، والجنة لا موت فيها». أخرجه الدارقطني. والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وأبن زيد، وهو اختيار الطبري، وهو الصحيح عن ابن عباس، وقاله الضحاك. قال الضحاك: كانت القصة لما أرادوا قتل عيسى أجمع الحواريون في غرفة وهم اثنا عشر رجلاً فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة، فأخبر إبليس جمع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة. فقال المسيح للحواريين: أَيُكُم يخرج ويُقتل. ويكون معي في الجنة؟ فقال رجل: أنا يا نبي الله؛ فألقى إليه مِدرعة (٢) من صوف وعمامة من صوف وناولته عكازه وألقى عليه شَبَه عيسى، فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه. وأما المسيح فكساه الله الرِّيش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار مع الملائكة. وذكر أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: لما أراد الله تبارك وتعالى أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وهم اثنا عشر رجلاً من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال لهم: أما إن منكم من سيكفر بي أثنى عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يُلْقَى عليه شَبَهي فيقتل مكاني ويكون معي

(١) راجع ٥/٧.

(٢) المِدرعة (بالكسر): الدراعة وهي ثوب من كتان.



في درجتي؟ فقام شاب من أحدهم فقال أنا. فقال عيسى: أجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا. فقال عيسى: أجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا. فقال نعم أنت ذاك. فالتقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام. قال: ورفع الله تعالى عيسى من رَوْزَنَة<sup>(١)</sup> كانت في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه، وكفر به بعضهم أثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به؛ فنفرقوا ثلاث فرق: قالت فرقة: كان فينا الله ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه، وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ فقتلوا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿فَأَمْنَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَكَفَرَتْ طَآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾<sup>(٢)</sup> أي آمن آباؤهم في زمن عيسى ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بإظهار دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص»<sup>(٣)</sup> فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد». وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفتح الروحاء»<sup>(٤)</sup> حاجاً أو معتمراً أو ليثنيتهما ولا ينزل بشرع مبتدئ فينسخ به شريعتنا بل ينزل مجدداً لما درس منها متبعتها. كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم». وفي رواية: «فأمكم منكم» قال ابن أبي ذئب: تدري ما أمكم منكم؟. قلت: تخبرني، قال: فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم ﷺ. وقد زدنا هذا الباب بياناً في كتاب (التذكرة) والحمد لله. و﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أصله متوَفِّيك حذف الضمة أستثقالاً.

(١) الروزنة: الكوة. (٢) راجع ٩٠/١٨.

(٣) القلاص (بالكسر): جمع قلوص وهي الناقة الشابة.

(٤) فج الروحاء: طريق بين مكة والمدينة، كان طريق رسول الله ﷺ إلى بدر وإلى مكة عام الفتح وعام الحج. عن «معجم ياقوت».

وهو خبر إن. ﴿وَرَأَيْتُكَ﴾ عطف عليه، وكذا ﴿مُطَهَّرُكَ﴾ وكذا ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾. ويجوز «وجاعل»<sup>(١)</sup> الذين وهو الأصل. وقيل: إن الوقف التام عند قوله: ﴿وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. قال النحاس: وهو قول حسن. ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ يا محمد ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بالحجة وإقامة البرهان. وقيل بالعز والغلبة. وقال الضحاك ومحمد بن أبان: المراد الحواريون. والله تعالى أعلم.

[٥٦] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

[٥٧] ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

[٥٨] ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يعني بالقتل والصلب والسبي والعزبة، وفي الآخرة بالنار. ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ «ذلك» في موضع رفع بالابتداء وخبره «نتلوه». ويجوز: الأمر ذلك، على إضمار المبتدأ.

[٥٩] ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

[٦٠] ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ دليل على صحة القياس. والتشبيه واقع على أن عيسى خُلِقَ من غير أب كآدم، لا على أنه خلق من تراب. والشيء قد يشبه بالشيء وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا في وصف واحد؛ فإن آدم خُلِقَ من تراب ولم يُخلَقْ عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة، ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقهما من غير أب؛ ولأن أصل خلقتهما كان من تراب لأن آدم لم يخلق من نفس التراب،

(١) كذا في بعض الأصول وكتاب إعراب القرآن للنحاس. وفي ز: وجعل.

ولكنه جعل التراب طيناً ثم جعله صلصالاً ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوِّله من حال إلى حال، ثم جعله بشراً من غير أب. ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا على النبي ﷺ قوله: «إن عيسى عبد الله وكلمته» فقالوا: أرنا عبداً خلق من غير أب؟ فقال لهم النبي ﷺ: «آدم من كان أبوه أعجبتم من عيسى ليس له أب؟ فآدم عليه السلام ليس له أب ولا أم». فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي في عيسى ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ في آدم ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾<sup>(١)</sup>. وروي أنه عليه السلام لما دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلك. فقال: «كذبتُم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم آتخذ الله ولداً، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب». فقالوا: من أبو عيسى؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾. فدعاهم النبي ﷺ، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً. فقالوا: أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال: «الإسلام أو الجزية أو الحرب» فأقروا بالجزية على ما يأتي. وتم الكلام عند قوله «آدم». ثم قال: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي فكان. والمستقبل يكون في موضع الماضي إذا عرف المعنى. قال الفراء: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ مرفوع بإضمار هو. أبو عبيدة: هو استئناف كلام وخبره في قوله ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾. وقيل هو فاعل، أي جاءك الحق. ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته؛ لأنه ﷺ لم يكن شاكاً في أمر عيسى عليه السلام.

[٦١] ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَحْيِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

**الأولى -** قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ أي جادلَكَ وخاصمَكَ يا محمد «فيه»، أي في عيسى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأنه عبد الله ورسوله. ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ أي أقبلوا. وضع لمن له جلالة ورفعة ثم صار في الاستعمال لكل داع إلى الإقبال، وسيأتي له مزيد بيان في «الأنعام»<sup>(١)</sup>. ﴿نَذْعُ﴾ في موضع جزم. «أَبْنَاءَنَا» دليل على أن أبناء البنات يسمون أبناء؛ وذلك أن النبي ﷺ جاء بالحسن والحسين وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفها وهو يقول لهم: إن أنا دعوت فآمنوا وهو معنى قوله: «ثم نبتهل» أي نتضرع في الدعاء؛ عن ابن عباس. أبو عبيدة والكسائي: نلتعن. وأصل الابتهال الاجتهاد في الدعاء باللعن وغيره. قال ليبد:

في كهولٍ سادةٍ من قومِهِ      نظر الدهرُ إليهم فأبتهل

أي اجتهد في إهلاكهم. يقال: بهله الله أي لعنه. والبهل اللعن. والبهل الماء القليل. وأبتهله إذا خليته وإرادته. وبهله أيضاً. وحكى أبو عبيدة: بهله الله يبهله بهلة أي لعنه. قال ابن عباس: هم أهل نجران: السيد والعاقب وأبن الحارث رؤساؤهم. ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

**الثانية -** هذه الآية من أعلام نبوة محمد ﷺ؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منها ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوه أضطرم عليهم الوادي ناراً فإن محمداً نبيّ مرسل، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل في أمر عيسى؛ فتركوا المباهلة وأنصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدوا في كل عام ألف حُلَّة في صَفَرٍ وألف حلة في رَجَبٍ فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك بدلاً من الإسلام.

**الثالثة -** قال كثير من العلماء: إن قوله عليه السلام في الحسن والحسين لما باهل ﴿نَذْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ وقوله في الحسن: «إن أبنِي هذا سيد» مخصوص بالحسن والحسين أن يسميا أبنِي النبي ﷺ دون غيرهما؛ لقوله عليه السلام: «كل سبب ونسب

ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي» ولهذا قال بعض أصحاب الشافعي فيمن أوصى لولد فلان ولم يكن له ولد لصلبه وله ولد أبني وولد أبنة: إن الوصية لولد الابن دون ولد الابنة؛ وهو قول الشافعي: وسيأتي لهذا مزيد بيان في «الأنعام»<sup>(١)</sup> والزخرف» إن شاء الله تعالى.

[٦٢] ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَبَّيْكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

[٦٣] ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ الإشارة في قوله ﴿إِنْ هَذَا﴾ إلى القرآن وما فيه من الأفاصيص، سميت قصصاً لأن المعاني تتتابع فيها؛ فهو من قولهم: فلان يقص أثر فلان، أي يتبعه. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ «من» زائدة للتوكيد، والمعنى وما إله إلا الله «العزیز» أي الذي لا يغلب. «الحكيم» ذو الحكمة. وقد تقدّم مثله والحمد لله.

[٦٤] ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا

نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا

أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الخطاب في قول الحسن وأبن زيد والسدي لأهل نجران. وفي قول قتادة وأبن جريج وغيرهما لليهود المدينة، خوطبوا بذلك لأنهم جعلوا أحبارهم في الطاعة لهم كالأرباب. وقيل: هو لليهود والنصارى جميعاً. وفي كتاب النبي ﷺ إلى هرقل «بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من أتبع الهدى [أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام]<sup>(٢)</sup> أسلم تسلم

(١) راجع ٣٢/٧ و ٧٧/١٦ فما بعد.

(٢) زيادة عن صحيح مسلم.

[وَأَسْلِمَ] <sup>(١)</sup> يُوْثِكُ اللهَ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ <sup>(٢)</sup>، وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ - إِلَى قَوْلِهِ: «فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ». لَفْظُ مُسْلِمٍ. وَالسَّوَاءُ الْعَدْلُ وَالنِّصْفَةُ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقَالَ زَهِيرٌ:

أَرُونِي خُطَّةً لَا ضَمِيمٌ فِيهَا يُسَوَّى بَيْنَنَا فِيهَا السَّوَاءُ  
الْفَرَاءُ: وَيُقَالُ فِي مَعْنَى الْعَدْلِ سَوَى وَسَوَّى، فَإِذَا فَتَحْتَ السِّينَ مَدَدْتَ وَإِذَا كَسَرْتَ أَوْ ضَمَمْتَ قَصَرْتَ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَكَانًا سَوًى﴾ قَالَ: وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ «إِلَى كَلِمَةٍ عَدْلٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ» وَقَرَأَ قَعْنَبٌ <sup>(٣)</sup> «كَلِمَةً» بِإِسْكَانِ اللَّامِ، أَلْقَى حَرَكَةَ اللَّامِ عَلَى الْكَافِ؛ كَمَا يُقَالُ كَبَدٌ. فَالْمَعْنَى أَجِيبُوا إِلَى مَا دَعَيْتُمْ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْكَلِمَةُ الْعَادِلَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مِيلٌ عَنِ الْحَقِّ؛ وَقَدْ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ فَمَوْضِعُ «أَنَّ» خَفُضَ عَلَى الْبَدَلِ مِنْ «كَلِمَةٍ»، أَوْ رَفَعَ عَلَى إِضْمَارٍ مُبْتَدَأٍ، التَّقْدِيرُ هِيَ أَنَّ لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ. أَوْ تَكُونُ مَفْسُورَةً لَا مَوْضِعَ لَهَا، وَيَجُوزُ مَعَ ذَلِكَ فِي «نَعْبُدُ» وَمَا عَظَفَ عَلَيْهِ الرِّفْعُ وَالْجَزْمُ: فَالْجَزْمُ عَلَى أَنَّ تَكُونُ «أَنَّ» مَفْسُورَةً بِمَعْنَى أَيْ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ وَتَكُونُ «لَا» جَازِمَةً. هَذَا مَذْهَبُ سَيِّبُوهِ. وَيَجُوزُ عَلَى هَذَا أَنْ تَرَفَعَ «نَعْبُدُ» وَمَا بَعْدَهُ يَكُونُ خَبَرًا. وَيَجُوزُ الرِّفْعُ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا نَعْبُدُ؛ وَمِثْلُهُ ﴿أَنَّ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ وَالْفَرَّاءُ: ﴿وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذْ﴾ بِالْجَزْمِ عَلَى التَّوْهُمِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ أَنْ.

الثَّانِيَةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيْ لَا نَتَّبِعْهُ فِي تَحْلِيلِ شَيْءٍ أَوْ تَحْرِيمِهِ إِلَّا فِيمَا حَلَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّخِذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ <sup>(٥)</sup> مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ أَنْزَلُوهُمْ مَنْزِلَةَ رَبِّهِمْ فِي قَبُولِ تَحْرِيمِهِمْ وَتَحْلِيلِهِمْ لَمَّا لَمْ يَحْرَمْهُ اللَّهُ وَلَمْ يَحِلَّهُ اللَّهُ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى بَطْلَانِ الْقَوْلِ بِالِاسْتِحْسَانِ الْمَجْرَدِ الَّذِي لَا يَسْتَنْدُ إِلَى دَلِيلٍ شَرْعِيِّ؛ قَالَ الْكِيَا الطَّبْرِيُّ: مِثْلُ اسْتِحْسَانَاتِ أَبِي حَنِيفَةَ فِي التَّقْدِيرَاتِ الَّتِي قَدَّرَهَا دُونَ مُسْتَنْدَاتِ بَيِّنَةٍ. وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: يَجِبُ قَبُولُ [قَوْلِ] الْإِمَامِ دُونَ إِبَانَةِ

(١) زِيَادَةُ عَنْ «صَحِيحِ مُسْلِمٍ».

(٢) الْأَرِيسِيِّينَ: الْأَكَارُونَ وَالْفَلَاحُونَ وَالْخُدَمُ وَالْخُولُ، كُلُّ ذَلِكَ وَارِدٌ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

(٣) هُوَ أَبُو السَّمَالِ الْعَدَوِيُّ. (٤) رَاجِعٌ ٢٣٦/١١. (٥) رَاجِعٌ ١١٩/٨.

مستند شرعي، وأنه يحل ما حرّمه الله من غير أن يبين مستنداً من الشريعة. وأرباب جمع رب. و «دون» هنا بمعنى غير.

**الثالثة -** قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عما دعوا إليه. ﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي متصفون بدين الإسلام متقادون لأحكامه معترفون بما لله علينا في ذلك من المِنِّ والإنعام، غير متخذين أحداً رباً لا عيسى ولا عُزيراً ولا الملائكة؛ لأنهم بشر مثلنا محدث كحدوثنا، ولا نقبل من الزَّهْبَانِ شيئاً بتحريمهم علينا ما لم يحرّمه الله علينا، فنكون قد آتخذناهم أرباباً. وقال عكرمة: معنى «يَتَّخِذْ» يسجد. وقد تقدّم أن السجود كان إلى زمن النبي ﷺ ثم نهى النبي ﷺ مُعَاذاً لما أراد أن يسجد؛ كما مضى في البقرة<sup>(١)</sup> بيانه. وروى أنس بن مالك قال: قلنا يا رسول الله، أينحني بعضنا لبعض؟ قال: «لا» قلنا: أيعانق بعضنا بعضاً؟ قال: «لا ولكن تصافحوا» أخرجه ابن ماجه في سننه. وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان في سورة «يوسف»<sup>(٢)</sup> [إن شاء الله]<sup>(٣)</sup>، وفي «الواقعة»<sup>(٤)</sup> مس القرآن أو بعضه على غير طهارة إن شاء الله تعالى.

[٦٥] ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَدْوَةٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الأصل «لِما» فحذفت الألف فرقاً بين الاستفهام والخبر. وهذه الآية نزلت بسبب دعوى كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينه، فأكذبهم الله تعالى بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعده؛ فذلك قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَدْوَةٍ﴾. قال الزجاج: هذه الآية أُبَيِّنُ حجة على اليهود والنصارى؛ إذ التوراة والإنجيل أنزلا من بعده وليس فيهما<sup>(٥)</sup> اسم لواحد من الأديان، وأسم الإسلام في كل كتاب. ويقال: كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى وعيسى أيضاً ألف سنة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ دحوض حجتكم وبطلان قولكم. والله أعلم.

(١) راجع ٢٩٣/١. (٢) راجع ٢٦٥/٩. (٣) الزيادة من نسخ: ز، ب.

(٤) إيراد هذه الجملة هنا غير واضح المناسبة.

(٥) في «الأصول»: فيها والمثبت في: د.

[٦٦] ﴿هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ﴾ يعني في أمر محمد ﷺ؛ لأنهم كانوا يعلمونه فيما يجدون من نعته في كتابهم فحاجوا فيه بالباطل. ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني دعواهم في إبراهيم أنه كان يهودياً أو نصرانياً. والأصل في «ها أنتم» أنتم فأبدل من الهمزة الأولى هاء لأنها أختها؛ عن أبي عمرو بن العلاء والأخفش. قال النحاس: وهذا قول حسن. وقرأ قُتَيْبٌ عن ابن كثير «هأنتم» مثل هعتم. والأحسن منه أن يكون الهاء بدلاً من همزة فيكون أصله أنتم. ويجوز أن تكون ها للتنبيه دخلت على «أنتم» وحذفت الألف لكثرة الاستعمال. وفي «هؤلاء» لغتان المد والقصر ومن العرب من يقصرها. وأنشد أبو حاتم:

لعمرك إنا والأحاليف هاؤلا      لفي محنة أظفارها لم تُقَلِّم

وهؤلاء ها هنا في موضع النداء يعني يا هؤلاء. ويجوز هؤلاء خبر أنتم، على أن يكون أولاء بمعنى الذين وما بعده صلة له. ويجوز أن يكون خبر «أنتم» حاججتم. وقد تقدّم هذا في «البقرة»<sup>(١)</sup> والحمد لله.

الثانية - في الآية دليل على المنع من الجدل لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده فقال عز وجل: ﴿هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾. وقد ورد الأمر بالجدال لمن علم وأيقن فقال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾<sup>(٢)</sup>. وروي عن النبي ﷺ أنه أتاه رجل أنكر ولده فقال: يا رسول الله، إن أمرأتي ولدت غلاماً أسود. فقال رسول الله ﷺ: «هل لك من إبل؟» قال نعم. قال:

(١) راجع ٢٨٤/١، ٢٠/٢.

(٢) راجع ١٠/٢٠٠.



«ما ألوانها؟ قال: حُمْرٌ: قال: «هل فيها من أَوْزَقٍ»<sup>(١)</sup>؟ قال نعم. قال: «فمن أين ذلك؟ قال: لعل عِرْقاً نَزَعَهُ. فقال رسول الله ﷺ: «وهذا الغلام لعل عِرْقاً نَزَعَهُ». وهذا حقيقة الجدل وتهاية في تبين الاستدلال من رسول الله ﷺ.

[٦٧] ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مِّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

نزهه تعالى من دعاويهم الكاذبة، وبين أنه كان على الحنيفية الإسلامية ولم يكن مشركاً. والحنيف: الذي يوحد ويحج ويضحي ويختن ويستقبل القبلة. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقه<sup>(٢)</sup>. والمسلم في اللغة: المتدلل لأمر الله تعالى المنطاع له. وقد تقدم في «البقرة» معنى الإسلام<sup>(٣)</sup> مستوفى والحمد لله.

[٦٨] ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٤)</sup>.

وقال ابن عباس: قال رؤساء اليهود: والله يا محمد لقد علمت أنا أولى الناس بدين إبراهيم منك ومن غيرك، فإنه كان يهودياً وما بك إلا الحسد؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. ﴿أَوَّلَى﴾ معناه أحق، قيل: بالمعونة والنصرة. وقيل بالحجة. ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ على ملته وسنته. ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ أفرد ذكره تعظيماً له؛ كما قال ﴿فِيهِمَا فَكَيْهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾<sup>(٤)</sup> وقد تقدم في «البقرة» هذا المعنى مستوفى. و«هذا» في موضع رفع عطف على الذين، و«النبي» نعت لهذا أو عطف بيان، ولو نصب لكان جائزاً في الكلام عطفاً على الهاء في «اتبعوه». ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ناصرهم. وعن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال:

(١) الأوزق: الذي لونه بين السواد والغبرة.

(٢) راجع ١٣٩/٢.

(٣) راجع ١٣٤/٢.

(٤) راجع ١٨٥/١٧.

«إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلاةً مِنَ النَّبِيِّينَ وَإِنْ وَلَّيْتُمُ مِنْهُمْ أَبِي وَخَلِيلَ رَبِّي - ثُمَّ قَرَأَ - «إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ».

[٦٩] ﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بني النضير وقريضة وبني قينقاع إلى دينهم. وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾<sup>(١)</sup>. و «مِنْ» على هذا القول للتبعيض. وقيل: جميع أهل الكتاب، فتكون «مِنْ» لبيان الجنس. ومعنى ﴿لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ أي يكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفة له. وقال ابن جريج: ﴿يُضِلُّوكُمْ﴾ أي يهلكونكم؛ ومنه قول الأخطل:

كُنْتُ الْقَذَى فِي مَوْجٍ أَكْدَرَ مُزِيدٍ قَذَفَ الْآتِيَّ<sup>(٢)</sup> بِهِ فَضَلَ ضَلَالًا

أي هلك هلاكاً. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ نفي وإيجاب. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي يفتنون<sup>(٣)</sup> أنهم لا يصلُّون إلى إضلال المؤمنين. وقيل: ﴿وما يشعرون﴾ أي لا يعلمون بصحة الإسلام وواجب عليهم أن يعلموا؛ لأن البراهين ظاهرة والحجج باهرة، والله أعلم.

[٧٠] ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

أي بصحة الآيات التي عندكم في كتبكم؛ عن قتادة والسدي. وقيل: المعنى وأنتم تشهدون بمثلها من آيات<sup>(٤)</sup> الأنبياء التي أنتم مقرّون بها.

[٧١] ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(١) راجع ٧٠/٢.

(٢) الآتي؛ كل سيل يأتي من حيث لا تعلم.

(٣) في ج: يقطعون. (٤) في ز: من الآيات البينات التي الخ.

اللبس الخلط، وقد تقدّم في البقرة<sup>(١)</sup>. ومعنى هذه الآية والتي قبلها معنى ذلك<sup>(٢)</sup>. ﴿وَتَكْفُرُونَ الْحَقَّ﴾ ويجوز «تكتموا» على جواب الاستفهام. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة في موضع الحال.

[٧٢] ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفِّرُوا ءَاخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصّيف وغيرهما، قالوا للسفلة من قومهم: آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار، يعني أوله. وسمي وجهاً لأنه أحسنه، وأول ما يُواجه منه أوله. قال الشاعر:

وَتُضِيءُ فِي وَجْهِ النَّهَارِ مَنِيرَةٌ كُجْمَانَةُ الْبَحْرِىِّ سُلَّ نِظَامُهَا<sup>(٣)</sup>

وقال آخر:

مَنْ كَانَ مَسْرُوراً بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلْيَاثِ نَسُوتِنَا بِوَجْهِ نَهَارٍ

وهو منصوب على الظرف، وكذلك «آخره». ومذهب قتادة أنهم فعلوا ذلك ليشككوا المسلمين. والطائفة الجماعة، من طاف يطوف، وقد يستعمل للواحد على معنى نفس طائفة. ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد في أول النهار ثم أكفروا به آخره؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه أرتياب في دينه فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون إن أهل الكتاب أعلم به منا. وقيل: المعنى آمنوا بصلاته في أول النهار إلى بيت المقدس فإنه الحق، وأكفروا بصلاته آخر النهار إلى الكعبة لعلمهم يرجعون إلى قبلكم؛ عن ابن عباس وغيره. وقال مقاتل: معناه أنهم جاءوا محمداً ﷺ أول النهار ورجعوا من عنده فقالوا للسفلة: هو حق فأتبعوه، ثم قالوا: حتى ننظر في التوراة ثم رجعوا في آخر النهار فقالوا: قد نظرنا في التوراة فليس هو به. يقولون إنه ليس بحق، وإنما أرادوا أن يلبسوا على السفلة وأن يُشككوا فيه.

(١) راجع ١/ ٣٤٠. (٢) في ج: معنى تلك.

(٣) البيت للبيد. والجمانة: حبة تعمل من الفضة كالذرة، والذي في اللسان والتاج: وتضيء في وجه الظلام.

[ ٧٣ ] ﴿ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ هذا نهي ، وهو من كلام اليهود بعضهم لبعض ، أي قال ذلك الرؤساء للسفلة . وقال السدي : من قول يهود خيبر ليهود المدينة . وهذه الآية أشكل ما في السورة . فروي عن الحسن ومجاهد أن معنى الآية ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنهم لا حجة لهم فإنكم أصبح منهم ديناً . و « أن » و « يحاجوكم » في موضع خفض ، أي بأن يحاجوكم أي بأحتجاجهم ، أي لا تصدقوهم في ذلك فإنهم لا حجة لهم . ﴿ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾ من التوراة والمن والسلوى وفرق البحر وغيرها من الآيات والفضائل . فيكون « أن يؤتى » مؤخراً بعد ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ ﴾ ، وقوله ﴿ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ ﴾ أعترض بين كلامين ، وقال الأخفش : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولا تصدقوا أن يحاجوكم ؛ يذهب إلى أنه معطوف . وقيل : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالمد على الاستفهام أيضاً تأكيد للإنكار الذي قالوه إنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوه ؛ لأن علماء اليهود قالت لهم : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ أي لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالكلام على نسقه . و « أن » في موضع رفع على قول من رفع في قولك أزيد ضربته ، والخبر محذوف تقديره أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم تصدقون أو تقرون ، أي إتياء موجود مصدق أو مقرر به ، أي لا تصدقون بذلك . ويجوز أن تكون « أن » في موضع نصب على إضمار فعل ؛ كما جاز في قولك أزيذا ضربته ، وهذا أقوى في العربية لأن الاستفهام بالفعل أولى ، والتقدير أتقرون أن يؤتى ، أو أتشيعون ذلك ، أو أتذكرون ذلك ونحوه . وبالمد قرأ ابن كثير وأبن محيصن وحميد . وقال أبو حاتم : « أن » معناه « الآن » ، فحذفت لام الجر استخفافاً وأبدلت مدّة ؛ كقراءة من

قرأ «أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ»<sup>(١)</sup> أي الآن. وقوله «أَوْ يُحَاجُّوكُمْ» على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين؛ أو تكون «أو» بمعنى «أَنْ» لأنهما حَزَفًا شَكَّ وجزاء يوضع أحدهما. موضع الآخر<sup>(٢)</sup>. وتقدير الآية: وأن يحاجوكم عند ربكم يا معشر المؤمنين، فقل: يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه. ومن قرأ بترك المد قال: إن النفي الأول دلّ على إنكارهم في قولهم ولا تؤمنوا. فالمعنى أن علماء اليهود قالت لهم: لا تصدقوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أي لا إيمان لهم ولا حجة؛ فعطف على المعنى من العلم والحكمة والكتاب والحجة والمن والسلوى وقلق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات، أي إنها لا تكون إلا فيكم فلا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم. فالكلام فيه تقديم وتأخير على هذه القراءة واللام زائدة. ومن أسستى ليس من الأول، وإلا لم يجز الكلام. ودخلت «أَحَدٌ» لأن أول الكلام نفي، فدخلت في صلة «أَنْ» لأنه مفعول الفعل المنفي؛ فأن في موضع نصب لعدم الخافض. وقال الخليل: (أَنْ) في موضع خفض بالخافض المحذوف. وقيل: إن اللام ليست بزائدة، و «تُؤْمِنُوا» محمول على تُقَرِّوْا. وقال ابن جريج: المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. وقيل: المعنى لا تخبروا بما في كتابكم من صفة محمد ﷺ إلا لمن تبع دينكم لئلا يكون طريقاً إلى عبدة الأوثان إلى تصديقه. وقال الفراء: يجوز أن يكون قد أنقطع كلام اليهود عند قوله عز وجل: ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾ ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾. أي إن البيان الحق هو بيان الله عز وجل ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ بين ألا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، و «لا» مقدرة بعد «أَنْ» أي لئلا يؤتى؛ كقوله: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾<sup>(٣)</sup> أي لئلا تضلوا، فلذلك صلح دخول «أحد» في الكلام. و «أو» بمعنى «حتى» و «إلا أن»؛ كما قال امرؤ القيس:

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فتعذرا  
وقال آخر<sup>(٤)</sup>:

وكنث إذا غمزت قناة قوم كسرت كعوبها أو تستقيما

(١) راجع ٢٣٦/١٨. (٢) في الأصول: إحداهما موضع الأخرى.

(٣) راجع ٢٨/٦. (٤) هو زياد الأعجم.

ومثله قولهم: لا نلتقي أو تقوم الساعة، بمعنى «حتى» أو «إلى أن»؛ وكذلك مذهب الكسائي. وهي عند الأخفش عاطفة على «وَلَا تُؤْمِنُوا» وقد تقدّم. أي لا إيمان لهم ولا حجة؛ فعطف على المعنى. ويحتمل أن تكون الآية كلها خطاباً للمؤمنين من الله تعالى على جهة التثبيت لقلوبهم والتشجيع لبصائرهم؛ لئلا يشكوا عند تلبس اليهود وتزويرهم في دينهم. والمعنى لا تصدّقوا يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم، ولا تصدّقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدين، ولا تصدّقوا أن يحاجّكم في دينكم عند ربكم من خالفكم أو يقدر على ذلك، فإن الهدى هدى الله وإن الفضل بيد الله. قال الضحاك: إن اليهود قالوا إنا نحاجّ عند ربنا من خالفنا في ديننا؛ فبين الله تعالى أنهم هم المذخضون المعذبون وأن المؤمنين هم الغالبون. ومحاجّتهم خصومتهم يوم القيامة. ففي الخبر عن رسول الله ﷺ: «إن اليهود والنصارى يحاجّونا عند ربنا فيقولون أعطيتنا أجراً واحداً وأعطيتم أجراًين فيقول هل ظلمتكم من حقوقكم شيئاً قالوا<sup>(١)</sup> لا قال فإن ذلك فضلي أوتيته من أشياء». قال علماؤنا: فلو علموا أن ذلك من فضل الله لم يحاجونا عند ربنا؛ فأعلم الله نبيّه ﷺ أنهم يحاجونكم يوم القيامة عند ربكم، ثم قال: قل لهم [الآن]<sup>(٢)</sup> «إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». وقرأ ابن كثير «أَنْ يُوْتَى» بالمد على الاستفهام؛ كما قال الأعشى:

أَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَغْشَى أَضْرَرِيهِ رَيْبُ الْمُنُونِ وَدَهْرٌ مُثِيلٌ خَبِلُ<sup>(٣)</sup>

وقرأ الباقر بن غير مدّ على الخبر. وقرأ سعيد بن جبيرة «إن يؤتى» بكسر الهمزة، على معنى النقي؛ ويكون من كلام الله تعالى كما قال الفراء. والمعنى: قل يا محمد «إن الهدى هدى الله إن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم» يعني اليهود - بالباطل فيقولون نحن أفضل منكم. ونصب «أو يحاجوكم» يعني بإضمار «أن» و«أو» تضمير بعدها «أن» إذا كانت بمعنى «حتى» و«إلا أن». وقرأ الحسن «أن يؤتى» بكسر التاء وياء مفتوحة، على معنى أن يؤتى أحدٌ أحداً مثل ما أوتيتم، فحذف المفعول.

(١) في د: فيقولون. (٢) من ب، د.

(٣) مثيل: مسقم، وخبل: ملئ على أهله لا يرون فيه سروراً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن الهدى إلى الخير والدلالة إلى الله عز وجل بيد الله جل ثناؤه يؤتیه أنبياءه، فلا تنكروا<sup>(١)</sup> أن يؤتى أحد سواكم مثل ما أوتيتم، فإن أنكروا ذلك فقل لهم ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. والقول الآخر: قل إن الهدى هدى الله الذي آتاه المؤمنين من التصديق بمحمد ﷺ لا غيره. وقال بعض أهل الإشارات في هذه الآية: لا تعاشرُوا إلا من يوافقكم على أحوالكم وطريقتكم فإن من لا يوافقكم لا يرافقكم. والله أعلم.

[٧٤] ﴿يَخْتَصِرْ رَحْمَتَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

أي بنبوته وهدايته؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما. أبن جريج: بالإسلام والقرآن «من يشاء». قال أبو عثمان: أجمل القول ليبقى معه رجاء الراجي وخوف الخائف، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

[٧٥] ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِينَ مَسْئِلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فيه ثمان مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾ مثل عبد الله بن سلام. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾ وهو فنحاص بن عازوراء اليهودي، أودعه رجل ديناراً فخانه. وقيل: كعب بن الأشرف وأصحابه. وقرأ أبن وثاب والأشهب العقيلي «مَنْ إِنْ نِيَمَنَهُ» على لغة من قرأ «نستعين» وهي لغة بكر وتميم. وفي حرف عبد الله «مالك لَا تِيَمَنَّا على يوسف». والباقون بالالف. وقرأ نافع والكسائي «يُودِّ هِي» بياء في الإدراج. قال أبو عبيد: وأتفق أبو عمرو والأعمش وعاصم وحمة في رواية أبي بكر

(١) هذا نهي، وفي ح، ود: فلا تنكروا، على الخبر.

على وقف الهاء، فقرأوا «يؤدّة إليك». قال النحاس: بإسكان الهاء لا يجوز إلا في الشعر عند بعض النحويين، وبعضهم لا يجيزه البتّة ويرى أنه غلط ممن قرأ به، وأنه توهم أن الجزم يقع على الهاء، وأبو عمرو أجلّ من أن يجوز عليه مثل هذا. والصحيح عنه أنه كان يكسر الهاء؛ وهي قراءة يزيد بن القَعْقَاع. وقال الفراء: مذهب بعض العرب يجزمون الهاء إذا تحرك ما قبلها، يقولون: ضربته ضرباً شديداً؛ كما يسكنون ميم أنتم وقمتم وأصلها الرفع؛ كما قال الشاعر:

لما رأى ألا دَعَا ولا شَبَّخَ      مال إلى أزطاة حَقَفٍ<sup>(١)</sup> فأَضْطَجَعَ

وقيل: إنما جاز إسكان الهاء في هذا الموضع لأنها وقعت في موضع الجزم وهي الياء الذاهبة. وقرأ أبو المُنْذِر سَلَامَ والرُّهْرِيّ «يؤدّة» بضم الهاء بغير واو. وقرأ قَتَادَةُ وَحْمِيد ومجاهد «يؤدّهو» بواو في الإدراج، اختير لها الواو لأن الواو من الشّفة والهاء بعيدة المخرج. قال سيبويه: الواو في المذكر بمنزلة الألف في المؤنث ويبدل منها ياء لأن الياء أخف إذا كان قبلها كسرة أو ياء، وتحذف الياء وتبقى الكسرة لأن الياء قد كانت تحذف والفعل مرفوع فأنبتت بحالها.

الثانية - أخبر تعالى أن في أهل الكتاب الخائنَ والأمين، والمؤمنون لا يميزون ذلك، فينبغي اجتناب جميعهم. وخصّ أهل الكتاب بالذكر وإن كان المؤمنون كذلك؛ لأنّ الخيانة فيهم أكثر، فخرج الكلام على الغالب. والله أعلم. وقد مضى تفسير القنطار. وأما الدينار فأربعة وعشرون قيراطاً والقيراط ثلاث حبات من وسط الشعير، فمجموعه اثنتان وسبعون حبة، وهو مُجْمَع عليه. ومن حفظ الكثير وأذاه فالقليل أولى، ومن خان في اليسير أو منعه فذلك في الكثير أكثر. وهذا أدلّ دليل على القول بمفهوم الخطاب. وفيه بين العلماء خلاف [كثير]<sup>(٢)</sup> مذكور في أصول الفقه. وذكر تعالى قسمين: من يؤدّي ومن لا يؤدّي إلا بالملازمة عليه؛ وقد يكون من الناس من لا يؤدّي وإن دُمت عليه قائماً. فذكر تعالى القسمين لأنه الغالب

(١) الأراطاة: واحدة الأرطى، وهو شجر من شجر الرمل. والحقف (بالكسر): ما أعوج من الرمل.

(٢) من د.



والمعتاد والثالث نادر؛ فخرج الكلام على الغالب. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وأبو عبد الرحمن السُّلَمي وغيرهما «دِمَت» بكسر الدال وهما لغتان، والكسر لغة أزد السَّراة؛ من «دِمَت تدام» مثل خفت تخاف. وحكى الأخفش دِمَت تدوم، شاذاً.

**الثالثة -** استدلّ أبو حنيفة على مذهبه في ملازمة الغريم بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِماً﴾ وأباه سائر العلماء، وقد تقدّم في البقرة<sup>(١)</sup>. وقد استدل بعض البغداديين [من علمائنا]<sup>(٢)</sup> على حبس المديان بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِماً﴾ فإذا كان له ملازمته ومنعه من التصرف، جاز حبسه. وقيل: إن معنى «إلا ما دمت عليه قائماً» أي بوجهك فيها بك ويستحي منك، فإن الحياء في العينين؛ ألا ترى إلى قول ابن عباس رضي الله عنه: لا تطلبوا من الأعمى حاجة فإن الحياء في العينين. وإذا طلبت من أخيك حاجة فأنظر إليه بوجهك حتى يستحي فيقضيها. ويقال: «قائماً» أي ملازماً له؛ فإن أنظرته أنكرك. وقيل: أراد بالقيام إدامة المطالبة لا عين القيام. والدِّينار أصله دينار فعوّضت من إحدى النونين ياء طلباً للتخفيف لكثرة استعماله. يدل عليه أنه يجمع دنانير ويصغر دُنيّير.

**الرابعة -** الأمانة عظيمة القدر في الدين، ومن عظم قدرها أنها تقوم هي والرحم على جنبتي<sup>(٣)</sup> الصراط؛ كما في صحيح مسلم. فلا يُمكن من الجواز إلا من حفظهما. وروى مسلم عن حذيفة قال حدثنا النبي ﷺ عن رفع الأمانة، قال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه» الحديث. وقد تقدم بكماله أول البقرة<sup>(٤)</sup>. وروى ابن ماجه حدثنا محمد ابن المصّفى حدثنا محمد بن حرب عن سعيد بن سنان عن أبي الزاهرية عن أبي شجرة كثير ابن مرة عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتاً ممقّتاً فإذا لم تلقه إلا مقيتاً ممقّتاً نزعته منه الأمانة فإذا نزعته منه الأمانة لم تلقه إلا خائناً مخوناً فإذا لم تلقه إلا خائناً مخوناً نزعته منه

(١) راجع ٣/٣٧١. (٢) نخ: ب.

(٣) جنبه الوادي (بفتح النون): جانبه وناحيته. والجنبه (بسكون النون): الناحية؛ يقال: نزل فلان جنبه أي ناحيته.

(٤) راجع ١/١٨٨، «صحيح مسلم» ١/٥١ طبع بولاق.

الرحمة فإذا نُزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رَجِيماً مُلْعناً فإذا لم تلقه إلا رَجِيماً مُلْعناً نُزعت منه رِبْقَةُ الإسلام». وقد مضى في البقرة معنى قوله عليه السلام: «أَذِ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ أَنْتُمْ مِنْكُمْ وَلَا تَخَنْ مِنْ خَانَكَ». والله أعلم.

**الخامسة -** ليس في هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم خلافاً لمن ذهب إلى ذلك؛ لأن فُسَاقَ المسلمين يوجد فيهم من يؤدي الأمانة ويؤمن على المال الكثير ولا يكونون بذلك عدولاً. فطريق العدالة والشهادة ليس يجزىء فيه أداء الأمانة في المال من جهة المعاملة والوديعة؛ ألا ترى قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ﴾ فكيف يعدل من يعتقد أستباحة أموالنا وحرماننا بغير حرج عليه؛ ولو كان ذلك كافياً في تعديلهم لسمعت شهادتهم على المسلمين.

**السادسة -** قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ يعني اليهود ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ﴾ قيل: إن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون: ليس علينا في الأميين سبيل - أي حرج في ظلمهم - لمخالفتهم إيانا. وأدعوا أن ذلك في كتابهم؛ فأكذبهم الله عز وجل ورد عليهم فقال: «بلى» أي بلى عليهم سبيل العذاب بكذبهم وأستحلالهم أموال العرب. قال أبو إسحاق الزجاج: وتم الكلام. ثم قال ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾. ويقال: إن اليهود كانوا قد أستدانوا من الأعراب أموالاً فلما أسلم أرباب الحقوق قالت اليهود: ليس لكم علينا شيء، لأنكم تركتم دينكم فسقط عنا دينكم. وأدعوا أنه حكم التوراة فقال الله تعالى: «بلى» ردّاً لقولهم ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ﴾. أي ليس كما تقولون، ثم أستأنف فقال: ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ الشرك فليس من الكاذبين بل يحبه الله ورسوله.

**السابعة -** قال رجل لابن عباس: إنا نُصيب في العَمْد من أموال أهل الذمة الدَّجاجة والشاة ونقول: ليس علينا في ذلك بأس. فقال له: هذا كما قال أهل الكتاب ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا عن طيب

أنفسهم؛ ذكره عبد الرازق عن معمر عن أبي إسحاق الهمداني عن صغصعة أن رجلاً قال لابن عباس؛ فذكره.

الثامنة - قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدل على أن الكافر لا يجعل أهلاً لقبول شهادته؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه كذاب. وفيه رد على الكفرة الذين يحرمون ويحللون غير تحريم الله وتحليله ويجعلون ذلك من الشرع. قال ابن العربي: ومن هذا يخرج الرد على من يحكم بالاستحسان من غير دليل، ولست أعلم أحداً من أهل القبلة قاله. وفي الخبر: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «ما شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».

[٧٦] ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

«من» رفع بالابتداء وهو شرط. و «أوفى» في موضع جزم. و «أتقى» معطوف عليه، أي وأتقى الله ولم يكذب ولم يستحل ما حُرِّم عليه. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي يُحِبُّ أولئك. وقد تقدّم معنى حب الله لأوليائه. والهاء في قوله «بعهده» راجعة إلى الله عز وجل. وقد جرى ذكره في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ويجوز أن تعود على الموقفي ومتقي الكفر والخيانة ونقض العهد. والعهد مصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول.

[٧٧] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - روى الأئمة عن الأشعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجددني فقدمته إلى النبي ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: «هل

لك بينة؟ قلت لا، قال لليهودي: «أحلف» قلت: إذا يحلف فيذهب بمالي؛ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية. وروى الأئمة أيضاً عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «من أقطع حق أمريء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة». فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضيباً من أراك»<sup>(١)</sup>. وقد مضى في البقرة معنى ﴿لَا يَكَلُمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

الثانية - ودلت هذه الآية والأحاديث أن حكم الحاكم لا يحل المال في الباطن بقضاء الظاهر إذا علم المحكوم له بطلانه، وقد روى الأئمة عن أم سلمة قالت قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ وإنما أنا بشر ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع منكم فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها يوم القيامة». وهذا لا خلاف فيه بين الأئمة<sup>(٣)</sup>، وإنما ناقض أبو حنيفة وغلا وقال: إن حكم الحاكم المبني على الشهادة الباطلة يحلّ الفرج لمن كان محرماً عليه؛ كما تقدّم في البقرة<sup>(٤)</sup>. وزعم أنه لو شهد شاهداً زوراً على رجل بطلاق زوجته وحكم الحاكم بشهادتهما فإن فرجها يحلّ لمتزوجها ممن يعلم أن القضية باطل. وقد شتّع عليه بإعراضه عن هذا الحديث الصحيح الصريح، وبأنه صان الأموال ولم ير استباحتها بالأحكام الفاسدة، ولم يصن الفروج عن ذلك، والفروج أحق أن يحتاط لها وتُصان. وسيأتي بطلان قوله في آية اللعان<sup>(٥)</sup> إن شاء الله تعالى.

[٧٨] ﴿وَلَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِأَلِكْتَبٍ لِيَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ أَلِكْتَبٍ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

(١) الأراك شجر من الحمض يستاك بقضبانته، الواحدة أراكة.

(٢) راجع ٢/٢٣٤.

(٣) في د: بين الأمة.

(٤) راجع المسألة الثالثة ٢/٣٣٨.

(٥) راجع ١٢/١٨٢.

يعني طائفة من اليهود. ﴿يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ وقرأ أبو جعفر وشيبة «يَلُؤُونَ» على التكثير. إذا أماله؛ ومنه والمعنى يحرفون الكلم ويعدلون به عن القصد. وأصل اللَّيِّ الميل. لَوَى بيده، وَلَوَى برأسه قوله تعالى: ﴿لَيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾<sup>(١)</sup> أي عناداً عن الحق ومثلاً عنه إلى غيره. ومعنى ﴿وَلَا تَلَوْنِ عَلَى أَحَدٍ﴾<sup>(٢)</sup> أي لا تعرّجون عليه؛ يقال لَوَى عليه إذا عرّج وأقام. واللِّي المَطل. لواه بدينه يَلُوِيه لِيّاً وَلِيَاناً مَطَلَه. قال:

قد كنت داينت بها حسناً      مخافة الإفلاس والليان

يحسن بيع الأصل والعيان

وقال ذو الرمة:

تريدين<sup>(٣)</sup> لياني وأنتِ مَلِيَّةٌ      وأحسن يا ذات الوشاح التفاضياً  
وفي الحديث «لَيُّ الواجد يُحِلّ عِرْضَهُ وعقوبته». وألسنة جمع لسان في لغة من ذكر، ومن أنث قال السن.

[٧٩] ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُرَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

﴿مَا كَانَ﴾ معناه ما ينبغي؛ كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطْأً﴾ و ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَخْذَ مِنْ وَلَدٍ﴾<sup>(٣)</sup>. و ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾<sup>(٤)</sup> يعني ما ينبغي. والبشر يقع للواحد والجمع لأنه بمنزلة المصدر؛ والمراد به هنا عيسى في قول الضحّاك والسُّدِّي. والكتاب: القرآن. والحكم: العلم والفهم. وقيل أيضاً: الأحكام. أي إن الله لا يصطفي لنبوته الكذّبة، ولو فعل ذلك بشر لسلبه الله آيات النبوة وعلاماتها. ونصب «ثم يقول» على الاشتراك بين «أن يؤتیه» وبين «يقول» أي لا يجتمع لنبي إتيان النبوة وقوله: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ أي ولكن جائز أن يكون النبي يقول لهم

(١) راجع ٢٣٩/٥ و ٢٤٣ من هذا الجزء. (٢) في ديوانه: «تطيلين».

(٣) راجع ١٠٧/١١.

(٤) راجع ١٩٧/١٢.

كونوا ربّانيّين. وهذه الآية قيل إنها نزلت في نصارى نَجْران. وكذلك رُوي أن السّورة كلها إلى قوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ كان سبب نزولها نصارى نَجْران ولكن مُزج معهم اليهود؛ لأنهم فعلوا من الجحْد والعناد فعَلَهُمْ.

والرّبّانيّون واحدُهم ربّانيّ منسوب إلى الرّب. والربّانيّ الذي يُرَبّي الناس بصغار العلم قبل كباره؛ وكأنّه يقتدي بالرّب سبحانه في تيسير<sup>(١)</sup> الأمور؛ رُوي معناه عن ابن عباس. قال بعضهم: كان في الأصل ربّي فأدخلت الألف والنون للمبالغة؛ كما يقال للعظيم اللحية: لِحْيَانِيّ ولعظيم الجُمّة جُمّانِيّ ولغليظ الرّقبة رَقَبَانِيّ. وقال المبرّد: الربّانيّون أرباب العلم، واحدُهم ربّان، من قولهم: رَبّه يَرْبّه فهو ربّان إذا دَبّره وأصلحه؛ فمعناه على هذا يدبّرون أمور الناس ويصلحونها. والألف والنون للمبالغة كما قالوا ربّان وعطشان، ثم ضمت إليها ياء النسبة كما قيل: لِحْيَانِيّ وَرَقَبَانِيّ وجُمّانِيّ. قال الشاعر:

لو كنتُ مُرْتَهَنًا في الجَوِّ<sup>(٢)</sup> أنزَلَنِي منه الحديث وربّانيّ أحباري

فمعنى الربّانيّ العالم بدين الرّب الذي يعمل بعلمه؛ لأنّه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم. وقد تقدّم هذا المعنى في البقرة: وقال أبو رزين: الربّانيّ هو العالم الحكيم. وروى شعبة عن عاصم عن زُرّ عن عبد الله بن مسعود ﴿ولكن كونوا ربّانيّين﴾ قال: حكماء علماء. ابن جُبَيْر: حكماء أتقياء. وقال الضحاك: لا ينبغي لأحد أن يدع حفظ القرآن جهده فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبّانِيِّينَ﴾. وقال ابن زيد: الربّانيّون الولاة، والأحبار العلماء. وقال مجاهد: الربّانيّون فوق الأحبار. قال النحاس: وهو قول حسن؛ لأن الأحبار هم العلماء. والربّانيّ الذي يجمع إلى العلم البَصَر بالسياسة؛ مأخوذ من قول العرب: رَبّ أمر الناس يَرْبّه إذا أصلحه وقام به، فهو رابٌّ وربّانيّ على التّكثير. قال أبو عبيدة: سمعت عالماً يقول: الربّانيّ العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي، العارف بأنباء الأُمّة وما كان وما يكون. وقال محمد بن الحنفية يوم مات ابنُ عباس: اليوم مات ربّانيّ هذه الأُمّة. ورُوي عن النّبِيّ ﷺ أنّه قال: «ما من مؤمن ذكر ولا أنثى حرّ ولا مملوك إلا والله عز وجل

(١) في د: جميع، وفي ز: تفسير.

(٢) في ز وأ: في الحق.

عليه حق أن يتعلم من القرآن ويتفقه في دينه - ثم تلا هذه الآية - ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِيِّنَ﴾ الآية . رواه ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿يَمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَيَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ قرأه أبو عمرو وأهل المدينة بالتخفيف من العلم . وأختار هذه القراءة أبو حاتم . قال أبو عمرو : وتصديقها «تَدْرُسُونَ» ولم يقل «تُدْرُسُونَ» بالتشديد من التدريس . وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة «تُعَلِّمُونَ» بالتشديد من التعليم ؛ وأختارها أبو عبيد . قال : لأنها تجمع المعنيين «تُعَلِّمُونَ، وتدرسون» . قال مكي : التشديد أبلغ ؛ لأن كل معلّم عالمٌ بمعنى يعلم وليس كل من علّم شيئاً معلّماً ، فالتشديد يدل على العلم والتعليم ، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط ، فالتعليم أبلغ وأمدح وغيره أبلغ في الذم . أحتج من رجح قراءة التخفيف بقول ابن مسعود «كونوا ربانيين» قال : حكماء علماء ؛ فيبعد أن يقال كونوا فقهاء حكماء علماء بتعليمكم . قال الحسن ، كونوا حكماء علماء بعلمكم . وقرأ أبو حيوة «تُدْرُسُونَ» من أدرس يُدرس . وقرأ مجاهد «تُعَلِّمُونَ» بفتح التاء وتشديد اللام ، أي تتعلمون .

[٨٠] ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَّةَ وَالنَّيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

قرأ ابن عامر وعاصم وحزمة بالنصب عطفاً على «أَنْ يُؤْتِيَهُ» . ويقوّيه أن اليهود قالت للنبي ﷺ : أتريد أن نتخذك يا محمد ربّاً؟ فقال الله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ - إلى قوله : ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ . وفيه ضمير البشر، أي ولا يأمركم البشر يعني عيسى وعزيراً . وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام الأول ، وفيه ضمير أسم الله عز وجل ، أي ولا يأمركم الله أن تتخذوا . ويقوّي هذه القراءة أن في مصحف عبد الله «ولن يأمركم» فهذا يدل على الاستئناف ، والضمير أيضاً لله عز وجل ؛ ذكره مكي ، وقاله سيبويه والزجاج . وقال ابن جريج وجماعة : ولا يأمركم محمد

عليه السلام. وهذه قراءة أبي عمرو والكسائي وأهل الحرمين. ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا﴾ أي بأن تتخذوا الملائكة والنبیین أرباباً. وهذا موجود في النصارى يعظمون الأنبياء والملائكة حتى يجعلوهم لهم أرباباً. ﴿أَيَّامُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ على طريق الإنكار والتعجب؛ فحرم الله تعالى على الأنبياء أن يتخذوا الناس عباداً يتألهون لهم ولكن ألزم الخلق حرمتهم. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقولن أحدكم عِبْدِي وَأَمَّتِي وليقل فتاتي وفتاتي ولا يقل أحدكم ربِّي وليقل سيدي». وفي التنزيل ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾. وهناك<sup>(١)</sup> يأتي بيان هذا [المعنى]<sup>(٢)</sup> إن شاء الله تعالى.

[٨١] ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

قيل: أخذ الله تعالى ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضاً ويأمر بعضهم بالإيمان بعضاً؛ فذلك معنى النصرة بالتصديق. وهذا قول سعيد بن جبیر وقادة وطاوس والسدي والحسن، وهو ظاهر الآية. قال طاوس: أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر. وقرأ ابن مسعود ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. قال الكسائي: يجوز أن يكون ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾. بمعنى وإذا أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين. وقال البصريون: إذا أخذ الله ميثاق النبيين فقد أخذ ميثاق الذين معهم؛ لأنهم قد أتبعوهم وصدقوهم. و«ما» في قوله «لَمَا» بمعنى الذي. قال سيويه: سألت الخليل بن أحمد عن قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ فقال: لما بمعنى الذي. قال النحاس: التقدير على قول الخليل للذي آتيتكموه، ثم حذف

(١) راجع ١٩٥/٩.

(٢) الزيادة من د، ب.



الهاء لطول الاسم. و «الذي» رفع بالابتداء وخبره «من كتاب وحكمة». و «من» لبيان الجنس. وهذا كقول القائل: لزيد أفضل منك؛ وهو قول الأخفش أنها لام الابتداء. قال المهدوي: وقوله «ثم جاءكم» وما بعده جملة معطوفة على الصلة، والعائد منها على الموصول محذوف؛ والتقدير ثم جاءكم رسول مصدق به.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ الرسول هنا محمد ﷺ في قول عليّ وأبن عباس رضي الله عنهما. واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معين؛ كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ - إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾<sup>(١)</sup>. فأخذ الله ميثاق النبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام وينصروه إن أدركوه، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم. واللام من قوله «لتؤمنن به» جواب القسم الذي هو أخذ الميثاق، إذ هو بمنزلة الاستحلاف. وهو كما تقول في الكلام: أخذت ميثاقك لتفعلن كذا، كأنك قلت أستحلفك، وفصل بين القسم وجوابه بحرف الجر الذي هو «لِما» في قراءة ابن كثير على ما يأتي. ومن فتحها جعلها متلقية للقسم الذي هو أخذ الميثاق. واللام في «لتؤمنن به» جواب قسم محذوف، أي والله لتؤمنن به. وقال المبرد والكسائي والزجاج: «ما» شرط دخلت عليها لام التحقيق كما تدخل على إن، ومعناه [لهمما]<sup>(٢)</sup> آتيتكم؛ فموضع «ما» نصب، وموضع «آتيتكم» جزم، و «ثم جاءكم» معطوف عليه، «لتؤمنن به» اللام في قوله «لتؤمنن به» جواب الجزاء؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ﴾<sup>(٣)</sup> ونحوه. وقال الكسائي: لتؤمنن به مُعْتَمِد القسم فهو متصل بالكلام الأول، وجواب الجزاء قوله ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾. ولا يحتاج على هذا الوجه إلى تقدير عائد. وقرأ أهل الكوفة «لِما آتيتكم» بكسر اللام، وهي أيضاً بمعنى الذي وهي متعلقة بأخذ، أي أخذ الله ميثاقهم لأجل الذي آتاهم من كتاب وحكمة ثم إن جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به من بعد الميثاق؛ لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف كما تقدّم. قال النحاس: ولأبي عبيدة في هذا قول حسن. قال: المعنى وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب

(١) راجع ١٩٤/١٠.

(٢) كذا في ب، ود. وفي السمين: التقدير والله لأي شيء آتيتكم من كذا وكذا لتؤمنن به.

(٣) راجع ٣٢٥/١٠.

لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ لِمَا آتَيْتَكُمْ مِنْ ذِكْرِ التَّوْرَةِ. وقيل: في الكلام حذف، والمعنى وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَتَكَلِّمَنَّ النَّاسَ لِمَا جَاءَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا. ودلّ على هذا الحذف ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾. وقيل: إن اللام في قوله «لِمَا» في قراءة من كسرها بمعنى بعد، يعني بعد ما آتيتكم من كتاب وحكمة؛ كما قال النابغة:

تَوَهَّمْتُ آيَاتَ لَهَا فَعَرَفْتُهَا      لِسِتَّةِ أَعْوَامٍ وَذَا الْعَامِ سَابِعِ

أي بعد ستة أعوام. وقرأ سعيد بن جبير «لِمَا» بالتشديد، ومعناه حين آتيتكم. واحتمل أن يكون أصلها التخفيف فزيدت «مِنْ» على مذهب من يرى زيادتها في الواجب فصارت لمن ما، وقلبت النون ميماً للإدغام فأجتمعت ثلاث ميّات فحذفت الأولى منهن أستخفافاً. وقرأ أهل المدينة «آتيناكم» على التعظيم. والباقون «آتيتكم» على لفظ الواحد. ثم كلّ الأنبياء لم يؤتوا الكتاب وإنما أوتي البعض؛ ولكن الغلبة للذين أوتوا الكتاب. والمراد أخذ ميثاق جميع الأنبياء فمن لم يؤت الكتاب فهو في حكم من أوتي الكتاب لأنه أوتي الحكم والنبوة. وإيضاً من لم يؤت الكتاب أمر بأن يأخذ بكتاب من قبله فدخل تحت صفة من أوتي الكتاب.

قوله تعالى: ﴿أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ «أقّررتم» من الإقرار، والإصر والأصر لغتان، وهو العهد. والإصر في اللغة الثقل؛ فسُمّي العهد إصراً لأنه منع وتشديد. ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أي أعلموا؛ عن ابن عباس. الزجاج: يتنوا لأن الشاهد هو الذي يصحّح دعوى المدعي. وقيل: المعنى أشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم. ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عليكم وعليهم. وقال سعيد بن المسيّب: قال الله عز وجل للملائكة فاشهدوا عليهم، فتكون كناية عن غير مذكور.

[٨٢] ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

«مَنْ» شرط. فمن تولى من أمم الأنبياء عن الإيمان بعد أخذ الميثاق ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الخارجون عن الإيمان. والفاسق الخارج. وقد تقدّم<sup>(١)</sup>.

[٨٣] ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾

[٨٤] ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ قال الكلبي: إن كعب بن الأشرف وأصحابه اختصموا مع النصارى إلى النبي ﷺ فقالوا: أئنا أحق بدين إبراهيم؟ فقال النبي ﷺ: ﴿كِلَا الْفَرِيقَيْنِ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِ﴾. فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك؛ فنزل ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ يعني يطلبون. ونصبت «غير» بيبغون، أي يبغون غير دين الله. وقرأ أبو عمرو وحده «يبغون» بالياء على الخبر «وإليه ترجعون» بالتاء على المخاطبة. قال: لأن الأول خاص والثاني عام ففرق بينهما لافتراقهما في المعنى. وقرأ حفص وغيره «يبغون، ويرجعون» بالياء فيهما؛ لقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب؛ لقوله: ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ أي استسلم وأنقاد وخضع وذل، وكل مخلوق فهو منقاد مستسلم؛ لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج عنه. قال قتادة: أسلم المؤمن طوعاً والكافر عند موته كرهاً ولا ينفعه ذلك؛ لقوله: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾<sup>(١)</sup>. قال مجاهد: إسلام الكافر كرهاً بسجوده لغير الله وسجود ظله لله، ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾<sup>(٣)</sup>. وقيل: المعنى أن الله خلق الخلق على ما أراد منهم؛ فمنهم الحسن والقبيح والطويل والقصير والصحيح والمريض وكلهم منقادون أضراراً، فالصحيح منقاد طائع محبٌ لذلك، والمريض منقاد خاضع وإن كان كرهاً. والطوع الانقياد

والاتباع بسهولة . والكراه ما كان بمشقة وإباء من النفس . و «طَوْعاً وَكَرْهاً» مصدران في موضع الحال ، أي طائعين ومكرهين . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ في قوله عز وجل : «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً» قال : «الملائكة أطاعوه في السماء والأنصار وعبد القيس في الأرض» . وقال عليه السلام : «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَإِنْ أَصْحَابِي أَسْلَمُوا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ وَأَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ خَوْفِ السَّيْفِ» . وقال عكرمة : «طَوْعاً» مَنْ أَسْلَمَ مِنْ غَيْرِ مُحَاجَّةٍ «وكرهاً» مَنْ أَضْطَرَّتْهُ الْحُجَّةُ إِلَى التَّوْحِيدِ . يدل عليه قوله عز وجل : «وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» <sup>(١)</sup> «وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» <sup>(٢)</sup> . قال الحسن : هو عموم معناه الخصوص . وعنه : «أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ» وتم الكلام . ثم قال : «وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً» . قال : والكراه المنافق لا ينفعه عمله . و «طَوْعاً وَكَرْهاً» مصدران في موضع الحال . عن مجاهد عن ابن عباس قال : إذا استصعبت دابةً أحدكم أو كانت شמושاً <sup>(٣)</sup> فليقرأ في أذنها هذه الآية : «أَفْغَيْرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً» إلى آخر الآية .

[ ٨٥ ] «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» ﴿٨٥﴾ .

«غير» مفعول بيبتغ ، «دينا» منصوب على التفسير ، ويجوز أن ينتصب دينا بيبتغ ، وينتصب «غير» على أنه حال من الدين . قال مجاهد والسدي : نزلت هذه الآية في الحارث بن سويد أخو الحلاس بن سويد ، وكان من الأنصار ، ارتد عن الإسلام هو وأثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفاراً ، فنزلت هذه الآية ، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة . وروى ذلك عن ابن عباس وغيره . قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات . «وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»

(١) راجع ١٦/١٢٣ .

(٢) راجع ١٣/٣٦١ .

(٣) شملت الدابة : شردت وجمعت ومنعت ظهرها .

قال هشام: أي وهو خاسر في الآخرة من الخاسرين؛ ولولا هذا لفرقت بين الصلة والموصول. وقال المازني: الألف واللام مثلها في الرجل. وقد تقدّم هذا في البقرة<sup>(١)</sup> عند قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

[٨٦] ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥).

قال ابن عباس: إن رجلاً من الأنصار أسلم ثم أرتد ولحق بالشرك ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه: سَلُوا لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هل لي مِنْ توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هل له من توبة؟ فنزلت ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأرسل إليه فأسلم. أخرجه النسائي. وفي رواية: أن رجلاً من الأنصار أرتد فلحق بالمشركين، فأنزل الله ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ فبعث بها قومه إليه، فلما قرئت عليه قال: والله ما كذّبت قومي على رسول الله ﷺ، ولا أكذبت رسول الله ﷺ عن الله، والله عز وجل أصدق الثلاثة؛ فرجع تائباً، فقبل منه رسول الله ﷺ وتركه. وقال الحسن: نزلت في اليهود لأنهم كانوا يبشرون بالنبي ﷺ وَيَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا؛ فلما بُعِثَ عَانَدُوا وكفروا، فأنزل الله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. ثم قيل: «كيف» لفظة استفهام ومعناه الجحد، أي لا يهدي الله، ونظيره قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾<sup>(٢)</sup> أي لا يكون لهم عهد؛ وقال الشاعر:

كيف نومي على الفراش ولَمَّا يشمل القوم غارة شَعْوَاء

أي لا نوم لي. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يقال: ظاهر الآية أَنَّ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ لَا يَهْدِيهِ اللَّهُ وَمَنْ كَانَ ظَالِمًا، لَا يَهْدِيهِ اللَّهُ؛ وقد رأينا كثيراً من المرتدّين قد أسلموا

(١) راجع ١٣٣/٢.

(٢) راجع ٧٧/٨.

وهدهم الله، وكثيراً من الظالمين تابوا عن الظلم. قيل له: معناه لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم ولا يُقِيلون على الإسلام؛ فأما إذا أسلموا وتابوا فقد وفقهم الله لذلك. والله تعالى أعلم.

[٨٧] ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧).

[٨٨] ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٨).

[٨٩] ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩).

أي إن داموا على كفرهم. وقد تقدّم معنى لعنة الله والناس في «البقرة»<sup>(١)</sup> فلا معنى لإعادته. ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يؤخرون ولا يؤجلون، ثم أَسْتثنى التائبين فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ هو الحارث بن سُويْد كما تقدّم. ويدخل في الآية بالمعنى كل من راجع الإسلام وأخلص.

[٩٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ (٩٠).

قال قتادة وعطاء الخراساني والحسن: نزلت في اليهود كفروا بعيسى والإنجيل: ثم أزدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن. وقال أبو العالية: نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفته، «ثم أزدادوا كفراً» بإقامتهم على كفرهم. وقيل: «أزدادوا كفراً» بالذنوب التي أكتسبوها. وهذا اختيار الطبري، وهي عنده في اليهود: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ مشكل لقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾<sup>(٢)</sup> فقيل: المعنى لن تقبل توبتهم عند الموت. قال النحاس: وهذا قول حسن؛ كما قال عز وجل: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾<sup>(٣)</sup>. وروي عن الحسن وقاتدة وعطاء. وقد قال ﷺ: «إن الله

(١) راجع ١٨٨/٢.

(٢) راجع ٢٥/١٦.

(٣) راجع ٩٠/٥.

يقبل توبة العبد ما لم يُغْرِغْ<sup>(١)</sup>. وسيأتي في «النساء» بيان هذا المعنى. وقيل: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ التي كانوا عليها قبل أن يكفروا؛ لأن الكفر قد أحبطها. وقيل: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر؛ وإنما تقبل توبتهم إذا تابوا إلى الإسلام. وقال قطرب. هذه الآية نزلت في قوم من أهل مكة قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون، فإن بدا لنا الرجعة رجعنا إلى قومنا. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر؛ فسمأها توبة غير مقبولة؛ لأنه لم يصح من القوم عزم، والله عز وجل يقبل التوبة كلها إذا صح العزم.

[٩١] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

المِلءُ ( بالكسر ) مقدار ما يملأ الشيء ، والمِلءُ ( بالفتح ) مصدر ملأت الشيء ؛ ويقال: أعطني مِلْءَهُ ومِلْأَتُهُ وثلاثة أمْلَائِهِ. والواو في ﴿وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِ﴾ قيل: هي مقحمة زائدة؛ المعنى: فلن يقبل من أحدهم مِلءُ الأرض ذهباً لو أَفْتَدَى به. وقال أهل النظر من النحويين: لا يجوز أن تكون الواو مقحمة لأنها تدل على معنى. ومعنى الآية: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً تبرعاً ولو أَفْتَدَى به. و«ذهباً» نصب على التفسير في قول الفراء. قال المفضل: شرط التفسير أن يكون الكلام تاماً وهو مُبْهَمٌ؛ كقولك عندي عشرون؛ فالعدد معلوم والمعدود مبهم؛ فإذا قلت درهماً فُسِّرَتْ. وإنما نصب التمييز لأنه ليس له ما يخفضه ولا ما يرفعه، وكان النصب أخف الحركات فجُعِلَ لكل ما لا عامل فيه. وقال الكسائي: نصب على إضمار مِنْ، أي من ذهب؛ كقوله: ﴿أَوْ عَدَلَ ذَلِكَ صِيَامًا﴾<sup>(٢)</sup> أي من صيام. وفي البخاري ومسلم عن قتادة عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «يجاء بالكافر

(١) أي ما لم تبلغ روحه حلقومه؛ فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغ به المريض، راجع ٩٢/٥.

(٢) راجع ٣١٦/٦.

يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به فيقول نعم فيقال له قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك». لفظ البخاري. وقال مسلم بدل «قد كنت؛ كذبت، قد سئلت».

[٩٢] ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَ عِلْمِهِ﴾.

فيه مسألتان:

**الأولى** - روى الأئمة واللفظ للنسائي عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: إن ربنا ليسألنا من أموالنا فأشهدك يا رسول الله أنني جعلت أرضي لله. فقال رسول الله ﷺ: «أجعلها في قرابتك في حسان بن ثابت وأبي بن كعب». وفي الموطأ «وكانت أحب أمواله إليه بئر حاء<sup>(١)</sup>»، وكانت مستقبله المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب<sup>(٢)</sup>. وذكر الحديث. ففي هذه الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه؛ فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يفهموا من فحوى الخطاب حين نزلت الآية غير ذلك. ألا ترى أبا طلحة حين سمع ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا﴾ الآية، لم يحتج أن يقف حتى يرد البيان الذي يريد الله أن ينق منه عباده بآية أخرى أو سنة مبينة لذلك فإنهم يحبون أشياء كثيرة. وكذلك فعل زيد بن حارثة، عميد مما يحب إلى فرس يقال له «سبل» وقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إلي من فرسي هذه؛ فجاء بها [إلى]<sup>(٣)</sup> النبي ﷺ فقال: هذا في سبيل الله. فقال لأسامة بن زيد «أقبضه». فكان زيدا وجد من ذلك في نفسه. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد قبلها منك». ذكره أسد بن موسى. وأعتق ابن عمر نافعاً مولاه، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار. قالت صفية بنت أبي عبيد: أظنه تأول قول الله عز وجل: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. وروى شبل عن<sup>(٣)</sup> أبي نجيع

(١) بئر حاء: مال وموضع كان لأبي طلحة بالمدينة.

(٢) من د، وز.

(٣) في د: ابن أبي نجيع.



عن مجاهد قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سَبِي جُلُولاء<sup>(١)</sup> يوم فتح مدائن كِسْرَى؛ فقال<sup>(٢)</sup> سعد بن أبي وقاص: فدعا بها عمر فأعجبته، فقال إن الله عز وجل يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ فأعْتَقَهَا عمر رضي الله عنه. وروي عن الثوري أنه بلغه أن أم ولد الربيع بن خثيم قالت: كان إذا جاءه السائل يقول لي: يا فلانة أعطي السائل سكرًا، فإن الربيع يحب السكر. قال سفيان: يتأول قوله جل وعز: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾. وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشتري أعدالاً من سكر ويتصدق بها. فقليل له: هلا تصدقت بقيمتها؟ فقال: لأن السكر أحب إليّ فأردت أن أنفق مما أحب. وقال الحسن: إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تُدركوا<sup>(٣)</sup> ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون.

**الثانية -** وأختلفوا في تأويل « البر » فقليل الجنة ؛ عن ابن مسعود وأبن عباس وعطاء ومجاهد وعمر بن ميمون والسدي . والتقدير لن تنالوا ثواب البر حتى تنفقوا مما تحبون . والثَّوَال العطاء، من قولك نولته تنويلاً أعطيته . ونالني من فلان معروف ينالني ، أي وصل إليّ . فالمعنى لن تصلوا إلى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون . وقيل: البر العمل الصالح . وفي الحديث الصحيح: «عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة» . وقد مضى في البقرة<sup>(٤)</sup> . قال عطية العوفي: يعني الطاعة . عطاء، لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء تأملون العيش وتخشون الفقر . وعن الحسن، «حتى تنفقوا» هي الزكاة المفروضة . مجاهد والكلبي: هي منسوخة، نسختها آية الزكاة . وقيل: المعنى حتى تنفقوا مما تحبون في سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات، وهذا جامع . وروى النسائي عن صعصعة بن معاوية قال: لَقِيت أبا ذرٍّ قال: قلت حدّثني قال: نعم . قال رسول الله ﷺ: « ما من عبد مسلم ينفق من كل ماله زوجين في سبيل الله إلا أستقبلته حجة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده» . قلت: وكيف ذلك؟ قال: إن كانت إبلاً فبعيرين،

(١) جلولاء: قرية قرب خانقين - بالعراق - على سبعة فراسخ منها كانت للمسلمين بها وقعة على الفرس .

(٢) في ب: في قتال سعد . (٣) في: أ، وب، وز: تدركون .

(٤) راجع ٢/٢٤٣ .

وإن كانت بقرأ فبقرتين . وقال أبو بكر الوراق : دلّهم بهذه الآية على الفتوة<sup>(١)</sup> . أي لن تنالوا برّي بكم إلا ببرّكم بإخوانكم والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم ؛ فإذا فعلتم ذلك نالكم بري وعطفي . قال مجاهد : وهو مثل قوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا ﴾<sup>(٢)</sup> . ﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ أي وإذا علم جازى عليه .

[٩٣] ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ، مِن قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾<sup>(٣)</sup> .  
[٩٤] ﴿ فَمَن أَفَرَّى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ حَلَالًا ﴾ أي حلالاً ، ثم استثنى فقال : ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ وهو يعقوب عليه السلام . في الترمذي عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : أخبرنا ، ما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : « كان يسكن البدو فأشتكى عرق<sup>(٥)</sup> النساء فلم يجد شيئاً يلائمه إلا لحوم الإبل والبانها فلذلك حرّمها » . قالوا : صدقت . وذكر الحديث . ويقال : [ إنه ]<sup>(٦)</sup> نذر إن برأ<sup>(٥)</sup> منه ليركن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل والبانها . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي : أقبل يعقوب عليه السلام من حرّان يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيصو ، وكان رجلاً بطشاً قوياً ، فلقّبه ملك فظنّ يعقوب أنه لص فعالجه أن يصصره ، فغمز الملك فخذ يعقوب عليه السلام ، ثم صعد الملك إلى السماء ويعقوب ينظر إليه فهاج عليه<sup>(٦)</sup> عرق النساء ، ولقي من

(١) الفتوة : يعبر بها عن مكارم الأخلاق .

(٢) راجع ١٢٥/١٩ .

(٣) النساء (بالفتح مقصور) : عرف يخرج من الورك فيستبطن الفخذ .

(٤) كذا في ب ود .

(٥) برأ من المرض (بالفتح) لغة أهل الحجاز . وسائر العرب يقولون : برئت (بالكسر) .

(٦) في ب ود : به .

ذلك بلاء شديد؛ فكان لا ينام الليل من الوجع ويبست له زقاة<sup>(١)</sup> أي صباح، فحلف يعقوب عليه السلام إن شفاه الله جل وعز ألا يأكل عِزْقاً، ولا يأكل طعاماً فيه عِزْق فحرمها على نفسه؛ فجعل بنوه يتبعون بعد ذلك العروق فيخرجونها من اللحم. وكان سبب غمز الملك ليعقوب<sup>(٢)</sup> إنه كان نذر إن وهب الله له اثني عشر ولداً وأتى بيت المقدس صحيحاً أن يذبح آخرهم<sup>(٣)</sup>. فكان ذلك للمخرج من نذره؛ عن الضحاك.

**الثانية -** وأختلف هل كان التحريم من يعقوب بأجتهاد منه أو بإذن من الله تعالى؟ والصحيح الأول؛ لأن الله تعالى أضاف التحريم إليه بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ﴾ وأن النبي إذا أذاه أجتهاده إلى شيء كان ديناً يلزمنا أتباعه لتقرير الله سبحانه إياه على ذلك. وكما يوحى إليه ويلزم أتباعه، كذلك يؤذن له ويجتهد، ويتعين موجب أجتهاده إذا قدر عليه، ولولا تقدّم الإذن له في تحريم ذلك ما تسوّر<sup>(٤)</sup> على التحليل والتحريم. وقد حرم نبينا ﷺ العسل على الرواية الصحيحة، أو خادمه مارية فلم يقر الله تحريمه ونزل ﴿لَمْ تُحَرِّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ على ما يأتي بيانه في «التحريم»<sup>(٥)</sup>. قال الكيا الطبري: فيمكن أن يقال: مطلق قوله تعالى: ﴿لَمْ تُحَرِّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ﴾ يقتضي ألا يختص بمارية؛ وقد رأى الشافعي أن وجوب الكفارة في ذلك غير معقول المعنى، فجعلها مخصوصاً بموضع النص، وأبو حنيفة رأى ذلك أصلاً في تحريم كل مباح وأجراه مجرى اليمين.

**الثالثة -** قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال ابن عباس: لما أصاب يعقوب عليه السلام عرق النساء وطف الأظباء له أن يحتب لحوم الإبل فحرمها على نفسه. فقالت اليهود: إنما نحرم على أنفسنا لحوم الإبل؛ لأن يعقوب حرمها وأنزل الله تحريمها في التوراة؛ فأنزل الله هذه الآية. قال الضحاك: فكذبهم الله ورد عليهم فقال: يا محمد ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فلم يأتوا. فقال عز وجل: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال الزجاج: في هذه الآية

(١) في ز و أ: رغاء، والتصحيح في ب، ود وحـ وهـ وجـ.

(٢) في ب ود، وفي الأصول الأخرى: غمز الملك فخذ.

(٣) في د: أحدهم.

(٤) تسوّر: هجم. (٥) راجع ١٨/١٧٧.

أعظم دلالة لنبوّة محمد نبينا ﷺ، أخبرهم أنه ليس في كتابهم، وأمرهم أن يأتوا بالتوراة فأبوا؛ يعني عرفوا أنه قال ذلك بالوحي. وقال عطية العوفي: إنما كان ذلك حراماً عليهم بتحريم يعقوب ذلك عليهم. وذلك أن إسرائيل قال حين أصابه عرق النسا: والله لئن عافاني الله منه لا يأكله لي ولد؛ ولم يكن ذلك محرّماً عليهم. وقال الكلبي: لم يحرمه الله عز وجل في التوراة عليهم وإنما حرمه بعد التوراة بظلمهم وكفرهم، وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنباً عظيماً حرم الله تعالى عليهم طعاماً طيباً، أو صب عليهم رجلاً وهو الموت؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَهُمْ﴾<sup>(١)</sup> الآية. وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ الآية - إلى قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

الرابعة - ترجم ابن ماجه في سننه «دواء عرق النسا» حدثنا هشام بن عمار وراشد ابن سعيد الرملي قالوا حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا هشام بن حسان حدثنا أنس بن سيرين أنه سمع أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «شفاء عرق النسا ألية شاة [أعرابية]<sup>(٣)</sup> تذاب ثم تُجَزَّأ ثلاثة أجزاء ثم يشرب على الريق في كل يوم جزء». وأخرجه الثعلبي في تفسيره أيضاً من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ في عرق النسا: «تؤخذ ألية كبش عربي لا صغير ولا كبير فتقطع صفاراً فتخرج إهالته<sup>(٤)</sup> فتقسم ثلاثة أقسام في كل يوم على ريق النفس ثلاثاً» قال أنس: فوصفته لأكثر من مائة فبرأ بإذن الله تعالى. شعبة: حدثني شيخ في زمن الحجاج بن يوسف في عرق النسا: أقسم لك بالله الأعلى لئن لم تنته لأكويتك بنار أو لأحلقنك بموسى. قال شعبة: قد جربته، تقوله، وتمسح على ذلك الموضع.

[٩٥] ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(١) راجع ١٢/٦.

(٢) راجع ١٢٧/٧.

(٣) زيادة عن سنن ابن ماجه.

(٤) الإهالة (بالكسر): الشحم المذاب، أو كل ما أوتدّم به من الأدهان.

أي قل يا محمد صدق الله؛ إنه لم يكن ذلك في التوراة محرماً. ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ أمر باتباع دينه. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ رد عليهم في دعواهم الباطل كما تقدم.

[٩٦] ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ .

[٩٧] ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَى سَبِيلٍ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ .

فيه خمس مسائل :

الأولى - ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض قال : «المسجد الحرام» . قلت : ثم أي؟ قال : «المسجد الأقصى» . قلت : كم بينهما؟ قال : «أربعون عاماً ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدرتكَ الصلاة فصل» . قال مجاهد وقتادة : لم يوضع قبله بيت . قال علي رضي الله عنه : كان قبل البيت بيوت كثيرة، والمعنى أنه أول بيت وضع للعبادة . وعن مجاهد قال : تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة؛ لأنه مهاجر<sup>(١)</sup> الأنبياء وفي الأرض المقدسة . وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل؛ فأنزل الله هذه الآية . وقد مضى في البقرة<sup>(٢)</sup> بنیان البيت وأول من بناه . قال مجاهد : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة، وأن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى . وأما المسجد الأقصى فبناه سليمان عليه السلام؛ كما خرجه النسائي بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو . وعن النبي ﷺ : «أن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالاً ثلاثة [سأل الله عز وجل]<sup>(٣)</sup> حُكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله عز وجل مُلْكاً

(١) المهاجر (بفتح الجيم): موضع المهاجرة.

(٢) راجع ٢/١٢٠.

(٣) زيادة عن سنن النسائي.

لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد ألا يأتيه أحد لا ينهزه<sup>(١)</sup> إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطبته كيوم ولدته أمه فأوتيه». فجاء إشكال بين الحديثين؛ لأن بين إبراهيم وسليمان آمادا طويلة. قال أهل التواريخ: أكثر من ألف سنة. فقليل: إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جددا ما كان أسسه غيرهما. وقد روي أن أول من بنى البيت آدم عليه السلام كما تقدم. فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاما، ويجوز أن تكون الملائكة أيضا بنته بعد بنائها البيت بإذن الله؛ وكل محتمل. والله أعلم. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أمر الله تعالى الملائكة ببناء بيت في الأرض وأن يطوفوا به؛ وكان هذا قبل خلق آدم، ثم إن آدم بنى منه ما بنى وطاف به، ثم الأنبياء بعده، ثم أستم بناء إبراهيم عليه السلام.

**الثانية -** قوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ خبر «إن» واللام تأكيد. و «بكة» موضع البيت، ومكة سائر البلد؛ عن مالك بن أنس. وقال محمد بن شهاب: بكّة المسجد، ومكة الحرم كله، تدخل فيه البيوت. قال مجاهد: بكّة هي مكة. فالميم على هذا مُبدّلة من الباء؛ كما قالوا: طين لازِبٌ ولازِمٌ. وقاله الضحاك والمؤرج. ثم قيل: بكّة مشتقة من البَكِّ وهو الازدحام. تباك القوم ازدحموا. وسميت بكّة لازدحام الناس في موضع طوافهم. والبك دَقَّ العنق. وقيل: سميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجابرة إذا ألحدوا فيها بظلم. قال عبد الله بن الزبير: لم يقصدها جبار قطُ بسوء إلا وقَصَّه<sup>(٢)</sup> الله عز وجل. وأما مكة فقيل: إنها سميت بذلك [لقلة<sup>(٣)</sup> مائها وقيل: سميت بذلك] لأنها تَمَكَّ المخ من العظم مما ينال قاصدها من المشقة؛ من قولهم: مكَّكت العظم إذا أخرجت ما فيه. ومكَّ الفصيلُ ضرع أمه وأمتكّه إذا أمتص كل ما فيه من اللبن وشربه؛ قال الشاعر:

مَكَّتْ فلم تُبقِ في أجوافها دِرا

وقيل: سميت بذلك لأنها تَمَكَّ من ظلم فيها، أي تهلكه وتنقصه. وقيل: سميت بذلك لأن الناس كانوا يَمُكُّون ويضحكون فيها؛ من قوله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً

(١) النهز: الدفع. (٢) الوقص: الكسر والدق. (٣) الزيادة في د.

وَتَضِيدَةً<sup>(١)</sup> أَي تَضْفِيفاً وَتَضْفِيرًا. وهذا لا يوجه التصريف؛ لأن «مكة» ثنائي مضاعف و «مُكَاء» ثلاثي معتل.

**الثالثة -** قوله تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾ جعله مباركاً لتضاعف العمل فيه؛ فالبركة كثرة الخير، ونصب على الحال من المضممر في «وُضِعَ» أو بالظرف من «بَكَّة»، المعنى: الذي أَسْتَقَرَّ «بِبَكَّة مُبَارَكًا» ويجوز في غير القرآن «مبارك»؛ على أن يكون خبراً ثانياً، أو على البذل من الذي، أو على إضمار مبتدأ. ﴿وَهْدَى لِلْعَالَمِينَ﴾ عطف عليه، ويكون بمعنى وهو هدى للعالمين. ويجوز في غير القرآن «مبارك» بالخفض يكون نعتاً للبيت.

**الرابعة -** قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ رفع بالابتداء أو بالصفة. وقرأ أهل مكة وأبن عباس ومجاهد وسعيد بن جبیر «آية بيّنة» على التوحيد، يعني مقام إبراهيم وحده. قالوا: أثر قدميه في المقام آية بيّنة. وفسر مجاهد مقام إبراهيم بالحرم كله؛ فذهب إلى أن من آياته الصفا والمروة والركن والمقام. والباقون بالجمع. أرادوا مقام إبراهيم والحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر كلها. قال أبو جعفر النحاس: من قرأ «آيات بيّنات» فقراءته آيين؛ لأن الصفا والمروة من الآيات، ومنها أن الطائر لا يعلو البيت صحيحاً، ومنها أن الجارح<sup>(٢)</sup> يطلب الصيد فإذا دخل الحرم تركه، ومنها أن الغيث إذا كان ناحية الركن اليماني كان الخصب باليمن، وإذا كان بناحية الشامي كان الخصب بالشام، وإذا عم البيت كان الخصب في جميع البلدان، ومنها أن الجمار على ما يُزاد عليها تُرى<sup>(٣)</sup> على قدر واحد. والمقام من قولهم: قمت مقاماً، وهو الموضع الذي يُقام فيه. والمقام من قولك: أقمت مقاماً. وقد مضى هذا في البقرة<sup>(٤)</sup>، ومضى الخلاف أيضاً في المقام والصحيح منه. وأرتفع المقام على الابتداء والخبر محذوف؛ والتقدير منها مقام إبراهيم؛ قاله الأخفش. وحكي عن محمد بن يزيد أنه قال: «مقام» بدل من «آيات». وفيه قول ثالث بمعنى هي مقام إبراهيم. وقول الأخفش معروف في كلام العرب. كما قال زهير:

(١) راجع ٤٠٠/٧.

(٢) في د: أن الحاج يتبع، والصواب ما أثبتناه من ز، وب.

(٣) في ز: على ما يراد منها ترمى.

(٤) راجع ١١٢/٢.

لها متاعٌ وأعوانٌ غَدَوْنَ به قَتَبُ<sup>(١)</sup> وَغَرَبَ إِذَا مَا أَفْرَغَ أَنْسَحَقًا

أي مضى وبَعَدَ سيلانه . وقول أبي العباس : إن مقاماً بمعنى مقامات ؛ لأنه مصدر . قال الله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾<sup>(٢)</sup> وقال الشاعر :

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَضُ<sup>(٣)</sup>

أي في أطرافها . ويقوّي هذا الحديثُ المرويُّ «الحجج [كله]»<sup>(٤)</sup> مقام إبراهيم .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ قال قتادة : ذلك أيضاً من آيات

الحرم . قال النحاس : وهو قول حسن ؛ لأن الناس كانوا يَتَخَطَّفُونَ من حواليه ، ولا

يصل إليه جبار ، وقد وصل إلى بيت المقدس وخرّب ، ولم يوصل إلى الحرم . قال الله

تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾<sup>(٥)</sup> . وقال بعض أهل المعاني :

صورة الآية خبر ومعناها أمر ، تقديرها ومن دخله فأمّنه ؛ كقوله : ﴿ فَلَا رَفَقَ وَلَا

فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾<sup>(٦)</sup> أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا . ولهذا المعنى

قال الإمام السابق النعمان بن ثابت : من أقترف ذنباً وأستوجب به حداً ثم لجأ إلى الحرم

عصمه ، [لقوله تعالى :] ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ ؛ فأوجب الله سبحانه الأمان لمن دخله .

وروي ذلك عن جماعة من السلف منهم ابن عباس وغيره من الناس . قال ابن العربي :

« وكل من قال هذا فقد وهم من جهتين : إحداهما أنه لم يفهم من الآية أنها خبر عما

مضى ، ولم يقصد بها إثبات حكم مستقبل ، الثاني أنه لم يعلم أنّ ذلك الأمان قد ذهب

وأن القتل والقتال قد وقع بعد ذلك فيها ، وخبر الله لا يقع بخلاف مخبره ؛ فدل ذلك

على أنه كان في الماضي هذا . وقد ناقض أبو حنيفة فقال ، إذا لجأ إلى الحرم لا يُطعم ولا

يُسقى ولا يُعامل ولا يُكَلَّم حتى يخرج ، فأضطراره<sup>(٧)</sup> إلى الخروج ليس يصح معه أمنٌ .

وروي عنه أنه قال : يقع القصاص في الأطراف في الحرم ولا أمن أيضاً مع هذا .

(١) قوله : لها متاع ، أي لهذه الناقة التي يستقى عليها . والقَتَب (بالكسر) : جميع أداة السانية من

أعلاقتها وجبالها . والسانية : ما يسقى عليه الزرع والحيوان من بعير وغيره . والغرب : الدلو العظيمة .

(٢) راجع ١/١٨٥ . (٣) البيت لجبرير ، والذي في الديوان : في طرفها حور .

(٤) في دوز وهـ . هذا من قول سعيد بن جببر كما في تفسير ابن كثير وفيه توجيه ٣/١٩١ .

(٥) راجع ٢٠/١٨٧ . (٦) راجع ٢/٤٠٧ .

(٧) في دوز : فأضطره ، وفي الأصول الأخرى : فأضطروه ، والتصحيح من ابن العربي .



والجمهور من العلماء على أن الحدود تُقام في الحرم، وقد أمر النبي ﷺ بقتل ابن خَطْلٍ<sup>(١)</sup> وهو متعلقٌ بأستار الكعبة.

قلت: وروى الثوري عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس: من أصاب حداً [في الحرم]<sup>(٢)</sup> أقيم عليه فيه، وإن أصابه في الحِلِّ ولجأ إلى الحرم لم يُكَلِّمْ ولم يبيع حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد؛ وهو قول الشعبي. فهذه حجة الكوفيين، وقد فهم ابن عباس ذلك من معنى الآية، وهو خبر الأمة وعالمها. والصحيح أنه قصد بذلك تعديد النعم على كل من كان بها جاهلاً ولها منكر من العرب؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْتَحِطُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾<sup>(٣)</sup>؛ فكانوا في الجاهلية من دخله ولجأ إليه آمن من الغارة والقتل؛ على ما يأتي بيانه في «المائدة»<sup>(٤)</sup> إن شاء الله تعالى. قال قتادة: ومن دخله في الجاهلية كان آمناً. وهذا حسن. وروي أن بعض المُلحِدة قال لبعض العلماء: أليس في القرآن ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ فقد دخلناه وفعلنا كذا وكذا فلم يأمن من كان فيه! قال له: ألسنت من العرب! ما الذي يريد القائل من دخل داري<sup>(٥)</sup> كان آمناً؟ أليس أن يقول لمن أطاعه: كف عنه فقد أمتته وكففت عنه؟ قال بلى. قال: فكذلك قوله ﴿ومن دخله كان آمناً﴾. وقال يحيى بن جعدة: معنى ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ يعني من النار.

قلت: وهذا ليس على عمومته؛ لأن في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري حديث الشفاعة الطويل «فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحدٍ بأشدَّ مناشدةً لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحججون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم» الحديث. وإنما يكون آمناً من النار من دخله لقضاء التَّسْك معظماً له عارفاً بحقه متقرباً إلى الله تعالى. قال جعفر الصادق: من دخله على الصفاء

(١) ابن خطل (بالتحريك) هو عبد الله بن خطل. رجل من بني تيم بن غالب، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً فبعثه ﷺ مصداقاً وبعث معه رجلاً من الأنصار وكان معه مولى يخدمه مسلماً فتزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً فيصنع له طعاماً فنام؛ فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم أرتد. راجع الطبري وأبن هشام.

(٢) من دوز. (٣) راجع ٣٦٣/١٣. (٤) راجع ٣٢٥/٦. (٥) في د: فهو آمن.

كما دخله الأنبياء والأولياء كان آمناً من عذابه. وهذا معنى قوله عليه السلام: «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». قال الحسن: الحج المبرور هو أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة. وأنشد:

يا كعبة الله دعوة اللاجي	دعوة مستشعر ومحتاج
ودع أجابيه ومسكنه	فجاء ما بين خائف راجي <sup>(١)</sup>
إن يقبل الله سعيه كرماً	نجاً، وإلا فليس بالناجي
وأنت ممن تُرجى شفاعته	فأعطف على وإد بن حجاج

وقيل: المعنى ومن دخله عام عمرة القضاء مع محمد ﷺ كان آمناً. دليله قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>. وقد قيل: إن «مَنْ» ها هنا لمن لا يعقل؛ والآية في أمان الصيد: وهو شاذ؛ وفي التنزيل: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾<sup>(٣)</sup> الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ فيه تسع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ اللام في قوله «وَلِلَّهِ» لام الإيجاب والإلزام، ثم أكده بقوله تعالى: ﴿عَلَى﴾ التي هي من أؤكد ألفاظ الوجود عند العرب؛ فإذا قال العربي: لفلان علي كذا؛ فقد وكّده وأوجبه. فذكر الله تعالى الحج [بأبلغ]<sup>(٤)</sup> ألفاظ الوجوب تأكيداً لحقه وتعظيماً لحزمته. ولا خلاف في فرضته<sup>(٥)</sup>، وهو أحد قواعد الإسلام، وليس يجب إلا مرة في العمر. وقال بعض الناس: يجب في كل خمسة أعوام [مرة]<sup>(٦)</sup>؛ ورووا في ذلك حديثاً أسندوه إلى النبي ﷺ، والحديث باطل لا يصح، والإجماع صاذ في وجوبهم.

قلت: وذكر عبد الرزاق قال: حدثنا سفيان [الثوري]<sup>(٧)</sup> عن العلاء بن المسيب عن أبيه عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «يقول الرب جل وعز إن عبداً أوسعت عليه في الرزق فلم يعد إليّ في كل أربعة أعوام لمحروم» مشهور من حديث العلاء بن المسيب بن رافع الكاهلي الكوفي من أولاد المحدثين، روى عنه غير واحد، منهم من قال: في كل خمسة أعوام،

(١) في د: ما بين خائفه والراجي. (٢) راجع ٢٨٩/١٦. (٣) راجع ٢٩١/١٢.  
(٤) في د وب وز وهـ. وفي أ: بأوكد. (٥) في د وب: فرضيته. (٦) في ب ود. (٧) في د.

ومنهم من قال: عن العلاء عن يونس بن حَبَّاب<sup>(١)</sup> عن أبي سعيد، في غير ذلك من الاختلاف. وأنكرت الملحدة الحَجَّ، فقالت: إن فيه تجريد الثياب وذلك يخالف الحياء، والسعي وهو يناقض الوَقَارَ، ورمي الجمار لغير مرمى وذلك يضادّ العقل؛ فصاروا إلى أن هذه الأفعال كلها باطلة؛ إذ لم يعرفوا لها حكمة ولا علة؛ وجهلوا أنه ليس من شرط المولى مع العبد، أن يفهم المقصود بجميع ما يأمره به، ولا أن يطلع على فائدة تكليفه، وإنما يتعين عليه الامتثال، ويلزمه الانقياد من غير طلب فائدة ولا سؤال عن مقصود. ولهذا المعنى كان عليه السلام يقول في تلبيته: «لَيْتَكَ حَقًّا حَقًّا تَعْبُدُ وَرَقًّا لَيْتَكَ إِلَهَ الْحَقِّ». وروى الأئمة عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحجَّ فحجُّوا». فقال رجل: كلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت ولما أستطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما أستطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» لفظ مسلم. فبين هذا الحديث أن الخطاب إذا توجه على المكلفين بفرض أنه يكفي منه فعل مرة ولا يقتضي التكرار؛ خلافاً للأستاذ أبي إسحق الأسفرايني وغيره. وثبت أن النبي ﷺ قال له أصحابه: يا رسول الله، أحجُّنا لعامنا هذا أم للأبد؟ فقال: «لا بل للأبد». وهذا نص في الردّ على من قال: يجب في كل خمس سنين مرة. وقد كان الحج معلوماً عند العرب مشهوراً لديهم، وكان مما يرغب فيه لأسواقها وتبَرُّرها<sup>(٢)</sup> وتحفُّها؛ فلما جاء الإسلام خطبوا بما علموا وألزموا بما عرفوا. وقد حج النبي ﷺ قبل حجّ الفرض، وقد وقف بعرفة ولم يغيّر من شرع إبراهيم ما غيروا؛ حين كانت قريش تقف بالمشعر الحرام ويقولون: نحن أهل الحرم فلا نخرج منه؛ ونحن الحمس<sup>(٣)</sup>. حسب ما تقدّم بيانه في «البقرة»<sup>(٤)</sup>.

قلت: من أغرب ما رأيته أن النبي ﷺ حج قبل الهجرة مرتين وأن الفرض سقط عنه بذلك؛ لأنه قد أجاب نداء إبراهيم حين قيل له: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ

(١) في أ: ابن حبان، والتصويب من د وزوب. (٢) التبر: الطاعة، وفي أ: نجيعها: طلب الكلال. في د: تحفها. (٣) الحمس جمع الأحس، وهم قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس؛ سموا حمساً لأنهم تحمسوا في دينهم، أي تشددوا. (٤) راجع ٣٤٥/٢.

بالحج<sup>(١)</sup>. قال الكيا الطبري: وهذا بعيد؛ فإنه إذا ورد في شرعه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فلا بد من وجوبه عليه بحكم الخطاب في شرعه. ولئن قيل: إنما خاطب من لم يحج، كان تحكماً وتخصيصاً لا دليل عليه، ويلزم عليه ألا يجب بهذا الخطاب على من حج على دين إبراهيم، وهذا في غاية البعد.

**الثانية -** ودل الكتاب والسنة على أن الحج على التراخي لا على الفور؛ وهو تحصيل مذهب مالك فيما ذكر ابن خُوَيزِ مَنَدَاد، وهو قول الشافعي ومحمد بن الحسن وأبي يوسف في رواية عنه. وذهب بعض البغداديين من المتأخرين من المالكيين إلى أنه على الفور، ولا يجوز تأخيره مع القدرة عليه؛ وهو قول داود. والصحيح الأول؛ لأن الله تعالى قال في سورة الحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ وسورة الحج مكية<sup>(٢)</sup>. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ الآية. وهذه السورة نزلت عام أُحُد بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة ولم يحج رسول الله ﷺ إلى سنة عشر. أما السنة فحديث ضمام بن ثعلبة السعدي من بني سعد بن بكر قديم على النبي ﷺ فسأله عن الإسلام فذكر الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج. رواه ابن عباس وأبو هريرة وأنس، وفيها كلها ذكر الحج، وأنه كان مفروضاً، وحديث أنس أحسنها سياقاً وأتمها. وأختلف في وقت قدومه؛ فقيل: سنة خمس. وقيل: سنة سبع. وقيل: سنة تسع؛ ذكره ابن هشام عن أبي عبيدة الواقدي عام الحَنَدَق بعد أنصراف الأَخْرَاب. قال ابن عبد البر: ومن الدليل على أن الحج على التراخي إجماع العلماء على ترك تفسير القادر على الحاج إذا أخره العام والعامين ونحوهما، وأنه إذا حج من بعد أعوام من حيث استطاعته فقد أدى الحج الواجب عليه في وقته، وليس هو عند الجميع كمن فاتته الصلاة حتى خرج وقتها فقضاها بعد خروج وقتها، ولا كمن فاتته صيام رمضان لمرض أو سفر فقضاها، ولا كمن أفسد حجه فقضاها، فلما أجمعوا على أنه لا يقال لمن حج بعد أعوام من وقت استطاعته: أنت قاضٍ لما وجب عليك؛ علمنا أن وقت الحج مُوسَّع فيه وأنه على التراخي لا على الفور. قال أبو عمر: كل من قال بالتراخي لا يَحُدُّ في ذلك حداً؛ إلا ما روي عن سحنون وقد سئل عن الرجل

(١) راجع ٣٧/١٢.

(٢) والصحيح أن سورة الحج مدنية بدليل آية الجهاد، وسيأتي في ج ١٢ من هذا التفسير.

يجد ما يحج به فيؤخر ذلك إلى سنين كثيرة مع قدرته على ذلك هل يُفسَّق بتأخير الحج وتُردّ شهادته؟ قال: لا وإن مضى من عمره ستون سنة، فإذا زاد على الستين فسُق وردّت شهادته. وهذا توقيف وحَدّ، والحدود في الشرع لا تؤخذ إلا عمن له أن يشرّع.

قلت: وحكاه ابن خويز منداد عن ابن القاسم. قال ابن القاسم وغيره: إن أخره ستين سنة لم يُحرَّج<sup>(١)</sup>، وإن أخره بعد الستين حُرِّج؛ لأن النبي ﷺ قال: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وقل من يتجاوزها» فكأنه في هذا العشر قد يتضايق عليه الخطاب. قال أبو عمر: وقد أحتج بعض الناس [كسحنون]<sup>(٢)</sup> بقوله ﷺ: «معترك أمتي بين الستين إلى السبعين وقل من يجاوز ذلك». ولا حجة فيه؛ لأنه كلام خرج على الأغلب من أعمار أمته لو صحّ الحديث. وفيه دليل على التوسعة إلى السبعين لأنه من الأغلب أيضاً، ولا ينبغي أن يقطع بتفسيق من صحت عدالته وأمانته بمثل هذا من التأويل الضعيف. وبالله التوفيق.

الثالثة - أجمع العلماء على أن الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ عام في جميعهم مسترسل على جملتهم. قال ابن العربي: «وإن كان الناس قد اختلفوا في مطلق العمومات بيّد أنهم اتفقوا على حمل هذه الآية على جميع الناس ذكرهم وأنثاهم، خلا الصغير فإنه خارج بالإجماع عن أصول التكليف، وكذلك العبد لم يدخل فيه؛ لأنه أخرجه عن مطلق العموم قوله تعالى [في التمام]<sup>(٣)</sup>: ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ والعبد غير مستطيع؛ لأن السيّد يمنعه لحقوقه عن هذه العبادة. وقد قدّم الله سبحانه حقّ السيّد على حقه رفقا بالعباد ومصلحة لهم. ولا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة، فلا نهرِف<sup>(٣)</sup> بما لا نعرف، ولا دليل عليه إلا الإجماع». قال ابن المنذر: أجمع عامة أهل العلم إلا من شدّ منهم من لا يعدّ خلافاً، على أن الصبي إذا حجّ في حال صغره، والعبد إذا حجّ في حال رقه، ثم بلغ الصبي وعتق العبد إن عليهما حجة الإسلام إذا وجدا إليها سبيلاً. وقال أبو عمر: خالف داود جماعة فقهاء الأمصار وأئمة الأثر في المملوك وأنه عنده مخاطب بالحج، وهو عند جمهور العلماء خارج من الخطاب العام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى

(١) حرج (من باب علم): أثم. (٢) في د وب.

(٣) الهرِف: شبه الهديان من الإعجاب بالشيء، في د وب: لا يهرِف، لا يعرف، بالبناء للمجهول.

النَّاسِ حِجَّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» بدليل عدم التصرف، وأنه ليس له أن يحج بغير إذن سيده؛ كما خرج من خطاب الجمعة وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾<sup>(١)</sup> الآية - عند عامة العلماء إلا من شذَّ. وكما خرج من خطاب إيجاب الشهادة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾<sup>(٢)</sup> فلم يدخل في ذلك العبد. وكما جاز خروج الصبي من قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ وهو من الناس بدليل رفع القلم عنه. وخرجت المرأة من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ وهي ممن شمله اسم الإيمان، وكذلك خروج العبد من الخطاب المذكور. وهو قول فقهاء الحجاز والعراق والشام والمغرب، ومثلهم لا يجوز عليهم تحريف تأويل الكتاب. فإن قيل: إذا كان حاضر المسجد الحرام وأذن له سيده فلم يلزمه الحج؟ قيل له: هذا سؤال على الإجماع وربما لا يُعَلَّل ذلك، ولكن إذا ثبت هذا الحكم على الإجماع استدللنا به على أنه لا يُعْتَدُّ بحجه في حال الرِّقِّ عن حجة الإسلام؛ وقد روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا صَبِيٍّ حَجَّ ثُمَّ أَدْرَكَ فَعَلِيهِ أَنْ يَحْجَّ حِجَّةً أُخْرَى وَأَيُّمَا أَعْرَابِيٍّ حَجَّ ثُمَّ هَاجَرَ فَعَلِيهِ أَنْ يَحْجَّ حِجَّةً أُخْرَى وَأَيُّمَا عَبْدٍ حَجَّ ثُمَّ أَعْتَقَ فَعَلِيهِ أَنْ يَحْجَّ حِجَّةً أُخْرَى». قال ابن العربي: «وقد تساهل بعض علمائنا فقال: إنما لم يثبت الحج على العبد وإن أذن له السيد لأنه كان كافراً في الأصل ولم يكن حَجُّ الكافر معتداً به، فلما ضُرب عليه الرِّقُّ ضرباً مؤبداً لم يخاطب بالحج؛ وهذا فاسد من ثلاثة أوجه فأعلموه: أحدها - أن الكفار عندنا مُخَاطَبُونَ بفروع الشريعة، ولا خلاف فيه في قول مالك. الثاني - أن سائر العبادات تلزمه من صلاة وصوم مع كونه رقيقاً، ولو فعلها في حال كفره لم يعتد بها، فوجب أن يكون الحج مثلها. الثالث - أن الكفر قد ارتفع بالإسلام فوجب ارتفاع حكمه. فتبين أن المعتمد ما ذكرناه من تقدّم حقوق السيد». والله الموفق.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ «مَنْ» في موضع خفض على بدل البعض من الكل؛ هذا قول أكثر النحويين. وأجاز الكسائي أن يكون «مَنْ» في موضع رفع بحج، التقدير أن يحج البيت من. وقيل هي شرط. و«استطاع» في موضع جزم، والجواب

محذوف، أي من أستطاع إليه سبيلاً فعليه الحج. روى الدارقطني عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله الحج كل عام؟ قال: «لا بل حجة؟» قيل: فما السبيل، قال: «الزاد والراحلة». ورواه عن أنس وأبن مسعود وأبن عمر وجابر وعائشة وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال فسئل عن ذلك فقال النبي ﷺ: «أن تجد ظهر بغير». وأخرج حديث ابن عمر أيضاً أن ما جبه في سننه، وأبو عيسى الترمذي في جامعهم وقال: «حديث حسن، والعمل عليه عند أهل العلم أن الرجل إذا ملك زاداً وراحلة وجب عليه الحج. وإبراهيم<sup>(١)</sup> بن يزيد هو الخوزي المكي، وقد تكلم فيه بعض أهل الحديث من قبل حفظه». وأخرجاه عن وكيع والدارقطني عن سفيان بن سعيد قالوا: حدثنا إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد عن ابن عمر قال: قام رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما يوجب الحج؟ قال: «الزاد والراحلة» قال: يا رسول الله، فما الحاج؟ قال: «الشَّعْثُ الثَّقَلُ»<sup>(٢)</sup>. وقام آخر فقال: يا رسول الله وما الحج؟ قال: «العَجَّ والثَّجَّ». قال وكيع: يعني بالعج العجيج بالتلبية والثج نحر البُذْن؛ لفظ ابن ماجه. وممن قال إن الزاد والراحلة شرط في وجوب الحج: عمر بن الخطاب وأبنه عبد الله وعبد الله بن عباس والحسن البصري وسعيد بن جبيرة وعطاء ومجاهد. وإليه ذهب الشافعي والثوري وأبو حنيفة وأصحابه وأحمد وإسحاق وعبد العزيز بن أبي سلمة وأبن حبيب، وذكر عبدوس<sup>(٣)</sup> مثله عن سُخْنُون. قال الشافعي: الاستطاعة وجهان: أحدهما أن يكون مستطيعاً ببذنه واجداً من ماله ما يبلغه الحج. والثاني أن يكون معضوباً<sup>(٤)</sup> في بذنه لا يثبت على مركبه وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه بأجرة وبغير أجرة، على ما يأتي بيانه. أما المستطيع ببذنه فإنه يلزمه فرض الحج بالكتاب بقوله عز وجل: ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. وأما المستطيع بالمال فقد لزمه فرض الحج بالسنة بحديث الخثعمية على ما يأتي. وأما المستطيع بنفسه وهو القوي الذي لا تلحقه مشقة غير محتملة

(١) هو أحد رجال سند حديث ابن عمر.

(٢) الشعث: متلب الشعر. والثقل: الذي قد ترك استعمال الطيب.

(٣) في ب: «ابن عبدوس». (٤) المعضوب: الزمن الذي لا حراك به.

في الركوب على الراحلة؛ فإن هذا إذا ملك الزاد والراحلة لزمه فرض الحج بنفسه، وإن عدم الزاد والراحلة أو أحدهما سقط عنه فرض الحج؛ فإن كان قادراً على المشي مُطيقاً له ووجد الزاد أو قدر على كسب الزاد في طريقه بصنعة مثل الخرز والحجامة أو نحوهما فالمستحب له أن يَحُج ماشياً رَجُلًا كَانٍ أو امرأة. قال الشافعي: والرجل أقلَّ عُذراً من المرأة لأنه أقوى. وهذا عندهم على طريق الاستحباب لا على طريق الإيجاب، فأما إن قدر على الزاد بمسألة الناس في الطريق كرهت له أن يحج لأنه يصير كلاً على الناس. وقال مالك بن أنس رحمه الله: إذا قَدَرَ على المشي ووجد الزاد فعليه فرض الحج، وإن لم يجد الراحلة وقَدَرَ على المشي نُظِر؛ فإن كان مالِكاً للزاد وجب عليه فرض الحج، وإن لم يكن مالِكاً للزاد ولكنه يقدر على كسب حاجته منه في الطريق نُظِر أيضاً؛ فإن كان من أهل المروءات ممن لا يكتسب بنفسه لا يجب عليه، وإن كان ممن يكتسب كفايته بتجارة أو صناعة لزمه فرض الحج، وهكذا إن كانت عادته مسألة الناس لزمه فرض الحج. وكذلك أوجب مالكٌ على المطيق المشي الحج، وإن لم يكن معه زاد وراحلة. وهو قول عبد الله بن الزبير والشَّعْبِيّ وعكرمة. وقال الضحاك: إن كان شاباً قوياً صحيحاً ليس له مال فعليه أن يؤجّر نفسه بأكله أو عقبه<sup>(١)</sup> حتى يقضي حجه. فقال له مقاتل: كلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت؟ فقال: لو أن لأحدهم ميراً بمكة أكان تاركه؟! بل ينطلق إليه ولو حَبَوّاً، كذلك يجب عليه الحج. واحتج هؤلاء بقوله عز وجل: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾<sup>(٢)</sup> أي مُشاة. قالوا: ولأن الحج من عبادات الأبدان من فرائض الأعيان، فوجب ألا يكون الزاد من شروط وجوبها ولا الراحلة كالصلاة والصيام. قالوا: ولو صح حديث الخُوَزِيِّ الزاد والراحلة لحملناه على عموم الناس والغالبُ منهم في الأقطار البعيدة. وخروج مطلق الكلام على غالب الأحوال كثيرٌ في الشريعة وفي كلام العرب وأشعارها. وقد روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب عن مالك أنه سئل عن هذه الآية فقال: الناس في ذلك

(١) كذا في جميع نسخ الأصل ولعل المراد الولد يتنفع بأجر عمله. فليتأمل. وفي البحر لأبي حيان:

«... بأكله حتى...» (٢) راجع ٣٧/١٢.



على قدر طاقتهم ويُسِرهم وجَلَدَهم. قال أشهبُ لمالك: أهو الزاد والراحلة؟ قال: لا والله، ما ذاك إلا على قدر طاقة الناس، وقد يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على السير، وآخر يقدر أن يمشي على رجله.

**الخامسة -** إذا وُجدت الاستطاعة وتوجّه فرضُ الحج فقد يعرض ما يمنع منه كالغريم يمنعه عن الخروج حتى يؤدّي الدين؛ ولا خلاف في ذلك. أو يكون له عيال يجب عليه نفقتهم فلا يلزمه الحج حتى يكون لهم نفقتهم مدة غيبته لذهابه ورجوعه، لأن هذا الإنفاق فرض على الفور، والحج فرض على التراخي، فكان تقديم العيال أولى. وقد قال النبي ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مِنْ يَقُوتٍ». وكذلك الأبوان يخاف الضيعة عليهما وعدم العوض في التلطف بهما، فلا سبيل له إلى الحج؛ فإن منعه لأجل الشوق والوخشة فلا يلتفت إليه. والمرأة يمنعه زوجها، وقيل لا يمنعه. والصحيح المنع؛ لا سيما إذا قلنا أن الحج لا يلزم على الفور. والبحر لا يمنع الوجوب إذا كان غالبه السلامة - كما تقدّم بيانه في البقرة<sup>(١)</sup> - ويعلم من نفسه أنه لا يَمِيد<sup>(٢)</sup>. فإن كان الغالب عليه العطب أو المئد حتى يعطل الصلاة فلا. وإن كان لا يجد موضعاً لسجوده لكثرة الراكب وضيق المكان فقد قال مالك: إذا لم يستطع الركوع والسجود إلا على ظهر أخيه فلا يركبه. ثم قال: أيركب حيث لا يُصَلِّي! ويل لمن ترك الصلاة! ويسقط الحج إذا كان في الطريق عدوّ يطلب الأنفس أو يطلب من الأموال ما لم يتحدّد بحدّ مخصوص أو يتحدّد بقدر مُجَحِف. وفي سقوطه بغير المُجَحِف خلاف. وقال الشافعي: لا يعطى حبة ويسقط فرض الحج. ويجب على المتسوّل إذا كانت تلك عادته وغلب على ظنه أنه يجد من يعطيه. وقيل لا يجب، على ما تقدّم من مراعاة الاستطاعة.

**السادسة -** إذا زالت الموانع ولم يكن عنده من النَّاصِ<sup>(٣)</sup> ما يحجّ به وعنده عروض فيلزمه أن يبيع من عروضه للحج ما يُباع عليه في الدين. وسئل ابن القاسم عن الرجل تكون له القُرْبَة

(١) راجع ١٩٥/٢.

(٢) المائد: الذي يركب البحر فتغشى نفسه من نتن ماء البحر حتى يدار به ويكاد يفتشى عليه.

(٣) الناص: الدراهم والدنانير.

ليس له غيرها، أبيعها في حجة الإسلام ويترك ولده. ولا شيء لهم يعيشون به؟ قال: نعم، ذلك عليه ويترك ولده في الصدقة. والصحيح القول الأول؛ لقوله عليه السلام: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» وهو قول الشافعي. والظاهر من مذهبه أنه لا يلزم الحج إلا من له ما يكفيه من النفقة ذاهباً وراجعاً - قاله في الإملاء - وإن لم يكن له أهل وعيال. وقال بعضهم: لا يعتبر الرجوع لأنه ليس عليه كبير مشقة في تركه القيام ببلده؛ لأنه لا أهل له فيه ولا عيال وكلُّ البلاد له وطن. والأول أصوب؛ لأن الإنسان يستوحش لفراق وطنه كما يستوحش لفراق سكنه. ألا ترى أن البكر إذا زنا جلد وغُرب عن بلده سواء كان له أهل أو لم يكن. قال الشافعي في الأم: إذا كان له مسكن وخادم وله نفقة أهله بقدر غيبته يلزمه الحج. وظاهر هذا أنه اعتبر أن يكون مال الحج فاضلاً عن الخادم والمسكن، لأنه قدّمه على نفقة أهله، فكأنه قال: بعد هذا كله. وقال أصحابه: يلزمه أن يبيع المسكن والخادم ويكتري مسكناً وخادماً لأهله، فإن كان له بضاعة يتجر بها وربحها قدر كفايته وكفاية عياله على الدوام، ومتى أنفق من أصل البضاعة اختلّ عليه ربحها ولم يكن فيه قدر كفايته، فهل يلزمه الحج من أصل البضاعة أم لا؟ قولان: الأول للجمهور وهو الصحيح المشهور؛ لأنه لا خلاف في أنه لو كان له عقار تكفيه غلّته لزمه أن يبيع أصل العقار في الحج، فكذلك البضاعة. وقال ابن شريح: لا يلزمه ذلك ويُبقي البضاعة ولا يحج من أصلها؛ لأن الحج إنما يجب عليه في الفاضل من كفايته. فهذا الكلام في الاستطاعة بالبدن والمال.

السابعة - المريض والمعضوب، والعَضْب القطع، ومنه سُمّي السيف عَضْباً، وكان من أنتهى إلى ألا يقدر أن يستمسك على الرحلة ولا يثبت عليها بمنزلة من قُطعت أعضاؤه؛ إذ لا يقدر على شيء. وقد اختلف العلماء في حكمهما بعد إجماعهم أنه لا يلزمهما المسير إلى الحج؛ لأن الحج إنما فرضه الله على المستطيع إجماعاً، والمريض والمعضوب لا أستطاعة لهما. فقال مالك: إذا كان معضوباً سقط عنه فرض الحج أصلاً، سواء كان قادراً على من يحجّ عنه بالمال أو بغير المال لا يلزمه فرض الحج. ولو وجب عليه الحج ثم عُضِب وزُمن سقط عنه فرض الحج؛

ولا يجوز أن يُحجَّ عنه في حال حياته بحال، بل إن أوصى أن يُحجَّ عنه بعد موته حُجَّ عنه من الثالث، وكان تطوعاً؛ وأحتج بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾<sup>(١)</sup> فأخبر أنه ليس له إلا ما سعى. فمن قال: إنه له سعي غيره فقد خالف ظاهر الآية. ويقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ وهذا غير مستطیع؛ لأن الحج هو قصد المكلف البيت بنفسه، ولأنها عبادة لا تدخلها النيابة مع العجز عنها كالصلاة. وروى محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل ليدخل بالحجَّة الواحدة ثلاثة الجنة الميِّت والحاجَّ عنه والمنفَذ ذلك». خرَّجه الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد قال حدثنا عمرو<sup>(٢)</sup> بن حصين السدوسي قال حدثنا أبو معشر عن محمد بن المنكدر؛ فذكره.

قلت: أبو معشر أسمه نجيع وهو ضعيف عندهم. وقال الشافعي: في المريض الزَّمن والمعضوب والشيخ الكبير يكون قادراً على من يطيعه إذا أمره بالحج عنه فهو مستطیع أستطاعة ما. وهو على وجهين: أحدهما أن يكون قادراً على مال يستأجر به من يحج عنه فإنه يلزمه فرض الحج؛ وهذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، روي عنه أنه قال لشيخ كبير لم يحج: جهِّز رجلاً يحجَّ عنك. وإلى هذا ذهب الثوري وأبو حنيفة وأصحابه وأبن المبارك وأحمد وإسحاق. والثاني أن يكون قادراً على من يبذل له الطاعة والنيابة فيحجَّ عنه، فهذا أيضاً يلزمه الحج [عنه]<sup>(٣)</sup> عند الشافعي وأحمد وأبن راهويه، وقال أبو حنيفة: لا يلزم الحج ببذل الطاعة بحال. استدل الشافعي بما رواه ابن عباس أن امرأة من خثعم سألت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم». وذلك في حجة الوداع. في رواية: لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره. فقال النبي ﷺ: «فحجِّي عنه أرايت لو كان على أهلك دينٌ أكنت قاضيته؟» قالت نعم. قال: «فدين الله أحق أن يقضى». فأوجب النبي ﷺ الحج بطاعة أبنته إياه وبذلها من نفسها له بأن تحجَّ عنه؛ فإذا وجب ذلك

(١) راجع ١٧/١١٢. (٢) في ب: عمر بن حفص. (٣) في د.

بطاعة البنت له كان بأن يجب عليه بقدرته على المال الذي يستأجر به أولى . فأما إن بذل له المال دون الطاعة فالصحيح أنه لا يلزمه قبوله والحج به عن نفسه ولا يصير ببذل المال له مستطيعاً . وقال علماؤنا : حديث الخثعمية ليس مقصوده الإيجاب وإنما مقصوده الحث على برّ الوالدين والنظر في مصالحهما دُنْياً وديناً وجلب المنفعة إليهما جِلَّةً وشرعاً ؛ فلما رأى من المرأة أنفعالاً وطواعية ظاهرة ورغبة صادقة في برّها بأبيها وحرصاً على إيصال الخير والثواب إليه ، وتأسفت أن تفوته بركة الحج أجابها إلى ذلك . كما قال للأخرى التي قالت : إن أمِّي نذرت أن تحجّ فلم تحجّ حتى ماتت أفأحجّ عنها؟ قال : «حُجِّي عنها أَرَأَيْتِ لو كان على أمِّك دين أكنت قاضيته؟» قالت نعم . ففي هذا ما يدل على أنه من باب التطوّعات وإيصال البرّ والخيرات للأموات ؛ ألا ترى أنه قد شبه فعل الحج بالدين . وبالإجماع لو مات ميت وعليه دين لم يجب على وليّه قضاؤه من ماله ، فإن تطوّع بذلك تأدى الدين عنه . ومن الدليل على أن الحج في هذا الحديث ليس بفرض على أبيها ما صرّحت به هذه المرأة بقولها «لا يستطيع» ومن لا يستطيع لا يجب عليه . وهذا تصريح بنفي الوجوب ومنع الفريضة ؛ فلا يجوز ما أنتفى في أول الحديث قطعاً أن يثبت في آخره ظناً ؛ يحقّقه قوله : «فدين الله أحقّ أن يقضى» فإنه ليس على ظاهره إجماعاً ؛ فإن دين العبد أولى بالقضاء ، وبه يبدأ إجماعاً لفقر الآدمي وأستغناء الله تعالى ؛ قاله ابن العربي . وذكر أبو عمر بن عبد البر أن حديث الخثعمية عند مالك وأصحابه مخصوص بها . وقال آخرون : فيه اضطراب . وقال ابن وهب وأبو مصعب : هو في حق الولد خاصّة . وقال ابن حبيب : جاءت الرخصة في الحج عن الكبير الذي لا مُنْهَض له ولم يحج وعمن مات ولم يحج ، أن يحج عنه ولده وإن لم يُوصِر به ويجزئه إن شاء الله تعالى . فهذا الكلام على المعضوب وشبهه . وحديث الخثعمية أخرجه الأئمة ، وهو يرد على الحسن قوله : إنه لا يجوز حجّ المرأة عن الرجل .

الثامنة - وأجمع العلماء على أنه إذا لم يكن للمكلف قوت يتزوّد به في الطريق لم يلزمه الحج . وإن وهب له أجني ما لا يحجّ به لم يلزمه قبوله إجماعاً ؛ لما يلحقه من المنة في ذلك . فلو كان رجل وهب لأبيه ما لا فقد قال الشافعي : يلزمه قبوله ؛ لأن ابن الرجل من كسبه ولا منة عليه

في ذلك. وقال مالك وأبو حنيفة: لا يلزمه قبوله؛ لأن فيه سقوط حرمة الأبوة؛ إذ يقال: قد جَزَاه وقد وقَّاه. والله أعلم.

**التاسعة -** قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس وغيره: المعنى ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجباً. وقال الحسن البصري وغيره: إن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر. وروى الترمذي عن الحارث عن علي قال قال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً وراحلة تُبلِّغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً وذلك أن الله يقول في كتابه ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ لِإِنِّهِ سَبِيلٌ﴾. قال أبو عيسى: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال، وهلال بن عبد الله مجهول، والحارث يُضعَّف». وروي نحوه عن أبي أمامة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وعن عبد خير بن يزيد<sup>(١)</sup> عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته: «يا أيها الناس إن الله فرض عليكم الحج على من أستطاع إليه سبيلاً ومن لم يفعل فليمت على أي حال شاء إن شاء يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً إلا أن يكون به عذر من مرض أو سلطان جائر ألا نصيب له في شفاعتي ولا رُود حَوْضِي». وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «من كان عنده مال يبلغه الحج فلم يحج أو عنده مال تحلّ فيه الزكاة فلم يزكّه سأل عند الموت الرجعة». فقيل يابن عباس إنا كنا نرى هذا للكافرين. فقال: أنا أقرأ عليكم به قرآناً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾<sup>(٢)</sup>. قال الحسن بن صالح في تفسيره: فأزكي وأحج. وعن النبي ﷺ أن رجلاً سأل عن الآية فقال: «من حج لا يرجو ثواباً أو جلس لا يخاف عقاباً فقد كفر به». وروى قتادة عن الحسن قال قال عمر رضي الله عنه: لقد هممت أن أبعث رجلاً إلى الأمصار فينظرون إلى من كان له مال ولم يحج فيضربون عليه الجزية؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

(١) كذا في ب وج ود. وهو الخيواني ألهمداني، وفي ح و أ وز، عبد الله بن جبير، ولا يصح لأن عبد خير هو الذي يروي عن علي كما في ابن سعد ١٥٤/٦.

(٢) راجع ١٢٩/١٨.

قلت: هذا خرج مخرج التغليظ؛ ولهذا قال علماؤنا: تضمنت الآية أن من مات ولم يحج وهو قادر فالوعيد يتوجه عليه، ولا يجزىء أن يحج عنه غيره؛ لأن حج الغير لو أسقط عنه الفرض لسقط عنه الوعيد. والله أعلم. وقال سعيد بن جبير: لو مات جاز لي وله ميسرة ولم يحج لم أصل عليه.

[٩٨] ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾.

[٩٩] ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْعُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۚ وَمَا ٱللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي تصرفون عن دين الله ﴿مَن ءَامَنَ﴾. وقرأ الحسن «تُصدون» بضم التاء وكسر الصاد وهما لغتان في صد وأصد؛ مثل صل اللحم وأصل إذا أتن، وخم وأخم أيضاً إذا تغير. ﴿تَبْعُونَهَا عِوَجًا﴾ تطلبون لها، فحذف اللام؛ مثل ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾<sup>(١)</sup>. يقال: بغيت له كذا أي طلبته. وأبغيته كذا أي أعنته. والعوج: الميل والزيج (بكسر العين) في الدين والقول والعمل وما خرج عن طريق الاستواء. و (بالفتح) في الحائط والجدار وكل شخص قائم؛ عن أبي عبيدة وغيره. ومعنى قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّآعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾<sup>(٢)</sup> أي لا يقدر أن يعوجوا عن<sup>(٣)</sup> دعائه. وعاج بالمكان وعوج أقام ووقف. والعائج الواقف؛ قال الشاعر:

هَلْ أَنتُمْ عَٰئِجُونَ بِنَا لَعَنَآ<sup>(٤)</sup>  
نَرَى ٱلْعَرَصَاتِ<sup>(٥)</sup> أَوْ أَثَرَ ٱلْخِيَامِ

والرجل الأعوج: السيء الخلق، وهو بين العوج. والعوج من الخيل التي في أرجلها تحنيب<sup>(٦)</sup>. والأعوجية من الخيل تُنسب إلى فرس كان في الجاهلية سابقاً. ويقال: فرس مُحَنَّب إذا كان بعيد ما بين الرجلين بغير فتح، وهو مدح. ويقال: الحَنَّب أعوجاج في السَّاقَيْنِ. قال الخليل الثَّحْنِيب يوصف في الشدة، وليس ذلك بأعوجاج.

(١) راجع ٢٤٨/١٩. (٢) راجع ٢٤٦/١١.

(٣) في ح وأ: لا يقدر أن يعوجوا عن مكانه. (٤) لعنا: لغة في لعل.

(٥) العرصة: كل بقعة بين الدور ليس فيها بناء. وعرصة الدار: وسطها.

(٦) الثَّحْنِيب: الحديداب في وظيفي الفرس أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أي عقلاء. وقيل: شهداء أن في التوراة مكتوباً أن دين الله الذي لا يقبل غيره الإسلام، إذ فيه <sup>(١)</sup> نعت محمد ﷺ.

[١٠٠] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾.

نزلت في يهودي أراد تجديد الفتنه بين الأوس والخزرج بعد انقطاعها بالنبي ﷺ، فجلس بينهم وأنشدهم شعراً قاله أحد الحيين في حربهم. فقال الحي الآخر: قد قال شاعرنا في يوم كذا وكذا، فكأنهم دخلهم من ذلك شيء، فقالوا: تعالوا نردّ الحرب جذعاً كما كانت. فنادى هؤلاء: يا آل أوس. ونادى هؤلاء: يا آل خزرج؛ فأجتمعوا وأخذوا السلاح وأصطفوا للقتال فنزلت هذه الآية؛ فجاء النبي ﷺ حتى وقف بين الصّفين فقرأها ورفع صوته، فلما سمعوا صوته أنصتوا له وجعلوا يستمعون، فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً وجعلوا يبكون؛ عن عكرمة وأبن زيد وأبن عباس. والذي فعل ذلك شاس بن قيس اليهودي، دسّ على الأوس والخزرج من يذكرهم ما كان بينهم من الحروب، وأن النبي ﷺ أتاهم وذكرهم، فعرف القوم أنها نزعاً من الشيطان، وكيد من عدوهم؛ فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضاً، ثم أنصرفوا مع النبي ﷺ سامعين مطيعين؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني الأوس والخزرج. ﴿إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني شاساً وأصحابه. ﴿يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ قال جابر بن عبد الله: ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله ﷺ، فأولما إلينا بيده فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا؛ فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ، فما رأيت يوماً أقبح ولا أوحش أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم.

[١٠١] ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ

فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(١) في دوب: وأن فيه.

قاله تعالى على جهة التعجب<sup>(١)</sup>، أي ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعني القرآن. ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ محمد ﷺ. قال ابن عباس: كان بين الأوس والخزرج قتالٌ وشرٌّ في الجاهلية، فذكروا ما كان بينهم فثار بعضهم على بعض بالسيوف؛ فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ فذكر ذلك له فذهب إليهم؛ فنزلت هذه الآية ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ - إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ ويدخل في هذه الآية مَنْ لم يَرِ النَّبِيَّ ﷺ؛ لأن ما فيهم من سُنته يقوم مقام رؤيته. قال الزجاج: يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد خاصة؛ لأن رسول الله ﷺ كان فيهم وهم يشاهدونه. ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة؛ لأن آثاره وعلاماته والقرآن الذي أوتى فينا مكانَ النَّبِيِّ ﷺ فينا وإن لم نشاهده. وقال قتادة: في هذه الآية عِلْمَانِ بَيِّنَانِ: كتابُ الله ونبيُّ الله؛ فأما نبيُّ الله فقد مضى، وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهرهم رحمةً منه ونعمةً؛ فيه حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته. ﴿وَكَيْفَ﴾ في موضع نصب، وفتحت الفاء عند الخليل وسيبويه لالتقاء الساكنين، وأختير لها الفتح لأن ما قبل الفاء ياء فتقل أن يجمعوا بين ياء وكسرة. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ﴾ أي يمتنع ويتمسك بدينه وطاعته. ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾ وُفِّقَ وأرشد ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. ابن جريج ﴿يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ﴾ يؤمن به. وقيل: المعنى ومن يعتصم بالله أي يتمسك بحبل الله، وهو القرآن. يقال: أعصم به وأعتصم، وتمسك وأستمسك إذا أمتنع به من غيره. وأعتصمت فلاناً هياتُ له ما يَعْتَصِمُ به. وكل متمسك بشيء مُعَصِمٌ ومُعْتَصِمٌ. وكل مانع شيئاً فهو عاصم؛ قال الفرزدق:

أنا ابن العاصمين يني تميم إذا ما أعظمُ الحدثان نأباً

قال النابغة:

يَظَلُّ من خوفه الملاح معتصماً بالخيزُرانة بعد الأين والتَّجْدِ<sup>(٢)</sup>

(١) كذا في ب وز وح. أي التعجب والإنكار كما في الكشف.

(٢) الخيزُرانة: السكان، وهو ذنب السفينة. والأين: الفترة والأعياء، والتَّجْدِ (بالتحريك): العرق من عمل أو كرب أو غيره.



وقال آخر<sup>(١)</sup>:

فأشْرَطَ فيها نفسه وهو مُعَصِّمٌ      وألقى بأسباب له وتوَكَّلَا  
وعصمه الطعام: منع الجوع منه؛ تقول العرب: عَصَلَمَ فلاناً<sup>(٢)</sup> الطعام أي منعه من  
الجوع؛ فَكَنُوا السَّوِيْقَ بأبي عاصم لذلك. قال أحمد بن يحيى: العرب تُسَمِّي الخبز  
عاصماً وجابراً؛ وأنشد:

فلا تلوميني ولؤمي جابراً      فجابرٌ كلَّفني الهواجرَا  
ويُسمونه عامراً. وأنشد:

أبو مالك يعتادني بالظواهر      يجيء فيلقي رحله عند عامر  
أبو مالك كنية الجوع.

[١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

فيه مسألة واحدة:

روى البخاري<sup>(٣)</sup> عن مرة عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «حقُّ ثقاته أن يطاع فلا يُعصى وأن يُذكر فلا يُنسى وأن يُشكر فلا يُكفر». وقال ابن عباس: هو ألا يُعصى طرفة عين. وذكر المفسرون أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله، من يَقْوَى على هذا؟ وشق عليهم فأنزل الله عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾<sup>(٤)</sup> فنسخت هذه الآية؛ عن قتادة والزبيع وابن زيد. قال مقاتل: وليس في آل عمران من المنسوخ شيء إلا هذه الآية؛ وقيل: إن قوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ بيان لهذه الآية. والمعنى: فاتقوا الله حق ثقاته ما استطعتم، وهذا أصوب<sup>(٥)</sup>؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أولى. وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ لم تُنسخ، ولكن «حق ثقاته» أن يجاهد في [سبيل]<sup>(٦)</sup> الله حق

(١) هو أوس بن حجر. وفي «الديوان»: فأشْرَطَ فيه رأسه... وألقى بأسباب...

(٢) من د. وفي ج: عصمه. (٣) في ز، وح: النحاس، عن مرة عن يحيى عن عبد الله.

(٤) راجع ١٨/١٤٤. (٥) في ز: هذا ضرب أصوب. (٦) في د.

جهاده، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، وتقوموا بالقسط ولو على أنفسكم وأبنائكم. قال<sup>(١)</sup> النحاس: وكلما ذكر في الآية واجب على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ. وقد مضى في البقرة معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

[١٠٣] ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

فيه مسألتان:

**الأولى** - قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾ العصمة المنعة؛ ومنه يقال للبذرة: عصمة. والبذرة: الخفارة للقافلة، وذلك بأن يرسل معها من يحميها ممن يؤذيها. قال ابن خالويه: البذرة ليست بعربية وإنما هي كلمة فارسية عربتها العرب؛ يقال؛ بعث السلطان بذرة مع القافلة.

والحبل لفظ مشترك، وأصله في اللغة السبب الذي يوصل به إلى البغية والحاجة. والحبل: حبل العاتق<sup>(٣)</sup>. والحبل: مستطيل من الرمل؛ ومنه الحديث<sup>(٤)</sup>: والله ما تركت من حبل إلا وقفْتُ عليه، فهل لي من حج؟ والحبل الرسن. والحبل العهد؛ قال الأعشى:

وَإِذَا تُجَوِّزُهَا جِبَالَ قَبِيلَةٍ      أَخَذْتُ مِنَ الْأُخْرَى إِلَيْكَ جِبَالَهَا

يريد الأمان. والحبل الداهية؛ قال كثير<sup>(٥)</sup>:

فَلَا تَعْجَلِي يَا عَرُّ أَنْ تَنْهَهِي      بِنُصْحِ أَتَى الْوَاشُونَ أَمْ بِحُبُولِ

(١) في د: قاله.

(٢) راجع ١٣٤/٢.

(٣) حبل العاتق وصل ما بين العاتق والمنكب.

(٤) حديث عروة بن مضر: أتيتك من جبلي طيء.

(٥) في الأصول: «ليد». والتصويب عن اللسان وشرح القاموس مادة «حبل».

وَالْحِبَالَةَ<sup>(١)</sup>: حِبَالَةُ الصَّائِدِ. وكلها ليس مراداً في الآية إلا الذي بمعنى العهد؛ عن ابن عباس. وقال ابن مسعود: حبل الله القرآن. ورواه عليّ وأبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ، وعن مجاهد وقتادة مثل ذلك. وأبو معاوية عن الهجري<sup>(٢)</sup> عن أبي الأحوص عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ». وروى ثقي بن مخلد حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا هشيم عن العوام بن حوشب عن الشعبي عن عبد الله بن مسعود ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ قال: الجماعة؛ روي عنه و [عن غيره]<sup>(٣)</sup> من وجوه، والمعنى كله متقارب مُتَدَاخِل؛ فإن<sup>(٤)</sup> الله تعالى يأمر بالألقة وينهى عن الفُرقة فإن الفرقه هلكة والجماعة نجاة. ورحم الله ابن المبارك حيث قال:

إِنَّ الْجَمَاعَةَ حَبْلُ اللَّهِ فَأَعْتَصِمُوا مِنْهُ بِعُزْوَتِهِ الْوُثْقَى لِمَنْ دَانَا

**الثانية -** قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [يعني في دينكم]<sup>(٥)</sup> كما أفرقت اليهود والنصارى في أديانهم؛ عن ابن مسعود وغيره. ويجوز أن يكون معناه ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخواناً؛ فيكون ذلك منعاً لهم عن التقاطع والتدابير؛ ودل عليه ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾. وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع؛ فإن ذلك ليس اختلافاً إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع، وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب<sup>(٦)</sup> استخراج الفرائض ودقائق معاني الشرع؛ وما زالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث، وهم مع ذلك متآلفون<sup>(٧)</sup>. وقال رسول الله ﷺ: «أختلاف أمتي رحمة» وإنما منع الله اختلافاً هو سبب الفساد. روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً». قال الترمذي: هذا حديث صحيح. وأخرجه أيضاً عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «لَيَأْتِينَ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى

(١) في ج: حبال، والتصويب من د، واللسان وغيره. (٢) الهجري: بهاء وجيم مفتوحين، نسبة إلى هجر. وهو إبراهيم بن مسلم العدي. عن «تهذيب التهذيب». (٣) الزيادة في ب. (٤) ود: فإن كتاب الله. (٥) الزيادة في د. (٦) في د: سبب لاستخراج. (٧) في د: متواصلون.

على بني إسرائيل حَذَوُ النعل بالنعل حتى لو كان منهم من يأتي أمه علانية لكان من أمتي من يصنع ذلك وإن بني إسرائيل تفرقت أثنتين وسبعين ملة وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي». أخرجه من حديث عبد الله بن زياد الأفريقي، عن عبد الله بن يزيد عن ابن عمر. وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال أبو عمر: وعبد الله الأفريقي ثقة وثقه قومه وأثنوا عليه، وضعفه آخرون. وأخرجه أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان عن النبي ﷺ: «قال ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب أفرقوا على أثنتين وسبعين ملة وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة وإنه سيخرج من أمتي أقوامٌ تجاري بهم تلك الأهواء كما يتجاري الكلب<sup>(١)</sup>» بصاحبه لا ينفق منه عرق ولا مفصل إلا دخله. وفي سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مات واللّه عنه راض». قال أنس: وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث وأختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما نزل، يقول الله: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ قال: خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال في آية أخرى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾<sup>(٣)</sup>. أخرجه عن نصر بن علي الجهضمي عن أبي أحمد عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أنس. قال أبو الفرج الجوزي: فإن قيل هذه الفرق معروفة؛ فالجواب أنا نعرف الافتراق وأصول الفرق وأن كل طائفة من الفرق أنقسمت إلى فرق؛ وإن لم نحط بأسماء تلك الفرق ومذاهبها، فقد ظهر لنا من أصول الفرق الحرورية والقدرية والجهمية والمزجئة والرافضة والجبرية. وقال بعض أهل العلم: أصل الفرق الضالة هذه الفرق الست، وقد أنقسمت كل فرقة منها اثنتي عشرة فرقة، فصارت اثنتين وسبعين فرقة.

(١) «الكلب (بالتحريك): داء يعرض للإنسان من عض الكلب الكلب فيصبيه شبه الجنون، فلا يعرض أحداً إلا كلب، وتعرض له أعراض رديئة، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشاً.

(٢) راجع ٧٤/٨، و ٨٠.

انقسمت الحرورية أنتمي عشرة<sup>(١)</sup> فرقة؛ فأولهم الأزرقيّة - قالوا: لا نعلم أحداً مؤمناً؛ وكفروا أهل القبلة إلا من دان بقولهم. والأباضية - قالوا: من أخذ بقولنا فهو مؤمن، ومن أعرض عنه فهو منافق<sup>(٢)</sup>. والثعلبية - قالوا: إن الله عز وجل لم يقصّ ولم يُقدّر. والخازمية - قالوا: لا ندري ما الإيمان، والخلق كلهم معذرون. والخلفيّة - زعموا أن من ترك الجهاد من ذكر أو أنثى كفر. والكوزية<sup>(٣)</sup> - قالوا: ليس لأحد أن يمسّ أحداً لأنه لا يعرف الطاهر من النجس ولا أن يؤاكله حتى يتوب ويغتسل. والكنزيّة - قالوا: لا يسع أحداً أن يُعطي ماله أحداً؛ لأنه ربما لم يكن مستحقاً بل يكنزه في الأرض حتى يظهر أهل الحق. والشمراخية - قالوا: لا بأس بمسّ النساء الأجانب لأنهن<sup>(٤)</sup> رياحين. والأخنسية - قالوا: لا يلحق الميت بعد موته خير ولا شر. والحكميّة - قالوا: من حاكم إلى مخلوق فهو كافر. والمعتزلة<sup>(٥)</sup> - قالوا: أشبه علينا أمر عليّ ومعاوية فنحن نتبرأ من الفريقين. والميمونية - قالوا: لا إمام إلا برضا أهل محبتنا.

وانقسمت القدرية أنتمي عشرة فرقة: الأهرية - وهي التي زعمت أن في شرط العدل من الله أن يملك عباده أمورهم، ويحول بينهم وبين معاصيهم. والثنوية - وهي التي زعمت أن الخير من الله والشر من الشيطان. والمعتزلة<sup>(٥)</sup> - وهم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا [صفات<sup>(٦)</sup>] الربوبية. والكيسانية - وهم الذين قالوا: لا ندري هذه الأفعال من الله أو من العباد، ولا نعلم أيثاب الناس بعد أو يعاقبون. والشيطانية - قالوا: إن الله تعالى لم يخلق الشيطان. والشريكية - قالوا: إن السيئات كلها مقدرة إلا الكفر. والوهمية - قالوا: ليس لأفعال الخلق وكلامهم ذات، ولا للحسنة والسيئة ذات. والزُّبرية<sup>(٧)</sup> - قالوا: كل كتاب نزل من عند الله فالعمل به حق، ناسخاً كان أو منسوخاً. والمسعدية<sup>(٨)</sup> - زعموا

(١) لم نعثر في المظان لذكر بعض من الفرق الآتية.

(٢) الإباضية يقولون: من دان لله بما بلغ إليه من الإسلام وعمل به، فهو ناج ما لم يهدم ركناً من الدين أو يرتطم في الخطية، وليسوا حرورية.

(٣) في جـ وأ: «الكروية» براء وواو وفي ز: الكدرية.

(٤) في الأصول: لأنهم. (٥) كذا في الأصول: كلها وليس في غير القدرية معتزلة.

(٦) الزيادة في: ز. (٧) في ب ود وو: الزبوندية. (٨) في د وب وو: المتبرية.

أن من عصى ثم تاب لم تقبل توبته. والناكثية - زعموا أن من نكث ببيعة رسول الله ﷺ فلا إثم عليه. والقاسطية - تبعوا إبراهيم بن النظام في قوله: من زعم أن الله شيء فهو كافر<sup>(١)</sup>. وأنقسمت الجهمية أثنتي عشرة فرقة: المعطلة - زعموا أن كل ما يقع عليه وهم الإنسان فهو مخلوق، وأن من أدعى أن الله يرى فهو كافر. والمريسية - قالوا: أكثر صفات الله تعالى مخلوقة. والملتزقة - جعلوا الباري سبحانه في كل مكان. والواردية - قالوا لا يدخل النار من عرف ربه، ومن دخلها لم يخرج منها أبداً. والزنادقة<sup>(٢)</sup> - قالوا: ليس لأحد أن يثبت لنفسه رباً؛ لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس، وما لا يُدرك لا يثبت. والحزقية - زعموا أن الكافر تحرقه النار مرة واحدة ثم يبقى محترقاً أبداً لا يجد حرّ النار. والمخلوقية؛ زعموا أن القرآن مخلوق. والفانية - زعموا أن الجنة والنار يفنيان، ومنهم من قال لم يُخلقا. والعبدية<sup>(٣)</sup> - جحدوا الرسل وقالوا إنما هم حكماء. والواقفية؛ قالوا: لا نقول إن القرآن مخلوق ولا غير مخلوق. والقبرية - ينكرون عذاب القبر والشفاعة. واللفظية - قالوا: لفظنا بالقرآن مخلوق.

وانقسمت المرجئة أثنتي عشرة فرقة: التاركية - قالوا ليس لله عز وجل خلقه فريضة سوى الإيمان به، فمن آمن به فليفعل ما شاء. والسائية - قالوا: إن الله تعالى سيب خلقه ليفعلوا ما شاءوا. والراجية - قالوا: لا يُسمى الطائع طائعاً ولا العاصي عاصياً، لأننا لا ندري ما له عند الله تعالى. والسالية<sup>(٤)</sup> - قالوا: الطاعة ليست من الإيمان. والبهشية<sup>(٥)</sup> - قالوا: الإيمان علمٌ ومن لا يعلم الحق من الباطل والحلال من الحرام فهو كافر. والعملية - قالوا: الإيمان عملٌ. والمنقوصية - قالوا: الإيمان لا يزيد ولا ينقص. والمستثنية - قالوا: الاستثناء من الإيمان. والمشبّهة - قالوا: بصّر كبصر ويدّ كيد<sup>(٦)</sup>. والحشوية - قالوا<sup>(٧)</sup>: حكم الأحاديث كلها واحد؛ فعندهم أن تارك النفل كتارك الفرض. والظاهرية - الذين نفوا القياس. والبذعية - أول من ابتدع هذه الأحداث في هذه الأمة.

(١) في أ: ليس بكافر. (٢) في ب، و، د: «الزيارة». (٣) في ب، د، و: «العبرية».

(٤) في د: الشاكية. (٥) في ب، و، ز: «البيهشية» وفي د: «البيسية».

(٦) كذا في الأصول، وفيه سقط واضح لعله: قالوا لله بصر. (٧) في ب: جعلوا.

وأنقسمت الرافضة اثنتي عشرة فرقة: العلوية - قالوا: إن الرسالة كانت إلى عليٍّ وإن جبريل أخطأ. والأميرية - قالوا: إن عليًّا شريك محمد في أمره. والشيعية - قالوا: إن عليًّا رضي الله عنه وصي رسول الله ﷺ وولَّيَّه من بعده، وإن الأمة كفرت بمبايعة غيره. والإسحاقية - قالوا: إن النبوة متصلة إلى يوم القيامة، وكلٌّ مَنْ يعلم علم أهل البيت فهو نبيٌّ. والناووسية - قالوا: عليٌّ أفضل الأمة، فمن فضّل غيره عليه فقد كفر. والإمامية - قالوا: لا يمكن أن تكون الدنيا بغير إمام من ولد الحسين، وإن الإمام يعلمه جبريل عليه السلام، فإذا مات بدّل غيره مكانه. والزيدية - قالوا: ولد الحسين كلهم أئمة في الصلوات، فمتى وُجد منهم أحد لم تجز الصلاة خلف غيره، برّهم وفاجرهم. والعباسية - زعموا أن العباس كان أولى بالخلافة من غيره. والتناسخية - قالوا: الأرواح تتناسخ؛ فمن كان مُحسناً خرجت روحه فدخلت في خلق يسعد بعيشه. والرّجعية - زعموا أن عليًّا وأصحابه يرجعون إلى الدنيا، وينتقمون من أعدائهم. واللاعنة<sup>(١)</sup> - يلعنون عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وأبا موسى وعائشة وغيرهم. والمترتبة - تشبهوا بزيّ السّاك ونصبوا في كل عصر رجلاً ينسبون إليه الأمر، يزعمون أنه مهديٌّ هذه الأمة، فإذا مات نصبوا آخر.

ثم أنقسمت الجبرية اثنتي عشرة فرقة: فمنهم المضطربة<sup>(٢)</sup> - قالوا: لا فعل للآدمي، بل الله يفعل الكل. والأفعالية - قالوا: لنا أفعال ولكن لا أستطاعة لنا فيها. وإنما نحن كالبهائم نقاد بالحبل. والمفروغية - قالوا: كل الأشياء قد خلقت، والآن لا يُخلق شيء. والتجارية - زعمت أن الله تعالى يعذب الناس على فعله لا على فعلهم. والمتأنيّة - قالوا: عليك بما يخطر بقلبك، فأفعل ما توسّمت منه الخير. والكسبية - قالوا: لا يكتسب العبد ثواباً ولا عقاباً. والسابقية - قالوا: من شاء فليعمل ومن شاء [فـ]لا<sup>(٣)</sup> يعمل، فإن السعيد لا تضربه ذنوبه والشقي لا ينفعه برّه. والحيّة - قالوا: من شرب كأس محبة الله تعالى سقطت عنه عبادة الأركان. والخوفية - قالوا: من أحب الله تعالى لم يسعه أن يخافه؛ لأن الحبيب لا يخاف حبيبه. والفكرية<sup>(٤)</sup> - قالوا: من أزداد علماً أسقط عنه بقدر ذلك من العبادة.

(١) في د: اللاعنية. (٢) كذا في ب، وفي الأصول الأخرى المضطربة.

(٣) كذا في د، وفي غيرها من الأصول: من شاء فليعمل ومن شاء لم يفعل.

(٤) في ب، هـ، د، و، وفي ز، ح، أ: الفكرية، وفي ج: التكرية. وفي د: أسقط. وفي سائر الأصول سقط.

والخشبية<sup>(١)</sup> - قالوا: الدنيا بين العباد سواء، لا تفاضل بينهم فيما ورثهم أبوهي آدم. والمنية<sup>(٢)</sup> - قالوا: منا الفعل ولنا الاستطاعة. وسيأتي بيان الفرقة التي زادت في هذه الأمة في آخر سورة «الأنعام»<sup>(٣)</sup> إن شاء الله تعالى. وقال ابن عباس لسماك الحنفي: يا حنفي، الجماعة الجماعة! فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها؛ أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»<sup>(٤)</sup> ويكره لكم ثلاثاً قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال. فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً؛ وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين، والسلامة من الاختلاف، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين. هذا معنى الآية على التمام، وفيها دليل على صحة الإجماع حسبما هو مذكور في موضعه من أصول الفقه والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾. أمر تعالى بتذكر نعمه وأعظمها الإسلام وأتباع نبيه محمد عليه السلام؛ فإن به زالت العداوة والفرقة وكانت المحبة والألفة. والمراد الأوس والخزرج؛ والآية تعم. ومعنى ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ أي صرتم بنعمة الإسلام إخواناً في الدين. وكل ما في القرآن «أصبحتم» معناه صرتم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾<sup>(٥)</sup> أي صار غائراً. والإخوان جمع أخ، وسُمِّيَ أخاً لأنه يتوخى مذهب أخيه، أي يقصده. وشفا كل شيء حرفه، وكذلك شفيره ومنه قوله تعالى: ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾<sup>(٦)</sup>. قال الرازي:

نحن حفرنا للحجيج سَجَلَةً<sup>(٧)</sup> نابتة فوق شفاها بقله

(١) في ج: وز: «الحشية» بالحاء المهملة، وفي ب: الخشبية. وفي أ: «الحشية» بالياء المثناة من تحت والشين. وفي د: الحسية. (٢) في ب وهـ ود وز: «المعية» بالعين. (٣) راجع: ١٤١/٧. (٤) سقط من النسخ: «وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم». (٥) راجع ٢٢٢/١٨. (٦) راجع ٢٦٤/٨. (٧) السجلة: الدلو الضخمة المملوءة ماء. والمراد هنا البئر.



وَأَشْفَى عَلَى الشَّيْءِ أَشْرَفَ عَلَيْهِ؛ وَمَنْ أَشْفَى الْمَرِيضَ عَلَى الْمَوْتِ. وَمَا بَقِيَ مِنْهُ إِلَّا شَفَاءُ  
أَيِّ قَلِيلٍ. قَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ: يُقَالُ لِلرَّجُلِ عِنْدَ مَوْتِهِ وَلِلْقَمَرِ عِنْدَ أَمَحَاقِهِ وَلِلشَّمْسِ عِنْدَ  
غُرُوبِهَا: مَا بَقِيَ مِنْهُ إِلَّا شَفَاءُ أَيِّ قَلِيلٍ. قَالَ الْعَجَّاجُ:

وَمَزَبًا عَالٍ لِمَنْ تَشَرَّفَا      أَشْرَفْتُهُ بَلَا شَفَى أَوْ بَشَفَى

قوله «بلا شفى» أي غابت الشمس. «أو بشفى» وقد بقيت منها بقية. وهو من ذوات  
الياء، وفيه لغة أنه من الواو. وقال النحاس: الأصل في شفا شَفَوُ، ولهذا يكتب بالألف  
ولا يمال. وقال الأخفش: لما لم تُجْز فيه الإمالة عُرف أنه من الواو؛ ولأن الإمالة بين  
الياء، وتثنيته شَفَوَان. قال المَهْدَوِيُّ: وهذا تمثيل يراد به خروجهم من الكفر إلى الإيمان.

[١٠٤] ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ  
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قد مضى القول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه السورة<sup>(١)</sup>.  
و «من» في قوله «منكم» للتبويض، ومعناه أن الأمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل  
الناس علماء. وقيل: لبيان الجنس، والمعنى لتكونوا كلكم كذلك.

قلت: القول الأول أصح؛ فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن  
المنكر فرض على الكفاية، وقد عيّنهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي  
الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾<sup>(٢)</sup> الآية. وليس كل الناس مكّنوا. وقرأ ابن الزبير: «وَلَتَكُنْ  
مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَسْتَعِينُونَ اللَّهَ عَلَى  
مَا أَصَابَهُمْ». قال أبو بكر الأنباري: وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، وكلام من  
كلامه غلط فيه بعض الناقليين<sup>(٣)</sup>، فالحق بالفاظ القرآن؛ يدل على صحة ما أضيف  
الحديث الذي حدّثه أبي حدّثنا [حسن] <sup>(٤)</sup> بن عرفة حدّثنا وكيع عن أبي عاصم عن  
أبي عون<sup>(٥)</sup> عن صبيح قال: سمعت عثمان بن عفان يقرأ «ويأمرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ  
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَسْتَعِينُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ» فما يشك عاقل في أن عثمان لا يعتقد<sup>(٥)</sup>

(١) راجع ص ٤٦. (٢) راجع ٧٢/١٢. (٣) في هـ: الغافلين.

(٤) في ب، د، هـ وفيها: أبي عوف. (٥) في ب، د، هـ: لا يعتقد.

هذه الزيادة من القرآن؛ إذ لم يكتبها في مصحفه الذي هو إمام المسلمين، وإنما ذكرها واعظاً بها ومؤكداً ما تقدمها من كلام رب العالمين جل وعلا.

[١٠٥] ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

يعني اليهود والنصارى في قول جمهور المفسرين. وقال بعضهم: هم المبتدعة من هذه الأمة. وقال أبو أمامة: هم الخزورية؛ وتلا الآية. وقال جابر بن عبد الله: ﴿الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ اليهود والنصارى. «جاءهم» مذكر على الجمع، وجاءتهم على الجماعة.

[١٠٦] ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

[١٠٧] ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِهِ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعني يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة ووجوه الكافرين مسودة. ويقال: إن ذلك عند قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه فرأى في كتابه حسناته استبشر وأبيض وجهه، وإذا قرأ الكافر والمنافق كتابه فرأى فيه سيئاته أسود وجهه. ويقال: إن ذلك عند الميزان إذا رجحت حسناته أبيض وجهه، وإذا رجحت سيئاته أسود وجهه. ويقال: ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَرَأَوْنَ الْيَوْمَ أَيْهَا الْمُجْرِمُونَ﴾<sup>(١)</sup>. ويقال: إذا كان يوم القيامة يؤمر كل فريق بأن يجتمع إلى معبوده، فإذا أنتهوا إليه حزنوا وأسودت وجوههم، فيبقى المؤمنون وأهل الكتاب والمنافقون؛ فيقول الله تعالى للمؤمنين: «من ربكم؟» فيقولون: ربنا الله عز وجل. فيقول لهم: «أتعرفونه إذا رأيتموه». فيقولون: سبحانه! إذا أعترف عرفناه<sup>(٢)</sup>. فيرونه كما شاء الله.

(١) راجع ٤٦/١٥. (٢) هذه عبارة ابن الأثير، أي إذا وصف نفسه بصفة تحققه بها عرفناه، في ب: إذا عرفناه عرفناه، وفي هـ: إذا عرفناه عرفنا. وفي د: إذا رأيناه عرفناه.

فِيخَرَّ الْمُؤْمِنُونَ سُجَّدًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَتَصِيرُ وُجُوهُهُمْ مِثْلَ ثُلُجٍ بَيَاضًا، وَيَبْقَى الْمَنَافِقُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى السُّجُودِ فَيَحْزَنُوا وَتَسْوَدُّ وُجُوهُهُمْ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾. وَيَجُوزُ «تَبْيَضُّ وَتَسْوَدُّ» بِكَسْرِ التَّائِيْنِ؛ لِأَنَّكَ تَقُولُ: أَبْيَضْتُ، فَتَكْسِرُ التَّاءَ كَمَا تَكْسِرُ الْأَلْفَ، وَهِيَ لُغَةٌ تَمِيمٌ وَبِهَا قَرَأَ يَحْيَى بْنُ وَثَابٍ. وَقَرَأَ الزَّهْرِيُّ «يَوْمَ تَبْيَاضُ وَتَسْوَدُّ» وَيَجُوزُ كَسْرُ التَّاءِ أَيْضًا، وَيَجُوزُ «يَوْمَ يَبْيَضُ وَجْهُ» بِبَالَاءِ عَلَى تَذْكِيرِ الْجَمْعِ، وَيَجُوزُ «أَجْوَ» مِثْلَ «أَقْتٌ». وَأَبْيَضَاضُ الْوُجُوهِ إِشْرَاقُهَا بِالنَّعِيمِ. وَأَسْوَدَادُهَا هُوَ مَا يَرَهَقُهَا مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

الثانية - وأختلفوا في التعيين؛ فقال ابن عباس: تَبْيَضُّ وَجْهُ أَهْلِ السَّنَةِ وَتَسْوَدُّ وَجْهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ.

قلت: وقول ابن عباس هذا رواه مالك بن سليمان الهروي أخو غسان عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال: «يعني تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة» ذكره أبو بكر<sup>(١)</sup> أحمد بن علي بن ثابت الخطيب. وقال فيه: منكر من حديث مالك. قال عطاء تبيض وجوه المهاجرين والأنصار، وتسود وجوه بني قريظة والنضير. وقال أبي بن كعب: الذين أسودت وجوههم هم الكفار، وقيل لهم: أكفرتم بعد إيمانكم لإقراركم حين أخرجتم من ظهر آدم كالذّر. هذا اختيار الطبري. الحسن: الآية في المنافقين. قتادة هي في المرتدين. عكرمة: هم<sup>(٢)</sup> قوم من أهل الكتاب كانوا مصدّقين بأنبيائهم مصدّقين بمحمد ﷺ قبل أن يبعث فلما بُعث عليه السلام كفروا به؛ فذلك قوله: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. وهو اختيار الزجاج. مالك بن أنس: هي في أهل الأهواء. أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ: هي في الحرورية. وفي خبر آخر أنه عليه السلام قال: «هي في القدرية». روى الترمذي عن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوساً منصوبة على باب دمشق<sup>(٣)</sup>، فقال

(١) كذا في د وب وه وفي ز: أبو بكر محمد. (٢) في ه ود: هؤلاء قوم.

(٣) في صحيح الترمذي: «على درج مسجد دمشق»، في د وه: على برج دمشق.

أبو أمامة : كلابُ النار شرُّ قتلى تحت أديم السماء ، خيرُ قتلى من قتلوه - ثم قرأ - ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية . قلت لأبي أمامة : أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال : لو لم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً - حتى عدّ سبعا - ما حدثتكموه . قال : هذا حديث حسن . وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ : «إني فرطكم» <sup>(١)</sup> على الحوض من مرّ عليّ شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً ليردّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم» . قال أبو حازم <sup>(٢)</sup> : فسمعتي الثّعمان بن أبي عياش فقال : أهكذا سمعت من سهل بن سعد ؟ فقلت نعم . فقال : أشهد على أبي سعيد الخدريّ لسمعته وهو يزيد فيها : « فأقول إنهم منّي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سحقاً سحقاً لمن غير بعدي» . وعن أبي هريرة أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال : «يرد عليّ الحوض يوم القيامة رهطاً من أصحابي فيجّلون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدّوا على أديبارهم القهقري » . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . فمن بدّل أو غير أو ابتدّع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرّودين عن الحوض المبتّعين منه المسوّديّ الوجوه ، وأشدّهم طرداً وإبعاداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم ؛ كالخوارج على اختلاف فِرَقها ، والرّوافض على تباين ضلالها ، والمعتزلة على أصناف أهوائها ؛ فهؤلاء كلهم مبدّلون ومبتدّعون ، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله وإذلالهم ، والمعلنون بالكبائر المستخفّون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزّينج والأهواء والبدع ؛ كلّ يخاف عليهم أن يكونوا عُنوا بالآية ، والخبر كما بيّنا ، ولا يخلد في النار إلا كافر جاحد ليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان . وقد قال ابن القاسم : وقد يكون من غير أهل الأهواء من هو شرُّ من أهل الأهواء . وكان يقول : تمام الإخلاص تجنّب المعاصي .

(١) الفرط (بفتح الحاء) : الذي يتقدم الواردين ليصلح لهم الحياض .

(٢) أبو حازم هو سلمة بن دينار ، أحد رجال سند هذا الحديث .

الثالثة - قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ في الكلام حذف، أي فيقال لهم ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ﴾ يعني يوم الميثاق حين قالوا بلى. ويقال: هذا لليهود وكانوا مؤمنين بمحمد ﷺ قبل أن يبعث فلما بعث كفروا به. وقال أبو العالية: هذا للمنافقين، يقال<sup>(١)</sup>: «أكفرتم في السر»<sup>(٢)</sup> بعد إقراركم في العلانية. وأجمع أهل العربية على أنه لا بد من الفاء في جواب «أما» لأن المعنى في قولك: «أما زيد فمنطلق، مهما يكن من شيء فزيد منطلق». وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ هؤلاء أهل طاعة الله عز وجل والوفاء بعهده. ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي في جنته ودار كرامته خالدون باقون. جعلنا الله منهم وجنبا طرق البدع والضلالات، ووفقنا لطريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات. آمين.

[١٠٨] ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾.

[١٠٩] ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ ابتداء وخبر، يعني القرآن. ﴿تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يعني ننزل عليك جبريل فيقرؤها عليك. ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق. وقال الزجاج: «تلك آيات الله» المذكورة حُجِّجَ الله ودلائله. وقيل: «تلك» بمعنى هذه ولكنها لما أنقضت صارت كأنها بَعُدَتْ فَقِيلَ «تلك» ويجوز أن تكون «آيات الله» بدلا من «تلك» ولا تكون نعتا؛ لأن المُنْبَهَمَ لا ينعت بالمضاف. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني أنه لا يعذبهم بغير ذنب. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قال المهدوي: وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لا يريد ظلما للعالمين، وصله بذكر اتساع قدرته وغناه عن الظلم لكون ما في السموات وما في الأرض [في قبضته، وقيل: هو ابتداء كلام، بين لعباده أن جميع ما في السموات وما في الأرض]<sup>(٣)</sup> له حتى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره.

(١) في د وب وه: يقول.

(٢) في د وه وب: مع.

(٣) الزيادة من نسخ: د.

[١١٠] ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى - روى الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «أنتم تُتَمَوْنَ سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها عند الله». وقال: هذا حديث حسن. قال أبو هريرة: نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام. وقال ابن عباس: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وشهدوا بدراً والحديبية. وقال عمر بن الخطاب: من فعل فعلهم كان مثلهم. وقيل: هم أمة محمد ﷺ، يعني الصالحين منهم وأهل الفضل. وهم الشهداء على الناس يوم القيامة؛ كما تقدّم في البقرة<sup>(١)</sup>. وقال مجاهد: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ على الشرائط المذكورة في الآية. وقيل معناه [كنتم]<sup>(٢)</sup> في اللوح المحفوظ. وقيل: كنتم مُدَّ آنتم خير أمة. وقيل: جاء ذلك لتقدّم البشارة بالنبي ﷺ وأُمَّته. فالمعنى كنتم عند من تقدّمكم من أهل الكتب خير أمة. وقال الأخفش: يريد أهل أمة، أي خير أهل دين؛ وأنشد:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً      وهل يَأْتَمَنُ ذو أُمَّةٍ وهو طائعُ<sup>(٣)</sup>

وقيل: هي كان التامة؛ والمعنى خُلِقْتُمْ وُجِدْتُمْ خير أمة. «فخير أمة» حال. وقيل: كان زائدة، والمعنى أنتم خير أمة. وأنشد سيويه:

وجيران لنا كانوا كرام<sup>(٤)</sup>

(١) راجع ١٥٤/٢.

(٢) الزيادة في د وب.

(٣) البيت للناطقة الذبياني، أمة بالضم والكسر: ذو أمة: ذو دين وأستقامة، والأمة: النعمة.

(٤) هذا عجز بيت للفرزدق. وصدره:

ومثله قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُنَكِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾<sup>(١)</sup>. وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. وقال في موضع آخر: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾<sup>(٣)</sup>. وروى سفيان عن ميسرة الأشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» قال: تجزّون الناس بالسلاسل إلى الإسلام. قال النحاس: والتقدير على هذا كنتم للناس خير أمة. وعلى قول مجاهد: كنتم خير أمة إذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر. وقيل: إنما صارت أمة محمد ﷺ خير أمة لأن المسلمين منهم أكثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى. فقيل: هذا لأصحاب رسول الله ﷺ؛ كما قال ﷺ: «خير الناس قرني» أي الذين بعثت فيهم.

**الثانية -** وإذا ثبت بنصّ التنزيل أن هذه الأمة خير الأمم؛ فقد روى الأئمة من حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». [الحديث]<sup>(٣)</sup> وهذا يدل على أن أول هذه الأمة أفضل ممن بعدهم، وإلى هذا ذهب معظم العلماء، وأن من صحب النبي ﷺ ورآه ولو مرة في عمره أفضل ممن يأتي بعده، وأن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل.

وذهب أبو عمر بن عبد البرّ إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة، وأن قوله عليه السلام: «خير الناس قرني» ليس على عمومته بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول. وقد جمع قرنه جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان وأهل الكبائر الذين أقام عليهم أو على بعضهم الحدود، وقال لهم: ما تقولون في السارق والشارب والزاني. وقال مؤاجهة لمن هو في قرنه: «لا تسبوا أصحابي». وقال لخالد بن الوليد في عمار: «لا تسب من هو خير منك» وروى أبو أمامة أن النبي ﷺ قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى سبع مرات لمن لم يرني وآمن بي». وفي مسند أبي داود الطيالسي عن محمد بن أبي حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال: كنت جالسا عند رسول الله ﷺ فقال: «أندرون أي الخلق أفضل إيمانا» قلنا

(١) راجع ١١/١٠١. (٢) راجع ٧/٢٤٩، و ٣٩٤.

(٣) الزيادة من هود وب. في د وب: من كل من يأتي.

الملائكة. قال: «وَحَقَّ لَهُمْ بَلْ غَيْرُهُمْ» قلنا الأنبياء. قال: «وَحَقَّ لَهُمْ بَلْ غَيْرُهُمْ» ثم قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ الْخَلْقِ إِيْمَانًا قَوْمٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرُونِي يَجِدُونَ رِقًا فَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهَا فَهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ إِيْمَانًا». وروى صالح بن جبيرة عن أبي جُمُعَةَ قال: قلنا يا رسول الله، هل أحد خير منا؟ قال: «نعم قوم يَجِئُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ فَيَجِدُونَ كِتَابًا بَيْنَ لَوْحَيْنِ فَيُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهِ وَيُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرُونِي». وقال أبو عمر: وأبو جمعة له صحبة وأسمه حبيب بن سباع، وصالح بن جبيرة من ثقات التابعين. وروى أبو ثعلبة الخشني عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنْ أَمَامَكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهَا عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهَا أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ» قيل: يا رسول الله، منهم؟ قال: «بَلْ مِنْكُمْ». قال أبو عمر: وهذه اللفظة «بَلْ مِنْكُمْ» قد سكت عنها بعض المحدثين فلم يذكرها. وقال عمر بن الخطاب في تأويل قوله: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» قال: من فعل مثل فعلكم كان مثلكم. ولا تعارض بين الأحاديث؛ لأن الأول على الخصوص، والله الموفق.

وقد قيل: في توجيه أحاديث هذا الباب: إن قرنه إنما فُضِّلَ لأنهم كانوا غُرباء في إيمانهم لكثرة الكفار وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم، وإن أواخر هذه الأمة إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشر والفسق والهرج والمعاصي والكبائر كانوا عند ذلك أيضاً غُرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الوقت كما زكت أعمال أوائلهم، و[مما]<sup>(١)</sup> يشهد لهذا قوله عليه السلام: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ». ويشهد له أيضاً حديث أبي ثعلبة، ويشهد له أيضاً قوله ﷺ: «أُمَّتِي كَالْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ». ذكره أبو داود الطيالسي وأبو عيسى الترمذي، ورواه هشام بن عبيد الله الرازي عن مالك عن الزهري عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «مِثْلُ أُمَّتِي مِثْلُ الْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ». ذكره الدارقطني في مسند حديث مالك. قال أبو عمر: هشام بن عبيد الله ثقة لا يختلفون في ذلك. وروي أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة كتب إلى سالم بن عبد الله أن يكتب إلي بسيرة عمر بن الخطاب



لأعمل بها؛ فكتب إليه سالم: إن عملت بسيرة عمر؛ فأنت أفضل من عمر لأن زمانك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر. قال: وكتب إلى فقهاء زمانه، فكلهم كتب إليه بمثل قول سالم. وقد عارض بعض الجِلَّة من العلماء قوله ﷺ: «خير الناس قرني» بقوله ﷺ: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله وشُرُّ الناس من طال عمره وساء عمله». قال أبو عمر: فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها التسوية بين أول هذه الأمة وآخرها. والمعنى في ذلك ما تقدّم ذكره من الإيمان والعمل الصالح في الزمان الفاسد الذي يرفع فيه من أهل العلم والدين، ويكثر فيه الفسق والهَرَج، ويُدَلُّ المؤمنُ ويُعَرَّ الفاجر ويعود الدين غريباً كما بدأ غريباً ويكون القائمُ فيه كالقابض على الجمر، فيستوي حينئذ أول هذه الأمة بآخرها في فضل العمل إلا أهل بدر والحُدَيْبية، ومن تدبّر آثار هذا الباب بان له الصواب<sup>(١)</sup>، والله يؤتي فضله من يشاء.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك وأنصفوا به. فإذا تركوا التغيير وتواطأوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سبباً لهلاكهم. وقد تقدّم الكلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أول السورة<sup>(٢)</sup>.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أخبر أن إيمان أهل الكتاب بالنبي ﷺ خيرٌ لهم، وأخبر أن منهم مؤمناً وفاسقاً، وأن الفاسق أكثر.

[١١١] ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَلَئِنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَلَئِنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَلَئِنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ يعني كذبهم وتحريفهم وبُهْتهم؛ لأنه تكون لهم الغلبة؛ عن الحسن وقتادة. فلاستثناء متّصل، والمعنى لن يضرّوكم إلا ضرراً يسيراً؛ فوقع الأذى موقع المصدر. فالآية وعد من الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين، أن أهل الكتاب لا يغلبونهم وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم اصطلام<sup>(٣)</sup> إلا إيذاء بالبهت

(١) في د وب: الكتاب. (٢) راجع ص ٤٦ من هذا الجزء. (٣) الاصطلام: الاستئصال.

والتحريف، وأما العاقبة فتكون للمؤمنين. وقيل: هو منقطع، والمعنى لن يضرركم ألبتة، لكن يؤذونكم بما يُسمعونكم. قال مقاتل: إن رؤوس اليهود: كعب وعديّ والنعمان وأبو رافع وأبو ياسر وكنانة وأبن صوريا عمدوا إلى مؤمنهم: عبد الله بن سلام وأصحابه فأذوهم لإسلامهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ يعني باللسان، وتمّ الكلام. ثم قال: ﴿وَأَنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذْبَارُ﴾ يعني منهزمين، وتمّ الكلام. ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ مستأنف؛ فلذلك ثبت فيه النون. وفي هذه الآية معجزة للنبي عليه السلام؛ لأن من قاتله من اليهود ولاه دبره.

[١١٢] ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَنْ مَا ثِقُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَيَقْضَى مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

[١١٣] ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ إِنَّهَ الْبَلِّ وَهُمْ يَسْتَجِدُّونَ ﴿١١٣﴾﴾.

[١١٤] ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

[١١٥] ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾ يعني اليهود. ﴿أَيْنَمَا ثِقُوا﴾ أي وجدوا ولقوا، وتمّ الكلام. وقد مضى في البقرة معنى ضرب الذلّة عليهم<sup>(١)</sup>. ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع ليس من الأول. أي لكنهم يعتصمون بحبل من الله. ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ يعني الذمة التي لهم. والناس: محمدٌ والمؤمنون يؤدون إليهم الخراج فيؤمنونهم. وفي الكلام

اختصار، والمعنى: إلا أن يعتصموا بحبل من الله، فحذف؛ قاله الفراء. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي رجعوا. وقيل احتملوا. وأصله في اللغة أنه لزمهم، وقد مضى في البقرة<sup>(١)</sup>. ثم أخبر لم فعل ذلك بهم؛ فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وقد مضى في البقرة مستوفى<sup>(٢)</sup>. ثم أخبر فقال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ وتم الكلام. والمعنى: ليس أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ سواء؛ عن ابن مسعود. وقيل: المعنى ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتاب سواء. وذكر أبو خيثمة زهير بن حرب حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا شيبان عن عاصم عن زر عن ابن مسعود قال: أخر رسول الله ﷺ [ليلة]<sup>(٣)</sup> صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله تعالى في هذه الساعة غيركم» قال: وأنزلت هذه الآية ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ - إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ وروى ابن وهب مثله. وقال ابن عباس: قول الله عز وجل ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ من آمن مع النبي ﷺ. وقال ابن إسحاق عن ابن عباس لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية<sup>(٤)</sup>، وأسيّد<sup>(٥)</sup> بن سعية، وأسيد بن عبيد، ومن أسلم من يهود؛ فأمنوا وصدّقوا ورغبوا في الإسلام ورسخوا<sup>(٦)</sup> فيه، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره؛ فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾. إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وقال الأخفش: التقدير من أهل الكتاب ذو أمة، أي ذو طريقة حسنة. وأنشد:

وهل يأتَمَنُ ذُو أُمَّةٍ وهو طَائِعٌ

(١) راجع ١/١٥٠ و ٤٣٠. (٢) راجع ١/٤٣١. (٣) الزيادة في د.

(٤) سعية: بالسین والعین المهملتين وياء بأثنتين.

(٥) في الاستيعاب في ترجمة أسيد هذا: «رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق (أسيد) بفتح الهمزة وكسر السين، وكذلك قال الواقدی. وفي رواية إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق (أسيد) بالضم. والفتح عندهم أصح». (٦) في د وب: تنجوا فيه.

وقيل: في الكلام حذف؛ والتقدير من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى اكتفاء بالأولى؛ كقول أبي ذؤيب:

عَصَانِي <sup>(١)</sup> إِلَيْهَا الْقَلْبُ إِنِّي لِأَمْرِهِ مُطِيعٌ فَمَا أَدْرِي أُرْشِدُ طِلَابُهَا

أراد: أُرْشِدْ أَمْ غَيِّ، فحذف. قال الفراء: «أمة» رفع بـ «سواء»، والتقدير: ليس يستوي أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله وأمة كافرة. قال النحاس: هذا قول خطأ من جهات: إحداهما أنه يرفع «أمة» بـ «سواء» فلا يعود على أسم ليس بشيء، ويرفع بما ليس جارياً على الفعل ويضمر ما لا يحتاج إليه؛ لأنه قد تقدّم ذكر الكافر فليس لإضمار هذا وجه. وقال أبو عبيدة: هذا مثل قولهم: أكلوني البراغيث، وذهبوا أصحابك. قال النحاس: وهذا غلط؛ لأنه قد تقدّم ذكرهم، وأكلوني البراغيث لم يتقدّم لهم ذكر. و«أَنَاءَ اللَّيْلِ» ساعاته. واحدها إِنِّي وَأَنْتِي، وهو منصوب على الظرف. و«يَسْجُدُونَ» يصلون؛ عن الفراء والزجاج؛ لأن التلاوة لا تكون في الركوع والسجود. نظيره قوله: «وَلَهُ يَسْجُدُونَ» <sup>(٢)</sup> أي يصلون. وفي الفرقان: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ» <sup>(٣)</sup> وفي النجم «فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا» <sup>(٤)</sup>. وقيل: يراد به السجود المعروف خاصة. وسبب النزول يردّه، وأن المراد صلاة العتمة كما ذكرنا عن ابن مسعود، فعبد الأوثان ناموا حيث جنّ عليهم الليل، والموحّدون قيام بين يدي الله تعالى في صلاة العشاء يتلون آيات الله؛ ألا ترى لما ذكر قيامهم قال «وَهُمْ يَسْجُدُونَ» أي مع القيام أيضاً. الثوري: هي الصلاة بين العشاءين. وقيل: هي في قيام الليل. وعن رجل من بني شيبه كان يدرس الكتب قال: إِنَّا نجد كلاماً من كلام الرب عز وجل: أيجسب راعي إبل أو راعي غنم إذا جنّه الليل أنخذل <sup>(٥)</sup> كمن هو قائم وساجد آناء الليل. «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» يعني يقرون بالله ويصدقون بمحمد ﷺ. «وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ» قيل: هو عموم. وقيل: يراد به الأمر باتباع النبي ﷺ. «وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» والنهي عن المنكر النهي عن مخالفته. «وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ» التي يعملونها مبادرين غير متساقلين

(١) في الأصول:

عصيت إليها القلب إني لأمرها

والتصويب عن ديوان أبي ذؤيب. يقول: عصاني القلب وذهب إليها فأنع ما يأمرني به.

(٢) راجع ٣٥٦/٧. (٣) راجع ٦٤/١٣. (٤) راجع ١٢١/١٧. (٥) أنخذل: أنفرد.

لمعرفتهم بقدر ثوابهم. وقيل: يبادرون<sup>(١)</sup> بالعمل قبل الفوت. ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي مع الصالحين، وهم أصحاب محمد ﷺ في الجنة. ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ قرأ الأعمش وأبن وثاب وحمزة والكسائي وحفص وخلف بالياء فيهما؛ إخباراً عن الأمة القائمة، وهي قراءة ابن عباس وأختيار أبي عبيد. وقرأ الباقر بالتاء فيهما على الخطاب؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. وهي أختيار أبي حاتم، وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعاً الياء والتاء. ومعنى الآية: وما تفعلوا من خير فلن تُجحدوا ثوابه بل يُشكر لكم وتُجازون عليه.

[١١٦] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أسم إن، والخبر ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. قال مقاتل: لما ذكر تعالى مؤمني أهل الكتاب ذكر كفارهم وهو قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وقال الكلبي: جعل هذا ابتداء فقال: إن الذين كفروا لن تغني عنهم كثرة أموالهم ولا كثرة أولادهم من عذاب الله شيئاً. وخص الأولاد لأنهم أقرب أنسابهم إليهم. ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ابتداء وخبر، وكذا و ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقد تقدّم جميع هذا.

[١١٧] ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ «ما» تصلح أن تكون مصدرية، وتصلح أن تكون بمعنى الذي والعائد محذوف، أي مثل ما ينفقونه. ومعنى ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ كمثل مهب<sup>(٢)</sup> ريح. قال ابن عباس: والصّر البرد الشديد. قيل: أصله من الصرير

(١) في ب: مبادرين.

(٢) في ب ود وهـ: مهلك ريح.

الذي هو الصوت، فهو صوت الريح الشديدة. الزجاج: هو صوت لهب النار التي كانت في تلك الريح. وقد تقدّم هذا المعنى في البقرة<sup>(١)</sup>. وفي الحديث: إنه نهى عن الجراد الذي قتله الصّر<sup>(٢)</sup>. ومعنى الآية: مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثّل زرع أصابه ريح باردة أو نار فأحرقته وأهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشيء بعد ما كانوا يرجون فائدته<sup>(٣)</sup> ونفعه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بذلك ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى. وقيل: ظلموا أنفسهم بأن زرعوا في غير وقت الزراعة أو في غير موضعها فأدبهم الله تعالى؛ لوضعهم الشيء في غير موضعه؛ حكاية المهدوي.

[١١٨] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾

فيه ست مسائل:

الأولى - أكد الله تعالى الزجر عن الركون إلى الكفار. وهو متصل بما سبق من قوله: ﴿إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. والبطانة مصدر، يُسمّى به الواحد والجمع. وبطانة الرجل خاصته الذين يستيطنون أمره، وأصله من البطن الذي هو خلاف الظهر. وبطن فلان بفلان يبطن بطناً وبطانة إذا كان خاصاً به. قال الشاعر:

أولئك خلصاني<sup>(٤)</sup> نعم وبطانتني وهم غيبي من دون كل قريب

الثانية - نهى الله عز وجل المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دُخلاءً وولجاءً، يفاوضونهم في الآراء، ويسندون إليهم أمورهم. ويقال: كل من كان على خلاف مذهبك ودينك فلا ينبغي لك أن تحادثه؛ قال الشاعر:

عن المزمع لا تسأل وسل عن قرينه فكل<sup>(٥)</sup> قرين بالمقارن يقتدي

(١) راجع ٣/٣١٩. (٢) الصر في هذا الحديث البرد. (٣) في ب وه ود: عاتته.

(٤) في هـ: خلصاني، عيبي: خاصتي وموضع سري.

(٥) في د: فكم من قرين، وفي هـ: فلان القرين.

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «المرء على دين خليله فلينظر أحدهم من يخالل». وروى عن ابن مسعود أنه قال: «أعقبوا الناس بإخوانهم. ثم بين تعالى المعنى الذي لأجله نهى عن المواصلة فقال: ﴿لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالًا﴾ يقول فساداً. يعني لا يتركون الجهد في فسادكم، يعني أنهم وإن لم يقاتلوكم في الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد في المكر والخديعة، على ما يأتي بيانه. وروى<sup>(١)</sup> عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالًا﴾ قال: «هم الخوارج». وروى أن أبا موسى الأشعري أستكتب ذمياً فكتب إليه عمر يعثقه وتلا عليه هذه الآية. وقدم أبو موسى الأشعري على عمر رضي الله عنهما بحساب فرفعه إلى عمر فأعجبه، وجاء عمر كتاباً فقال لأبي موسى: أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس؟ فقال: إنه لا يدخل المسجد. فقال: لِمَ أَجُنَّبُ هو؟ قال: إنه نصراني؛ فأنتهره وقال: لا تُذنبهم وقد أقصاهم الله، ولا تُكرمهم وقد أهانهم الله، ولا تأمنهم وقد خونهم الله. وعن عمر رضي الله عنه قال: لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرِّشاً<sup>(٢)</sup>، وأستعينوا على أموركم وعلى رعييتكم بالذين يخشون الله تعالى. وقيل لعمر رضي الله عنه: إن ههنا رجلاً من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم أفلا يكتب عنك؟ فقال: لا آخذ<sup>(٣)</sup> بطانة من دون المؤمنين. فلا يجوز أستكتاب أهل الذمة، ولا غير ذلك من تصرفاتهم في البيع والشراء والاستنابة إليهم.

قلت: وقد أنقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبةً وأمناءً وتَسَوَّدُوا بذلك عند الجَهْلَةِ الأغبياء من الولاة والأمراء. روى البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي ولا أستخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتُحْضِضُهُ عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عَصَمَ اللَّهُ تعالى»<sup>(٤)</sup>. وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنفثوا في خواتيمكم غريباً». فسرّه الحسن بن أبي الحسن فقال: أراد عليه

(١) في ب ود وهـ: روى أبو أمامة. (٢) في أ: الربا.

(٣) في ب ود وهـ: إذا أتخذ الخ.

(٤) الحديث كما في النسخة الأميرية، وسائر الأصول: بالخير، بدل المعروف، وفي جـ: تحثه عليه.

السلام لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم، ولا تنقبشوا في خواتيمكم محمداً. قال الحسن: وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِنْ دُونِكُمْ﴾ الآية.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾<sup>(١)</sup> أي من سواكم. قال الفراء: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾<sup>(٢)</sup> أي سوى ذلك. وقيل: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ يعني في السير وحسن المذهب. ومعنى ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم. وهو في موضع الصفة لـ ﴿بِطَانَةَ مِنْ دُونِكُمْ﴾. يقال: لا آلو جهداً أي لا أقصر. وآلوث آلوا قصرت؛ قال امرؤ القيس:

وما المرء ما دامت حُشاشة نفسه      بمذرك أطراف الخطوب ولا آل  
والخبال: الخبل. والخبل: الفساد؛ وقد يكون ذلك في الأفعال والأبدان والعقول. وفي الحديث: «من أصيب بدم أو خبل» أي جرح يفسد العضو. والخبل: فساد الأعضاء، ورجلٌ خبلٌ ومُخبِلٌ، وخبله الحبُّ أي أفسده. قال أوس:

أينسي لئِنِّي لستم يدي      إلا يداً مخبولة<sup>(٣)</sup> العضد  
أي فاسدة العضد. وأنشد الفراء:

نظر ابن سعد نظرةً وبث<sup>(٤)</sup> بها      كانت لصُحيك والمطي خبالاً  
أي فساد. وأنصب «خبالاً» بالمفعول الثاني؛ لأن الآلو يتعدى إلى مفعولين، وإن شئت على المصدر، أي يخبلونكم خبالاً: وإن شئت بنزع الخافض، أي بالخبال؛ كما قالوا: أوجعته ضرباً: «وما» في قوله: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ مصدرية، أي ودّوا عنتكم. أي ما يشق عليكم. والعنت المشقة، وقد مضى في «البقرة»<sup>(٥)</sup> معناه.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني ظهرت العداوة والتكذيب لكم من أفواههم. والبغضاء: البغض، وهو ضدُّ الحبِّ. والبغضاء مصدر مؤنث. وخصَّ تعالى الأفواه بالذكر دون الألسنة إشارةً إلى تشدُّقهم وتزترتهم في أقوالهم هذه، فهم

(١) في ب ود وهـ: يعني. (٢) راجع ٣٢٢/١١. (٣) الذي في ديوانه: إلا يدا ليست لها عضد.

(٤) الوب: التهويل للحملة في الحرب. (٥) راجع ٦٦/٣.



فوق المستتر الذي تبدو البغضاء في عينيه. ومن هذا المعنى نهيه عليه السلام أن يشتحي<sup>(١)</sup> الرجل فاه في عرض أخيه. معناه أن يفتح؛ يقال: شحى الخمار فاه بالنهيق، وشحى الفم نفسه. وشحى اللجام فم الفرس شحياً، وجاءت الخيل شواحِي: فاتحات أفواهها. ولا يفهم من هذا الحديث دليل خطاب على الجواز فيأخذ أحد في عرض أخيه همساً؛ فإن ذلك يحرم باتفاق من العلماء. وفي التنزيل ﴿وَلَا يَغْتَب بَّغْضُكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> الآية. وقال ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام». فذكر الشحوا إنما هو إشارة إلى التشدق والانبساط، فأعلم.

الخامسة - وفي هذه الآية دليل على أن شهادة العدو على عدوه لا يجوز، وبذلك قال أهل المدينة وأهل الحجاز؛ وروى عن أبي حنيفة جواز ذلك. وحكى ابن بطال عن ابن شعبان أنه قال: أجمع العلماء على أنه لا تجوز شهادة العدو على عدوه في شيء وإن كان عدلاً، والعداوة تزيل العدالة فكيف بعداوة كافر.

السادسة - قوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ إخبار وإعلام بأنهم يُبطنون من البغضاء أكثر مما يُظهرون بأفواههم. وقرأ عبد الله بن مسعود: «قد بدأ البغضاء» بتذكير الفعل؛ لما كانت البغضاء بمعنى البغض.

[١١٩] ﴿هَآأَنَآ أَؤْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَآكُمْ وَتَوَمُّونَ بِالْكِتَآبِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَاوَا عَضُّوَا عَلَيْكُمْ آلَآنَآ مِلَ مِنَ الْفَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَفْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

قوله تعالى: ﴿هَآ أَنْتُمْ أَؤْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ﴾ يعني المنافقين؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾؛ قاله أبو العالية ومقاتل. والمحبة هنا بمعنى المصافاة، أي أنتم أيها المسلمون تُصافونهم ولا يُصافونكم لِئِنْفَاقِهِمْ. وقيل: المعنى تريدون لهم الإسلام وهم يريدون لكم الكفر. وقيل: المراد اليهود؛ قاله الأكثر. والكتاب أسم جنس؛ قال ابن عباس: يعني

(١) في هـ ود: يشحى. وفي اللسان: شحا يشحو فاه فتحه، وشحا يشحاه.

(٢) راجع ٣٣٤/١٦

بِالْكِتَابِ. واليهود يؤمنون بالبعث؛ كما قال تعالى؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ (١). ﴿وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أي بمحمد ﷺ، وأنه رسول الله ﷺ. ﴿وَإِذَا خَلَاوْا﴾ فيما بينهم ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ يعني أطراف الأصابع ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ والحق عليكم؛ فيقول بعضهم لبعض: ألا ترون إلى هؤلاء ظهوروا وكثروا. والعَضُّ عبارة عن شدة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه؛ ومنه قول أبي طالب:

يَعْضُونَ غَيْظًا خَلَفْنَا بِالْأَنَامِلِ

وقال آخر:

إِذَا رَأَوْنِي - أَطَالَ اللَّهُ غِيظَهُمْ  
عَضُّوا مِنَ الْغَيْظِ أَطْرَافَ الْأَبَاهِيمِ  
يقال: عَضَّ يَعْضُ عَضًّا وَعَضِيضًا. والعَضُّ (بضم العين): عَلَفَ دَوَابَّ أَهْلِ الْأَمْصَارِ مِثْلَ الْكُتُبِ وَالنَّوَى الْمَرْضُوحِ: قَالَ مِنْهُ: أَعْضَ الْقَوْمَ، إِذَا أَكَلَتْ إِبِلُهُمُ الْعُضَّ. وَبَعِيرٌ عَضَّاضِيٌّ، أَي سَمِينٌ كَأَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ. وَالْعِضُّ (بالكسر): الدَّاهِي من الرِّجَالِ وَالبُلُغِ الْمَكْرُ (٢). وَعَضَّ الْأَنَامِلُ من فَعَلَ الْمُغْضَبِ الَّذِي فَاتَهُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، أَوْ نَزَلَ بِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى تَغْيِيرِهِ. وَهَذَا الْعَضُّ هُوَ بِالْأَسْنَانِ كَعْضُ الْيَدِ (٣) عَلَى فَائِتٍ قَرِيبِ الْفَوَاتِ. وَكَقَرَعَ السَّنَّ النَّادِمَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَدِّ الْحَصَى وَالْخَطِّ فِي الْأَرْضِ لِلْمَهْمُومِ. وَيَكْتَبُ هَذَا الْعُضَّ بِالضَّادِ السَّاقِطَةِ، وَعَظَّ الزَّمَانَ بِالظَّاءِ الْمَشَالَةِ؛ كَمَا قَالَ:

وَعَظَّ زَمَانٍ يَأْبَنُ مَزْوَانٍ لَمْ يَدْعُ  
مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجْلَفًا (٤)

وواحد الأنامل أنملة (بضم الميم) ويقال بفتحها، والضم أشهر. وكان أبو الجوزاء إذا تلا هذه الآية قال: هم الأباضية (٥). قال ابن عطية: وهذه الصفة قد تترتب في كثير من أهل البدع (٦) إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَوْتُوْا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن قيل: كيف لم يموتوا والله تعالى إذا قال لشيء: كن فيكون. قيل عنه جوابان: أحدهما - قال فيه الطبري وكثير

(١) راجع ٢٩/٢. (٢) في ب وهـ وجد: المنكر. (٣) في ب ود وهـ: كعض اليد على اليد.

(٤) البيت للفرزدق. وفي النقائض: «وعض زمان» بالضاد وهذه الكلمة في هذا المعنى تقال بالضاد وبالظاء كما في القاموس. والمسحت: المستأصل. والمجلف: الذي بقيت منه بقية. ويروى: المجرف.

(٥) الأباضية بريثون من ذلك، وتفسير كلام الله ينزه عن مثل هذا القول.

(٦) في ب وهـ ود: في أهل البدع من الناس.

من المفسرين: هو دعاء عليهم. أي قل يا محمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا. فعلى هذا يتجه أن يدعو عليهم بهذا مواجهةً وغير مواجهة بخلاف اللعنة.

الثاني - أن المعنى أخبرهم أنهم لا يدركون ما يؤملون، فإن الموت دون ذلك. فعلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقي معنى التفريع والإغاطة. ويجري<sup>(١)</sup> هذا المعنى مع قول مسافر بن أبي عمرو:

وَيَتَمَنَّى<sup>(٢)</sup> فِي أُرُومَتِنَا وَنَقَّأَ عَيْنَ مَنْ حَسَدَا

وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾<sup>(٣)</sup>.

[١٢٠] ﴿إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَابَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ﴾ قرأ السلمي بالياء والباقون بالتاء. واللفظ عام في كل ما يحسن ويسوء. وما ذكره المفسرون من الخضب والجذب واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة بينهم إلى غير ذلك من الأقوال أمثلة وليس باختلاف. والمعنى في الآية: أن من كانت هذه صفته من شدة العداوة والحقد والفرح بنزول الشدائد على<sup>(٥)</sup> المؤمنين، لم يكن أهلاً لأن يتخذ بطانة، لا سيما في هذا الأمر الجسيم من الجهاد الذي هو ملاك الدنيا والآخرة؛ ولقد أحسن القائل في قوله:

كَلَّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِفَاقَتُهَا إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ

﴿وَإِنْ تَصَابَرُوا﴾ أي على أذاهم وعلى الطاعة وموالة المؤمنين. ﴿وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ﴾<sup>(٥)</sup> كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ يقال: ضاره يضره ويضيره ضيراً ضروراً؛ فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى، فكان ذلك تسلياً للمؤمنين وتقويةً لنفوسهم.

(١) في د: يجوز.

(٢) في هـ: ونمى، وفي ابن عطية ونبني، وفي الأغاني: وزمزم من أرومتنا.

(٣) راجع ٢١/١٣. (٤) في د وب وهـ: بالمؤمنين. (٥) قراءة نافع.

قلت <sup>(١)</sup> - قرأ الحَرَمَيَان وأبو عمرو «لا يَضْرُكُم» من ضار يضير كما ذكرنا؛ ومنه قوله «لَا ضَيْرٌ»، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين؛ لأنك لما حذفت الضمة من الراء بقيت الراء ساكنة والياء ساكنة فحذفت الياء، وكانت أولى بالحذف؛ لأن قبلها ما يدل عليها. وحكى الكسائي أنه سمع «ضَارَةً يَضُورُهُ» وأجاز «لا يَضْرُكُم» وزعم أن في قراءة أبي بن كعب «لَا يَضْرُزُكُم» <sup>(٢)</sup>. [وقرأ الكوفيون: «لا يضركم» بضم الراء وتشديدها من ضَرَّ يَضْرُ [يَضْرُ] <sup>(٣)</sup>. ويجوز أن يكون مرفوعاً على تقدير إضمار الفاء؛ والمعنى: فلا يضركم، ومنه قول الشاعر <sup>(٤)</sup>:

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرُهَا

هذا قول الكسائي والفرء، أو يكون مرفوعاً على نية التقديم؛ وأنشد سيبويه:

إِنَّكَ إِنْ يُصْرَغِ أَخُوكَ تُصْرَعُ <sup>(٥)</sup>

أي لا يضركم أن تصبروا وتتقوا. ويجوز أن يكون مجزوماً، وضمت الراء لالتقاء الساكنين على اتباع الضم. وكذلك قراءة من فتح الراء على أن الفعل مجزوم، وفتح «يضركم» لالتقاء الساكنين لحقة الفتح؛ رواه أبو زيد عن المفضل عن عاصم، حكاه المهدوي. وحكى النحاس: وزعم المفضل الضبي عن عاصم «لا يضركم» بكسر الراء لالتقاء الساكنين.

[١٢١] ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ العامل في «إِذْ» فعل مضمر تقديره: وأذكر إذ غدوت، يعني خرجت بالصباح. ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ من منزلك من عند عائشة. ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذه غزوة أُحُد وفيها نزلت هذه الآية كلها. وقال مجاهد والحسن ومقاتل والكلبي: هي غزوة الخندق. وعن الحسن أيضاً: يوم بدر. والجمهور على أنها غزوة أُحُد؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ وهذا إنما كان يوم أُحُد، وكان المشركون قصدوا المدينة في ثلاثة آلاف رجل ليأخذوا بثأرهم

(١) كذا في د، وفي ب وأ: قرأت قرأ، وفي زوج: قرأ.

(٢) في د وهـ: يضور والتصحيح من البحر قال: بفك الإدغام وهي لغة أهل الحجاز.

(٣) الزيادة من ب ود وهـ. (٤) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه وتماه: والشر بالشر عند الله سيان

(٥) هذا عجز بيت لجريز بن عبد الله. وضدّه: يا أقرع بن حابس يا أقرع

في يوم بدر؛ فنزلوا عند أُحُد على شَفِير الوادي بقناةٍ مقابل المدينة، يوم الأربعاء الثاني عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة، على رأس أحد وثلاثين شهراً من الهجرة، فأقاموا هنالك يوم الخميس والنبى ﷺ بالمدينة؛ فرأى رسول الله ﷺ في منامه أن في سيفه ثُلْمَةً، وأن بقرأ له تُذبح، وأنه أدخل يده في دِرْع حصينة؛ فتأولها أن نفرأ من أصحابه يُقتلون، وأن رجلاً من أهل بيته يصاب، وأن الدَّرْع الحصينة المدينة. أخرجه مسلم.

فكان كل ذلك على ما هو معروف مشهور من تلك الغزاة. وأصل التَّبَوُّء اتِّخَاذ المنزل، بَوَّأته منزلاً إذا أسكنته إياه؛ ومنه قوله عليه السلام: «من كذب عليّ معتمداً فليتبوأ مقعده من النار» أي ليتخذ فيها منزلاً. فمعنى «تبوؤ المؤمنين» تتخذ لهم مَصَاف. وذكر البيهقي من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت فيما يرى النائم كأنني مردف كبشاً وكأن ضَبَّة سيفي أنكسرت فأولت أني أقتل كبش القوم وأولت كسر ضَبَّة سيفي قتل رجل من عِترتي» فقتل حمزة وقتل رسول الله ﷺ طلحة، وكان صاحب اللِّوَاء. وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب: وكان حامل لواء المهاجرين رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: أنا عاصم إن شاء الله لما معي؛ فقال له طلحة بن عثمان أخو سعيد بن عثمان اللخمي: هل لك يا عاصم في المبارزة؟ قال نعم؛ فبدره ذلك الرجل فضرب بالسيف على رأس طلحة حتى وقع السيف في لحيته فقتله؛ فكان قتل صاحب اللِّوَاء<sup>(١)</sup> تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ «كأنني مردف كبشاً».

[١٢٢] ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ﴾.

العامل في «إذ-تبوى» أو «سميع عليم». والطائفتان: بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر يوم أُحُد. ومعنى ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ أَنْ تَجْبِنَا. وفي البخاري عن جابر قال: فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. وقيل:

(١) في ب وهـ وحـ وز: صاحب لواء المشركين. ما أثبتناه من د.

هم بنو الحارث وبنو الخزرج وبنو النبيت، والنبيت هو عمرو بن مالك من بني الأوس. والفشل عبارة عن الجبن؛ وكذلك هو في اللغة. والهمّ من الطائفتين كان بعد الخروج لما رجع عبد الله بن أبيّ بمن معه من المنافقين فحفظ الله قلوبهم فلم يرجعوا؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يعني حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا الهمّ. وقيل: أرادوا التقاعد عن الخروج، وكان ذلك صغيرة منهم. وقيل: كان ذلك حديث نفس منهم خطر ببالهم فأطلع الله نبيه عليه السلام عليه فأزادوا بصيرة؛ ولم يكن ذلك الخَوْزُ<sup>(١)</sup> مكتسباً لهم فعصمهم الله، وذمّ بعضهم بعضاً، ونهضوا مع النبي ﷺ فمضى رسول الله ﷺ حتى أطلّ على المشركين، وكان خروجه من المدينة في ألف، فرجع عنه عبد الله بن أبيّ بن سَلُول بثلاثمائة رجل مغاضباً<sup>(٢)</sup>؛ إذ خولف رأيه حين أشار بالقعود والقتال في المدينة إن نهض إليهم العدو، وكان رأيه وافق رأي رسول الله ﷺ، وأبى ذلك أكثر الأنصار، وسيأتي. ونهض رسول الله ﷺ بالمسلمين فاستشهد منهم من أكرمه الله بالشهادة. قال مالك رحمه الله: قتل من المهاجرين يوم أُحُد أربعة، ومن الأنصار سبعون رضي الله عنهم. والمقاعِد: جمع مقعد وهو مكان القعود. [وهذا]<sup>(٣)</sup> بمنزلة مَوَاقِف، ولكن لفظ القعود دالّ على الثبوت؛ ولا سيما أن الرّماة كانوا قعوداً. هذا معنى حديث غزاة أُحُد على الاختصار، وسيأتي من تفصيلها ما فيه شفاء. وكان مع المشركين يومئذ مائة فرس عليها خالد بن الوليد، ولم يكن مع المسلمين يومئذ فرس. وفيها جرح رسول الله ﷺ في وجهه وكُسِرَت رِباعيته اليمنى السفلى بحجر وهُشِمَت البَيضة<sup>(٤)</sup> من على رأسه ﷺ، وجزاه عن أمته ودينه بأفضل ما جرى به نبياً من أنبيائه على صبره. وكان الذي تَوَلَّى ذلك من النبي ﷺ عمرو بن قَمِيئة الليثي، وعُتْبَةُ بن أبي وقاص. وقد قيل: إن عبد الله بن شهاب جدّ الفقيه محمد بن مسلم بن شهاب هو الذي شجّ رسول الله ﷺ في جبهته. قال الواقدِي: والثابت<sup>(٥)</sup> عندنا أن الذي رمى في وجهه<sup>(٦)</sup> النبي ﷺ أبْن قَمِيئة، والذي

(١) كذا في دوز وب. (٢) كذا في دوز وب. (٣) من دوز وب. وهـ.

(٤) البيضة: الخوذة، وهي زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة، وفي ب ود وهـ: هُشِمَت البيضة رأسه.

(٥) في ب ود وهـ: الثبت. (٦) في د وهـ وب: وجنتي النبي.

أدمي<sup>(١)</sup> شفته وأصاب رباعيته عُتْبَةُ بن أبي وقَّاص. قال الواقدي بإسناده عن نافع بن جبير قال: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أحدًا فنظرت إلى النبل تأتي من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطها كل [ذلك]<sup>(١)</sup> يصرف عنه. ولقد رأيت عبد الله بن شِهَاب الزَّهْرِي يقول يومئذ: دَلُونِي على محمد دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا. [وإن]<sup>(٢)</sup> رسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه مِنَّا ممنوع! خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاهدنا على قتله [فلم نخلص]<sup>(٢)</sup> إلى ذلك]. وأكبت الحجارة على رسول الله ﷺ حتى سقط في حفرة، كان أبو عامر الرَّاهِب قد حفرها مكيدة للمسلمين، فخرّ عليه السلام على جنبه واحتضنه طلحة حتى قام، ومَصَّ مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري من جرح رسول الله ﷺ الدَّم، وتشبَّث<sup>(٣)</sup> حلقتان من درع المِغْفَر في وجهه ﷺ فأنترعهما أبو عبيدة بن الجراح وعَضَّ عليهما بِثَنِيَّتَيْهِ فسقطتا؛ فكان أهُمَّ يزيه هَتَمُهُ رضي الله عنه. وفي هذه الغزاة قُتِلَ حمزة رضي الله عنه، قتله وحشي، وكان وَحْشِيَّ مملوكاً لجبير بن مُطْعِم. وقد كان جبير قال له: إن قتلت محمداً جعلنا لك أعنة الخيل، وإن أنت قتلت علي بن أبي طالب جعلنا لك مائة ناقة كلها سُود الحَدَق، وإن أنت قتلت حمزة فأنت حُرٌّ. فقال وحشي: أما محمد فعليه حافظٌ من الله لا يخلص إليه أحدٌ. وأما علي ما برز إليه أحد إلا قتله. وأما حمزة فرجل شجاع، وعسى أن أصادفه فأقتله. وكانت هند كلما تهياً وَحْشِيَّ أو مرّت به قالت: إنها أبا دَسَمَةَ أَشْفَ وأستشف. فكَمِنَ له خلف صَخْرَةٍ، وكان حمزة حمل على القوم من المشركين؛ فلما رجع من حملته ومَرَّ بوَحْشِيَّ زَرَقَهُ بِالْمِزْرَاق فأصابه فسقط ميتاً<sup>(٤)</sup>، رحمه الله ورضي عنه. قال ابن إسحاق: فبقرت هند عن كبد حمزة فلاكتها ولم تستطع أن تسيغها فلفظتها ثم علت على صخرة مُشْرِفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت:

نَحْنُ جَزَيْنَاكُمْ يَوْمَ بَذَرِ      والحرب بعد الحرب ذات سُغْرِ  
ما كان عن عُتْبَةٍ لي من صَبْرِ      ولا أخِي وعَمِّهِ وبُكَرِي

(١) في ب ود وهـ: رمى.

(٢) زيادة عن مغازي الواقدي.

(٣) في د: تشبث، وفي هـ: نشبت.

(٤) كذا في د، وفي ب وهـ وحـ: فسقط منها.

شَفَيْتُ نَفْسِي وَقَضَيْتُ نَذْرِي      شَفَيْتُ وَخَشِيْتُ غَلِيلَ صَدْرِي  
فَشَكَرْتُ وَخَشِيْتُ عَلَيَّ عَمْرِي      حَتَّى تَرِمَ أَغْظَمِي فِي قَبْرِي  
فَأَجَابَتْهَا هِنْدُ بِنْتُ أَثَاثَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ فَقَالَتْ:

خَزَيْتِ فِي بَدْرٍ وَبَعْدَ بَدْرٍ      يَا بِنْتَ وَقَاعٍ عَظِيمِ الْكُفْرِ  
صَبَحَكَ اللَّهُ غَدَاةَ الْفَجْرِ      مِلْهَا شَمِيمِينَ الطَّوَالَ الزُّهْرِ  
بِكُلِّ قَطَاعٍ حُسَامٍ يَفْرِي      حَمْزَةُ لَيْثِي وَعَلَيَّ صَفْرِي  
إِذْ رَامَ شَيْبٌ<sup>(١)</sup> وَأَبْصُوكَ غَذْرِي      فَخَضَبَا<sup>(٢)</sup> مِنْهُ ضَوَاجِي النَّخْرِ  
وَنَذْرُكَ السَّوَاءِ فَشَرَّ نَذْرٍ

وقال عبد الله بن رواحة يبكي حمزة رضي الله عنه:

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بُكَاهَا      وَمَا يَغْنِي الْبُكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ  
عَلَى أَسَدِ الْإِلَهِ غَدَاةَ قَالُوا      أَحْمَزَةُ ذَاكُمُ الرَّجُلُ الْقَتِيلُ  
أَصِيبُ الْمُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعاً      هُنَاكَ، وَقَدْ أَصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ  
أَبَا يَغْلَى لَكَ الْأَرْكَانُ هُدَّتْ      وَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبَرُّ الْوَصُولُ  
عَلَيْكَ سَلَامُ رَبِّكَ فِي جَنَانٍ      مَخَالِطُهَا نَعِيمٌ لَا يَزُولُ  
أَلَا يَا هَاشِمَ الْأَخْيَارِ صَبْرًا      فَكُلِّ فَعَالِكُمْ حَسَنٌ جَمِيلُ  
رَسُولَ اللَّهِ مُصْطَفًى كَرِيمَ      بِأَمْرِ اللَّهِ يَنْطِقُ إِذْ يَقُولُ  
أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي لُؤْيَا      فَبَعْدَ الْيَوْمِ ذَائِلَةٌ تَسْذُولُ  
وَقَبْلَ الْيَوْمِ مَا عَرَفُوا وَذَاقُوا      وَقَائِعُنَا بِهَا يُشْفَى الْغَلِيلُ  
نَسْنِثُمْ ضَرْبَنَا بِقَلْبٍ<sup>(٣)</sup> بَدْرٍ      غَدَاةَ أَتَاكُمُ الْمَوْتُ الْعَجِيلُ  
غَدَاةَ ثَوَى أَبُو جَهْلٍ صَرِيحاً      عَلَيْهِ الطَّيْرُ حَائِمَةٌ تَجُولُ  
وَعُتْبَةٌ وَأَبْنَاهُ خَرًّا جَمِيعاً      وَشَيْبَةُ عَضَّةِ السِّيفِ الصَّقِيلِ

(١) أرادت شيبَةَ بن ربيعة أخا عتبة بن ربيعة أبا هند. وقد رخم هنا في غير النداء لضرورة الشعر.

(٢) في د: مخضبا. (٣) القلب (بفتح أوله وكسر ثانيه): البئر العادية القديمة التي لا يعلم

لها رب ولا حافر تكون في البراري، يذكر ويؤنث.



وَمَثَرَكُنَا أَمِيَّةً مُّجْلَعِيًّا<sup>(١)</sup> وَفِي حَيْزُومِهِ لَذْنٌ نَبِيلٌ<sup>(٢)</sup>

وَهَامَ بَنِي رَبِيعَةَ سَائِلُوهَا ففِي أَسْيَافِنَا مِنْهَا قُلُوبٌ

أَلَا يَأْهِنْدُ لَا تَبْدِي شَمَاتَا بِحِمْرَةٍ إِنْ عَزَّكُم ذَّلِيلٌ

أَلَا يَأْهِنْدُ فَاْبْكِي لَا تَمَلِّي فَأَنْتِ الْوَالِيَةُ الْعَبْرَى الْهَبُولُ<sup>(٣)</sup>

ورثته أيضاً أخته صفية، وذلك مذكور في السيرة، رضي الله عنهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهي بيان التوكل. والتوكل في اللغة إظهار العجز والاعتماد على الغير<sup>(٤)</sup>. وواكل فلان إذا ضيع أمره مُتَكَلِّلاً على غيره.

وأختلف العلماء في حقيقة التوكل؛ فستل عنه سهل بن عبد الله فقال: قالت فرقة الرضا بالضمآن، وقطع الطمع من المخلوقين. وقال قوم: التوكل ترك الأسباب والركون إلى مُسَبِّب الأسباب؛ فإذا شغله السبب عن المسبب زال عنه أسم التوكل. قال سهل: من قال إن التوكل يكون بترك السبب فقد طعن في سنة رسول الله ﷺ؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً﴾<sup>(٥)</sup> فالغنيمة اكتساب. وقال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾<sup>(٦)</sup> فهذا عمل. وقال النبي ﷺ: «إن الله يحب العبد المحترف». وكان أصحاب رسول الله ﷺ يُقرضون على السرية<sup>(٧)</sup>. وقال غيره: وهذا قول عامة الفقهاء، وأن التوكل على الله هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماض، وأتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لا بد منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدو وإعداد الأسلحة وأستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتمدة. وإلى هذا ذهب محققو الصوفية، لكنه لا يستحق أسم التوكل عندهم مع الطمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب؛ فإنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى، والكل منه وبمشيئته؛ ومتى وقع من المتوكل ركونٌ إلى تلك الأسباب فقد أنسلخ عن ذلك الاسم. ثم المتوكلون على

(١) المجلعب: المصروع إما ميتاً وإما صرعاً شديداً. (٢) الحيزوم: وسط الصدر وما يضم عليه الحزام. واللذن: الرمح. (٣) الهبول من النساء: الشكول. (٤) في ب ود: غيرك وفي هـ: غيره. (٥) راجع ٥١/٨. (٦) راجع ٣٧٧/٧. (٧) السرية: طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة؛ سموا بذلك لأنهم تكون من خلاصة العسكر وخيارهم، من الشيء السري: النقيس.

حالين: الأول - حال المتمكن في التوكل فلا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه، ولا يتعاطاه إلا بحكم الأمر. الثاني - حال غير المتمكن وهو الذي يقع له الالتفات إلى تلك الأسباب أحياناً غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية، والبراهين القطعية، والأذواق الحالية؛ فلا يزال كذلك إلى أن يُرقيّه الله بجوده إلى مقام المتوكلين المتمكنين، ويلحقه بدرجات العارفين.

[١٢٣] ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ أَذْلَةٍ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

[١٢٤] ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَةٍ مِنَ الْمَلِكَةِ

مُتَزَلِّينَ﴾.

[١٢٥] ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصِيرُوا تَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَةٍ مِنَ

الْمَلِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ أَذْلَةٍ﴾ كانت بدر يوم سبعة عشر من رمضان، يوم جمعة لثمانية عشر شهراً من الهجرة، وبدر ماء هنالك وبه سمي الموضع. وقال الشعبي: كان ذلك الماء لرجل من جُهينة يسمى بدرأ، وبه سمي الموضع. والأول أكثر. وقال الواقدي وغيره: بدر أسم لموضع غير منقول. وسيأتي في قصة بدر في «الأنفال»<sup>(١)</sup> إن شاء الله تعالى. و «أَذْلَةٍ» معناها قليلون؛ وذلك أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً. وكان عدوهم ما بين التسعمائة إلى الألف. و «أَذْلَةٍ» جمع ذليل. وأسم الذل في هذا الموضع مستعار، ولم يكونوا في أنفسهم إلا أعزة، ولكن نسبتهم إلى عدوهم وإلى جميع الكفار في أقطار الأرض تقتضي عند التأمل ذلتهم وأنهم يُغلبون. والنصر العون؛ فنصرهم الله يوم بدر، وقتل فيه صناديد المشركين، وعلى ذلك اليوم أبتني<sup>(٢)</sup> الإسلام، وكان أول قتال قاتله النبي ﷺ. وفي صحيح مسلم عن بريدة قال: غزا رسول الله ﷺ سبع عشرة غزوة، قاتل في ثمان منهن. وفيه عن ابن إسحاق قال: لقيت

(٢) في ب ود: أبتني.

(١) راجع ٣٧٠/٧ فما بعد.

زيد بن أَرْقَمَ فقلت له : كم غزا رسول الله ﷺ؟ قال تسع عشرة غزوة. فقلت : فكم غزوت أنت معه ؟ فقال : سبع عشرة غزوة . قال فقلت : فما أول غزوة غزاها ؟ قال : ذات العُسَيْرِ أو العشير . وهذا كله مخالف لما عليه أهل التواريخ والسير . قال محمد بن سعد في كتاب الطبقات له : إن غزوات رسول الله ﷺ سبع وعشرون غزوة ، وسراياه ست وخمسون ، وفي رواية ست وأربعون<sup>(١)</sup> ، والتي قاتل فيها رسول الله ﷺ بَدْرَ وأُحُدَ والمَزِيَسِيعَ والخَنْدَقَ وخَيْبَرَ وقَرْيَةَ والفَتْحَ وحُنَيْنَ والطائف . قال ابن سعد : هذا الذي أجمع لنا عليه . وفي بعض الروايات أنه قاتل في بني النضير وفي وادي القرى مُنصرفه من خَيْبَرَ وفي الغَابَةِ<sup>(٢)</sup> . وإذا تقرّر هذا فنقول : زيد وبُرَيْدة إنما أخبر كل واحد منهما بما في علمه أو شاهده . وقول زيد : «إن أول غزاة غزاها ذات العسيرة» مخالف أيضاً لما قال أهل التواريخ والسير . قال محمد بن سعد : كان قبل غزوة العسيرة ثلاث غزوات ، يعني غزاها بنفسه . وقال ابن عبد البر في كتاب الدرر في المغاري والسير . أول غزاة غزاها رسول الله ﷺ غزوة وَدَانَ<sup>(٣)</sup> غزاها بنفسه في صَفَرٍ ؛ وذلك أنه وصل إلى المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، أقام بها بقية ربيع الأول ، وباقي العام كله إلى صفر من سنة اثنتين من الهجرة : ثم خرج في صفر المذكور وأستعمل على المدينة سعد بن عبادَةَ حتى بلغ وَدَانَ فوَادِعَ<sup>(٤)</sup> بني ضَمْرَةَ ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حَرْباً ، وهي المسماة بغزوة الأنواء . ثم أقام بالمدينة إلى [شهر] ربيع الآخر من السنة المذكورة ، ثم خرج فيها وأستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون حتى بلغ بَوَاطَ<sup>(٥)</sup> من ناحية رَضَوَى<sup>(٦)</sup> ، ثم رجع إلى المدينة

(١) الذي في كتاب الطبقات لابن سعد : «وكانت سراياه التي بعث بها سبعا وأربعين سرية» .

(٢) الغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام .

(٣) ودان (يفتح الواو وشدّ المهملة) : قرية جامعة من أمهات القرى من عمل الفرع . وقيل : واد في الطريق يقطعها المصعدون من حجاج المدينة . (عن شرح المواهب) .

(٤) الموادة : المصالحة .

(٥) بواط (يفتح الموحدة وقد تضم وتخفيف الواو وآخره طاء مهملة) : جبل من جبال جهينة بقرب ينبع على أربعة برد من المدينة .

(٦) رضوى (يفتح الراء وسكون المعجمة مقصور) : جبل بالمدينة ، وهو على مسيرة يوم من ينبع وعلى سبع مراحل من المدينة .

ولم يلق حرباً، ثم أقام بها بقية ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى، ثم خرج غازياً وأستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وأخذ على طريق ملك<sup>(١)</sup> إلى العُسيرة.

قلت: ذكر ابن إسحاق عن عمار بن ياسر قال: كنت أنا وعليّ بن أبي طالب رفيقين في غزوة العُسيرة من بطن يَبْنَع فلما نزلها رسول الله ﷺ أقام بها شهراً فصالح بها بني مُذَلِّج وحلفاءهم من بني ضَمْرَة فوادعهم؛ فقال لي علي بن أبي طالب: هل لك أبا اليقظان أن تأتي هؤلاء؟ نفر من بني مُذَلِّج يعملون في عين لهم ننظر كيف يعملون. فأتيناهم فنظرنا إليهم ساعة ثم غشيّا النوم فعمدنا إلى صور<sup>(٢)</sup> من النخل في دَفْعَاء من الأرض فَنِمْنَا فيه؛ فوالله ما أهبنا إلا رسول الله ﷺ بقدومه؛ فجلسنا وقد تتربنا من تلك الدفعاء فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعلّي: «ما بالك يا أبا تراب؟» فأخبرناه بما كان من أمرنا فقال: «ألا أخبركم بأشقى الناس رجلين» قلنا: بلى يا رسول الله؛ فقال: «أَحْيَمِرْ ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا عليّ على هذه - ووضع رسول الله ﷺ يده على رأسه - حتى يَبْلَ منها هذه» ووضع يده على لحيته. فقال أبو عمر: فأقام بها بقية جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، ووادع فيها بني مُذَلِّج ثم رجع ولم يلق حرباً. ثم كانت بعد ذلك غزوة بدر الأولى بأيام قلائل، هذا الذي لا يشك فيه أهل التواريخ والسير، فزيد بن أرقم إنما أخبر عما عنده. والله أعلم. ويقال: ذات العسير بالسين والشين، ويزاد عليها هاء فيقال: العُسيرة. ثم غزوة بدر الكبرى وهي أعظم المشاهد فضلاً لمن شهدها، وفيها أمدّ الله بملائكته نبيه والمؤمنين في قول جماعة العلماء، وعليه يدل ظاهر الآية، لا في يوم أُحُد. ومن قال: إن ذلك كان يوم أُحُد جعل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ إلى قوله: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ اعتراضاً بين الكلامين. هذا قول عامر الشعبي، وخالفه الناس. وتظاهرت الروايات بأنّ الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت؛ ومن ذلك قول أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان شهيد

(١) ملك (بالكسر ثم السكون والكاف): واد بمكة.

(٢) الصور: جماعة النخل الصغار؛ لا واحد له من لفظه. الدفعاء: التراب.

بدر: لو كنْتُ معكم الآن يَبْدُر ومَعِي بصري لأريْتُكم الشَّعْبُ<sup>(١)</sup> الذي خرجت منه الملائكةُ، لا أشك ولا أمتري. رواه عقيل عن الزُّهري عن أبي حازم سلمة بن دينار. قال ابن أبي حاتم: لا يُعرف للزُّهري عن أبي حازم غيرُ هذا الحديث الواحد، وأبو أُسيد يُقال إنه آخر من مات من أهل بدر؛ ذكره أبو عمر في الاستيعاب وغيره. وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال: لما كان يومُ بَدْر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فأستقبل نبيُّ الله ﷺ القبلة ثم مَدَّ يَدَيْهِ فجعل يَهْتِفُ بربِّه: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ» فما زال يَهْتِفُ بربه ما ذَا يَدَيْهِ مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن مَنْكِبَيْهِ، فأتاه أبو بكر فآخَذَ رِداءَهُ فآلَقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثم التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وقال: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كفاك مناشدتك ربَّك، فإنه سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَوِّدِينَ﴾<sup>(٢)</sup> فأمدّه الله تعالى بالملائكة. قال أبو زُمَيْل<sup>(٣)</sup>: فحدثني ابن عباس قال: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ يَشْتَدُّ فِي أثر رجلٍ من المشركين أمامه إذ سَمِعَ ضربةً بالسُّيُوطِ فوقه وصوتَ الفارسِ يقول: أَقْدِمَ حَيَزُومٌ<sup>(٤)</sup>؛ فنظر إلى المشرك أمامه فَخَرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ [كضربة السوط]<sup>(٥)</sup> فَأَخْضَرَ ذَلِكَ أَجْمَعُ. فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صَدَقَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ» فقتلوا يومئذ سبعين وأسرُوا سبعين. وذكر الحديث. وسيأتي تمامه في آخر «الأنفال»<sup>(٦)</sup> إن شاء الله تعالى. فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور، والحمد لله. وعن خارِجة بن إبراهيم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لِجَبْرِيلَ: «مَنْ الْقَاتِلُ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَقْدِمَ حَيَزُومٌ؟» فقال جبريل: «يَا مُحَمَّدُ مَا كُلُّ أَهْلِ السَّمَاءِ أَعْرَفٌ». وعن علي رضي عنه أنه خطب الناس فقال: بينا أنا أمتَحُ<sup>(٧)</sup> من قَلِيبٍ بَدْرٌ جاءت ريحٌ شديدة لم أر مثلاً قط، ثم ذهب، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلاً قط إلا التي كانت

(١) الشعب (بالكسر): الطريق في الجبل. (٢) راجع ٣٧٠/٧.

(٣) أبو زميل (بالصغير) هو سماك بن الوليد. «تهذيب التهذيب».

(٤) حيزوم: أسم فرس من خيل الملائكة. (٥) زيادة عن صحيح مسلم، وأخضر واسود.

(٦) راجع ٤٨/٨. (٧) متح: جذب الذل من البر مستقياً، والماتح: المستقي.

قبلها. قال: وأظنه ذكر: ثم جاءت ريح شديدة، فكانت الرِّيح الأولى جبريل نزل في ألف من الملائكة مع رسول الله ﷺ، وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر عن يمينه، وكانت الريح الثالثة إسرَافيل نزل في ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله ﷺ وأنا في الميسرة. وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا يومَ بدر وأنَّ أحدنا يُشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه. وعن الزبيد بن أنس قال: كان الناس يومَ بدر يعرفون قتلى الملائكة ممَّن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البَنان مثل سِمة النار قد أحرق به؛ ذكر جميعه البيهقي رحمه الله. وقال بعضهم: إن الملائكة كانوا يقاتلون، وكانت علامة ضربهم في الكفار ظاهرة؛ لأن كلَّ موضع أصابَتْ ضربتهم اشتعلت النار في ذلك الموضع، حتى إن أبا جهل قال لابن مسعود: أنت قتلتي؟! إنما قتلني الذي لم يصل سِناني إلى سُنْبِكَ فرسه<sup>(١)</sup> وإن اجتهدت. وإنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين؛ ولأنَّ الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة؛ فكل عسكر صَبَر واحتسب تأتيمهم الملائكة ويقاتلون معهم. وقال ابن عباس ومجاهد: لم تقاتل الملائكة إلا يومَ بدر، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون إنما يكونون عدداً أو مدداً. وقال بعضهم: إنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة أنهم كانوا يذْعُون ويسبِّحون، ويكثرون<sup>(٢)</sup> الذين يقاتلون يومئذ؛ فعلى هذا لم تقاتل الملائكة يومَ بدر<sup>(٣)</sup> وإنما حضروا للدعاء بالتَّشْيِيت، والأول أكثر. قال قتادة: كان هذا يوم بدر، أمدهم الله بألفٍ ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَوِّدِينَ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله: ﴿أَلَّنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ﴾ وقوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فصبر المؤمنون يومَ بدر وأتقوا الله فأمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم؛ فهذا كله يوم بدر. وقال الحسن: فهؤلاء الخمسة آلاف رِدة<sup>(٥)</sup> للمؤمنين إلى يوم القيامة. قال الشعبي: بلغ النبي ﷺ

(١) في د: قدمه. وسنك الدابة طرف حافرها. (٢) في د وه وب: والثواب للذين يقاتلون...

(٣) في هـ ود: إلا يوم بدر. (٤) راجع ٣٧٠/٧. (٥) الردء: العون والناصر.

وأصحابه يوم بدر أن كُزَّز بن جابر المُحَارِبِيَّ يريد أن يُمدَّ المشركين فشق ذلك على النبي ﷺ وعلى المسلمين؛ فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْفِيكُمْ﴾ - إلى قوله: مُسَوِّمِينَ ﴿فبلغ كُزَّرا الهزيمة فلم يُمدِّهم ورجع، فلم يمدِّهم<sup>(١)</sup> الله أيضاً بالخمسَةِ آلاف، وكانوا قد مدُّوا بألف. وقيل: إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته، وأتقوا محارمه أن يمدِّهم أيضاً في حروبهم كلها، فلم يصبروا ولم يتقوا محارمه إلا في يوم الأحزاب، فأمدِّهم حين حاصروا قُرَيْظَةَ. وقيل: إنما كان هذا يوم أُحُد، وعدهم الله المدد إن صبروا، فما صبروا فلم يُمدِّهم بملك واحد، ولو أمدُّوا لما هُزِمُوا؛ قاله عكرمة والضحاك. فإن قيل: فقد ثبت عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن يساره يومَ بَدْرٍ<sup>(٢)</sup> رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشدَّ القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد. قيل له: لعل هذا مختص بالنبي ﷺ، خصَّه بملكين يقاتلان عنه، ولا يكون هذا إمداداً للصحابة. والله أعلم.

الثانية - نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب تعالى، وإنما يحتاج إليه المخلوق فليُغْلَق القلب بالله ولْيُثَبِّت به، فهو الناصر بسبب وبغير سبب؛ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(٣)</sup>. لكن أخبر بذلك ليمثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلت من قبل، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾<sup>(٤)</sup>، ولا يَقْدَح ذلك في التوكل. وهو رد على من قال: إن الأسباب إنما سُتت في حق الضعفاء لا للأقوياء؛ فإن النبي ﷺ وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء؛ وهذا واضح. و«مد» في الشر و«أمد» في الخير. وقد تقدَّم في البقرة<sup>(٥)</sup>. وقرأ أبو حنيفة «مُنْزِلِينَ» بكسر الزاي خففاً، يعني منزلين النصر. وقرأ ابن عامر مشددة الزاي مفتوحة على التثنية. ثم قال: ﴿بَلَى﴾ وتم الكلام. ﴿إِنْ تَصْبِرُوا﴾ شرط، أي على لقاء العدو. ﴿وَتَقُوا﴾ عطف عليه، أي معصيته. والجواب ﴿يُمدِّدْكُمْ﴾. ومعنى «مِنْ قُوَرِهِمْ» من وجههم. هذا عن عكرمة و قتادة والحسن

(١) في جـ و أ: فأمدِّهم. والمثبت هو ما في باقي الأصول وهو التحقيق قال الألوسي: ولم يمدُّوا بها بناء على تعليق الإمداد بها بمجموع الأمور الثلاثة الخ.

(٢) في ب وهـ: يوم أحد. (٣) راجع ٦٠/١٥.

(٤) راجع ٢٤٧/١٤. (٥) راجع ٢٠٩/١.

والربيع والسدي وأبن زيد. وقيل: من غَضِبَهُمْ؛ عن مجاهد والضحاك. كانوا قد غَضِبُوا يوم أُحُد ليوم بَدَر مما لَقُوا. وأصل الفَوْز القصد إلى الشيء والأخذ فيه بِجَدٍّ؛ وهو من قولهم: فارتِ القِدر تَقُورُ قُوراً وقُورَاناً إذا غَلَّتْ. والقُور الغَلَيَان. وفَارَ غَضِبَهُ إذا جَاشَ. وفعله من قُورِهِ أي قبل أن يَسْكُنَ. والفَوَارَةُ ما يَقُورُ من القِدر. وفي التنزيل ﴿وَفَارَ التَّوَرُّ﴾<sup>(١)</sup>. قال الشاعر:

تَقُورُ عَلَيْنَا قِدرُهُمْ فَتُديمُهَا

الثالثة - قوله تعالى: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بفتح الواو أسم مفعول، وهي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي ونافع. أي معلِّمين بعلامات. و «مُسَوِّمِينَ» بكسر الواو أسم فاعل، وهي قراءة أبي عمرو وأبن كثير وعاصم؛ فيحتمل من المعنى ما تقدّم، أي قد أعلموا أنفسهم بعلامة، وأعلموا خيلهم. ورجح الطبري وغيره هذه القراءة. وقال كثير من المفسرين: مُسَوِّمِينَ أي مُرْسِلِينَ خيلهم في الغارة. وذكر المهدويّ هذا المعنى في «مُسَوِّمِينَ» بفتح الواو، أي أرسلهم الله تعالى على الكفار. وقاله ابن قُورَك أيضاً. وعلى القراءة الأولى اختلفوا في سيما الملائكة؛ فُروي عن علي بن أبي طالب وأبن عباس وغيرهما أن الملائكة أَعْتَمَّتْ بعمائم بيضٍ قد أرسلوها بين أكتافهم؛ ذكره البيهقيّ عن أبن عباس، وحكاها المهدويّ عن الزجاج. إلا جبريل فإنه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوام، وقاله أبن إسحاق. وقال الربيع: كانت سيماهم أنهم كانوا على خيل بُلُق.

قلت: ذكر البيهقيّ عن سهيل بن عمرو رضي الله عنه قال: لقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً على خيل بُلُقٍ بين السماء والأرض معلِّمين يقتلون ويأسرون. فقلوه: «معلمين» دل على أن الخيل البُلُق ليست السيماء. والله أعلم. وقال مجاهد: كانت خيلهم مَجْزُوزَةٌ الأذنان والأغراف معلِّمة النواصي والأذنان بالصُوف والعِهن<sup>(٢)</sup>. وروي عن أبن عباس: تسوّمت الملائكة يوم بدر بالصُوف الأبيض في نواصي الخيل وأذنانها. وقال عباد بن عبد الله بن الزبير وهشام بن عُروة والكلبي: نزلت الملائكة في سيما الزبير عليهم عمائم صُفْر مُرَحَاة على أكتافهم. وقال ذلك عبد الله وعروة أبن الزبير. وقال عبد الله: كانت ملاءة صفراء أعتَمَ بها الزبير رضي الله عنه.

قلت: ودلّت الآية -

(١) راجع ٣٣/٩.

(٢) العهن: الصوف المصبوغ ألواناً.



**وهي الرابعة - على اتخاذ [الشارة و]<sup>(١)</sup> العلامة للقبائل والكتائب يجعلها السلطان لهم؛ لتمييز كل قبيلة وكتيبة من غيرها عند الحرب، وعلى فضل الخيل البلق لنزول الملائكة عليها.**

**قلت: -** ولعلها نزلت عليها موافقة لفرس المقداد، فإنه كان أبلق ولم يكن لهم فرس غيره، فنزلت الملائكة على الخيل البلق إكراماً للمقداد؛ كما نزل جبريل مُعْتَجِراً<sup>(٢)</sup> بعمامة صفراء على مثال الزبير. والله أعلم. ودلت الآية أيضاً -

**وهي الخامسة - على لباس الصّوف وقد لبسه الأنبياء والصالحون. وروى أبو داود وأبن ماجه واللفظ له عن أبي بريدة عن أبيه قال قال لي أبي: لو شهدتنا ونحن مع رسول الله ﷺ إذا أصابتنا السماء لحسبت أن ريحنا ريح الضّان. ولبس ﷺ جبة رومية من صوف ضيقة الكمّين؛ رواه الأئمة. وليسها يونس عليه السلام؛ رواه مسلم. وسيأتي لهذا المعنى مزيد بيان في «النحل»<sup>(٣)</sup> إن شاء الله تعالى.**

**السادسة - قلت: وأما ما ذكره مجاهد من أن خيلهم كانت مَجْزُوزة الأذنان والأغراف فبعيد؛ فإن في مصنف أبي داود عن عتبة بن عبد السلمي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تقصّوا نواصي الخيل ولا معارفها ولا أذنانها فإن أذنانها مَذَابُهَا ومعارفها دَفَاؤُهَا ونواصيها معقود فيها الخير». فقول مجاهد يحتاج إلى توقيف من أن خيل الملائكة كانت على تلك الصفة. والله أعلم.**

**ودلت الآية على حُسن الأبيض والأصفر من الألوان لنزول الملائكة بذلك، وقد قال ابن عباس: من لبس نَعْلًا أَصْفَرَ قضيت حاجته. وقال عليه السلام: «أَلْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ فإنه من خير ثيابكم وكَفُّنُوا فِيهِ مَوْتَاكُمْ وأما العمامم فتيجان العرب ولباسها». وروى رُكَّانَة - وكان صارح النبي ﷺ فَصَّرَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ - قال رُكَّانَة: وسمعت النبي ﷺ يقول: «فرق ما بيننا وبين المشركين العمامم على القلانس» أخرجه أبو داود. قال البخاري<sup>(٤)</sup>: إسناده مجهول لا يعرف سماع بعضه من بعض.**

(١) من د وفي هـ: الإشارة، والشارة: الهيئة.

(٢) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه،

وفي ب: معتماً. (٣) راجع ١٠/١٥٤. (٤) كذا في د وهـ وب. وفي أ وحـ: النحاس.

[١٢٦] ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

[١٢٧] ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَتَنَقِّلُوا حَاجِبِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ الهاء للمدَد، وهو الملائكة أو الوعد أو الإمداد، ويدل عليه «يُؤْمِدُكُمْ» أو للتسويم أو للإنزال أو العدَد على المعنى؛ لأن خمسة آلاف عدد. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ اللام لام كي، أي ولتطمئن قلوبكم به جعله؛ كقوله: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾<sup>(١)</sup> أي وحفظاً لها جعل ذلك. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني نصر المؤمنين، ولا يدخل في ذلك نصر الكافرين؛ لأن ما وقع لهم من غلبة إنما هو إملاءً محفوفٌ بخذلانٍ وسوء عاقبة وخسران. ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بالقتل. ونظم الآية: ولقد نصركم الله ببدر ليقطع. وقيل: المعنى وما النصر إلا من عند الله ليقطع. ويجوز أن يكون متعلقاً بـ «يُؤْمِدُكُمْ»، أي يمددكم ليقطع. والمعنى: من قُتِلَ من المشركين يوم بدر؛ عن الحسن وغيره. السدي: يعني به من قُتِلَ من المشركين يوم أُحُد وكانوا ثمانية عشر رجلاً. ومعنى «يَكْتُمُهُمْ» يحزنهم؛ والمكُتُوت المحزون. ورُوي أن النبي ﷺ جاء إلى أبي طلحة فرأى ابنه مكُتُوتاً فقال: «ما شأنه؟». فقيل: مات بعيره. وأصله فيما ذكر بعض أهل اللغة «يَكِيدُهُمْ» أي يصيبهم بالحزن والغيب في أكبادهم، فأبدلت الدال تاء، كما قلبت في سَبَتَ رأسه وسبده أي حلقه. كبت الله العدو كَبْتًا إذا<sup>(٢)</sup> صرفه وأذله، وكَبَدَهُ أصابه في كَيْدِهِ؛ يقال: قد أحرق الحزن كبده، وأحرقت العداوة كَيْدَهُ. وتقول العرب للعدو: أسود الكَيْد؛ قال الأعشى:

فَمَا أَجْشَمْتُ<sup>(٣)</sup> مِنْ إِيثَانٍ قَوْمٍ هُمُ الْأَعْدَاءُ وَالْأَكْبَادُ سُودُ

كَانَ الْأَكْبَادُ لَمَّا أَحْتَرَقَتْ بِشَدَّةِ الْعَدَاوَةِ أَسْوَدَتْ. وقرأ أبو مِجْلَزٍ «أو يكيدهم» بالدال. والخائب: المنقطع الأمل. خاب يخيب إذا لم ينل ما طلب. والخِيَاب: القَدَح لا يُورِي.

(١) راجع ٣٤٥/١٥. (٢) في ب: أي صرفه. (٣) أجشمت: كلفت على مشقة.

[١٢٨] ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

[١٢٩] ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ

عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كُفِّرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُكُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ: «كَيْفَ يُفْلَحُ قَوْمٌ شَجَّوْا رَأْسَ نَبِيِّهِمْ وَكَسَرُوا رِبَاعِيَّتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى». فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. الضحَّاك: هَمَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. وقيل: أَسْتَأْذَنَ فِي أَنْ يَدْعُوَ فِي أَسْتِصَالِهِمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلِمَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ سَيُسْلِمُ وَقَدْ آمَنَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَعِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرُهُمْ. وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي عَمْرٍو قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عَلَى أَرْبَعَةِ نَفَرٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فَهَدَاهُمُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ. وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قِيلَ: هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا﴾. وَالْمَعْنَى: لَيَقْتُلُ طَائِفَةً مِنْهُمْ، أَوْ يَحْزَنُهُمْ بِالْهَزِيمَةِ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ. وَقَدْ تَكُونُ «أَوْ» هَا هُنَا بِمَعْنَى «حَتَّى» وَ«إِلَّا أَنْ». قَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ:

... أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

قال علماؤنا: قوله عليه السلام: «كَيْفَ يُفْلَحُ قَوْمٌ شَجَّوْا رَأْسَ نَبِيِّهِمْ» أَسْتَبْعَادٌ لِتَوْفِيقِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ تَقْرِيبٌ لِمَا أَسْتَبْعَدَهُ وَإِطْمَاعٌ فِي إِسْلَامِهِمْ، وَلَمَّا أَطْمَعَ فِي ذَلِكَ قَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي نَصْرٍ مَسْعُودٍ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرْبَهُ قَوْمَهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ

لا يعلمون». قال علماؤنا: فالحاكي في حديث ابن مسعود هو الرسول عليه الصلاة والسلام. وهو المحكي عنه؛ بدليل ما قد جاء صريحاً مبيناً أنه عليه الصلاة والسلام لما كُسرت رباعيته وشُجَّ وجهه يوم أُخذ شقّ ذلك على أصحابه شقّاً شديداً وقالوا: لو دعوت عليهم! فقال: «إني لم أبعث لَعَاناً ولكني بعثت داعياً ورحمة، اللهم أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». فكانه عليه السلام أوحى إليه بذلك قبل وقوع قضية أُحد، ولم يعيّن له ذلك النبي؛ فلما وقع له ذلك تَعَيّن أنه المعنيّ بذلك بدليل ما ذكرنا. ويُبَيّن أيضاً ما قاله عمر له في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾<sup>(١)</sup> الآية. ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا؛ فقد وُطِئ ظهرك وأذمي وجهك وكُسِرَت رِبَاعِيكَتْكَ فأبيت أن تقول إلا خيراً، فقلت: «رب أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». وقوله: «أشدت غضب الله على قوم كسروا رباعية نبيهم» يعني بذلك المباشر لذلك، وقد ذكرنا أسمه على اختلاف في ذلك، وإنما قلنا إنه خصوص في المباشر؛ لأنه قد أسلم جماعة ممن شهد أخذاً وحسن إسلامهم.

**الثانية** - زعم بعض الكوفيين أن هذه الآية ناسخة للَقُتُوتِ الذي كان النبي ﷺ يفعله بعد الركوع في الركعة الأخيرة من الصبح، واحتج بحديث ابن عمر أنه سمع النبي ﷺ يقول في صلاة الفجر بعد رفع رأسه من الركوع فقال: «اللَّهُمَّ ربنا ولك الحمد في الآخرة - ثم قال - اللَّهُمَّ أَلْعَنَ فُلَاناً وَفُلَاناً» فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ الآية. أخرجه البخاري، وأخرجه مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة أتم منه. وليس هذا موضع نسخ وإنما نبّه الله تعالى نبيه على أن الأمر ليس إليه، وأنه لا يعلم من الغيب شيئاً إلا ما أعلمه، وأن الأمر كله لله يتوب على من يشاء ويعجل العقوبة لمن يشاء. والتقدير: ليس لك من الأمر شيء والله ما في السموات وما في الأرض دونك ودونهم يغفر لمن يشاء ويتوب على من يشاء. فلا نسخ، والله أعلم. ويبيّن بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أن الأمور<sup>(٢)</sup> بقضاء الله وقدره رداً على القدرية وغيرهم.

**الثالثة -** وأختلف العلماء في القنوت في صلاة الفجر وغيرها؛ فمنع الكوفيون منه في الفجر وغيرها. وهو مذهب الليث ويحيى بن يحيى الليثي الأندلسي صاحب مالك، وأنكره الشعبي. وفي الموطأ عن ابن عمر: أنه كان لا يَقْنُتُ في شيء من الصلاة. وروى النسائي أنبأنا قتيبة عن خلف عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال: صليت خلف النبي ﷺ فلم يَقْنُتْ، وصليت خلف أبي بكر فلم يَقْنُتْ، وصليت خلف عمر فلم يَقْنُتْ، وصليت خلف عثمان فلم يَقْنُتْ وصليت خلف علي فلم يَقْنُتْ؛ ثم قال: يا بُنَيَّ إنها بدعة. وقيل: يقنت في الفجر دائماً وفي سائر الصلوات إذا نزل بالمسلمين نازلة؛ قاله الشافعي والطبري. وقيل: هو مُسْتَحَبٌّ في صلاة الفجر، وروى عن الشافعي. وقال الحسن وسُخْنُون: إنه سنة. وهو مقتضى رواية علي بن زياد عن مالك بإعادة تاركه للصلاة عمداً. وحكى الطبري الإجماع على أن تركه غير مفسد للصلاة. وعن الحسن: في تركه سجود السهو؛ وهو أحد قولي الشافعي. وذكر الدارقطني عن سعيد بن عبد العزيز فيمن نسي القنوت في صلاة الصبح قال: يسجد سجدة السهو. وأختار مالك قبل الركوع؛ وهو قول إسحاق. وروى أيضاً عن مالك بعد الركوع، وروى عن الخلفاء الأربعة؛ وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق أيضاً. وروى عن جماعة من الصحابة التخيير في ذلك. وروى الدارقطني بإسناد صحيح عن أنس أنه قال: ما زال رسول الله ﷺ يقنت في صلاة الغداة حتى فارق الدنيا. وذكر أبو داود في المراسيل عن خالد بن أبي عمران قال: بينا رسول الله ﷺ يدعو على مُضَرٍّ إذ جاءه جبريل فأومأ إليه أن أسكت فسكت؛ فقال: «يا محمد إن الله لم يبعثك سبباً ولا لعناً وإنما بعثك رحمة ولم يبعثك عذاباً، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾» قال: ثم علّمه هذا القنوت فقال: «اللهم إنا نستعينك ونستغفرُكَ ونؤمنُ بك ونُخَلِّعُ<sup>(١)</sup> لك ونُخَلِّعْ ونُزَكُّ من يَكْفُرُكَ اللهم إياك نَعْبُدُ ولك نصلِّي ونسجُدُ وإليك نسعى ونَحْفِدُ<sup>(٢)</sup> ونرجو رحمتك ونخاف عذابك الجَدَّ إن عذابك بالكافرين مُلْحِقٌ<sup>(٣)</sup>».

(١) الخنوع: الخضوع والذل. (٢) الحفد (يفتح فسكون): الإسراع في العمل والخدمة.

(٣) الرواية بكسر الحاء، أي من نزل به عذابك ألحقه بالكفار. وقيل: هو بمعنى لاحق، لغة في لاحق. ويروى بفتح الحاء على المفعول، أي إن عذابك يلحق بالكفار ويصابون به. (عن ابن الأثير).

[١٣٠] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

[١٣١] ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

[١٣٢] ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.


قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ هذا النهي عن أكل الربا أعترض بين أثناء قصة أحد. قال ابن عطية: ولا أحفظ في ذلك شيئاً مروياً.

قلت: قال مجاهد: كانوا يبيعون البيع إلى أجل، فإذا حلّ الأجل زادوا في الثمن على أن يؤخروا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾. [قلت] <sup>(١)</sup> وإنما خص الربا من بين سائر المعاصي؛ لأنه الذي أذن الله فيه بالحرب في قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ <sup>(٢)</sup> والحرب يؤذن بالقتل؛ فكانه يقول: إن لم تتقوا الربا هُزِمْتُمْ وقُتِلْتُمْ. فأمرهم بترك الربا؛ لأنه كان معمولاً به عندهم. والله أعلم. و﴿أَضْعَافًا﴾ نصب على الحال و﴿مُضَاعَفَةً﴾ نعتة. وقرئ ﴿مُضَعَّفَةً﴾ ومعناه: الربا الذي كانت العرب تُضَعِّف فيه الدين، فكان الطالب يقول: أنقضي أم تُزَيِّي؟ كما تقدّم في «البقرة». و﴿مُضَاعَفَةً﴾ إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً بعد عام كما كانوا يصنعون؛ فدلّت هذه العبارة المؤكدة على شُنْعة فعلهم وقُبْحه؛ ولذلك ذُكِرت حالة التضعيف خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي في أموال الربا فلا تأكلوها. ثم خوفهم فقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ قال كثير من المفسرين: وهذا الوعيد لمن استحل الربا، ومن استحل الربا فإنه يَكْفُر [ويُكْفَر] <sup>(٣)</sup>. وقيل: معناه اتقوا العمل الذي ينزع منكم الإيمان فتستوجبون النار؛ لأن من الذنوب ما يستوجب به صاحبه نزع الإيمان ويخاف عليه؛ من ذلك عقوق الوالدين. وقد جاء في ذلك أثر: أن رجلاً كان عاقاً لوالديه يقال له عَلَقَمَةٌ؛ ف قيل له عند الموت: قل لا إله إلا الله، فلم يقدر على ذلك حتى جاءته أمه فرضيت عنه. ومن ذلك قطيعة الرحم وأكل الربا والخيانة

(١) في هـ. (٢) راجع ٢٥٦/٣. (٣) في دو هـ وفي ب: ويضر.

في الأمانة. وذكر أبو بكر الوراق عن أبي حنيفة أنه قال: أكثر ما ينزع الإيمان من العبد عند الموت. ثم قال أبو بكر: فنظرنا في الذنوب التي تنزع الإيمان فلم نجد شيئاً أسرع نزعاً للإيمان من ظلم العباد. وفي هذه الآية دليل على أن النار مخلوقة رداً على الجَهْمِيَّة؛ لأنَّ المعدوم لا يكون مُعَدَّاً. ثم قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ [يعني أطيعوا الله] <sup>(١)</sup> في الفرائض ﴿وَالرَّسُولَ﴾ في السنن: وقيل: «أَطِيعُوا اللَّهَ» في تحريم الربا «والرسول» فيما بلغكم من التحريم. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي كي يرحمكم الله. وقد تقدّم <sup>(٢)</sup>.

[١٣٣] ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا﴾ قرأ نافع وأبن عامر «سَارِعُوا» بغير واو؛ وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة وأهل الشام. وقرأ باقي السبعة «وَسَارِعُوا» بالواو. وقال أبو علي: كلا الأمرين شائع <sup>(٣)</sup> مستقيم، فمن قرأ بالواو فلائنه عطف الجملة على الجملة، ومن ترك الواو فلائ الجملة الثانية ملتبسة بالأولى مستغنيةً بذلك عن العطف بالواو. والمسارة المبادرة، وهي مفاعلة وفي الآية حذف، أي سارعوا إلى ما يوجب المغفرة وهي الطاعة. قال أنس بن مالك ومكحول في تفسير ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: معناه إلى تكبيرة الإحرام. وقال علي بن أبي طالب: إلى أداء الفرائض. عثمان بن عفان: إلى الإخلاص. الكلبي: إلى التوبة من الربا. وقيل: إلى الثبات في القتال. وقيل غير هذا. والآية عامّة في الجميع، ومعناها معنى ﴿فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وقد تقدّم <sup>(٤)</sup>.

الثانية - قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ تقديره كعرض فحذف المضاف؛ كقوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ <sup>(٥)</sup> أي إلا كخلق نفس واحدة وبعثها. قال الشاعر:

(١) في هـ. (٢) زاجع ١/٢٢٧.

(٣) في هـ: سائغ. (٤) زاجع ٢/١٦٥.

(٥) زاجع ١٤/٧٨.

حَسِبْتُ بُغَامَ رَاحِلَتِي عَنَاقاً وما هي وَيَبْ غَيْرِكَ بِالْعَنَاقِ<sup>(١)</sup>  
يريد صوت عناق. نظيره في سورة الحديد ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ  
وَالْأَرْضِ﴾<sup>(٢)</sup>.

وآختلف العلماء في تأويله؛ فقال ابن عباس: تُقَرَنُ السموات والأرض بعضها إلى  
بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض؛ فذلك عرض الجنة، ولا يعلم طولها إلا  
الله. وهذا قول الجمهور، وذلك لا ينكر؛ فإن في حديث أبي ذر عن النبي ﷺ «ما  
السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كدراهم ألقيت في فلاة من الأرض وما  
الكرسي في العرش إلا كحلقة<sup>(٣)</sup>» ألقيت في فلاة من الأرض». فهذه مخلوقات أعظم بكثير  
جداً من السموات والأرض، وقدرة الله أعظم من ذلك كله. وقال الكلبي: الجنان أربعة:  
جنة عدن وجنة المأوى وجنة الفردوس وجنة النعيم، وكل جنة منها كعرض السماء  
والأرض لو وصل بعضها ببعض. وقال إسماعيل السدي: لو كسرت السموات والأرض  
وصرن خردلا، فيكل خردلة جنة عرضها كعرض السماء والأرض. وفي الصحيح: «إن  
أدنى أهل الجنة منزلة من يتمنى ويتمنى حتى إذا أنقطععت به الأمانى قال الله تعالى: «لك  
ذلك وعشرة أمثاله» رواه أبو سعيد الخدري، خرجه مسلم وغيره. وقال يعلى بن أبي مرة:  
لَقِيتُ التَّنُوخِيَّ رَسُولَ هِرْقُلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِحِمْنٍ شَيْخاً كَبِيراً قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ  
الله ﷺ بكتاب هِرْقُلَ، فناول الصحيفة رجلاً عن يساره؛ قال: فقلت من صاحبكم الذي  
يقرأ؟ قالوا: معاوية؛ فإذا كتاب صاحبي: إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات  
والأرض فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار». وبمثل  
هذه الحجة أستدل الفاروق على اليهود حين قالوا له: أرايت قولكم ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ  
وَالْأَرْضُ﴾ فأين النار؟ فقالوا له: لقد نزعنا بما<sup>(٤)</sup> في التوراة. وتنبه تعالى بالعرض على  
الطول لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، والطول إذا ذكر لا يدل على قدر

(١) بغام الناقة: صوت لا تفصح به. والعناق (بالفتح): الأنتى من المعز. ويوب، بمعنى ويل.  
والبيت لذي الخرق الطهوي يخاطب ذنباً تبعه في طريقه. (عن اللسان).

(٢) راجع ٢٥٤/١٧.

(٣) في هـ: من حديث. (٤) نزعنا بما في التوراة: جئت بما يشبهها.



العرض. قال الزُّهْرِيُّ: إنما وصف عرضها، فأما طولها فلا يعلمه إلا الله؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾<sup>(١)</sup> فوصف البطانة بأحسن ما يعلم من الزينة، إذ معلوم أن الظواهر تكون أحسن وأتقن من البطائن. وتقول العرب: بلاد عريضة، وفلاة عريضة، أي واسعة؛ قال الشاعر:

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كِفَّةُ حَابِلٍ<sup>(٢)</sup>

وقال قوم: الكلام جارٍ على مَقْطَعِ العرب من الاستعارة؛ فلما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غاية قصوى حسنت العبارة عنها بعرض السموات والأرض؛ كما تقول للرجل: هذا بخُرٍّ، ولشخص كبير من الحيوان: هذا جبل. ولم تقصِدِ الآية تحديد العرض، ولكن<sup>(٣)</sup> أراد بذلك أنها أوسع شيء رأيتموه. وعامة العلماء على أن الجنة مخلوقة موجودة: لقوله ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهو نص حديث الإسراء وغيره في الصحيحين وغيرهما. وقالت المعتزلة: إنهما غير مخلوقتين في وقتنا، وإن الله تعالى إذا طوى السموات والأرض ابتداء خلق الجنة والنار حيث شاء؛ لأنهما دار جزاء بالثواب والعقاب، فخلقنا بعد التكليف في وقت الجزاء؛ لثلاث تجتمع دار التكليف ودار الجزاء في الدنيا، كما لم يجتمعا في الآخرة. وقال ابن فورك: الجنة يزداد فيها يوم القيامة. قال ابن عطية: وفي هذا متعلق لمنذر بن سعيد وغيره ممن قال: إن الجنة لم تخلق بعد. قال ابن عطية: وقول ابن فورك «يزداد فيها» إشارة إلى موجود، لكنه يحتاج إلى سند يقطع العذر في الزيادة.

قلت: صدق ابن عطية رضي الله عنه فيما قال: وإذا كانت السموات السبع والأرضون السبع بالنسبة إلى الكرسي كدراهم أُلقيت في فلاة من الأرض، والكرسي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة؛ فالجنة الآن على ما هي عليه في الآخرة عرضها كعرض السموات والأرض؛ إذ العرش سقفها، حسب ما ورد في صحيح مسلم. ومعلوم أن السقف يحتوي على ما تحته ويزيد. وإذا كانت المخلوقات كلها بالنسبة إليه كالحلقة فمن ذا الذي يقدّره ويعلم طول وعرضه إلا الله خالقه الذي لا نهاية لقدرته<sup>(٤)</sup>، ولا غاية لسعة مملكته، سبحانه وتعالى.

(٢) الكفة (بالكسر): ما يصاد به الطباء، يجعل كالطوق.

(١) راجع ١٧/١٧٩.

(٤) في د. وب. وهـ: لمقدوراته.

(٣) في د. وهـ: ولكنه يراد.

[١٣٤] ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ  
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ هذا من صفة المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وظاهر الآية أنها مدح بفعل المندوب إليه . و ﴿السَّرَّاءِ﴾ اليسر ﴿والضَّرَّاءِ﴾ العسر؛ قاله ابن عباس والكلبي ومقاتل . وقال عبيد بن عمير والضحاك : السَّرَّاء والضَّرَّاء الرخاء والشدة . ويقال في حال الصحة والمرض . وقيل : في السَّرَّاء في الحياة، وفي الضَّرَّاء يعني يوصي بعد الموت . وقيل : في السَّرَّاء في العرس والولائم، وفي الضَّرَّاء في النوائب والمآثم . وقيل : في السَّرَّاء النفقة التي تسرِّكم؛ مثل النفقة على الأولاد والقربات، والضَّرَّاء على الأعداء . ويقال : في السَّرَّاء ما يضيف به الفتى<sup>(١)</sup> ويُهْدَى إليه . والضَّرَّاء ما ينفقه على أهل الضرِّ ويتصدق به عليهم .

قلت : - والآية تعم . ثم قال تعالى : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ وهي المسألة :

الثانية - وكَظَّم الغيظ ردّه في الجوف؛ يقال : كظّم غيظه أي سكت عليه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوّه، وكظمت السَّقاء أي ملأته وسدّدت عليه، والكِظامة ما يسدّ به مجرى الماء؛ ومنه الكِظام للسير الذي يسدّ به فَمُ الرِّقِّ والقربة . وكظّم البعير جِرتَه<sup>(٢)</sup> إذا ردّها في جوفه؛ وقد يقال لحبسه الجرة قبل أن يرسلها إلى فيه : كظّم؛ حكاة الزجاج، . يقال : كظّم البعير والناقة إذا لم يَجْتَرًا، ومنه قول الراعي :

فأَفْضَنَ بَعْدَ كُظُومِهِنَّ بِجِرَّةٍ      من ذي الأَبَارِقِ<sup>(٣)</sup> إِذْ رَعَيْنِ حَقِيلًا

الحَقِيل : موضع . والحَقِيل نبت . وقد قيل : إنها تفعل ذلك عند الفزع والجهد فلا تجترّ؛ قال أعشى باهلة يصف رجلاً نحاراً للإبل فهي تفزع منه :

قد تَكْظُمُ البُزْلُ<sup>(٤)</sup> مِنْهُ حِينَ تُبْصِرُهُ      حَتَّى تَقْطَعَ فِي أَجْوَافِهَا الْجِرَرُ

(١) في د، وز : الغنى . (٢) الجرة (بالكسر) : ما يخرج البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه .

(٣) في ب وهـ : ذي الأَباطيح .

(٤) البزل (بضم فسكون) : جمع بازل، وهو البعير الذي كملت قوّته ودخل في التاسعة وفطر نابه .

ومنه: رجل كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئاً غماً وحزناً. وفي التنزيل: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾. ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾. والغيظ أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان لكن فُرْقَانٌ ما بينهما، أنَّ الغيظ لا يظهر على الجوارح، بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعل ما ولا بد؛ ولهذا جاء<sup>(٢)</sup> إسناد الغضب إلى الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم. وقد فسر بعض الناس الغيظ بالغضب؛ وليس بجيد. والله أعلم.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ العفو عن الناس أَجَلٌ ضَرْوبِ فعل الخير؛ حيث يجوز للإنسان أن يعفو وحيث يَتَجَهَّ حقّه. وكل من استحق عقوبة فُتِرَكَ له فقد عُفِيَ عنه. وأختلف في معنى ﴿عَنِ النَّاسِ﴾؛ فقال أبو العالية والكلبي والزجاج: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ يريد عن الممالك. قال ابن عطية: وهذا حسن على جهة المثال؛ إذ هم الخُدَمَة فهم يذنبون كثيراً والقدرة عليهم متيسرة، وإنفاذ العقوبة سهل؛ فلذلك مثل هذا المفسّر به. وروى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مَرَقَة حارّة، وعنده أضياف فعثرت فصبت المرقّة عليه، فأراد ميمون أن يضربها، فقالت الجارية: يا مولاي، أستعمل قول الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾. قال لها: قد فعلت. فقالت: أعمل بما بعده ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. فقال: قد عفوتُ عنك. فقالت الجارية: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. قال ميمون: قد أحسنت إليك، فأنّت حرّة لوجه الله تعالى. وروى عن الأحنف بن قيس مثله. وقال زيد بن سلم: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ عن ظلمهم وإساءتهم<sup>(٣)</sup>. وهذا عام، وهو ظاهر الآية. وقال مقاتل بن حيان في هذه الآية: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال عند ذلك: «إِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ أُمَّتِي قَلِيلٌ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ وَقَدْ كَانُوا كَثِيرًا فِي الْأُمَمِ الَّتِي مَضَتْ». فمدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب وأثنى عليهم فقال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾<sup>(٤)</sup>، وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله: «وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ»، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم في ذلك. ووردت في كظم الغيظ والعفو عن الناس وملئ النفس عند الغضب أحاديث؛ وذلك من

(١) راجع ٢٤٧/٩ و ١١٦/١٠ و ٢٥٢/١٨.

(٢) في د: جاز.

(٣) في هـ: ممن ظلمهم وإساء إليهم.

(٤) راجع ٣٥/١٦.

أعظم العبادة وجهاد النفس؛ فقال ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرْعَةِ<sup>(١)</sup> ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». وقال عليه السلام: «ما من جرعة يتجرّعها العبد خير له وأعظم أجراً من جرعة غيظ في الله». وروى أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما أشد من كل شيء؟ قال: «غضب الله». قال فما ينجي من غضب الله؟ قال: «لا تغضب». قال العرجي:

وإذا غضبت فكن وقوراً كاظماً  
للغيظ تبصّر ما تقول وتسمع  
فكفى به شرفاً تبصّر ساعة  
يرضى بها عنك الإله وتُرفع  
وقال عروة بن الزبير في العفو:

لن يبلغ المجد أقوامٌ وإن شرفوا  
حتى يُذلّوا وإن عَزّوا لأقوامٍ  
ويُشتمّوا فترى الألوان مُشرّقة  
لا عَفْوٌ ذُلٌّ ولكن عَفْوٌ إكرامٍ

وروى أبو داود وأبو عيسى الترمذي عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء» قال: هذا حديث حسن غريب. وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان أجره على الله فليدخل الجنة فيقال من ذا الذي أجره على الله فيقوم العافون عن الناس يدخلون الجنة بغير حساب». ذكره الماوردي. وقال ابن المبارك: كنت عند المنصور جالساً فأمر بقتل رجل؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد بين يدي الله عز وجل من كانت له يد عند الله فليتقدّم فلا يتقدّم إلا من عفا عن ذنب»؛ فأمر بإطلاقه.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي يُثيبهم على إحسانهم. قال سري السقطي: الإحسان أن تحسّن وقت الإمكان، فليس كل وقت يمكنك الإحسان؛ قال الشاعر:

(١) الصرعة (بضم الصاد وفتح الراء): المبالغ في الصراع الذي لا يغلب؛ فنقله إلى الذي يغلب نفسه عند الغضب ويقهرها.

بَادِرْ بِخَيْرٍ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا      فليس في كلِّ وقتٍ أنت مُقْتَدِرٌ  
وقال أبو العباس الجُمَانِيّ فاحسن:

ليس في كلِّ ساعةٍ وأوانٍ      تَهَيَّأُ صَنَائِعُ الإِحْسَانِ  
وإذا أُمُكِّنْتَ فبَادِرْ إِلَيْهَا      حَذَرًا مِنْ تَعَذُّرِ الإِمْكَانِ

وقد مضى في «البقرة»<sup>(١)</sup> القول في المحسن والإحسان فلا معنى للإعادة.

[١٣٥] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَقُولَ اللَّهُ لَهُمْ لَمْ يَغْفِرْ لَكُمْ تَوْبَةً أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرِ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية صنفًا، هم دون الصنف الأول فالحقهم به<sup>(٢)</sup> برحمته ومنه؛ فهؤلاء هم التوابون. قال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت هذه الآية في نَبْهَانَ الثَّمَار - وكنيته أبو مُقْبِل - أنه امرأة حسناء باع منها تمرًا، فضمها إلى نفسه وقبلها فندم<sup>(٣)</sup> على ذلك، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له؛ فنزلت هذه الآية. وذكر أبو داود الطيالسي في مسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني أبو بكر - وصديق أبو بكر - أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يذنب ذنباً ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له - ثم تلا هذه الآية - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ - الآية، والآية الأخرى - ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾<sup>(٤)</sup>. وخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. وهذا عام. وقد نزل الآية بسبب خاص ثم تتناول جميع من فعل ذلك أو أكثر منه. وقد قيل: إن سبب نزولها أن ثَقَفِيًّا خرج في غزاة وخلف صاحباً له أنصارياً على أهله، فخانه فيها بأن

(١) راجع ٤١٥/١.

(٢) في ابن عطية: بهم.

(٣) في ب ود وهـ: ثم.

(٤) راجع ٣٨٠/٥.

أَتَحْتَمِ عَلَيْهَا فِدْفَعَتْ عَنْ نَفْسِهَا فَقَبِلَ يَدَهَا، فَنَدِمَ<sup>(١)</sup> عَلَى ذَلِكَ فَخَرَجَ يَسِيحُ فِي الْأَرْضِ نَادِماً تَائِباً؛ فَجَاءَ الثَّقَفِيَّ فَأَخْبَرْتَهُ زَوْجَتَهُ بِفِعْلِ صَاحِبِهِ، فَخَرَجَ فِي طَلْبِهِ فَأَتَى بِهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَجَاءٌ أَنْ يَجِدَ عِنْدَهُمَا فَرَجاً فَوَبَّخَاهُ؛ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِفِعْلِهِ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَالْعُمُومُ أَوْلَى لِلْحَدِيثِ. وَرَوَى عَنْ أَبِيْن مَسْعُودٍ أَنَّ الصَّحَابَةَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَّا، حَيْثُ كَانَ الْمَذْنِبُ مِنْهُمْ تُضْبِحُ عَقُوبَتُهُ [مَكْتُوبَةً]<sup>(٢)</sup> عَلَى بَابِ دَارِهِ، وَفِي رِوَايَةٍ: كَفَارَةٌ ذُنُوبُهُ مَكْتُوبَةٌ عَلَى عَتَبَةِ دَارِهِ: أَنْجِدْ أَنْفَكَ، أَقْطَعْ أَذُنَكَ، أَفْعَلْ كَذَا؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ تَوْسِيعَةً وَرَحْمَةً وَعِوَضاً مِنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ بَيْنِي وَإِسْرَائِيلَ. وَيُرْوَى أَنَّ إِبْلِيسَ بَكَى حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَالْفَاحِشَةُ تَطْلُقُ عَلَى كُلِّ مَعْصِيَةٍ، وَقَدْ كَثُرَ اخْتِصَاصُهَا بِالزَّانَا حَتَّى فَسَّرَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالسَّديُّ هَذِهِ الْآيَةَ بِالزَّانَا. وَ«أَوْ» فِي قَوْلِهِ: «أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» قِيلَ هِيَ بِمَعْنَى الْوَاوِ؛ وَالْمُرَادُ مَا دُونَ الْكِبَايِرِ. «ذَكَرُوا اللَّهَ» مَعْنَاهُ بِالْخَوْفِ مِنْ عِقَابِهِ وَالْحَيَاءِ مِنْهُ. الضَّحَاكُ: ذَكَرُوا الْعَرَضَ الْأَكْبَرَ عَلَى اللَّهِ. وَقِيلَ تَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَنْهُ؛ قَالَهُ الْكَلْبِيُّ وَمِقَاتِلُ. وَعَنْ مِقَاتِلٍ أَيْضاً؛ ذَكَرُوا اللَّهَ بِاللِّسَانِ عِنْدَ الذُّنُوبِ. «فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» أَيِ طَلَبُوا الْغُفْرَانَ لِأَجْلِ ذُنُوبِهِمْ. وَكُلُّ دَعَاءٍ فِيهِ هَذَا الْمَعْنَى أَوْ لَفْظُهُ فَهُوَ اسْتَغْفَارٌ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ<sup>(٣)</sup> سَيِّدُ الْاسْتَغْفَارِ، وَأَنَّ وَقْتَهُ الْأَسْحَارُ. فَالْاسْتَغْفَارُ عَظِيمٌ وَثَوَابُهُ جَسِيمٌ، حَتَّى لَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ». وَرَوَى مَكْحُولٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ اسْتَغْفَاراً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ مَكْحُولٌ: مَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ اسْتَغْفَاراً مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَكَانَ مَكْحُولٌ كَثِيرَ الْاسْتَغْفَارِ. قَالَ عِلْمَاؤُنَا: الْاسْتَغْفَارُ الْمَطْلُوبُ هُوَ الَّذِي يَحُلُّ عَقْدَ الْإِصْرَارِ وَيُثَبِّتُ مَعْنَاهُ فِي الْجَنَانِ، لَا التَّلَفُظَ بِاللِّسَانِ. فَأَمَّا مَنْ قَالَ بِلِسَانِهِ: اسْتَغْفَرَ اللَّهَ، وَقَلْبُهُ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَاسْتَغْفَارُهُ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى اسْتَغْفَارٍ، وَصَغِيرَتِهِ لَاحِقَةٌ بِالْكِبَايِرِ. وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: اسْتَغْفَارُنَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتَغْفَارٍ.

(١) فِي ب وَد وَه: ثُمَّ.

(٢) كَذَا فِي أَبِيْن عَطِيَّةٍ، وَهِيَ الرِّوَايَةُ. (٣) رَاجِعْ ص ٣٨.

قلت : هذا يقوله في زمانه ، فكيف في زماننا هذا الذي يُرى فيه الإنسان مُكِبّاً على الظلم ! حريصاً عليه لا يُقْلِع ، والسُّبْحَةُ في يده زاعماً أنه يستغفر الله من ذنبه وذلك أستهزاء منه وأستخفاف . وفي التنزيل ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ وقد تقدّم<sup>(١)</sup>.

**الثانية -** قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي ليس أحد يغفر المعصية ولا يزيل عقوبتها إلا الله . ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ أي ولم يشبثوا ويعزموا على ما فعلوا . وقال مجاهد : أي ولم يمشوا . وقال معبد بن صُبَيْح : صليت خلف عثمان وعليّ إلى جانبي ، فأقبل علينا فقال : صليتُ بغير وضوء ثم ذهب فتوضأ وصلى . ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . الإصرار هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه . ومنه صَرَّ الدنانير أي الرّبط عليها ؛ قال الحطيئة يصف الخيل :

عوابس بالشُّغْثِ الكُماة إذا أبتغوا غُلَّلتها بالمُحْصَدَاتِ<sup>(٢)</sup> أَصْرَتْ

أي ثبّتت على عَدْوِها . وقال قتادة : الإصرار الثبوت على المعاصي ؛ قال الشاعر :

يُصِرُّ بِاللَّيْلِ مَا تُخْفِي شَوَاكِلُهُ<sup>(٣)</sup> يا وَيْحَ كُلِّ مُصِرِّ الْقَلْبِ خَتَّارِ<sup>(٤)</sup>

قال سهل بن عبد الله : الجاهل ميّتٌ ، والناسي نائمٌ ، والعاصي سَكْرانٌ ، والمصِرُّ هالكٌ ، والإصرار هو التسويف ، والتسويف أن يقول : أتوب غداً ؛ وهذا دعوى النفس ، كيف يتوب غداً وغداً لا يملكه ! . وقال غير سهل : الإصرار هو أن ينوي ألا يتوب فإذا نوى التوبة [النصوح]<sup>(٥)</sup> خرج عن الإصرار . وقول سهل أحسن . ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال : « لا توبة مع إصرار » .

**الثالثة -** قال علماؤنا : الباعث على التوبة وحلّ الإصرار إدامة الفكر في كتاب الله العزيز الغفّار ، وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطيعين ، وما وصفه من

(١) راجع ٤٤٦/١ و ١٥٦/٣ .

(٢) العلالة (بالضم) : بقية جري الفرس ، والمحصدات : السياط المقتولة .

(٣) الشواكل : الطرق المنشعبة عن الطريق الأعظم .

(٤) الختر : شبيه بالغدر والخديعة . وقيل : هو أسوأ الغدر وأقبحه ، و « ختار » للمبالغة .

(٥) في ب ود .

عذاب النار وتهتد به العاصين، ودام على ذلك حتى قوي خوفه ورجاؤه فدعا الله رَغْبًا وَرَهْبًا؛ والرَّغْبَةُ والرَّهْبَةُ ثمرة الخوف والرجاء، يخاف من العقاب ويرجو الثواب، والله الموفق للصواب. وقد قيل: إن الباعث على ذلك تنبيه إلهي ينبه به من أراد سعادته؛ لِقَبْح الذنوب وضررها إذ هي سُموم مهلكة.

قلت: وهذا خلاف في اللفظ لا في المعنى، فإن الإنسان لا يتفكر في وعد الله ووَعِيدِهِ إِلَّا بِنَتِيهِهِ؛ فإذا نظر العبد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه فوجدها مشحونة بذنوب اكتسبها وسيئات اقترفها، وانبعث منه الندم على ما فرط، وترك مثل ما سبق مخافة عقوبة الله تعالى صَدَقَ عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك كان مِصْرًا على المعصية وملازمًا لأسباب الهلكة. قال سهل بن عبد الله: علامة التائب أن يشغله الذنب على الطعام والشراب؛ كالثلاثة الذين خُلِفُوا<sup>(١)</sup>.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه أقوال. فقيل: أي يذكرون ذنوبهم فيتوبون منها. قال النحاس: وهذا قول حسن. وقيل: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي أعاقب على الإصرار. وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم إن تابوا تاب الله عليهم. وقيل: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أنهم إن استغفروا غفر لهم. وقيل: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بما حرمت عليهم؛ قاله ابن إسحاق. وقال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبي: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الإصرار ضار، وأن تركه خير من التماذي. وقال الحسن بن الفضل: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن لهم رباً يغفر الذنب.

قلت: وهذا أخذه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: «أَذْنَبَ عَبْدٌ»<sup>(٢)</sup> ذنباً فقال اللهم اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى أذنبت عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنبت فقال أي رب اغفر لي ذنبي - فذكر مثله مرتين، وفي آخره: اعمل ما شئت فقد غفرت لك» أخرجه مسلم.

(١) هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك؛ فلما رجع رسول الله ﷺ قال لأصحابه «لا تكلمن أحداً من هؤلاء الثلاثة» إلى أن نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا...﴾ راجع ٢٨١/٨، وسيرة ابن هشام ص ٨٩٣ طبع أوروبا.

(٢) في هـ: عبدي. والثابت هو ما في مسلم.



وفيه دليلٌ على صحة التوبة بعد نقضها بمُعاودة الذنب؛ لأن التوبة الأولى طاعةٌ وقد انقضت وصحَّت، وهو محتاج بعد موقعة الذنب الثاني إلى توبة أخرى مستأنفة، والعود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه أضاف<sup>(١)</sup> إلى الذنب نقض التوبة، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنه أضاف<sup>(١)</sup> إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم، وأنه لا غافر للذنوب سواه. وقوله في آخر الحديث «اعمل ما شئت» أمرٌ معناه الإكرام في أحد الأقوال؛ فيكون من باب قوله «اذْخُلُوهَا بِسَلَامٍ»<sup>(٢)</sup>. وآخر الكلام خبرٌ<sup>(٣)</sup> عن حال المخاطب بأنه مغفور له ما سلف من ذنبه، ومحفوظ إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه. ودلت الآية والحديث على عظيم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه، قال ﷺ: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه» أخرجاه في الصحيحين. وقال:

يَسْتَوْجِبُ الْعَفْوَ الْفَتَى إِذَا اعْتَرَفَ بِمَا جَنَى مِنَ الذُّنُوبِ وَاعْتَرَفَ  
وَقَالَ آخِرُ:

أَقَرَّرَ بِذَنْبِكَ ثُمَّ اطْلُبْ تَجَاوُزَهُ  
إِنَّ الْجُحُودَ جُحُودٌ الذَّنْبُ ذَنْبَانِ  
وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يُذنبون ويستغفرون فيغفر لهم». وهذه فائدة اسم الله تعالى الغفار والتواب، على ما بيناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى:

**الخامسة - الذنوب التي يُتاب منها إما كُفِّرَ أو غيره، فتوبة الكافر إيمانه مع ندمه على ما سلف من كفره، وليس مجرّد الإيمان نفس توبة، وغير الكفر إما حقٌّ لله تعالى، وإما حقٌّ لغيره، فحق الله تعالى يكفي في التوبة منه التُّرك؛ غير أن منها ما لم يكتفِ الشرع فيها بمجرّد التُّرك بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاء كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كفارة كالجُنْحُ في الأيمان والطَّهَارُ وغير ذلك، وأما حقوقُ الآدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم يوجدوا تُصَدَّقْ عنهم، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسارِ فعفو الله مأمولٌ، وفضله مبذولٌ؛ فكم ضمّن من التَّعَاتِ وبدل من السيئات بالحسنات. وستأتي زيادة بيان لهذا المعنى<sup>(٤)</sup>.**

(٢) راجع ٣٢/١٠، و ٢١/١٧.

(٤) راجع ٧٧/١٣.

(١) في ب ود وهـ: أنضاف

(٣) في أ وحـ: أخبر.

**السادسة -** ليس على الإنسان إذا لم يذكر ذنبه ويعلمه أن يتوب منه بعينه، ولكن يلزمه إذا ذكر ذنباً تاب منه. وقد تأوّل كثير من الناس فيما ذكر شيخنا أبو محمد عبد المعطي الأسكندراني رضي الله عنه أن الإمام المحاسبي رحمه الله يرى أن التوبة من أجناس المعاصي لا تصح، وأن الندم على جملتها لا يكفي، بل لا بدّ أن يتوب من كل فعلٍ بجارحته وكل عقد بقلبه على التعيين. ظنوا ذلك من قوله، وليس هذا مراده، ولا يقتضيه كلامه، بل حكم المكلف إذا عرف حكم أفعاله، وعرف المعصية من غيرها، صحّت منه التوبة من جملة ما عرف؛ فإنه إن لم يعرف كون فعله الماضي معصية لا يمكنه أن يتوب منه لا على الجملة ولا على التفصيل؛ ومثاله رجل كان يتعاطى باباً من أبواب الربا ولا يعرف أنه رباٌ فإذا سمع كلام الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ<sup>(١)</sup> عظم عليه هذا التهديد، وظن أنه سالم من الربا، فإذا علم حقيقة الربا الآن، ثم تفكر فيما مضى من أيامه وعلم أنه لا بسّ منه شيئاً كثيراً في أوقات متقدمة، صحّ أن يندم عليه الآن جملة، ولا يلزمه تعيين أوقاته، وهكذا كل ما واقع من الذنوب والسيئات كالغيبة والنميمة وغير ذلك من المحرّمات التي لم يعرف كونها محرّمة، فإذا فقه العبد وتفقد ما مضى من كلامه تاب من ذلك جملةً، ونَدِمَ على ما فرط فيه من حق الله تعالى، وإذا استحلّ مَنْ كان ظلمه فحالفه على الجملة وطابت نفسه بترك حقه جاز؛ لأنه من باب هبة المجهول، هذا مع شُحِّ العبد وحرصه على طلب حقه، فكيف بأكرم الأكرمين المتفضل بالطاعات وأسبابها والعفو عن المعاصي صفارها وكبارها. قال شيخنا رحمه الله تعالى: هذا مراد الإمام، والذي يدل عليه كلامه لمن تفقّده، وما ظنه به الظان من أنه لا يصح الندم إلا على فعلٍ فعلٍ وحركة حركة وسكنة سكنة على التعيين هو من باب تكليف ما لا يُطاق، الذي لم يقع شرعاً وإن جاز عقلاً، ويلزم عنه أن يعرف كم جرعة جرعتها في شرب الخمر، وكم حركة تحركها في الزنا، وكم خطوة مشاها إلى محرّم، وهذا ما لا يطيقه أحدٌ، ولا تتأتى منه توبة على التفصيل. وسياتي لهذا الباب مزيد بيان من أحكام التوبة وشروطها في «النساء»<sup>(٢)</sup> وغيرها إن شاء الله تعالى.

(١) راجع ٣/٣٦٢.

(٢) راجع ٥/٩٠، و ١١/٢٣١، و ١٣/٢٣٨.

السابعة - في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ حُجَّةٌ واضحة ودلالة قاطعة لما قاله سيف السنة، ولسان الأمة القاضي أبو بكر بن الطيب: أن الإنسان يؤاخذ بما وطَّن عليه بضميره<sup>(١)</sup>، وعزم عليه بقلبه من المعصية.

قلت: وفي التنزيل ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup> وقال: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾<sup>(٣)</sup>. فعوقبوا قبل فعلهم بعزمهم وسيأتي بيانه. وفي البخاري «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». فعلق الوعيد على الحرص وهو العزم وألغى إظهار السلاح، وأنصت من هذا ما خرَّجه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري وصححه مرفوعاً «إنما الدنيا لأربعة نفر رجل أعطاه الله مالاً وعِلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم الله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو [صادق النية]<sup>(٤)</sup> يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو نيته فأجرهما سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته عِلماً فهو [يخبط في ماله بغير علم]<sup>(٤)</sup> لا يتقي فيه ربه ولا يصل به رحمه ولا يعلم الله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو نيته فوزرهما سواء». وهذا الذي صار إليه القاضي هو الذي عليه عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، ولا يُلْتَفَت إلى خلاف من زعم أن ما يَهْمُ الإنسان به وإن وطَّن عليه<sup>(٥)</sup> لا يؤاخذ به. ولا حجة [له]<sup>(٦)</sup> في قوله عليه السلام: «من همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه فإن عملها كتبت سيئة واحدة» لأن معنى «فلم يعملها» فلم يعزم على عملها بدليل ما ذكرنا، ومعنى «فإن عملها» أي أظهرها أو عزم عليها بدليل ما وصفنا. وبالله توفيقنا.

[١٣٦] ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِمَا كَسَبَتْ جَزَآؤُهَا أَجْرُ الْمُكْسِبِينَ﴾.

رتب تعالى بفضله وكرمه غفران الذنوب لمن أخلص في توبته ولم يصِرْ على ذنبه. ويمكن أن يتصل هذا بقصة أحد، أي من قرَّ ثم تاب ولم يصِرْ فله مغفرة الله.

(١) في أحد: وطن عليه ضميره، وعلى ما أثبت بقدر المعمول.

(٢) راجع ٣٤/١٢. (٣) راجع ٢٤١/١٨. (٤) زيادة عن سنن الترمذي.

(٥) المعمول محذوف في كل الأصول، وتقديره في قول القاضي السابق. (٦) في هـ.

[١٣٧] ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

هذا تسلية من الله تعالى للمؤمنين، والسُّنَن جمع سُنَّة وهي الطريق المستقيم. وفلان على السنة أي على طريق الاستواء لا يميل إلى شيء من الأهواء، قال الهذلي:

فلا تَجْزَعَنَّ مِنْ سُنَّةِ أَنْتَ سِرَّتْهَا      فأول راضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا  
والسنة: الإمام المتبع المؤتم به، يقال: سن فلان سنة حسنة وسيئة إذا عمل عملاً اقتدي به فيه من خير أو شر، قال لبيد:

مِنْ مَعْشِرٍ سُنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ      ولكل قوم سنة وإمامها  
والسنة الأمة، والسنة الأمم، عن المفضل. وأنشد:

ما عَايَنَ النَّاسُ مِنْ فَضْلٍ كَفَضْلِهِمْ      ولا رَأَوْا مِثْلَهُمْ فِي سَالِفِ السَّنَنِ  
وقال الزجاج: والمعنى أهل سنن، فحذف المضاف. وقال أبو زيد: أمثال. عطاء شرائع. مجاهد: المعنى ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يعني بالهلاك فيمن كذب قبلكم كعادٍ وثمود. والعاقبة آخر الأمر، وهذا في يوم أحد. يقول فانا أمهلهم وأملئ لهم وأستدرجهم حتى يبلغ الكتاب أجله، يعني بنصرة النبي ﷺ والمؤمنين وهلاك أعدائهم الكافرين.

[١٣٨] ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

يعني القرآن، عن الحسن وغيره. وقيل: هذا إشارة إلى قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾. والموعظة الوعظ. وقد تقدم.

[١٣٩] ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

عزاهم وسلاهم بما نالهم يوم أحد من القتل والجراح، وحثهم على قتال عدوهم ونهاهم عن العجز والفشل فقال ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي لا تضعفوا ولا تحبثوا يا أصحاب محمد عن جهاد أعدائكم لما

أصَابَكُمْ. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ظهورهم، ولا على ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة. ﴿وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ﴾ أي لكم تكون العاقبة بالنصر والظفر ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي بصدق وَعْدِي. وقيل: «إن» بمعنى «إذ». قال ابن عباس: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ يوم أُحُد فبينا هم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل من المشركين، يريد أن يعلو عليهم الجبل؛ فقال النبي ﷺ: «اللهم لا يعلُن علينا اللهم لا قوة لنا إلا بك اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر». فأنزل الله هذه الآيات. وثاب<sup>(١)</sup> نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ﴾ يعني الغالبيين على الأعداء بعد أُحُد. فلم يُخْرِجُوا بعد ذلك عسكرياً إلا ظفروا في كل عسكر كان في عهد رسول الله ﷺ، وفي كل عسكر كان بعد رسول الله ﷺ وكان فيه واحدٌ من الصحابة كان الظفر لهم، وهذه البلدان كلها إنما افتتحت على عهد أصحاب رسول الله ﷺ؛ ثم بعد انقراضهم ما افتتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتتحون في ذلك الوقت. وفي هذه الآية بيان فضل هذه الأمة؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياء؛ لأنه قال لموسى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾<sup>(٢)</sup> وقال لهذه الأمة: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ﴾. وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى فهو سبحانه العلي، وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ﴾.

[١٤٠] ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ القرح الجرح. والضم والفتح فيه لغتان عن الكسائي والأخفش؛ مثل عقر وعقر<sup>(٣)</sup>. الفراء: هو بالفتح الجرح، وبالضم ألمه. والمعنى: إن يمسسكم يوم أُحُدٍ قَرْحٌ فقد مَسَّ القوم يوم بَدْرٍ قَرْحٌ مثله. وقرأ محمد بن السَّمِيعُ «قرح» بفتح

(١) في ح وأ: بات.

(٢) راجع ٢٢٣/١١.

(٣) في الأصول: «قفر وقفر» وهو تحريف.

القاف والراء على المصدر. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ قيل: هذا في الحرب، تكون مرة للمؤمنين لينصر الله عز وجل دينه، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون لبيبتهم ويُمَحِّصَ ذُنُوبَهُمْ؛ فأما إذا لم يَعْصُوا فَإِنَّ حَزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ. وقيل: ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ من قَرَحَ وَغَمَ وَصَحَّهَ وَسُقِّمَ وَغْنَى وَفَقِرَ. والدُّوْلَةُ الكَرَّةُ؛ قال الشاعر:

فِيَوْمٍ لَنَا وَيَوْمٍ عَلَيْنَا      وَيَوْمٍ نُسَاءُ وَيَوْمٍ نُسَرَّ

قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ معناه، وإنما كانت هذه المداولة لِيُرَى المؤمنُ من المنافق فَيُمَيِّزَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ؛ كما قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذِنِ اللَّهُ وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ. وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾<sup>(١)</sup>. وقيل: ليعلم صبر المؤمنين، العلم الذي يقع عليه الجزاء كما علمه غييا قبل أن كَلَفَهُمْ. وقد تقدّم في «البقرة»<sup>(٢)</sup> هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَيَخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ فيه ثلاث مسائل:

**الأولى** - قوله تعالى: ﴿وَيَخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ أي يكرمكم بالشهادة؛ أي لِيُقْتَلَ قَوْمٌ فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم. وقيل: لهذا قيل شهيد: وقيل: سمي شهيداً لأنه مشهود له بالجنة وقيل: سمي شهيداً لأن أرواحهم احتضرت<sup>(٣)</sup> دار السلام، لأنهم أحياء عند ربهم، وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة؛ فالشهيد بمعنى الشاهد أي الحاضر للجنة، وهذا هو الصحيح على ما يأتي والشهادة فضلها عظيم، ويكفيك في فضلها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾<sup>(٤)</sup> الآية. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾<sup>(٥)</sup>. وفي صحيح البُخَارِيِّ عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنَ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنَ الْقَرْحَةِ». وروى النسائي عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يُقْتَلُونَ في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة». وفي البخاري: «من قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

(١) راجع ص ٢٦٥ من هذا الجزء. (٢) راجع ١٥٦/٢.

(٣) في ب، د، هـ: أحضرت. (٤) راجع ٢٦٦/٨. (٥) راجع ٨٦/١٨.

يوم أحد» منهم حمزةُ واليَمَانُ والنضر بن أنس<sup>(١)</sup> ومصعب بن عُمير، حدَّثني عمرو بن علي أن معاذ بن هشام قال حدَّثني أبي عن قتادة قال: ما نعلم حيًّا من أحياء العرب أكثر شهيداً أعزَّ يوم القيامة من الأنصار. قال قتادة: وحدثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون. قال: وكان بئر معونة على عهد النبي ﷺ، ويوم اليمامة على عهد أبي بكر يوم مُسَيْلِمة الكذاب. وقال أنس: أتني النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب وبه نيف وستون جراحة من طعنة وضربة ورمية، فجعل النبي ﷺ يمسحها وهي تلتئم بإذن الله تعالى كأن لم تكن.

الثانية - في قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ دليل على أن الإرادة غير الأمر كما يقوله أهل السنة؛ فإن الله تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين: حمزة وأصحابه وأراد قتلهم، ونهى آدم عن أكل الشجرة وأراد فواقعه آدم، وعكسه أنه أمر إبليس بالسجود ولم يرده فامتنع منه؛ وعنه وقعت الإشارة بقوله الحق: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. وإن كان قد أمر جميعهم بالجهاد، ولكنه خلق الكسل والأسباب القاطعة عن المسير فقعدوا.

الثالثة - روي عن<sup>(٣)</sup> علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال له: «خَيْرُ أَصْحَابِكَ فِي الْأَسَارَى إِنْ شَاءُوا الْقَتْلَ وَإِنْ شَاءُوا الْفِدَاءَ عَلَى أَنْ يَقْتَلَ مِنْهُمْ عَامُ الْمُقْبِلِ مِثْلَهُمْ فَقَالُوا الْفِدَاءَ وَيَقْتُلُ مِنَّا» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. فأنجز الله وعده بشهادة أوليائه بعد أن خيَّرهم فأختاروا القتل. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين، أي وإن أنال<sup>(٤)</sup> الكفار من المؤمنين فهو لا يحبُّهم، وإن أحلَّ المأ بالْمؤمنين فإنه يحب المؤمنين.

[١٤١] ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

(١) الذي في شرح القسطلاني على صحيح البخاري: «وأنس بن النضر، وهو عم أنس بن مالك كما ذكره أبو نعيم وأبن عبد البر وغيرهما. ولأبي ذر «النضر بن أنس» وهو خطأ، والصواب الأول».

(٢) راجع ١٥٦/٨.

(٣) في ب ود وهـ: روى علي.

(٤) في هـ ود: أдал.

فيه ثلاثة أقوال: يُمَحَّص يختبر. الثاني - يطهر؛ أي من ذنوبهم فهو على حذف مضاف. المعنى: ولیمحص الله ذنوب الذين آمنوا؛ قاله الفراء. الثالث - يمحص يخلص؛ فهذا أغربها. قال الخليل: يقال مَحَصَ الحبلُ يَمْحَصُ مَحْصاً إذا انقطع وَبَرُّه؛ ومنه «اللهم محص عنا ذنوبنا» أي خلصنا من عقوبتها. وقال أبو إسحاق الزجاج: قرأت على محمد بن يزيد عن الخليل: التمحيص التخليص. يقال: مَحَّصَهُ [يمحصه] <sup>(١)</sup> مَحْصاً إذا خلصه؛ فالمعنى عليه ليتلى المؤمنين لئيبهم ويخلصهم من ذنوبهم. «وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» أي يستأصلهم بالهلاك.

[١٤٢] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾

«أم» بمعنى بل. وقيل: الميم زائدة، والمعنى أحسبتم يا من انهزم يوم أحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم لا؛ حتى «يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ» أي علم شهادة حتى يقع عليه الجزاء. والمعنى: ولم تجاهدوا فيعلم ذلك منكم؛ فلما بمعنى لم. وفرق سيويه بين «لم» و«لما»، فزعم أن «لم يفعل» نفى فعل، وأن «لما يفعل» نفى قد فعل. «وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» منصوب بإضمار أن؛ عن الخليل. وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر «يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» بالجزم على النسق. وقرأ بالرفع على القطع، أي وهو يعلم. وروى هذه القراءة عبد الوارث عن أبي عمرو. وقال الزجاج: الواو هنا بمعنى حتى، أي ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم حتى يعلم صبرهم كما تقدم أنفاً.

[١٤٣] ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾

قوله تعالى: «وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ» أي الشهادة من قبل أن تلقوه. وقرأ الأعمش «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ» أي من قبل القتل. وقيل: من قبل أن تلقوا أسباب الموت؛ وذلك أن كثيراً ممن لم يحضروا بدرأ كانوا يَتَمَنَّوْنَ يوماً يكون فيه قتال،



فلما كان يوم أُحُد انهزموا، وكان منهم من تجلّد حتى قُتل، ومنهم أنس بن النضر عم أنس بن مالك، فإنه قال لما انكشف المسلمون: اللَّهُمَّ إِنِّي أBRأ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ، وياشر القتال وقال: إِنِّيهَا إِنهَا رِيحُ الْجَنَّةِ! إِنِّي لِأَجِدُهَا، ومضى حتى استشهد. قال أنس: فما عرفناه إلا ببنانه ووجدنا فيه بضعاً وثمانين جراحة. وفيه وفي أمثاله نزل ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾<sup>(١)</sup>. فالآية عتاب في حق من انهزم، لا سيما وكان منهم حَمَلُ النَّبِيِّ ﷺ على الخروج من المدينة، وسيأتي. وتَمَنَّى الموت يرجع من المسلمين إلى تَمَنَّى الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد، لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنه معصية وكفر ولا يجوز إرادة المعصية، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة، فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدى إلى القتل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قال الأخفش: هو تكرير بمعنى التأكيد لقوله: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ مثل ﴿وَلَا طَائِرُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾<sup>(٢)</sup>. وقيل: معناه وأنتم بُصَّرَاء ليس في أعينكم عِلٌّ، [كما]<sup>(٣)</sup> تقول: قد رأيت كذا وكذا وليس في عينيك عِلَّة، أي فقد رأيت رؤية حقيقة؛ وهذا راجع إلى معنى التوكيد. وقال بعضهم: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى محمد ﷺ. وفي الآية إضمار، أي فقد رأيتموه وأنتم تنظرون فلم انهزمتم؟.

[١٤٤] ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى - روي أنها نزلت بسبب انهزام المسلمين يوم أُحُد حين صاح الشيطان: قد قتل محمد. قال عطية العوفي: فقال بعض الناس: قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم فإنما هم إخوانكم. وقال بعضهم: إن كان محمد قد أصيب ألا تَمُضُونَ على ما مضى عليه نبيكم حتى

(١) راجع ١٥٨/١٤.

(٢) راجع ٤١٩/٦.

(٣) في ب ود وهـ.

تَلَحُّقُوا بِهِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾. وما نافية، وما بعدها ابتداء وخبر، وبطل عمل «ما». وقرأ ابن عباس ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ رُسُلٌ﴾ بغير أَلِفٍ ولا ميم. فأعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبداً، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإن قُتِلَ الرسول بموتٍ أو قتل. وأكرم نبيه ﷺ [وصفته] <sup>(١)</sup> بِأَسْمَيْنِ مُشْتَقَيْنِ مِنْ اسْمِهِ: مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ، تقول العرب: رجل مَحْمُودٌ ومُحَمَّدٌ إذا كُثِرَتْ خصاله المحمودة، قال الشاعر:

إلى الماحد القُرْمِ الجَوَادِ المَحْمَدِ <sup>(٢)</sup>

وقد مضى هذا في الفاتحة <sup>(٣)</sup>. وقال عباس بن مرداس:

يَا خَاتِمَ الثُّبَاءِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ بِالْخَيْرِ كُلِّ هُدَى السَّيْلِ هُدَاكَ  
إِنَّ إِلَهَ بَنِي <sup>(٤)</sup> عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ فِي خَلْقِهِ وَمُحَمَّدًا سَمَاكَ  
فهذه الآية من تَيَمَّةِ الْعِتَابِ مع المنهزمين، أي لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمدًا، والنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء. والله أعلم.

الثانية - هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجراسته، فإن الشجاعة والجرأة حدّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ كما تقدّم بيانه في «البقرة» <sup>(٥)</sup> فظهرت عنده شجاعته وعلمه. قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ، منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى علي، واضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح <sup>(٦)</sup>، الحديث؛ كذا في البخاري. وفي سنن ابن ماجه عن عائشة قالت: «لما قبض رسول الله ﷺ وأبو بكر عند امرأته ابنة خاتمة بالعوالي، فجعلوا يقولون: لم يمت النبي ﷺ إنما هو بعض ما كان يأخذه عند

(١) في ب وهـ. (٢) هذا عجز بيت للأعشى، وصدره:

إليك أبيت اللعن كان كلالها

والذي في الذبوان: الماحد الفرع. كذا في ب ود وهـ. وفرع كل شيء: أعلاه.

(٣) راجع ١/١٣٣.

(٤) في د، واللسان: ثنى ولم يعرف هذا في اللغة. والأصول بنى. (٥) راجع ٢/١٧٦.

(٦) السُّنْح (بضم أوله وسكون النون وقد تضم): موضع بعوالي المدينة، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج، بينها وبين منزل النبي ﷺ ميل.

الوحي . فجاء أبو بكر فكشف عن وجهه وقبّل بين عينيه وقال: أنت أكرم على الله من أن يميتك! مرتين، قد والله مات رسول الله ﷺ وعمر في ناحية المسجد يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، ولا يموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير وأرجلهم . فقام أبو بكر فصعد المنبر فقال: من كان يعبد الله فإن الله حيّ لم يمّت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ . قال عمر: «فلكأنّي لم أقرأها إلا يومئذ» . ورجع عن مقالته التي قالها فيما ذكر الوائلي أبو نصر عبید الله في كتابه الإبانة: عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب حين بويع أبو بكر في مسجد رسول الله ﷺ واستوى على منبر رسول الله ﷺ تشهد قبل أبي بكر فقال: أما بعد فإنني قلت لكم أمس مقالة وإنها لم تكن كما قلتُ، وإني والله ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب أنزله الله ولا في عهد عهده إليّ رسول الله ﷺ، ولكنني كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدُبرنا - يريد أن يقول حتى يكون آخرنا موتاً - فأختار الله عز وجل لرسوله الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا لما هدي له رسول الله ﷺ . قال الوائلي أبو نصر: المقالة التي قالها ثم رجع عنها هي «أن النبي ﷺ لم يمّت ولن يموت حتى يقطع أيدي رجال وأرجلهم» وكان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه، وخشي الفتنة وظهور المنافقين، فلما شاهد قوة يقين الصديق الأكبر أبي بكر، ونفوهه بقول الله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾<sup>(١)</sup> وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وما قاله ذلك اليوم - تنبّه وتثبت وقال: كأنّي لم أسمع بالآية إلا من أبي بكر . وخرج الناس يتلونّها في سِلك المدينة، كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم . ومات ﷺ يوم الاثنين بلا اختلاف، في وقت دخوله المدينة في هجرته حين اشتدّ الضحاء، ودفن يوم الثلاثاء، وقيل ليلة الأربعاء . وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله ﷺ:

(١) راجع ص ٢٩٧ من هذا الجزء، و ٢٨٧/١١ .

(٢) راجع ٢٥٤/١٥ .

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا  
 وكنت رحيماً هادياً ومُعَلِّماً  
 لعمرِكَ ما أبكى النبي لفقده  
 كأنَّ على قلبي لِذِكْرِ محمدٍ  
 أفاطم صلى الله رب محمدٍ  
 فِدَى لرسول الله أمِّي وخالتي  
 صدَّقَتْ وبلَّغَتْ الرسالة صادقاً  
 فلو أن رب الناس أبقى نبينا  
 عليك من الله السلام تحيةً  
 أرى حسناً أيَّمتَه وتركَّته

وكنْتَ بنا بَرّاً ولم تك جافِياً  
 ليُنْكِ عليك اليومَ من كان باكِياً  
 ولكن لما أخشى من الهَرْجِ آتِياً  
 وما خِفت من بعد النبي المكاوِياً  
 على جَدَّتِ أُمسَى يثرب ثاوِياً  
 وعمى وأبائي ونفسي وماليأ  
 ومَتَّ صَليْبُ العودِ أُنْجَصَ صافِياً  
 سَعِدْنَا، ولكن أمره كان ماضِياً  
 وأُدْخِلْتَ جناتٍ من العَدْنِ راضِياً  
 يُنْكِ ويَدْعُو جدَه اليومَ ناعِياً<sup>(١)</sup>

فإن قيل وهي :

**الثالثة** - فلم أُخَّرْ دفن رسول الله ﷺ وقد قال لأهل بيت أُخِّروا دفن ميتهم : «عجلوا دفن جيفتكم ولا تؤخروها». فالجواب من ثلاثة أوجه : **الأول** - ما ذكرناه من عدم اتفاقهم على موته. **الثاني** - لأنهم لا يعلمون حيث يدفنونَه. قال قوم في البقيع، وقال آخرون في المسجد، وقال قوم : يحبس حتى يحمل إلى أبيه إبراهيم. حتى قال العالم الأكبر<sup>(٢)</sup> : سمعته يقول : «ما دفن نبي إلا حيث يموت» ذكره ابن ماجه والموطأ وغيرهما. **الثالث** - أنهم اشتغلوا بالخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة، فنظروا فيها حتى استتب الأمر وانتظم الشمل واستوثقت<sup>(٣)</sup> الحال، واستقرت الخلافة في نصابها فبايعوا أبا بكر، ثم بايعوه من الغد بيعة أخرى عن ملأ منهم ورضا؛ فكشف الله به الكُزْبَةَ من أهل الردَّة، وقام به الدين، والحمد لله رب العالمين. ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبي ﷺ فنظروا في دفنه وغسلوه وكفنوه. والله أعلم.

(١) في جوب ود : نائياً.

(٢) يريد به أبا بكر رضي الله عنه.

(٣) في هـ : استوسقت.

الرابعة - واخْتُلِفَ هل صَلَّى عليه أم لا ، فمنهم من قال : لم يصلَّ عليه أحدٌ ، وإنما وقف كل واحد يدعو ، لأنه كان أشرف من أن يُصَلَّى عليه . وقال ابن العربي : وهذا كلام ضعيف : لأن السنة تقام بالصلاة عليه في الجنازة ، كما تقام بالصلاة عليه في الدعاء ، فيقول : اللَّهُمَّ صَلِّ على محمد إلى يوم القيامة ، وذلك منفعة لنا . وقيل : لم يصلَّ عليه ؛ لأنه لم يكن هناك إمام . وهذا ضعيف ؛ لأن الذي كان يقيم بهم الصلاة الفريضة هو الذي كان يؤمُّ بهم في الصلاة . وقيل : صَلَّى عليه الناس أئذاذا ؛ لأنه كان آخر العهد به ، فأرادوا أن يأخذ كل أحدٍ بركته مخصوصاً دون أن يكون فيها تابعاً لغيره . والله أعلم بصحة ذلك .

قلت : قد خرَّج ابن ماجه بإسناد حسن بل صحيح من حديث ابن عباس وفيه : فلما فرغوا من جهازه يوم الثلاثاء وُضع على سريره في بيته ، ثم دخل الناسُ على رسول الله ﷺ أرسالاً<sup>(١)</sup> يُصَلُّون عليه ، حتى إذا فرغوا أدخلوا النساء ، حتى إذا فرغن أدخلوا الصبيان ، ولم يؤمَّ الناس على رسول الله ﷺ أحدٌ . خرَّجه عن نصر ابن علي الجهضمي أنبأنا وهب بن جرير حدَّثنا أبي عن محمد بن إسحاق قال حدَّثني حسين بن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس ، الحديث بطوله .

الخامسة - في تغيير الحال بعد موت النبي ﷺ ، عن أنس قال : لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ، وما نَقَضْنَا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا . أخرجه ابن ماجه ، وقال : حدَّثنا محمد بن بشار أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي حدَّثنا سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كنا نَقِي الكلام والانبساط إلى نساءنا على عهد رسول الله ﷺ مخافة أن ينزل فينا القرآن ، فلما مات رسول الله ﷺ تكلمنا . وأسند عن أم سلمة بنت أبي أمية زوج النبي ﷺ [أنها قالت]<sup>(٢)</sup> كان الناس في عهد رسول الله ﷺ إذا قام المُصَلِّي [يصلِّي]<sup>(٢)</sup> لم يَغْدُ بصرُ

(١) أرسالاً: أفواجاً و فرقا متقطعة بعضهم يتلو بعضاً واحدهم رسل ، بفتح الراء والسين .

(٢) زيادة عن ابن ماجه .

أحدهم موضع قدميه، فلما توفّي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلي لم يَغْدُ بصر أحدهم موضع جبينه، فتوفّي أبو بكر وكان عمر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلي لم يَغْدُ بصر أحدهم موضع القبلة، فكان عثمان بن عفان فكانت الفتنة فتلفت الناس في الصلاة يميناً وشمالاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنفَلِتُ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ «أفلا ين مات أو قُتِلَ» عطف عليه، والجواب «أُنْقَلَبْتُمْ». ودخل حرف الاستفهام على حرف الجزاء لأن الشرط قد انعقد به وصار جملة واحدة وخبراً واحداً. والمعنى: أُنْقَلَبُونَ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ إن مات أو قُتِلَ؟ وكذلك كل استفهام دخل على حرف الجزاء؛ فإنه في غير موضعه، وموضعه أن يكون قبل جواب الشرط. وقوله «أُنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ» تمثيل، ومعناه ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم، قاله قتادة وغيره. ويقال لمن عاد إلى ما كان عليه: انقلب على عقبيه. ومنه «نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ»<sup>(١)</sup>. وقيل: المراد بالانقلاب هنا الانهزام، فهو حقيقة لا مجاز. وقيل: المعنى فعلتم فعل المرتدين وإن لم تكن ردة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنُيَضِرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾ بل يضر نفسه ويعرضها للعقاب بسبب المخالفة، والله تعالى لا تنفعه الطاعة ولا تنضره<sup>(٢)</sup> المعصية لغناه. «وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ»، أي الذين صبروا وجهادوا واستشهدوا وجاء «وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» بعد قوله: «فَلَنُيَضِرَّ اللَّهَ شَيْئاً» فهو اتصال وعيد بوعيد.

[١٤٥] ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُّوَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُّوَجَّلاً﴾ هذا حصّ على الجهاد، وإعلام أن الموت لا بد منه وأن كل إنسان مقتول أو غير مقتول ميّت إذا بلغ أجله المكتوب له؛ لأن معنى «مُوجَّلاً» إلى أجل. ومعنى «بِإِذْنِ اللَّهِ» بقضاء الله وقدره. وَ «كِتَاباً» نصب على المصدر، أي كتب الله كتاباً مُّوَجَّلاً. وأجل الموت هو الوقت الذي

(١) راجع ٢٦/٨.

(٢) في هـ ود: ولا يتضرر بالمعصية.

في معلومه سبحانه، أن روح الحيّ تفارق جسده، ومتى قُتل العبد علمنا أن ذلك أجله. ولا يصحّ أن يقال: لو لم يقتل لعاش. والدليل على قوله: ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾. والمعتزلي يقول: يتقدم الأجل ويتأخر، وأن من قتل فإنما يهلك قبل أجله، وكذلك كل ما ذبح من الحيوان كان هلاكه قبل أجله؛ لأنه يجب على القاتل الضمان والدية. وقد بيّن الله تعالى في هذه الآية أنه لا تهلك نفس قبل أجلها. وسيأتي لهذا مزيد بيان في «الأعراف»<sup>(٢)</sup> إن شاء الله تعالى. وفيه دليل على كتب العلم وتدوينه. وسيأتي بيانه في «طه» عند قوله. ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾<sup>(٣)</sup> إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ يعني الغنيمة. نزلت في الذين تركوا المركز طلباً للغنيمة. وقيل: هي عامّة في كل من أراد الدنيا دون الآخرة؛ والمعنى نُؤْتِهِ مِنْهَا ما قُسم له. وفي التنزيل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾<sup>(٤)</sup>. ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي نُؤْتِهِ جزاء عمله، على ما وصف الله تعالى من تضعيف الحسنات لمن يشاء. وقيل: المراد منها<sup>(٥)</sup> عبد الله بن جُبَيْر ومن لزم المركز معه حتى قتلوا. ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أي نُؤْتِيهِم الثواب الأبديّ جزاء لهم على ترك الانهزام، فهو تأكيد لما تقدّم من إيتاء مزيد الآخرة. وقيل: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ من الرزق في الدنيا لثلاثيهم أن الشاكر يُحرم ما قُسم له مما يناله الكافر.

[١٤٦] ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾

[١٤٧] ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

(١) راجع ٢٠٢/٧ و ٣٢٧/١٣ و ٣٢٧/٩.

(٢) راجع ٢٠٢/٧.

(٣) راجع ٢٠٥/١١ فما بعد.

(٤) راجع ٢٣٥/١٠. (٥) في دو جد: بهذا.

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ<sup>(١)</sup> مَعَهُ رَيْثُونٌ كَثِيرٌ﴾ قال الزهري: صاح الشيطان يوم أُحُد: قتل محمد؛ فأنهزم جماعة من المسلمين. قال كعب بن مالك: فكنت أول من عرف رسول الله ﷺ، رأيت عينيه من تحت المغفر تهران، فناديت بأعلى صوتي: هذا رسول الله ﷺ، فأولما إلي أن أسكت، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رَيْثُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا<sup>(٢)</sup> الْآيَةَ. وَ«كَايْنٍ» بمعنى كَم. قال الخليل وسيبويه: هي أي دخلت عليها كاف التشبيه وبنيت معها فصار في الكلام معنى كم وصورّت في المصحف نوناً؛ لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغيّر لفظها لتغير معناها، ثم كثر استعمالها فتلغّث<sup>(٣)</sup> بها العرب وتصرفت فيها بالقلب والحذف، فحصل فيها لغات أربع قرئ بها. وقرأ ابن كثير «وكاين» مثل وكاعن، على وزن فاعل، وأصله كَيء فقلبت الياء ألفاً، كما قلبت في يئأس<sup>(٤)</sup> فقل ياءس؛ قال الشاعر:

وَكَايْنٍ بِالْأَبَاطِحِ مِنْ صَدِيقٍ  
يَرَانِي لَوْ أَصْبَنْتُ هُوَ الْمُصَابَا  
وقال آخر:

وَكَايْنٍ رَدَدْنَا عَنْكُمْ مِنْ مُدَجِّجٍ  
يَجِيءُ أَمَامَ الرُّكْبِ يَزْدِي<sup>(٥)</sup> مُقَنَّعًا  
وقال آخر:

وَكَايْنٍ فِي الْمَعَاشِرِ<sup>(٥)</sup> مِنْ أَنَاسٍ  
أَخُوهُمْ فَوْقَهُمْ وَهُمْ كِرَامٌ  
وقرأ ابن محيصن «وكين» مهموزاً مقصوراً مثل وكعن، وهو من كائن حذف ألفه. وعنه أيضاً «وكاين» مثل وكعين وهو مقلوب كَيء المخفف. وقرأ الباقر «كاين» بالتشديد مثل كعين وهو الأصل، قال الشاعر:

كَأَيْنٍ مِنْ أَنَاسٍ لَمْ يَزَالُوا  
أَخُوهُمْ فَوْقَهُمْ وَهُمْ كِرَامٌ

(١) قراءة نافع. (٢) في أوح: فلفت.

(٣) القلب في ذلك على لغة من يقلب حرف العلة الساكن المفتوح ما قبله ألفاً، وهي لغة بلحارث بن كعب وخثعم وزيد وقبائل من اليمن، كما ذكره الواحدي في وسيطه في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ﴾.

(٤) يردي: يمشي الرديان (بالتحريك) وهو ضرب من المشي فيه تبختر. والمقنع: الذي تقنع

بالسلاح؛ كالبيضة والمغفر.

(٥) في البحر: المعاسر.



وقال آخر:

كَأَيُّنْ أَبَدْنَا مِنْ عَدُوِّ بَعْرُنَا      وَكَأَيُّنْ أَجَزْنَا مِنْ ضَعِيفٍ وَخَائِفٍ  
فجمع بين لغتين: كَأَيُّنْ وَكَأَيُّنْ، ولغة خامسة كَيُّنْ مثل كَيِّعِنْ، وكأنه مخفف من كَيَّيء مقلوب كَأَيُّنْ. ولم يذكر الجوهري غير لغتين: كَائِنْ مثل كَاعِنْ، وَكَأَيُّنْ مثل كَعَيِّنْ؛ تقول كَأَيُّنْ رَجُلًا لَقِيْتُ؛ بنصب ما بعد كَأَيُّنْ على التمييز. وتقول أيضاً: كَأَيُّنْ مِنْ رَجُلٍ لَقِيتُ؛ وإدخال مِنْ بعدَ كَأَيُّنْ أَكْثَرُ مِنَ النِّصْبِ بِهَا وَأَجُودُ. وَبِكَأَيُّنْ تَبِيعَ هَذَا الثَّوبُ؟ أَيُّ بِكُمْ تَبِيعَ؛ قَالَ ذُو الرِّمَّةِ:

وَكَأَيُّنْ دَعَرْنَا مِنْ مَهَاةٍ وَرَامِحٍ      بِلَادُ الْعِدَا<sup>(١)</sup> لَيْسَتْ لَهُ بِلَادُ  
قال النحاس: ووقف أبو عمرو «وَكَايُّ» بغير نون؛ لأنه تنوين. وروى ذلك سَوْرَةُ بن المبارك عن الكسائي. ووقف الباقر بالنون اتباعاً لخط المصحف. ومعنى الآية تشجيع المؤمنين، والأمر بالاعتداء بمن تقدم من خيار أتباع الأنبياء؛ أي كثير من الأنبياء قُتِلَ معه رِبِّيُّون كثير، أو كثير من الأنبياء قُتِلُوا فما أَرْتَدَّ أَمَمُهُمْ؛ قولان: الأول للحسن وسعيد بن جبير. قال الحسن: مَا قُتِلَ نَبِيٌّ فِي حَرْبٍ قَطُّ. وقال ابن جبير: مَا سَمِعْنَا أَنْ نَبِيًّا قُتِلَ فِي الْقِتَالِ. والثاني عن قتادة وعكرمة. والوقف - على هذا القول - على «قُتِلَ» جائز، وهي قراءة نافع وابن جبير وأبي عمرو ويعقوب. وهي قراءة ابن عباس وأختارها أبو حاتم. وفيه وجهان: أحدهما أَنْ يَكُونَ «قُتِلَ» واقعاً على النبي وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله «قُتِلَ» ويكون في الكلام إضمار، أي ومعه ربيون كثير؛ كما يقال: قُتِلَ الأمير معه جيش عظيم، أي ومعه جيش. وخرجتُ معي تجارة؛ أي ومعني. الوجه الثاني أَنْ يَكُونَ الْقَتْلُ نَالَ النَّبِيَّ وَمِنْ مَعِهِ مِنَ الرَّبِّيِّينَ، ويكون وجه الكلام قُتِلَ بعض من كان معه؛ تقول العرب: قتلنا بني تميم وبني سليم، وإنما قتلوا بعضهم. ويكون قوله «فَمَا وَهَنُوا» راجعاً إلى من بقي منهم. قلت: وهذا القول أشبه بنزول الآية وأنسب، فإن النبي ﷺ لم يقتل، وقُتِلَ معه جماعة من أصحابه. وقرأ الكوفيون وابن عامر «قَاتَلْ» وهي قراءة

(١) كذا في الأصول المهابة: البقرة الوحشية. والرامح: الثور الوحشي؛ لأن قرنه بمنزلة الرمح فهو رامح؛ والمعنى لا يقيم مع الإنس في مكان. الذي في ديوانه: «بلاد الوري ليست له ببلاد».

ابن مسعود؛ واختارها أبو عبيد وقال: إن الله إذا حمّد من قاتل كان من قُتل داخلاً فيه، وإذا حمّد من قُتل لم يدخل فيه غيرهم؛ فقاتل أعم وأمدح. و «الرَّبِّيُّون» بكسر الراء قراءة الجمهور. وقراءة عليّ رضي الله عنه بضمها. وابن عباس بفتحها؛ ثلاث لغات. والرَّبِّيُّون الجماعات الكثيرة؛ عن مجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة، واحدهم رُبِّيٌّ بضم الراء وكسرها؛ منسوب إلى الرّبة بكسر الراء أيضاً وضمها، وهي الجماعة. وقال عبد الله بن مسعود: الرَّبِّيُّون الألوف الكثيرة. وقال ابن زيد: الرَّبِّيُّون الأتباع. والأوّل أعرف في اللغة؛ ومنه يقال للخزقة التي تجمع فيها القِدَاح: رِبّةٌ ورَبّة. والرَّبَاب قبائل تجمّعت. وقال أبان بن ثعلب: الرَّبِّي عشرة آلاف. وقال الحسن: هم العلماء الصُّبُر. ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع والسدي: الجفّع الكثير؛ قال حسان:

وَإِذَا مَعْشَرٌ تَجَافَوْا عَنِ الْحَقِّ حَمَلْنَا عَلَيْهِمُ رُبِّيًّا

وقال الزجاج: ها هنا قراءتان «رُبِّيُّون» بضم الراء «ورَبِّيُّون» بكسر الراء؛ أما الرَّبِّيُّون (بالضم): الجماعات الكثيرة. ويقال: عشرة آلاف. قلت: وقد روي عن ابن عباس «رَبِّيُّون» بفتح الراء منسوب إلى الرب. قال الخليل: الرَّبِّي الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء. وهم الربانيون نسبوا إلى التَّأَلُّ والعبادة ومعرفة الربوبية لله تعالى. والله أعلم. قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ «وَهَنُوا» أي ضعفوا، وقد تقدّم والوهن: انكسار الجِدَّة<sup>(١)</sup> بالخوف. وقرأ الحسن وأبو السَّمَال «وَهَنُوا» بكسر الهاء وضمها، لغتان عن أبي زيد. وهن الشيء يهن وهناً. وأوهنته أنا ووهنته ضعفته. والواهنة: أسفل الأضلاع وقصاؤها<sup>(٢)</sup>. والوهن من الإبل: الكثيف. والوهن: ساعة تمضي من الليل، وكذلك المَوْهِن. وأوهنا صِرْنَا<sup>(٣)</sup> في تلك الساعة؛ أي ما وهنوا لقتل نبيهم، أو لقتل مَنْ قُتل منهم، أي ما وهن باقيهم؛ فحذف المضاف. «وَمَا ضَعُفُوا» أي عن عدوهم. «وَمَا اسْتَكَاثُوا» أي لما أصابهم في الجهاد. والاستكانة: الدّلة والخضوع؛ وأصلها «اسْتَكْنُوا» على افتعلوا؛ فأشيعت فتحة الكاف فتولدت منها ألفٌ. ومن جعلها من الكون فهي استفعلوا؛ والأوّل

(١) الواهنة: القصيرى وهي أسفل الأضلاع.

(٢) كذا في د واللسان، وفي هـ وأوح: ضربنا.

أشبهه بمعنى الآية. وقرئ «فَمَا وَهَنُوا وَمَا ضَعُفُوا» بإسكان الهاء والعين. وحكى الكسائي «ضَعُفُوا» بفتح العين. ثم أخبر تعالى عنهم بعد أن قُتل منهم أو قتل نبيهم بأنهم صبروا ولم يَفِرُّوا ووطَّنوا أنفسهم على الموت، واستغفروا ليكون موتهم على التوبة من الذنوب إن رُزِقوا الشهادة، ودعوا في الثبات حتى لا ينهزموا، وبالنصر على أعدائهم. وَخَصَّوْا الْأَقْدَامَ بِالثَّبَاتِ دون غيرها من الجوارح لأن الاعتماد عليها. يقول: فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد؟ فأجاب دعاءهم وأعطاهم النصر والظفر والغنيمة في الدنيا والمغفرة في الآخرة إذا صاروا إليها. وهكذا يفعل الله مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه، الثابتين عند لقاء عدوه بوعده الحق، وقوله الصدق. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ يعني الصابرين على الجهاد. وقرأ بعضهم ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾ بالرفع؛ جعل القول اسماً لكان؛ فيكون معناه وما كان قولهم إلا قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ ومن قرأ بالنصب جعل القول خبر كان. واسمها ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ يعني الصغائر ﴿وَأَسْرَفَاتِنَا﴾ يعني الكبائر. والإسراف: الإفراط في الشيء ومجاوزة الحد. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني» وذكر الحديث. فعلى الإنسان أن يستعمل ما في كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء ويدع ما سواه، ولا يقول أختار كذا؛ فإن الله تعالى قد اختار لنبيه وأوليائه وعلمهم كيف يدعون.

[١٤٨] ﴿فَقَالَتْ لَهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَابٍ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي أعطاهم ﴿تَوَابَ الدُّنْيَا﴾، يعني النصر والظفر على عدوهم. ﴿وَحَسَنَ تَوَابٍ الْآخِرَةِ﴾ يعني الجنة. وقرأ الجحدري ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ﴾ من الثواب. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تقدّم.

[١٤٩] ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ  
أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩).

[١٥٠] ﴿بَلِ اللّٰهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ (١٥٠).

لما أمر الله تعالى بالافتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذر طاعة الكافرين؛ يعني مشركي العرب: أبا سفيان وأصحابه. وقيل: اليهود والنصارى. وقال علي رضي الله عنه: يعني المنافقين في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دين آبائكم. ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي إلى الكفر. ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي فترجعوا مغبونين. ثم قال: ﴿بَلِ اللّٰهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي متولي نصركم وحفظكم إن أطعتموه. وقرئ «بَلِ اللّٰهُ» بالنصب، على تقدير بل وأطيعوا الله مولاكم.

[١٥١] ﴿سُئِلَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٥١).

نظيره ﴿وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ﴾ (١). وقرأ ابن عامر والكسائي «الرُّعْبُ» بضم العين؛ وهما لغتان. والرُّعْبُ: الخوف؛ يقال: رَعَبْتُ رُعْبًا ورُعْبًا، فهو مَرْعُوبٌ. ويجوز أن يكون الرُّعْبُ مصدرًا، والرُّعْبُ الاسم. وأصله من المَلء؛ يقال: سِيلَ رَاعِبٌ يَمَلَأُ الوادي. ورعبت الحوض ملأته. والمعنى: سَنَمَلَأُ قُلُوبَ الْمُشْرِكِينَ (٢) خوفًا وفزعًا. وقرأ السخثياني «سَيُلْفِي» بالياء، والباقون بنون العظمة. قال السدي وغيره: لما أرتحل أبو سفيان والمشركون يوم أُحُد متوجهين إلى مكة انطلقوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ندموا وقالوا: بئس ما صنعنا! قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد (٣) تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم؛ فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرُّعْبَ حتى رجعوا عَمَّا هَمُّوا به. والإلقاء يستعمل حقيقة في الأجسام؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَوَّاحَ﴾ (٤) ﴿فَالْقَوَا حِبالَهُمْ وَعَصِيَهُمْ﴾ ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ﴾. قال الشاعر:

فَالْقَتْ عَصَاهَا وَأَسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى

(١) راجع ٣/١٨. (٢) في د و ج هـ: الكافرين.

(٣) في د: الشديد. (٤) راجع ٢٨٨/٧ و ٢٥٦ و ٩٧/١٣.

ثم قد يستعمل مجازاً كما في هذه الآية، وقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾<sup>(١)</sup>. وألقى عليك مسألة.

قوله تعالى: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ تعليل؛ أي كان سبب إلقاء الرعب في قلوبهم إشراكهم؛ فما للمصدر. ويقال: أشرك به أي عدل به غيره ليجعله شريكاً.

قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ حجةً وبياناً، وعُدراً وبرهاناً؛ ومن هذا قيل للوالي سلطان؛ لأنه حجة الله عز وجل في الأرض. ويقال: إنه مأخوذ من السِّلِيط وهو ما يضاء به السراج، وهو دُهنُ السَّمْسِمِ؛ قال امرؤ القيس:

أَمَّا<sup>(٢)</sup> السِّلِيطُ بِالذُّبَالِ الْمُفْئَلِ

فالسُّلْطَانُ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي إِظْهَارِ الْحَقِّ وَقَمْعِ الْبَاطِلِ. وقيل السِّلِيطُ الحديد. والسُّلْطَانَةُ الحِذَّة. والسُّلْطَانَةُ مِنَ التَّسْلِيطِ وَهُوَ الْقَهْرُ؛ وَالسُّلْطَانُ مِنْ ذَلِكَ، فَالْثَّوْنُ زَائِدَةٌ. فَاصِلُ السُّلْطَانِ الْقُوَّةُ، فَإِنَّهُ يُقَهَّرُ بِهَا السُّلْطَانُ بِالسُّلْطَانِ. وَالسِّلِيطَةُ الْمَرْأَةُ الصَّخَّابَةُ. وَالسِّلِيطُ الرَّجُلُ الْفَضِيحُ اللِّسَانُ. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ لَمْ تَثْبُتْ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَلَلِ، وَلَمْ يَدَلَّ عَقْلٌ عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ مَصِيرِهِمْ وَمَرْجِعِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَمَا وَآهَهُمُ النَّارُ﴾ ثُمَّ ذَمَّهُ فَقَالَ: ﴿وَيُنْسَ مَنَوى الطَّالِمِينَ﴾ وَالْمَنَوى: الْمَكَانُ الَّذِي يَقَامُ فِيهِ؛ يَقَالُ: نَوَى يَنْوِي نَوَاءً. وَالْمَاوَى: كُلُّ مَكَانٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ شَيْءٌ لَيْلاً أَوْ نَهَاراً.

[١٥٢] ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ: إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَدَأَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۖ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾.

قال محمد بن كعب القرظي: لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أخذ وقد أصيبوا قال بعضهم لبعض: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر! فنزلت هذه الآية. وذلك أنهم قتلوا صاحب لواء المشركين وسبعة نفر منهم بعده على اللواء، وكان

(١) راجع ١٩٦/١١. (٢) في الأصول: أمان؛ والذي أثبتناه هو ما في الديوان وكتب اللغة.

الظفر ابتداءً للمسلمين غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة، وترك بعض الرماة أيضاً مركزهم طلباً للغنيمة فكان ذلك سبب الهزيمة. روى البخاري عن البراء بن عازب قال: لما كان يوم أُحُدٍ ولقينا المشركين أجلس رسول الله ﷺ أناساً من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم: «لا تبرحوا من مكانكم [إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا]»<sup>(١)</sup> وإن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تُعينونا عليهم» قال: فلما التقى القوم وهزمهم المسلمون حتى نظرنا إلى النساء يَشْتَدُونَ<sup>(٢)</sup> في الجبل، وقد رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فجعلوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال لهم عبد الله: أمهلوا! أما عهد إليكم رسول الله ﷺ ألا تبرحوا، فأنطلقوا فلما أتوهم صرف الله وجوههم وقُتِل من المسلمين سبعون رجلاً. ثم إن أبا سفيان بن حرب أشرف علينا وهو في نَشَرٍ فقال: أفي القوم محمدٌ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تُجيبوه» حتى قالها ثلاثاً. ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاثاً، فقال النبي ﷺ: «لا تُجيبوه» ثم قال: أفي القوم عمر [بن الخطاب]<sup>(٣)</sup>؟ ثلاثاً، فقال النبي ﷺ: «لا تُجيبوه» ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قُتِلوا. فلم يملك عمر رضي الله عنه نفسه دون أن قال: كذبت يا عدو الله! قد أبقي الله لك من يُخزرك به. فقال: أغلْ هُبْلٌ<sup>(٤)</sup>؛ مرتين. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» فقالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال «قولوا لله أعلى وأجل». قال أبو سفيان: لنا العزى<sup>(٥)</sup> ولا عزى لكم. فقال رسول الله ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا «الله مولانا ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يومَ يَومَ بَذَرٍ، والحرب سِجَالٌ، أما إنكم ستجدون في القوم مثلة لم أمر بها ولم تسؤني. وفي البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاصٍ قال: رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أُحُدٍ رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عن رسول الله ﷺ أشدَّ القتال. وفي رواية عن سعد: عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد. يعني جبريل وميكائيل. وفي رواية أخرى: يقاتلان عن رسول الله ﷺ

(١) زيادة عن «صحيح البخاري». والذي فيه: «لا تبرحوا إن رأيتمونا».

(٢) أي يسرعن المشي.

(٣) في جـ وهـ ود.

(٤) أي أظهر دينك، أو زد علواً، أو ليرفع أمرك ويعز دينك فقد غلبت.

(٥) العزى: اسم صنم لقريش.

أشدَّ القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده. وعن مجاهد قال: لم تقاتل الملائكة معهم يومئذ، ولا قبله ولا بعده إلا يوم بدر. قال البيهقي: إنما أراد مجاهد أنهم لم يقاتلوا يوم أُحُد عن القوم حين عضوا الرسول ولم يصبروا على ما أمرهم به. وعن عروة بن الزبير قال: وكان الله عز وجل وعدهم على الصبر والتقوى أن يُمدَّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين: وكان قد فعل؛ فلما عصوا أمر الرسول وتركوا مصافّهم وترك الرماة عهد رسول الله ﷺ إليهم ألا يبرحوا من منازلهم، وأرادوا الدنيا، رُفِع عنهم مدد الملائكة، وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ فصدق الله وعده وأراهم الفتح، فلما عصوا أعقبهم البلاء. وعن عمير بن إسحاق قال: لما كان يوم أُحُد انكشفوا عن رسول الله ﷺ وسعدٌ يرمي بين يديه، وفكى يُبَلِّل له، كلما ذهبت نَبْلَةٌ أتاه بها. قال: ازمِ أبا إسحاق. فلما فرغوا نظروا مَنْ الشاب؟ فلم يروه ولم يعرفوه<sup>(١)</sup>. وقال محمد بن كعب: ولما قُتِل صاحب لواء المشركين وسقط لواءهم، رفعتة عَمْرَة بنت علقمة الحارثية؛ وفي ذلك يقول حسان:

فلولا لواء الحارثية أصبحوا      يباعون في الأسواق بينَ الجلائب  
و ﴿تَحُسُّونَهُمْ﴾ معناه تقتلونهم وتستأصلونهم؛ قال الشاعر:

حَسَنانهم بالسيف حسًا فأصبحت      بقيتْهم قد شُرِّدُوا وتَبَدَّدُوا  
وقال جرير:

تَحُسُّهُمُ السُّيُوفُ كما تَسَامَى      حَرِيقُ النَّارِ فِي الْأَجْمِ الْحَصِيدِ  
قال أبو عبيد: الحَسُّ الاستئصال بالقتل؛ يقال: جراد محسوس إذا قتله البرد. والبرد مَحَسَّةٌ للنبت. أي مُخْرِقَةٌ له ذاهبة به. وَسَنَةٌ حَسُوس أي جذبة تأكل كل شيء؛ قال رؤبة:

إِذَا شَكُونَا سَنَةً حَسُوسًا      تَأْكُلُ بَعْدَ الْأَخْضَرِ<sup>(٢)</sup> الْيَبَسَا  
أصله من الحَسَّ الذي هو الإدراك بالحاسة. فمعنى حَسَّه أذهب حِسَّه بالقتل. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بعلمه، أو بقضائه وأمره. ﴿حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ﴾ أي جَبُنتُمْ وَضَعُفْتُمْ. يقال: فُشِلَ يَفْشَلُ فهو

(١) في د: نقله محمد بن كعب. (٢) في اللسان: الخضرة.

فَقِيلَ وَفُشِلَ. وجواب «حتى» محذوف، أي حتى إذا فشِلتم امْتَحِنْتُمْ. ومثل هذا جائز كقوله: ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَامًا فِي السَّمَاءِ﴾<sup>(١)</sup> فَأَفْعَلَ. وقال الفراء: جواب «حَتَّى»، ﴿وَتَنَازَعْتُمْ﴾ والواو مفحمة زائدة؛ كقوله ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ﴾<sup>(٢)</sup> أي ناديناه. وقال امرؤ القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاخَةَ الْحَيِّ وَأَنْتَحَى

أي انتحى. وعند هؤلاء يجوز إقحام الواو من ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾. أي حتى إذا فشِلتم وتنازعتم عصيتهم. وعلى هذا فيه تقديم وتأخير، أي حتى إذا تنازعتم وعصيتهم فشِلتم. وقال أبو علي: يجوز أن يكون الجواب ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾، و «ثم» زائدة، والتقدير حتى إذا فشِلتم وتنازعتم وعصيتهم صرفكم عنهم. وقد أنشد بعض النحويين في زيادتها قول الشاعر:

أَرَانِي إِذَا مَا بَيْتٌ عَلَى هَوَى فُتِمَ إِذَا أَصْبَحْتُ أَصْبَحْتُ عَادِيًا

وجوز الأخفش أن تكون زائدة؛ كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(٣)</sup>. وقيل: «حتى» بمعنى «إلى» وحينئذ لا جواب له؛ أي صدقكم الله وعده إلى أن فشِلتم، أي كان ذلك الوعد بشرط الثبات. ومعنى ﴿تَنَازَعْتُمْ﴾ اختلفتم؛ يعني الرماة حين قال بعضهم لبعض: نلحق الغنائم. وقال بعضهم: بل ثبت في مكاننا الذي أمرنا النبي ﷺ بالثبوت فيه. ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أي خالفتم أمر الرسول في الثبوت. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُونَ﴾ يعني من الغلبة التي كانت للمسلمين يوم أُحُد أول أمرهم؛ وذلك حين صرع صاحب لواء المشركين على ما تقدّم، وذلك أنه لما صرع انتشر النبي ﷺ وأصحابه وصاروا كتائب متفرقة فحاسوا<sup>(٤)</sup> العدو ضرباً حتى أجْهَضُوهُمْ<sup>(٥)</sup> عن أبقالهم. وحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات كل ذلك تُنْصَحُ بِالتَّيْلِ فترجع مغلوبة<sup>(٦)</sup>، وحمل المسلمون فَهَكَّوْهُمْ قتلاً. فلما أبصر الرماة الخمسون أن الله عز وجل قد فتح لإخوانهم قالوا: والله ما نجلس

(١) راجع ٤١٧/٦. (٢) راجع ٩٩/١٥. (٣) راجع ٢٨١/٨.

(٤) الحوس: شدة الاختلاط ومداركة الضرب. أي بالغوا النكاية فيهم، في هـ ود: جاسوا.

(٥) أي نَحَوْهم عنها وأزالوهم. (٦) في د: مغلولة.



ههنا لشيء، قد أهلك الله العدو وإخواننا في عسكر المشركين. وقال طوائف منهم: علامَ نفق؟ وقد هزم الله العدو؟ فتركوا منازلهم التي عهد إليهم النبي ﷺ ألا يتركوها، وتنازعوا وفشلوا وعصوا الرسول فأوجفت<sup>(١)</sup> الخيل فيهم قتلاً. وألفاظ الآية تقتضي التوبيخ لهم، ووجه التوبيخ لهم أنهم رأوا مبادئ النصر، فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر في الثبات لا في الانهزام. ثم بين سبب التنازع فقال: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ يعني الغنيمة. قال ابن مسعود: ما شعرنا أن أحداً من أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا في مركزهم، ولم يخالفوا أمر نبيهم ﷺ مع أميرهم عبد الله بن جبير؛ فحمل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل عليه، وكانا يومئذ كافرين فقتلوه مع من بقي، رحمهم الله. والعتاب مع مَنْ أنهزم لا مع مَنْ ثبت، فإن من ثبت فاز بالثواب، وهذا كما أنه إذا حل يقوم عقوبة عامة فأهل الصلاح والصبيان يهلكون؛ ولكن لا يكون ما حل بهم عقوبة، بل هو سبب المثوبة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي بعد أن استوليتم عليهم ردكم عنهم بالانهزام. ودلّ هذا على أن المعصية مخلوقة لله تعالى. وقالت المعتزلة: المعنى ثم انصرفتم؛ فإضافته إلى الله تعالى بإخراجه الرعب من قلوب الكافرين من المسلمين ابتلاءً لهم. قال القشيري: وهذا لا يغنيهم؛ لأن إخراج الرعب من قلوب الكافرين حتى يستخفوا بالمسلمين قبيح ولا يجوز عندهم، أن يقع من الله قبيح، فلا يبقى لقوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ معنى. وقيل: معنى ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي لم يكلفكم طلبهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة. والخطاب قيل هو للجميع. وقيل: هو للرماة الذين خالفوا ما أمروا به، واختاره النحاس. وقال أكثر المفسرين: ونظير هذه الآية قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو والمغفرة. وعن ابن عباس قال: ما نصّر النبي ﷺ

(١) الإيجاف: سرعة السير.

(٢) راجع ٣٩٧/١.

في موطن كما نُصر يوم أحد، قال: وأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله عز وجل، إن الله عز وجل يقول في يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ - يقول ابن عباس: والحسن القتل ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإنما عنى بهذا الرماة. وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع ثم قال: «احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا». فلما غنم رسول الله ﷺ وأباحوا عسكر المشركين انكفأت الرماة جميعاً فدخلوا في العسكر ينتهبون، وقد التقت صفوف أصحاب النبي ﷺ فهم هكذا - وشبك أصابع يديه - وألبسوا. فلما أخل الرماة تلك الخلّة<sup>(١)</sup> التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله ﷺ فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير، وقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة، وجال المسلمون نحو الجبل، ولم يبلغوا حيث يقول الناس: الغار<sup>(٢)</sup>، إنما كانوا تحت المهراس<sup>(٣)</sup> وصاح الشيطان: قتل محمد. فلم يُشك فيه أنه حق، فما زلنا كذلك ما نشك أنه قتل حتى طلع علينا رسول الله ﷺ بين السعدَيْن<sup>(٤)</sup>، نعرفه بتكفئه<sup>(٥)</sup> إذا مشى. قال: وفرحنا حتى كأننا لم يصيبنا ما أصابنا. قال: فرقى نحونا وهو يقول: «اشتد غضب الله على قوم دموا وجه نبيهم»<sup>(٦)</sup>. وقال كعب بن مالك: أنا كنت أول من عرف رسول الله ﷺ من المسلمين؛ عرفته بعينيه من تحت المغفر تزهرا فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين! أبشروا، هذا رسول الله ﷺ قد أقبل. فأشار إلي أن اسكت.

(١) أخل بالمكان ويمركزه: غاب عنه وتركه. والخلّة: الطريق.

(٢) كذا في الأصول. والذي في الدر المنثور، والمستدرک للحاكم: «... الغاب» بالياء بدل الراء.

(٣) المهراس: ماء بجبل أحد.

(٤) السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عباد.

(٥) التكفؤ: التمايل إلى قدام كما تتكفأ السفينة في جريها.

(٦) في د وه وجه: وجه رسوله.

[١٥٣] ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنَهَا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتَيْتُكُم عَمَّا يُغْمِرُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

«إِذْ» متعلق بقوله: «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ». وقراءة العامة «تُصْعِدُونَ» بضم التاء وكسر العين. وقرأ أبو رجاء العطاردي وأبو عبد الرحمن السلمي والحسن وقتادة بفتح التاء والعين، يعني تصعدون الجبل. وقرأ ابن مُحَيِّصٍ وشُئْبَل «إِذْ يَصْعَدُونَ وَلَا يَلَوْنَ» بالياء فيهما. وقرأ الحسن «تَلَوْنَ» بواو واحدة. وروى أبو بكر بن عَيَّاش عن عاصم «وَلَا تَلَوْنَ» بضم التاء؛ وهي لغة شاذة ذكرها النحاس. وقال أبو حاتم: أصعدت إذا مضيت حيال وجهك، وصعدت إذا أرتقيت في جبل أو غيره. فالإصعاد: السير في مستوٍ من الأرض وبطون الأودية والشعاب. والصعود: الارتفاع على الجبال والسطوح والسلايلم والدرج. فيحتمل أن يكون صعودهم في الجبل بعد إصعادهم في الوادي؛ فيصح المعنى على قراءة «تُصْعِدُونَ» و«تُصْعَدُونَ». قال قتادة والربيع: أصعدوا يوم أحد في الوادي. وقراءة أبي «إِذْ تُصْعِدُونَ فِي الْوَادِي». قال ابن عباس: صعدوا في أحد فراراً. فكلتا القراءتين صواب؛ كان يومئذ من المنهزمين مُصْعِدٌ وصاعد. والله أعلم. قال القُتَيْبِيُّ والمبرد: أصعد إذا أبعَدَ في الذهاب وأمعن فيه؛ فكأن الإصعاد إبعاد في الأرض كيبعاد الارتفاع؛ قال الشاعر<sup>(١)</sup>:

ألا أيهذا السائلي أين أضعدت<sup>(٢)</sup> فإن لها من بطن يشرب موعدا

وقال الفرّاء: الإصعاد الابتداء في السفر، والانحدار الرجوع منه؛ يقال: أصعدنا من بغداد إلى مكة وإلى خراسان وأشباه ذلك إذا خرجنا إليها وأخذنا في السفر، وانحدرنا إذا رجعنا. وأنشد أبو عبيدة:

قد كنت تبكين على الإصعاد فالיום سُرِّخْتَ وصاح الحادي

(١) هو أعشى قيس.

(٢) الذي في ديوان الأعشى وسيرة ابن هشام ص ٢٥٥ طبع أوروبا: «أين يمت». والبيت من قصيدة

يمدح بها النبي ﷺ، ومطلعها:

وعادك ما عاد السليم المسهدا

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا

وقال المفضل: صَعِدَ وَأَصْعَدَ وَصَعَّدَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ. وَمَعْنَى «تَلَوُونَ» تَعَرَّجُونَ وَتَقِيمُونَ، أَيْ لَا يَلْتَفِتُ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ هَرَبًا؛ فَإِنَّ الْمُعَرَّجَ عَلَى الشَّيْءِ يَلْوِي إِلَيْهِ عُنْقَهُ أَوْ عَنَانِ دَابَّتِهِ. «عَلَى أَحَدٍ» يَرِيدُ مُحَمَّلًا ﷺ؛ قَالَ الْكَلْبِيُّ. «وَالرَّسُولُ يَذْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ» أَيْ فِي آخِرِكُمْ؛ يُقَالُ: جَاءَ فُلَانٌ فِي آخِرِ النَّاسِ وَأُخْرَةَ النَّاسِ وَأُخْرَى النَّاسِ وَأَخْرِيَاتِ النَّاسِ. وَفِي الْبُخَارِيِّ «أُخْرَاكُمْ» تَأْنِيثُ آخِرِكُمْ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ قَالَ سَمِعْتُ الْبِرَاءَ بْنَ عَازِبٍ قَالَ: جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرِّجَالِ يَوْمَ أُحُدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَقْبَلُوا مِنْهَزِمِينَ فَذَلِكَ إِذْ يَدْعُوهُمْ الرَّسُولُ فِي آخِرَاهُمْ. وَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: كَانَ دَعَاءُ النَّبِيِّ ﷺ: «أَيُّ عِبَادِ اللَّهِ ارْجِعُوا». وَكَانَ دَعَاؤُهُ تَغْيِيرًا لِلْمَنْكَرِ، وَمَحَالٌ أَنْ يَرَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَنْكَرَ وَهُوَ الْإِنْهَازُ ثُمَّ لَا يَنْهَى عَنْهُ.

قلت: هذا على أن يكون الانهزام معصية وليس كذلك، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ» الغم في اللغة: التغطية. غممت الشيء غطيته. ويوم غَمٍّ وليلة غَمَّةٍ إذا كانا مظلّمين. ومنه غَمَّ الهلال إذا لم يُرَ، وغَمَنِي الأمر يغْمُنِي. قال مجاهد وقتادة وغيرهما: الغَمُّ الأوّل القتل والجراح، والغَمُّ الثاني الإرجاف بقتل النبي ﷺ؛ إِذْ صَاحَ بِهِ الشَّيْطَانُ. وَقِيلَ: الْغَمُّ الأوّل ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثاني ما أصابهم من القتل والهزيمة. وقيل الغَمُّ الأوّل الهزيمة، والثاني إشراف أبي سفيان وخالده عليهما في الجبل؛ فلما نظر إليهم المسلمون غمهم ذلك، وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هذا ما نالهم؛ فعند ذلك قال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا يَغْلُنْ عَلَيْنَا» كما تقدّم. والباء في «بِغَمٍّ» على هذا بمعنى على. وقيل: هي على بابها، والمعنى أنهم غموا النبي ﷺ بمخالفتهم إياه، فأتابهم بذلك غمهم بمن أصيب منهم. وقال الحسن «فَأَنَابَكُمْ غَمًّا» يوم أحد «بِغَمٍّ» يوم بدر للمشركين. وسُمِّيَ الْغَمُّ ثَوَابًا كَمَا سَمِيَ جَزَاءُ الذَّنْبِ ذَنْبًا. وَقِيلَ: وَقَفَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَنْبِهِمْ فَشَغَلُوا بِذَلِكَ عَمَّا أَصَابَهُمْ.

قوله تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾  
 اللام متعلقة بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ وقيل: هي متعلقة بقوله: ﴿فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ﴾  
 أي كان هذا الغم بعد الغم لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنيمة، ولا ما أصابكم من  
 الهزيمة. والأول أحسن. و «ما» في قوله ﴿مَا أَصَابَكُمْ﴾ في موضع خفض. وقيل: «لا»  
 صلة. أي لكي تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم عقوبة لكم على مخالفتكم رسول  
 الله ﷺ. وهو مثل قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾<sup>(١)</sup> أي أن تسجد. وقوله ﴿لِنَلَّا  
 يَـٰعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾<sup>(٢)</sup> أي ليعلم، وهذا قول المفضل. وقيل: أراد بقوله ﴿فَأَنَابَكُمْ غَمًّا  
 بِغَمِّ﴾ أي توالى عليكم الغموم، لكيلا تشتغلوا بعد هذا بالغنائم. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا  
 تَعْمَلُونَ﴾ فيه معنى التحذير والوعيد.

[١٥٤] ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نُّعَاسًا يَشْعُنَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ  
 أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ  
 الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ  
 لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ  
 عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي  
 قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نُّعَاسًا﴾ الأمانة والأمن سواء. وقيل:  
 الأمانة إنما تكون مع أسباب الخوف، والأمن مع عدمه. وهي منصوبة بـ «أُنْزِلَ»، و «نُّعَاسًا»  
 بدلٌ منها. وقيل: نصب على المفعول له؛ كأنه قال: أنزل عليكم للأمانة<sup>(٣)</sup> نُّعَاسًا. وقرأ ابن  
 مُحَنِصِنٍ «أَمْنَةً» بسكون الميم. تفضل الله تعالى على المؤمنين بعد هذه الغموم في يوم

(١) راجع ١٦٩/٧.

(٢) راجع ٢٦٦/١٧.

(٣) في ز وه ود: أنزل عليهم للأمانة نُّعَاسًا، وفي جـ: أنزل عليكم الأمانة.

أُخِذَ بِالنَّعَاسِ حَتَّى نَامَ أَكْثَرَهُمْ؛ وَإِنَّمَا يَنْعَسُ مَنْ يَأْمَنُ وَالْخَائِفُ لَا يَنَامُ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ: غَشِينَا النَّعَاسَ وَنَحْنُ فِي مَصَافِنَا يَوْمَ أَحَدَ، قَالَ: فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَآخِذَهُ، وَيَسْقُطُ وَآخِذَهُ. ﴿يَغْشَى﴾ قَرِءَ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ. الْيَاءُ لِلنَّعَاسِ، وَالتَّاءُ لِلْأَمْنَةِ. وَالطَّائِفَةُ تَطْلُقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمَاعَةِ. ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ: مُعْتَبٌ بْنُ قُشَيْرٍ وَأَصْحَابُهُ، وَكَانُوا خَرَجُوا طَمَعًا فِي الْغَنِيمَةِ وَخَوْفِ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمْ يَغْشَهُمُ النَّعَاسُ وَجَعَلُوا يَتَأَسَّفُونَ عَلَى الْحُضُورِ، وَيَقُولُونَ الْآفَاقِيلُ. وَمَعْنَى ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ حَمَلَتْهُمْ عَلَى الْهَمِّ، وَالْهَمُّ مَا هَمَمْتَ بِهِ؛ يُقَالُ: أَهَمَّنِي الشَّيْءُ أَيِ كَانَ مِنْ هَمِي. وَأَمْرٌ مُهِمٌّ: شَدِيدٌ. وَأَهَمَّنِي الْأَمْرُ أَقْلَقَنِي. وَهَمَّنِي أَذَابَنِي<sup>(١)</sup>. وَالْوَاوُ فِي قَوْلِهِ «وَطَائِفَةٌ» وَارِ الْحَالِ بِمَعْنَى إِذْ، أَيِ إِذْ طَائِفَةٌ يَطْطُونُ أَنَّ أَمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ بَاطِلٌ، وَأَنَّهُ لَا يُنْصَرُ. ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ﴾ أَيِ ظَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ، فَحَذَفَ. ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لَفْظُهُ اسْتِفْهَامٌ وَمَعْنَاهُ الْجَحْدُ، أَيِ مَا لَنَا شَيْءٌ مِنَ الْأَمْرِ، أَيِ مِنْ أَمْرِ الْخُرُوجِ، وَإِنَّمَا خَرَجْنَا كَرْهًا؛ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَوْ كُنَّا لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾. قَالَ الزَّبِيرُ: أُرْسِلَ عَلَيْنَا النَّوْمُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَإِنِّي لَأَسْمَعُ قَوْلَ مُعْتَبِ بْنِ قُشَيْرٍ وَالنَّعَاسِ يَغْشَانِي يَقُولُ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا. وَقِيلَ: الْمَعْنَى يَقُولُ لَيْسَ لَنَا مِنَ الظَّفَرِ الَّذِي وَعَدَنَا بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ «كُلَّهُ» بِالرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَخَبَرَهُ «لِلَّهِ»، وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ «إِنْ». وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ﴾<sup>(٢)</sup>. وَالْبَاقُونَ بِالنَّصْبِ؛ كَمَا تَقُولُ: إِنْ الْأَمْرُ أَجْمَعَ لِلَّهِ. فَهُوَ تَوْكِيدٌ، وَهُوَ بِمَعْنَى أَجْمَعَ فِي الْإِحَاطَةِ وَالْعُمُومِ، وَأَجْمَعَ لَا يَكُونُ إِلَّا تَوْكِيدًا. وَقِيلَ: نَعْتَ لِلْأَمْرِ. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: بَدَلُ؛ أَيِ النَّصْرِ بِيَدِ اللَّهِ يَنْصَرُ مِنْ يَشَاءُ وَيَخْذُلُ مِنْ يَشَاءُ. وَقَالَ جُؤَيْبِرٌ عَنِ الضُّحَّاكِ عَنْ أَبِي عُبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَطْطُونُ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ﴾ يَعْنِي التَّكْذِيبَ بِالْقَدَرِ. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِيهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ يَعْنِي الْقَدَرُ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ مِنَ اللَّهِ. ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيِ مِنَ الشُّرْكِ

(١) أَيِ حَزَنَهُ الْأَمْرُ حَتَّى أَذَابَهُ.

(٢) رَاجِعَ ٢٧٣/١٥.

والكفر والتكذيب. ﴿مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ يظهرون لك. ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أي ما قُتِلَ عشائرتنا. فقيل: إن المنافقين قالوا لو كان لنا عقل ما خرجنا إلى قتال أهل مكة، ولَمَّا قُتِلَ رؤساؤنا. فردَّ الله عليهم فقال: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾ أي لخرج. ﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾ أي فرض. ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ يعني في اللوح المحفوظ. ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي مصارعهم. وقيل: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ أي فرض عليهم القتال، فعبر عنه بالقتل؛ لأنه قد يؤول إليه. وقرأ أبو حنيفة ﴿لَبَرَزَ﴾ بضم الباء وشدَّ الراء؛ بمعنى يُجعل يخرج. وقيل: لو تخلفتم أيها المنافقون لبرزتم إلى موطن آخر غيره تُصرعون فيه حتى يبتلي الله ما في الصدور ويظهره للمؤمنين. والواو في قوله ﴿وَلَيَبْتَلِي﴾ مقحمة كقوله: ﴿وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup> أي ليكون. وحذف الفعل الذي مع لام كي. والتقدير ﴿وَلَيَبْتَلِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فرض الله عليكم القتال والحرب ولم ينصركم يوم أُحُد ليختبر صبركم ولَيُمَحِّصَ عنكم سيئاتكم إن تبتم وأخلصتم. وقيل: معنى «ليبتلي» ليعاملكم معاملة المختبر. وقيل: ليقع منكم مشاهدة ما علمه غيباً. وقيل: هو على حذف مضاف، والتقدير ليبتلي أولياء الله تعالى. وقد تقدّم معنى التمهيص. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي ما فيها من خير وشر. وقيل: ذات الصدور هي الصدور؛ لأن ذات الشيء نفسه.

[١٥٥] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ هذه الجملة هي خبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾. والمراد من تولى عن المشركين يوم أُحُد؛ عن عمر رضي الله عنه وغيره. السُّدِّي: يعني من هرب إلى المدينة في وقت الهزيمة دون من صعد الجبل. وقيل: هي في قوم بأعيانهم تخلفوا عن النبي ﷺ في وقت هزيمتهم ثلاثة أيام ثم انصرفوا. ومعنى ﴿اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ استدعى زللهم بأن ذكرهم خطايا سلفت منهم، فكرهوا الثبوت لئلا يُقتلوا.

وهو معنى «ببعض ما كسبوا». وقيل: «أَسْتَرَلَهُمْ» حملهم على الزلل، وهو استفعل من الزلّة وهي الخطيئة. وقيل: زَلَّ وأَزَلَّ بمعنى واحد. ثم قيل: كرهوا القتال قبل إخلاص التوبة، فإنما تولّوا لهذا، وهذا على القول الأول. وعلى الثاني بمعصيتهم النبي ﷺ في تركهم المركز وميلهم إلى الغنيمة. وقال الحسن: «مَا كَسَبُوا» قَبُولُهُمْ مِنْ إِبْلِيسَ مَا وَسَّوسَ إِلَيْهِمْ. وقال الكلبي: زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ. وقيل: لم يكن الانهزام معصية؛ لأنهم أرادوا التحصن بالمدينة، فيقطع العدو طمعه فيهم لما سمعوا أن النبي ﷺ قُتِلَ. ويجوز أن يقال: لم يسمعوا دعاء النبي ﷺ لِلْهَوْلِ الذي كانوا فيه. ويجوز أن يقال: زاد عدد العدو على الضعف؛ لأنهم كانوا سبعمائة والعدو ثلاثة آلاف. وعند هذا يجوز الانهزام ولكن الانهزام عن النبي ﷺ خطأ لا يجوز، ولعلهم توهّموا أن النبي ﷺ انحاز إلى الجبل أيضاً. وأحسنها الأول. وعلى الجملة فإن حُمل الأمر على ذنب مُحَقَّق فقد عفا الله عنه، وإن حُمل على انهزام مُسَوَّغ فالآية فيمن أبعد في الهزيمة وزاد على القدر المسوّغ. وذكر أبو الليث السمرقندي نصر بن محمد بن إبراهيم قال: حدّثنا الخليل بن أحمد قال حدّثنا السراج قال حدّثنا قتيبة قال حدّثنا أبو بكر بن غيلان عن جرير: أن عثمان كان بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أَتُسَبِّحُني وقد شهدتُ بَدْراً ولم تشهد، وقد بايعتُ تحت الشجرة ولم تباع، وقد كنتُ تُوكَلِي مع من تولّى يوم الجَمْع، يعني يوم أُحُد. فردّ عليه عثمان فقال: أما قولك: أنا شهدتُ بَدْراً ولم تشهد، فإنني لم أعْب عن شيء شهدته رسول الله ﷺ، إلا أن بنت رسول الله ﷺ كانت مريضةً وكنت معها أَمْرُضُهَا، فضرب لي رسول الله ﷺ سهماً في سهام المسلمين، وأما بيعة الشجرة فإن رسول الله ﷺ بعثني رَيْبَةً على المشركين بمكة - الرَيْبَةُ هو الناظر - فضرب رسول الله ﷺ يمينه على شماله فقال: «هذه لعثمان» فيمين رسول ﷺ وشماله خير لي من يميني وشمالي. وأما يوم الجَمْع فقال الله تعالى: «وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ» فكنْتُ فيمن عفا الله عنهم. فحجَّ<sup>(١)</sup> عثمانُ عبدَ الرحمن.

(١) في ب وهـ ود: فخاصم، وفي جـ: فحاج.



قلت: وهذا المعنى صحيح أيضاً عن ابن عمر، كما في صحيح البخاري قال: حَدَّثَنَا عَبْدَانُ أَخْبَرَنَا أَبُو حمزة عن عثمان بن مَوْهَب قال: جاء رجلٌ حجَّ البيتَ فرأى قوماً جلوساً فقال: مَنْ هؤلاء القعود؟ قالوا: هؤلاء قریش. قال: مَنْ الشیخ؟ قالوا: ابن عمر؛ فأتاه فقال: إني سائلك عن شيء أُنحَدُّثُني؟ قال: أُنشِدُكَ بِحُرْمَةِ هذا البيت، أتعلم أن عثمانَ بنَ عفانَ فَرَّ يومَ أُحُدٍ؟ قال: نعم. قال: فتعلَّمهُ تَغْيِبَ عن بَدْرِ فلم يشهدْها؟ قال: نعم. قال فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدْها؟ قال نعم. قال: فكَبَّر. قال ابن عمر: تعالَ لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه؛ أمّا فراره يومَ أُحُدٍ فأشهدُ أن الله عفا عنه. وأمّا تَغْيِبُهُ عن بَدْرِ فإنه كان تحته بنتُ رسول الله ﷺ وكانت مريضةً، فقال له النبي ﷺ: «إِنَّ لَكَ أَجْرَ رجلٍ ممن شهدَ بَدْرًا وسَهْمَهُ». وأمّا تَغْيِبُهُ عن بيعة الرضوان فإنه لو كان أحدٌ أعزَّ ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه، فبعث عثمانَ وكانت بيعةُ الرضوان بعدما ذهب عثمانُ إلى مكة؛ فقال<sup>(١)</sup> النبي ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان» فضرب بها على يده<sup>(٢)</sup> فقال: «هذه لعثمان». أذهب بهذا<sup>(٣)</sup> الآن معك.

قلت: ونظير هذه الآية توبةُ الله على آدم عليه السلام. وقوله عليه السلام: «فحجَّ آدمُ موسى» أي غلبه بالحُجَّة؛ وذلك أن موسى عليه السلام أراد توبيخَ آدمَ ولومَه في إخراج نفسه وذريته من الجنة بسبب أكله من الشجرة؛ فقال له آدم: «أفَلُؤْمِنِي على أمر قدَّره الله تعالى عليّ قبل أن أخلَقَ بأربعين سنة تاب عليّ منه ومن تاب عليه فلا ذنب له ومن لا ذنب له لا يتوجَّه عليه لومٌ». وكذلك من عفا الله عنه. وإنما كان هذا لإخباره تعالى بذلك، وخبرُه صِدْقٌ. وغيرهما من المذنبين التائبين يرجون رحمته ويخافون عذابه، فهم على وَجَلٍ وخوفٍ أَلَّا تُقْبَلَ توبتهم، وإن قُبِلَتْ فالخوفُ أَغْلَبُ عليهم إذ لا عِلْمَ لهم بذلك. فأعلم.

(١) قال: أشار، والعرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان؛ فتقول: قال بيده أي أخذ، وقال برجله أي مشى، وقال بثوبه أي رفعه، وكل ذلك على الاتساع والمجاز (عن نهاية ابن الأثير).

(٢) أي اليسرى.

(٣) في رواية «بها» أي بالأجوبة التي أجبتك بها حتى يزول عنك ما كنت تعتقده من عيب عثمان. (عن القسطلاني) في بـ وهـ ود: بهذه.

[١٥٦] ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني المنافقين. ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ يعني في النفاق أو في النسب في السرايا التي بعث النبي ﷺ إلى بئر معونة. ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ فنهى المسلمون أن يقولوا مثل قولهم. وقوله: ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾ هو لما مضى؛ أي إذ ضربوا؛ لأن في الكلام معنى الشرط من حيث كان «الذين» مبهماً غير موقت، فوق «إذا» موقع «إذا» كما يقع الماضي في الجزاء موضع المستقبل. ومعنى «ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ» سافروا فيها وساروا لتجارة أو غيرها فماتوا. ﴿أَوْ كَانُوا غُرًى﴾ غَزَاةٌ فَقُتِلُوا. والغُرَى جمعٌ منقوص لا يتغير لفظها في رفع وخفض، واحدهم غازٍ، كراخ وزُغغ، وصائم وصَوِّم، ونائم ونُؤم، وشاهد وشُهِد، وغائب وغُيِب. ويجوز في الجمع غَزَاة مثل قُضَاة، وغَزَاء بالمد مثل ضُرَاب وصَوَام. ويقال: غَرِيٌّ<sup>(١)</sup> جمع الغَزَاة. قال الشاعر<sup>(٢)</sup>:

قل للقوافل والغُرَى إذا غَزَوْا

وروي عن الزُّهري أنه قرأه «غُرَى» بالتخفيف. والمُغْزِيَةُ المرأة التي غَزَا زوجها. وَأَتَانُ مُغْزِيَةٌ متأخرةُ النَّجَاجِ ثم تُنْتَجِجُ. وَأَغْزَتِ النَّاقَةُ إِذَا عَسَرَ لِقَاحُهَا. والغَزْوُ قصدُ الشيء. والمَغْزَى المَقْصِدُ. ويُقال في النَّسَبِ إلى الغَزْوِ: غَزَوِيٌّ.

(١) في اللسان مادة «غزا» أنه جمع غاز مثل حاج وحجيج وقاطن وقطين وناد وندى وناج ونجى.

(٢) هو زياد الأعجم. وقيل: هو الصلتان العبدي، وتماهه كما في اللسان:

والباكرين وللمجدة الزامع

قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني ظنهم وقولهم. واللام متعلقة بقوله «قالوا» أي ليجعل ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ما قُتلوا. «حَسْرَةً» أي ندامة «في قُلُوبِهِمْ». والحسرة الاهتمام على فائت لم يُقدَّر بلوغه؛ قال الشاعر:

فواحسرتي لم أقضِ منها لُبَانَتِي      ولم أتمتغ بِالْجَوَارِ وبِالْقُرْبِ

وقيل: هي متعلقة بمحذوف. والمعنى: لا تكونوا مثلهم «ليجعل الله ذلك» القول «حسرة في قلوبهم» لأنهم ظهر نفاقهم. وقيل: المعنى لا تصدقوهم ولا تلتفتوا إليهم؛ فكان ذلك حسرة في قلوبهم. وقيل: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يوم القيامة لما هم فيه من الخزي والندامة، ولما فيه المسلمون من النعيم والكرامة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ﴾ أي يقدر على أن يُحيي من يخرج إلى القتال، ويميت من أقام في أهله. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قرىء بالياء والتاء. ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيل الله والموت فيه خيرٌ من جميع الدنيا.

[١٥٧] ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾

[١٥٨] ﴿وَلَكِنْ مَتُّم أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾

جواب الجزاء محذوف، استغنى عنه بجواب القسم في قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ وكان الاستغناء بجواب القسم أولى؛ لأن له صدر الكلام، ومعناه ليغفرن لكم. وأهل الحجاز يقولون: مِثْم، بكسر الميم مثل نِمتم، من مات يمات مثل خِفت يخاف. وسُفْلَى مُضَر يقولون: مِثْم، بضم الميم مثل صِمتم، من مات يموت. كقولك كان يكون، وقال يقول. هذا قول الكوفيين وهو حسن. وقوله: ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ وَغَطَّ. وعظمهم الله بهذا القول، أي لا تفرّوا من القتال ومما أمركم به، بل فِرّوا من عقابه وأليم عذابه، فإن مرّ دكم إليه لا يملك لكم أحد ضراً ولا نفعاً غيره. والله سبحانه وتعالى أعلم.

[١٥٩] ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَتَقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

«ما» صلة فيها معنى التأكيد، أي فبرحمة؛ كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾<sup>(١)</sup> ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِثَاقَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾<sup>(٣)</sup>. وليست بزائدة على الإطلاق، وإنما أطلق عليها سيبويه معنى الزيادة من حيث زال عملها. ابن كيسان: «ما» نكرة في موضع جر بالباء ﴿وَرَحِمَهُ﴾ بدل منها. ومعنى الآية: أنه عليه السلام لما رفق بمن تولى يوم أُحُدٍ ولم يُعَقِّفْهُمْ بَيْنَ الرَّبِّ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ. وقيل: «ما» استيفاهم. والمعنى: فَبِأَيِّ رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ؛ فهو تعجيب. وفيه بُعد؛ لأنه لو كان كذلك لكان «فبم» بغير ألف. ﴿لَئِنْ﴾ مِنْ لَأَنْ يَلِينُ لِينًا وَلَيَانًا بِالْفَتْحِ. وَالْفُظُّ الْغَلِيظُ الْجَافِي. فَظِظْتَ تَفِظُ فَظَاطَةً وَفِظَاطًا فَانْتَ فَظًا. وَالْأَنثَى فَظَّةٌ وَالْجَمْعُ أَفْظَاطٌ. وَفِي صِفَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ بَفُظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا صَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ؛ وَأَنْشَدَ الْمُفَضَّلُ فِي الْمَذْكُورِ:

وَلَيْسَ بَفُظٍّ فِي الْأَدَانِي وَالْأُولَى  
وَقَطَّ عَلَى أَعْدَائِهِ يَحْدَرُونَهُ  
وَقَالَ آخَرُ فِي الْمُؤَنَّثِ:

أَمُوتُ مِنَ الضُّرِّ فِي مَنْزِلِي  
وَدُنْيَا تَجُودُ عَلَى الْجَاهِلِي  
وَغِلَظُ الْقَلْبِ عِبَارَةٌ عَنْ تَجَهُّمِ الْوَجْهِ، وَقِلَّةِ الْإِنْفِعَالِ فِي الرِّغَائِبِ، وَقِلَّةِ الْإِشْفَاقِ  
وَالرَّحْمَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:  
يُبْكِي عَلَيْنَا وَلَا تَبْكِي عَلَى أَحَدٍ؟  
لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبِلِ  
وغيري يموت من الكِظَّة<sup>(٤)</sup>  
من وهي على ذي الثُّهَى فَظَّةٌ

(١) راجع ١٢/١٢٤.

(٢) راجع ٦/١١٤.

(٣) راجع ١٥/١٥١. (٤) الكظة: البطنة.

وَمَعْنَى ﴿لَا تَقْضُوا﴾ لتفرقوا؛ فضضتهم فانقضوا، أي فزقتهم ففترقوا؛ ومن ذلك قول أبي التجم يصف أبلاً:

مستعجلات القيض <sup>(١)</sup> غير جُزد <sup>(٢)</sup> يَنْقُضَ عَنْهُمْ الْحَصَى بِالصَّمَدِ <sup>(٣)</sup>

وأصل الفض الكسر؛ ومنه قولهم: لا يَفْضُضُ الله فَالَكَ. والمعنى: يا محمد لولا رفقتك لَمَنَعَهُم الاجْتِشَامُ والهيبةُ من القُربِ منك بعد ما كان من تَوَلَّيَهُم.

قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فيه ثمان مسائل:

**الأولى** - قال العلماء: أمر الله تعالى نبيّه ﷺ بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ؛ وذلك أنه أمره بأن يَعْفُوَ عنهم ما له في خاصّته عليهم من تَبِعَةٍ؛ فلما صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تَبِعَةٍ أيضاً، فإذا صاروا في هذه الدَّرَجَةِ صاروا أَهْلًا للاستشارة في الأمور. قال أهل اللغة: الاستشارة مأخوذة من قول العرب: شُرْتُ الدابة وشورتها إذا علمت خبرها بجري أو غيره. ويقال للموضع الذي تركض فيه: مِشْوَار. وقد يكون من قولهم: شُرْتُ العسل واشترته فهو مَشُور ومُشْتَار إذا أخذته من موضعه، قال عدي بن زيد:

فِي سَمَاعٍ يَأْذَنُ الشَّيْخُ لَهُ وَحَدِيثٍ مِثْلَ مَاذِي مُشَارٍ <sup>(٤)</sup>

**الثانية** - قال ابن عَظِيمة: والشُّورَى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام؛ من لا يَسْتَشِيرُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالِدِّينَ فَعَزْلُهُ وَاجِبٌ. هذا ما لا خلاف فيه. وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ <sup>(٥)</sup>. قال أغرايى: مَا غُبِنْتُ قَطُّ حَتَّى يُغْبِنَ قَوْمِي؛ قيل:

(١) كذا في الأصول بالقاف والياء المثناة، ولعله مصحف عن «القبض» بالقاف والياء الموحدة وهو السوق السريع، وإنما سمي السوق السريع قبضاً لأن السائق للابل يقبضها أي يجمعها إذا أراد سوقها، فإذا انتشرت تعذر عليه سوقها، أو القبض بمهمل: العدو الشديد.

(٢) كذا في الأصول بالمعجمة، ولعله «حرد» بالحاء المهملة، والحرد في البعير أن تنقطع عصبة ذراعه فتسترخي يده فلا يزال يخفق بها أبداً.

(٣) الصمد: المكان الغليظ المرتفع من الأرض لا يبلغ أن يكون جبلاً.

(٤) يأذن: يستمع. والمآذي: العسل الأبيض. والمشار: المجتنى.

(٥) راجع ١٦/٣٦.

وكيف ذلك؟ قال لا أفعل شيئاً حتى أَسْأَوْهُمْ. وقال ابنُ خُوَيْرِ مَنَدَاد: واجب على الوَلَاةِ مشاورةُ العلماء فيما لا يَعْلَمُونَ، وفيما أَشْكَلُ عليهم من أمور الدِّين، وَوُجُوهُ الجَيْش فيما يَتَعَلَّقُ بالحرب، ووجوه الناس فيما يَتَعَلَّقُ بالمصالح، وَوُجُوهُ الكُتَّاب والوزراء والعمال فيما يَتَعَلَّقُ بمصالح البلاد وَعِمَارَتِهَا. وكان يقال: ما ندم من استشار<sup>(١)</sup>. وكان يُقال: من أُعْجِبَ برأيه ضَلَّ.

**الثالثة** - قوله تعالى: ﴿وَسَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يَدُلُّ على جواز الاجتهاد في الأمور والأخذ بالطُّنُون مع إمكان الوُخْي؛ فإن الله أَذِنَ لرسوله ﷺ في ذلك. واختَلَفَ أهل التأويل في المعنى الذي أَمَرَ الله نبيَّهُ عليه السلام أن يُسَاوِرَ فيه أصحابه؛ فقالت طائفة: ذلك في مكائد الحروب، وعند لِقَاءِ العَدُوِّ، وتطبيبات لِنَفُوسِهِمْ، وَرَفْعاً لِأَقْدَارِهِمْ، وتَأْلُفاً على دينهم، وإن كان الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بَوُخْيِهِ. رُوي هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق والشافعي. قال الشافعي: هو كقوله «والبكر تُسْتَأْمَرُ» تطيباً لقلبها؛ لا أَنَّهُ واجب. وقال مُقَاتِلٌ وَقتادة والربيع: كانت سادات العرب إذا لم يُسَاوِرُوا في الأمر شَقَّ عليهم: فأمر الله تعالى نبيَّهُ عليه السلام أن يُسَاوِرَهم في الأمر: فإن ذلك أَعْطَفُ لهم عليه وأَذْهَبَ لِأَضْغَانِهِمْ، وَأَطْيَبَ لِنَفُوسِهِمْ. فإذا سَاوَرَهُمْ عَرَفُوا إِكْرَامَهُ لهم. وقال آخرون: ذلك فيما لم يَأْتِ فيه وَخْيٌ. رُوي ذلك عن الحسن البصري والضحاك قالا: ما أَمَرَ الله تعالى نبيه بالمُشَاوَرَةِ لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يُعَلِّمَهُمْ ما في المُشَاوَرَةِ من الفضل، وَلِتَقْتَدِيَ به أُمَّتُهُ من بعده. وفي قراءة ابن عباس: «وَسَاوِرْهُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ» ولقد أحسن القائل:

سَاوِرِ صَدِيقَكَ فِي الْخَفِيِّ الْمُشْكِلِ      وَاقْبَلْ نَصِيحَةَ نَاصِحٍ مُتَّقِضِلِ  
فَاللَّهُ قَدْ أَوْصَى بِذَاكَ نَبِيُّهُ      فِي قَوْلِهِ: (سَاوِرْهُمْ) وَ (تَوَكَّلِ)

**الرابعة** - جاء في مصنف أبي داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ». قال العلماء: وَصِفَةُ الْمُسْتَشَارِ إِنْ كَانَ فِي الْأَحْكَامِ أَنْ

(١) هذا حديث رواه الطبري في أوسطه والقضاعي عن أنس وحسنه السيوطي وفي كشف الحنفاء: في سنده: ضعيف جداً.

يكون عالماً دَيِّناً، وقلّما يكونُ ذلك إلا في عاقل. قال الحسن: ما كَمُلَ دينُ امرئٍ ما لم يكمل عقله. فإذا استَشِيرَ من هذه صِفَتُهُ واجتهد في الصّلاح وبذلَّ جُهدَه فوقعت الإشارةُ خطأً فلا غَرامةَ عليه؛ قاله الخطّابيُّ وغيره.

**الخامسة -** وصفةُ المُستشارِ في أمورِ الدنيا أن يكون عاقلاً مُجرباً وادّاً في المُستشير. قال:

شاوِزْ صديقَكَ في الخَفي المُشْكلِ

وقد تقدّم. وقال آخر:

وَإِنْ بَابُ أَمْرِ عَلَيْكَ التَّوَي فَشَاوِرْ لَبِيّاً وَلَا تَعْصِهِ

في أبيات<sup>(١)</sup>. والشورى بَرَكةٌ. وقال عليه السلام: «ما نَدِمَ مَنْ اسْتَشَارَ وَلَا خَابَ مِنْ اسْتِخَارَ». وروى سهلُ بْنُ سَعْدٍ السَّاعِدِي عن رسول الله ﷺ: «ما شَقِي قَطُّ عَبْدٌ بِمَشُورَةٍ وَمَا سَعِدَ بِاسْتِغْنَاءٍ رَأَى». وقال بعضهم: شَاوِزْ مِنْ جَرَبِ الْأُمُورِ؛ فإنه يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ غَالِباً وَأَنْتَ تَأْخُذُهُ مَجَانّاً. وقد جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخِلافةَ - وهي أعظمُ التَّوَازِلِ - شُورَى. قال البخاري: وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يَسْتَشِيرُونَ الْأُمَنَاءَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ لِأَخْذِهَا بِأَسْهَلِهَا. وقال سفيان الثوري: ليكن أهل مشورتك أهل التقوى والأمانة، ومن يخشى الله تعالى. وقال الحسن: والله ما تشاوِزَ قومَ بينهم إلا هُداهم لِأَفْضَلِ ما يحضر<sup>(٢)</sup> بهم. وَرَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم كانت لهم مشورةٌ فحضر معهم من اسمه أحمد أو محمد فأدخلوه في مشورتهم إلا خيروا لهم».

(١) وقبل هذا البيت:

فَأَرْسَلِي حَكِيماً وَلَا تَوْصِهِ

إذا كنت في حاجة مرسلًا

وبعده:

فإن الوثيقة في نصه

ونص الحديث إلى أهله

ه تبيين ذلك في شخصه

إذا المرء أضمر خوف الإل

(٢) في ب وجد: ما يحضرتهم.

السادسة - والشورى مبنية على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف، وينظر أقربها قولاً إلى الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلاً عليه، إذ هذه غاية الاجتهاد المطلوب؛ وبهذا أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية.

السابعة - قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ قال قتادة: أمر الله تعالى نبيه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يَمْضِيَ فيه ويتوكل على الله، لا على مشاورتهم. والعزم هو الأمر المُرَوَّى المنقَح، وليس ركوب الرأي دون روية عزمًا، إلا على مقطع المُشِيحِينَ من قَتَاك العرب؛ كما قال<sup>(١)</sup>:

إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمه ونكَّب عن ذكر العواقب جانيًا  
ولم يستشر في رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاجِبًا  
وقال النقاش: العزم والحزم واحد، والحاء مُبدلة من العين. قال ابن عطية: وهذا خطأ؛ فالحزم جودة النظر في الأمر وتنقيحه والحدُّ من الخطأ فيه. والعزم قصدُ الإمضاء؛ والله تعالى يقول: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ﴾. فالمشاورة وما كان في معناها هو الحزم. والعرب تقول: قد أُحْزِمَ لو أُعْزِمَ<sup>(٢)</sup>. وقرأ جعفر الصادق وجابر بن زيد: ﴿فَإِذَا عَزَمْتُ﴾ بضم التاء. نسب العزم إلى نفسه سبحانه إذ هو بهدأته وتوفيقه؛ كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾<sup>(٣)</sup>. ومعنى الكلام أي عزمْتُ لك ووقفتك وأرشدتك «فتوكل على الله». والباقون بفتح التاء. قال المهلب: وامثل هذا النبي ﷺ من أمر ربه فقال: «لا ينبغي لنبيٍّ يلبس لأُمته<sup>(٤)</sup> أن يضعها حتى يحكم الله». أي ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف؛ لأنه نقضٌ للتوكل الذي شرطه الله عز وجل مع العزيمة. فلُبَّسَ لأُمته ﷺ حين أشار عليه بالخروج يوم أُحُد من أكرمه الله بالشهادة فيه، وهم صلحاء المؤمنين ممن كان فاتته بذُر: يا رسول الله أخرج بنا إلى عدونا؛ دالٌّ على العزيمة. وكان ﷺ

(١) هو سعد بن ناشب المازني (عن الكامل للمبرد وخزانة الأدب للبغدادى).

(٢) يقول: أعرف وجه الحزم؛ فإن عزمْتُ فأمضيتُ الرأي فأنا حازم، وإن تركت الصواب وأنا أراه وضيعت العزم لم يتفني حزمي. (عن الكامل للمبرد).

(٣) راجع ٣٨٤/٧.

(٤) الأمة: الدرع، وقيل: السلاح. ولأمة الحرب: أداؤها. وقد يترك الهمز تخفيفاً.



أشار بالعودة، وكذلك عبد الله بن أبيّ أشار بذلك وقال: أقم يا رسول الله ولا تخرج إليهم بالناس، فإنّ هم أقاموا أقاموا بشرّ مجلس، وإن جاءونا إلى المدينة قاتلناهم في الأفنية وأفواه السّكك، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من الآطام<sup>(١)</sup>، فوالله ما حاربنا قطّ عدوّ في هذه المدينة إلا غلبناه، ولا خرجنا منها إلى عدوّ إلا غلبنا. وأبى هذا الرأي من ذكرنا، وشجّعوا الناس ودعّوا إلى الحرب. فصلى رسول الله ﷺ الجمعة، ودخل إثر صلاته بيته وليس سلاحه، فندم أولئك القوم وقالوا: أكرهنا رسول الله ﷺ؛ فلما خرج عليهم في سلاحه قالوا: يا رسول الله، أقم إن شئت فإننا لا نريد أن نكرهك، فقال النبي ﷺ: «لا ينبغي لنبي إذا ليس سلاحه أن يضعها حتى يقاتل».

**الثامنة -** قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ التوكّل: الاعتماد على الله مع إظهار العجز، والاسم التّكلان. يقال منه: أتكلت عليه في أمري، وأصله: «أَوْ تَكَلَّتُ» قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، ثم أبدلت منها التاء وأدغمت في تاء الافتعال. ويقال: وتكلته بأمرى توكيلاً، والاسم الوكالة بكسر الواو وفتحها.

واختلف العلماء في التوكّل؛ فقالت طائفة من المتصوّفة: لا يستحقّه إلا من لم يخالط قلبه خوفٌ غير الله من سبعٍ أو غيره، وحتى يترك السعي في طلب الرزق لضمان الله تعالى. وقال عامّة الفقهاء: ما تقدّم ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. وهو الصحيح كما بيناه. وقد خاف موسى وهارون بإخبار الله تعالى عنهما في قوله ﴿لَا تَخَافَا﴾<sup>(٣)</sup>. وقال: ﴿فَأَرْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾<sup>(٣)</sup>. وأخبر عن إبراهيم بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾<sup>(٤)</sup>. فإذا كان الخليل وموسى والكليم قد خافوا - وحسبك بهما - فغيرهما أولى. وسيأتي بيان هذا المعنى.

[١٦٠] ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُكُمُ فَمنَ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

(١) الآطام (جمع أطم بضمّتين): الأبنية المرتفعة كالحصون. وقيل: حصون مبنية بالحجارة.  
(٢) راجع ص ١٨٩ من هذا الجزء. (٣) راجع ٢٠١/١١ و ٢٢١. (٤) راجع ٦٢/٩.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي عليه توكلوا فإنه إن يُعَنِّمَكم ويمنعكم من عدوكم لن تُغلبوا. ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ يترككم من معونته. ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي لا ينصركم أحد من بعده، أي من بعد خذلانه إياكم؛ لأنه قال: ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ والخِذلان ترك العون. والمخذول: المتروك لا يُعْبَأُ به. وخَذَلَتْ الوحشية أقامت على ولدها في المرعى وتركت صواحباتها؛ فهي خذول. قال طرفة:

خَذُولُ ثُرَاعِي رَبِّرَبًّا بِخَمِيلَةٍ      تَنَاولُ أَطْرَافَ الْبَرِيرِ وَتَزْتَدِي<sup>(١)</sup>

وقال أيضاً:

نظرت إليك بعين جارية      خَذَلَتْ صَوَاحِبَهَا عَلَى طِفْلِ  
وقيل: هذا من المقلوب؛ لأنها هي المخذولة إذا تُرِكَت. وتخاذلت رجلاه إذا ضَعُفَتَا. قال:  
وَحَذُولِ الرَّجُلِ مِنْ غَيْرِ كَسَحٍ<sup>(٢)</sup>  
ورجل خَذَلَهُ للذي لا يزال يَخْذُلُ. والله أعلم.

[١٦١] ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

فيه إحدى عشرة مسألة:

**الأولى** - لما أخلَّ الرُّمَاءُ يوم أُحُدَ بمراكزهم - على ما تقدّم - خوفاً من أن يستولي المسلمون على الغنيمة فلا يُصْرَفُ إليهم شيء، بين الله سبحانه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يجوز في القسمة؛ فما كان من حَقِّكم أن تتهموه. وقال الضحّاك: بل السبب أن رسول الله ﷺ بعث طلائع في بعض غزواته ثم غَنِمَ قبل مجيئهم؛ فقسم للناس ولم يقسم للطلائع؛ فأنزل الله عليه عتاباً: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلُ وَمَنْ يَغْلُلْ﴾ أي يقسم لبعض ويترك بعضاً. ورُوي نحو هذا القول عن ابن عباس. وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة وأبن جُبَيْر وغيرهم:

(١) الربرب: القطيع من بقر الوحش والظباء وغير ذلك. الخميلة: الأرض السهلة اللينة ذات الشجر البرير: أثر الأراك.

(٢) هذا عجز بيت للأعشى وصدرة:

نزلت بسبب قطيفة حمراء فُقدت في المغنم يوم بدر؛ فقال بعض من كان مع النبي ﷺ: لعل أن يكون النبي ﷺ أخذها، فنزلت الآية أخرجه أبو داود والترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب. قال ابن عطية: قيل كانت هذه المقالة من مؤمنين لم يظنوا أن في ذلك حرجاً. وقيل: كانت من المنافقين. وقد روي أن المفقود كان سيفاً. وهذه الأقوال تُخرج على قراءة «يُغَلِّ» بفتح الياء وضم الغين. وروى أبو صخر عن محمد بن كعب «وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلِّ» قال: تقول وما كان لنبي أن يكتم شيئاً من كتاب الله. وقيل: اللام فيه منقولة، أي وما كان نبي ليغَلِّ؛ كقوله: «مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ»<sup>(١)</sup>. أي ما كان الله ليتخذ ولداً. وقرئ «يُغَلِّ» بضم الياء وفتح الغين. وقال ابن السكيت: [لم نسمع في المَغْنَم إلا غَلَّ غُلُولاً، وقرئ<sup>(٢)</sup>] وما كان لنبي أن يغَلِّ ويُغَلِّ. قال: فمعنى «يُغَلِّ» يَخُون، ومعنى «يُغَلِّ» يُخَوِّن، ويحتمل معنيين: أحدهما يُخَان أي يؤخذ من غنيمته، والآخر يُخَوِّن أن يُنسب إلى الغُلُول. ثم قيل: إن كل من غَلَّ شيئاً في خفاء فقد غَلَّ يُغَلِّ غُلُولاً. قال ابن عرفة: سُمِّيت غُلُولاً لأن الأيدي مَغْلُولَةٌ منها، أي ممنوعة. وقال أبو عبيد: الغُلُول من المَغْنَم خاصّة، ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد ومما يُبيِّن ذلك أنه يقال من الخيانة: أَغَلَّ يَغَلِّ، ومن الحقد: غَلَّ يَغَلِّ بالكسر، ومن الغُلُول: غَلَّ يَغَلِّ بالضم. وَغَلَّ البعير أيضاً [يَغَلِّ غَلَةً]<sup>(٣)</sup> إذا لم يَقْضِ رِيَهُ وَأَغَلَّ الرجل خان، قال الثَّعْمَرُ:

جزى الله عتاً حَمْزَةً<sup>(٤)</sup> ابنة نَوَفَلٍ جزاء مُغَلٍّ بالأمانة كاذبٍ

وفي الحديث: «لا إِغْلَالَ ولا إِسْلَالَ» أي لا خيانة ولا سرقة، ويقال: لا رِشْوَةَ. وقال شُريح: ليس على المُستَعِير غير المُغَلِّ ضَمَانٌ. وقال ﷺ: «ثَلَاثٌ لا يُغَلِّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ» من رواه بالفتح<sup>(٥)</sup> فهو من الضُّغْن. وَغَلَّ [دَخَلَ]<sup>(٦)</sup> يتعدَّى ولا يتعدَّى؛ يقال:

(١) راجع ١١/١٠٥.

(٢) زيادة عن الصحاح واللسان.

(٣) زيادة عن كتب اللغة.

(٤) كذا في الأصول واللسان، وفي الصحاح للجوهري «جمرة» بالجمع المعجمة والبراء.

(٥) أي بفتح الياء.

غَلَّ فلان المفاوز، أي دخلها وتوسطها. وغَلَّ من المغنم غلولا، أي خان. وغَلَّ الماء بين الأشجار إذا جرى فيها؛ يَغْلُ بالضم<sup>(١)</sup> في جميع ذلك. وقيل: الغُلُول في اللغة أن يأخذ من المَغْنَم شيئاً يستره عن أصحابه؛ ومنه تَغْلغل الماء في الشجر إذا تخللها. والغَلَل: الماء الجاري في أصول الشجر؛ لأنه مستتر بالأشجار؛ كما قال<sup>(٢)</sup>:

لَعِبَ الشُّيُولُ بِهِ فَأَصْبَحَ مَاؤُهُ غَلَلًا يُقَطِّعُ فِي أَصُولِ الْخُرُوعِ

ومنه الغِلَالَةُ للشوب الذي يُلبس تحت الثياب. والغَالُ: أرض مطمئنة ذات شجر. ومنابت السُّلَمِ<sup>(٣)</sup> والطلح يقال لها: غَالٌ. والغَالُ أيضاً نَبَتٌ، والجمع غُلَانٌ بالضم. وقال بعض الناس: إن معنى «يَغْلُ» يوجد غالاً؛ كما تقول: أحمدت الرجل وجدته محموداً. فهذه القراءة على هذا التأويل ترجع إلى معنى «يَغْلُ» بفتح الياء وضم الغين. ومعنى «يَغْلُ» عند جمهور أهل العلم أي ليس لأحد أن يَغْلَهُ، أي يخونه في الغنيمة. فالآية في معنى نَهَى الناس عن الغلول في الغنائم، والتَوَعُّدُ عليه. وكما لا يجوز أن يُخَانَ النبي ﷺ لا يجوز أن يُخَانَ غيره، ولكن خصّه بالذكر لأن الخيانة معه أشدُّ وقَعاً وأعظمُ وزراً؛ لأن المعاصي تعظم بحضرته لِتَعَيُّنِ توقيره. والوَلَاةُ إنما هم على أمر النبي ﷺ فلهم حظهم من التوقيع. وقيل: معنى «يغل» أي ما غلَّ نبي قط، وليس الغرض التَّهْيِي.

**الثانية** - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يأتي به حاملاً له على ظهره ورقبته، مُعَذِّباً بحمله وثقله، ومَرْعُوباً بصوته، ومُؤَبِّحاً بإظهار خيانتة على رؤوس الأشهاد؛ على ما يأتي. وهذه الفضيحة التي يُوقَعُها الله تعالى بالغال نظيرُ الفضيحة التي توقع بالغادر، في أن يُنصب له لواء عند أسنهِ بقدر غَدْرَتِهِ. وجعل الله تعالى هذه المعاقبات حَسْبَمَا يَغْهَدُهُ الْبَشَرُ وَيَفْهَمُونَهُ؛ ألا ترى إلى قول الشاعر:

أَسْمِي وَيَحْكُ هَلْ سَمِعْتَ بِغَدْرَةٍ      رُفِعَ اللِّوَاءُ لَنَا بِهَا فِي الْمَجْمَعِ

(١) أي بضم الغين.

(٢) البيت للحريذرة؛ كما في اللسان.

(٣) في ب وزد: الساج.

وكانت العرب ترفع للغادر لواءً، وكذلك يُطافُ بالجاني مع جنائته. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغُلُولَ فعظمه وعظم أمره ثم قال: «لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ<sup>(١)</sup>» فيقول يا رسول الله اغْنِنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شاةٌ لَهَا نُغَاءٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ فيقول يا رسول الله اغْنِنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَابِئٌ<sup>(٢)</sup> فيقول يا رسول الله اغْنِنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ<sup>(٣)</sup> فيقول يا رسول الله اغْنِنِي فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ» وروى أبو داود عن سَمُرَةَ<sup>(٤)</sup> بن جُنْدُبٍ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصاب غَنِيمةً أمر بِلَالٍ أن ينادي في الناس فيجيئون بغنائمهم فيخْمُسُهُ ويقسمه؛ فجاء رجل يوماً بعد النداء بزمَامٍ من الشَّعَرِ فقال: يا رسول الله هذا كان فيما أصبناه من الغنيمة. فقال: «أَسَمِعْتَ بِلَالاً ينادي ثلاثاً؟» قال: نعم. قال: «فما منعك أن تجيء به؟» فأعْتَذَرَ إليه. فقال: «كَلَّا<sup>(٥)</sup>» أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله منك». قال بعض العلماء: أراد يُوافي بوزر ذلك يوم القيامة، كما قال في آية أخرى: «وَهُمْ يَخْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ<sup>(٦)</sup>». وقيل: الخبر محمول على شهرة الأمر؛ أي يأتي يوم القيامة قد شهَّر الله أمره كما يُشهر لو حَمَلَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أو فرساً له حَمْحَمَةٌ.

قلت: وهذا عُدُولٌ عن الحقيقة إلى المجاز والتشبيه، وإذا دار الكلام بين الحقيقة والمجاز فالحقيقة الأصل كما في كُتُب الأصول. وقد أخبر النبي ﷺ بالحقيقة،

(١) حمحمة الفرس: صوته دون الصهيل، والثغاء: صياح الغنم.

(٢) الرقاع (بالكسر جمع رقعة بالضم) وهي التي تكتب. وأراد بها ما عليها من الحقوق المكتوبة. وخفوقها: حركتها.

(٣) الصامت: الذهب والفضة، خلاف الناطق وهو الحيوان.

(٤) في سنن أبي داود: «عن عبد الله بن عمرو»، وكذا في مسند الإمام أحمد بن حنبل.

(٥) في سنن أبي داود «كن أنت تجيء به».

(٦) راجع ٤١٣/٦.

ولا عِطْرَ بعد عَرُوسٍ . ويقال : إِنَّ مَنْ غَلَّ شَيْئاً فِي الدُّنْيَا يُمَثَّلُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : أَنْزِلْ إِلَيْهِ فَخُذْهُ ، فَيَهْطُ إِلَيْهِ ، فَإِذَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ حَمَلَهُ ، حَتَّى إِذَا أَنْتَهَى إِلَى الْبَابِ سَقَطَ عَنْهُ إِلَى أَسْفَلِ جَهَنَّمَ ، فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ فَيَأْخُذْهُ ؛ لَا يَزَالُ هَكَذَا إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ . وَيَقَالُ «يَأْتِ بِمَا غَلَّ» يَعْنِي تَشْهَدُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تِلْكَ الْخِيَانَةُ وَالْغُلُولُ .

الثالثة - قال العلماء : والغُلُولُ كبيرةٌ من الكبائر ؛ يدلُّل هذه الآية وما ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّهُ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ . وَقَدْ قَالَ ﷺ فِي مُدْعِمٍ <sup>(١)</sup> : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَنْ الشُّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَ يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ لَمْ تُصَبِّهَا الْمَقَاسِمُ لِتَشْتَعَلَ عَلَيْهِ نَاراً» قَالَ : فَلَمَّا سَمِعَ النَّاسُ ذَلِكَ جَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ» . أَخْرَجَهُ الْمُوطَأُ . فَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» وَأَمْتَنَاعُهُ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى مَنْ غَلَّ دَلِيلٌ عَلَى تَعْظِيمِ الْغُلُولِ وَتَعْظِيمِ الذَّنْبِ فِيهِ وَأَنَّهُ مِنَ الْكِبَائِرِ ، وَهُوَ مِنْ حَقُوقِ الْآدَمِيِّينَ . وَلَا بَدَّ فِيهِ مِنَ الْقِصَاصِ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ صَاحِبُهُ فِي الْمَشِيتَةِ . وَقَوْلُهُ : «شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ» مِثْلُ قَوْلِهِ : «أَذُوا الْخِيَاطِ» <sup>(٢)</sup> وَالْمِخِيطِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ لَا يَحِلُّ أَخْذُهُ فِي الْغَزْوِ قَبْلَ الْمَقَاسِمِ ، إِلَّا مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ مِنْ أَكْلِ الْمَطَاعِمِ <sup>(٣)</sup> فِي أَرْضِ الْغَزْوِ . وَمِنْ الْإِحْتِطَابِ وَالْإِصْطِيَادِ . وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : لَا يُوْخَذُ الطَّعَامُ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ إِلَّا بِإِذْنِ الْإِمَامِ . وَهَذَا لَا أَصْلَ لَهُ ؛ لِأَنَّ الْآثَارَ تَخَالَفَهُ ، عَلَى مَا يَأْتِي . قَالَ الْحَسَنُ : كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَفْتَتَحُوا الْمَدِينَةَ أَوْ الْحِصْنَ أَكَلُوا مِنَ السَّوِيقِ وَالْدَّقِيقِ وَالسَّمْنِ وَالْعَسَلِ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ الطَّعَامَ فِي أَرْضِ الْحَرْبِ وَيَعْلِفُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْمُسُوا . وَقَالَ عَطَاءٌ : فِي الْغَزَاةِ يَكُونُونَ فِي السَّرِيَّةِ فَيَصِيبُونَ أَنْحَاءَ <sup>(٤)</sup> السَّمْنِ وَالْعَسَلِ وَالطَّعَامِ فَيَأْكُلُونَ ، وَمَا بَقِيَ رَدُّوهُ إِلَى إِمَامِهِمْ ؛ وَعَلَى هَذَا جَمَاعَةُ الْعُلَمَاءِ .

(١) مدغم: عبد أسود أهداه رفاة بن زيد لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عام خيبر .

(٢) الخياط ها هنا الخيط . والمخيط بالكسر : الإبرة .

(٣) في هـ ود وجوب : الطعام ، وكلها : أرض العدو ، إلأب : أرض الغزو .

(٤) أنحاء : جمع نحى بالكسر وهو زق السمن . وقيل مطلقاً .

**الرابعة:** وفي هذا الحديث دليلٌ على أن الغالَّ لا يُحرق متاعه؛ لأن رسول الله ﷺ لم يُحرق متاعاً<sup>(١)</sup> الرجل الذي أخذ الشملة، ولا أحرَقَ متاع صاحبِ الخَزَزاتِ<sup>(٢)</sup> الذي ترك الصلاةَ عليه، ولو كان حرق متاعه واجباً لفعله ﷺ، ولو فعله لُنُقِلَ ذلك في الحديث. وأما ما رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا وجدتم الرجل قد غلَّ فأحرقوا متاعه وأضربوه». فرواه أبو داود والترمذي من حديث صالح بن محمد بن زائدة، وهو ضعيف لا يُحتج به. قال الترمذي: سألت محمداً - يعني البخاري - عن هذا الحديث فقال: إنما روى هذا صالح بن محمد وهو أبو واقد الليثي وهو منكر الحديث. وروى أبو داود أيضاً عنه قال: غزونا مع الوليد بن هشام ومعنا سالم بن عبد الله بن عمر وعمر بن عبد العزيز، فغلَّ رجل متاعاً فأمر الوليد بمتاعه فأحرق، وطيف به ولم يُعطه سهمه. قال أبو داود: وهذا أصح الحديثين. وروي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر حرقوا متاع الغالِّ وضربوه. قال أبو داود: وزاد فيه علي بن بحر عن الوليد - ولم أسمعُه منه -: وَمَنْعُوهُ سهمه. قال أبو عمر: قال بعض رواة هذا الحديث: واضربوا عنقه وأحرقوا متاعه. وهذا الحديث يدور على صالح بن محمد وليس ممن يُحتج به. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَحِلُّ دَمُ أَمْرٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث» وهو يَنْفِي القتل في الغلول. وروى ابن جُرَيْج عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: «ليس على الخائن ولا على الْمُتَنَهَب ولا على المختلس قَطْعٌ». وهذا يعارض حديث صالح بن محمد وهو أقوى من جهة الإسناد. والغالَّ خائن في اللغة والشريعة وإذا انتفى عنه القطع فأحرى القتل. وقال الطحاوي: لو صحَّ حديثُ صالح المذكور احتمل أن يكون حين كانت العقوبات في الأموال؛ كما قال في مانع

(١) في هـ وجوب: لم يحرق رجل الذي أخذ الشملة.

(٢) صاحب الخرزات: رجل من أصحاب رسول الله ﷺ (لم يسمه أبو داود في سنته) توفي يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «صلوا على صاحبكم» فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال: «إن صاحبكم غل في سبيل الله» ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز يهود لا يساوي درهمين (عن سنن أبي داود).

الزكاة : « إنا آخذوها وشطَر ماله ، عَزْمَةٌ من عَزَمَاتِ الله تعالى »<sup>(١)</sup> . وكما قال أبو هريرة في ضالة الإبل المَكْتُومَة : فيها غرامُئُها ومِثْلُها معها . وكما روى عبد الله بن عمرو بن العاص في الثمر المعلق غرامةٌ مثْلِيه وجَلْدَاتُ نكالٍ . وهذا كَلِّه منسوخ ، والله أعلم .

**الخامسة -** فإذا غلَّ الرجل في المَغْنَمِ ووجد أخذ منه ، وأدب وعُوقب بالتعزير . وعند مالك والشافعي وأبي حنيفة وأصحابهم والليث : لا يُحرق متاعه . وقال الشافعي والليث وداود : إن كان عالماً بالثَّهْيِ عُوقب . وقال الأوزاعي : يحرق متاع الغالِّ كَلِّه إلا سلاحه وثيابه التي عليه وسَرْجُه ، ولا تُنزع منه دابته ، ولا يُحرق الشيء الذي غُلَّ . وهذا قول أحمد وإسحاق ، وقاله الحسن ؛ إلا أن يكون حيواناً أو مضْحَفاً . وقال ابن خُوَيزِمَنَدَاد : وروى أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ضربا الغالِّ وأحرقا متاعه . قال ابن عبد البر : وممن قال يُحرق رَحْلُ الغالِّ ومتاعُه مَكْحُولٌ وسعيد بن عبد العزيز . وحجة من ذهب إلى هذا حديثُ صالح المذكور . وهو عندنا حديث لا يجب به أنتهاك حُرْمَة ، ولا إنفاذ حُكْم ؛ لما يعارضه من الآثار التي هي أقوى منه . وما ذهب إليه مالك ومن تابعه في هذه المسألة أصحُّ من جهة النظر وصحيح الأثر . والله أعلم .

**السادسة -** لم يختلف مذهب مالك في العقوبة على البَدَن ، فأما في المال فقال في الدَّمْيِ يبيع الخمر من المسلم : تُراق الخمر على المسلم ، ويُنزع الثمن من الدَّمْيِ عقوبةً له ؛ لثلاث يبيع الخمر من المسلمين . فعلى هذا يجوز أن يقال : تجوز العقوبة في المال . وقد أراق عمر رضي الله عنه لَبَناً شَيْب بماء .

**السابعة -** أجمع العلماء على أن للغالِّ أن يردَّ جميع ما غلَّ إلى صاحب المقاسم قبل أن يفترق الناس إن وجد السبيل إلى ذلك ، وأنه إذا فعل ذلك فهي توبةٌ له ، وخروج عن ذنبه .

(١) في نهاية ابن الأثير : « قال الحربي غلط الراوي في لفظ الرواية ، إنما هو وشطر ماله شطرين ، أي يجعل ماله شطرين ، ويتخير عليه المصديق فيأخذ الصدقة من خير النصفين عقوبة لمنعه الزكاة فأما ما لا تلزمه فلا » . وعزْمَة : حق من حقوقه وواجب من واجباته .



واختلفوا فيما يفعل به إذا افترق أهل العسكر ولم يصل إليه؛ فقال جماعة من أهل العلم: يدفع إلى الإمام خُمسه ويتصدق بالباقي. هذا مذهب الزُهري ومالك والأوزاعي والليث والثوري؛ وزوي عن عبادة بن الصّامت ومعاوية والحسن البصري. وهو يُشبه مذهب ابن مسعود وابن عباس؛ لأنهما كانا يريان أن يتصدق بالمال الذي لا يُعرف صاحبه؛ وهو مذهب أحمد بن حنبل. وقال الشافعي: ليس له الصدقة بمال غيره. قال أبو عمر: فهذا عندي فيما يمكن وجود صاحبه والوصول إليه أو إلى ورثته، وأما إن لم يكن شيء من ذلك فإن الشافعي لا يكره الصدقة حينئذ إن شاء الله. وقد أجمعوا في اللقطة على جواز الصدقة بها بعد التعريف لها وانقطاع صاحبها، وجعلوه إذا جاء - مختيراً بين الأجر والضمان، وكذلك المغصوب. وبالله التوفيق. وفي تحريم الغلول دليل على اشتراك الغانمين في الغنيمة، فلا يحل لأحد أن يستأثر بشيء منها دون الآخر؛ فمن غَصَب شيئاً منها أدّب اتفاقاً، على ما تقدّم.

**الثامنة -** وإن وطئ جارية أو سرق نصاباً فأختلف العلماء في إقامة الحد عليه؛ فرأى جماعة أنه لا قطع عليه.

**التاسعة -** ومن الغلول هدايا العمال، وحُكمه في الفضيحة في الآخرة حُكم الغال. روى أبو داود في سننه ومُسْلِمٌ في صحيحه عن أبي حميد الساعدي أن النبي ﷺ استعمل رجلاً من الأزد يقال له ابن اللثية<sup>(١)</sup> [قال ابن السرح ابن الأثية]<sup>(٢)</sup> على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي. فقام النبي ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «ما بال عامل تبعته فيجيء فيقول هذا لكم وهذا أهدي لي ألا جالس في بيت أمه أو أبيه فينظر أيهدى إليه أم لا، لا يأتي أحد منكم بشيء من ذلك إلا جاء به يوم القيامة إن كان بغيراً فله رُغاء وإن كانت بقرة فلها خوار أو شاة تُبْعَرُ»<sup>(٣)</sup> - ثم رفع يديه حتى رأينا عُرْقِي<sup>(٤)</sup> يبطيه ثم قال: - «اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت». وروى أبو داود عن بُريدة عن النبي ﷺ

(١) ابن اللثية (بضم فسكون) هو عبد الله بن اللثية الصحابي، واللثية أمه. ويروى بفتح اللام والمثناة.

(٢) هذه الزيادة في صلب: ج. وه. ود، وابن السرح هو أحمد بن عمرو الأموي أبو الطاهر المصري.

(٣) اليعار (بضم الياء): صوت الغنم والمعزى. يعرت بفتح العين تبعر بالكسر والفتح يعارا بالضم.

(٤) العفرة (بضم فسكون): بياض ليس بالناصع الشديد، ولكن كلون عفر الأرض وهو وجهها.

قال: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غُلُول». وَرَوَى أيضاً عن أبي مسعود الأنصاري قال: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاعِياً ثُمَّ قَالَ: «انْطَلِقْ أَبَا مَسْعُودَ وَلَا أَلْفَيْتُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَأْتِي عَلَى ظَهْرِكَ بَعِيرٌ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ لَهُ رُغَاءٌ قَدْ غَلَّلَتْهُ». قَالَ: إِذَا لَا أَنْطَلِقُ. قَالَ: «إِذَا لَا أَكْرَهَكَ». وَقَدْ قَتِدَ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً عَنْ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَادٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَ لَنَا عَامِلاً فَلْيُكْتَسَبْ»<sup>(١)</sup> زَوْجَةً فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيُكْتَسَبْ خَادِماً فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيُكْتَسَبْ مَسْكَناً. قَالَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْبَرْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ آتَاكَ غَيْرَ ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌ سَارِقٌ». وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

العاشرة - ومن الغُلُولِ حبسَنَ الكُتُبَ عن أصحابها، ويدخل غيرها في معناها. قال الزُّهْرِيُّ: إِيَّاكَ وَغُلُولَ الْكُتُبِ. فَقِيلَ لَهُ: وَمَا غُلُولُ الْكُتُبِ؟ قَالَ: حَبْسُهَا عَنْ أَصْحَابِهَا. وَقَدْ قِيلَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلُ﴾ أَنْ يَكْتُمَ شَيْئاً مِنَ الْوَحْيِ رَغْبَةً أَوْ رَهْبَةً أَوْ مُدَاهَنَةً. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْرَهُونَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ عَيْبٍ دِيْنَهُمْ وَسَبَّ آلِهَتِهِمْ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَطْوِيَ ذَلِكَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ؛ قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ بَشَارٍ<sup>(٢)</sup>. وَمَا بَدَأْنَا بِهِ قَوْلَ الْجُمْهُورِ.

الحادية عشرة - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ تقدم القول فيه<sup>(٣)</sup>.

[١٦٢] ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَتَبَسَّ الْمَصِيرُ﴾.

[١٦٣] ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَصْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ يُرِيدُ بَتْرِكَ الْغُلُولِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْجِهَادِ. ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ يُرِيدُ بِكُفْرٍ أَوْ غُلُولٍ أَوْ تَوَلُّيٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَرْبِ. ﴿وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أَيِ مَثْوَاهُ النَّارِ، أَيِ إِنْ لَمْ يَتُبْ أَوْ يَغْفِرَ اللَّهُ عَنْهُ. ﴿وَتَبَسَّ الْمَصِيرُ﴾ أَيِ الْمَرْجِعِ. وَقُرِئَ

(١) والحديث بالسند والمتن في ابن كثير.

(٢) في د وه وب: يسار. هو أبو عبد الله المروزي الخراساني، وابن بشار هو ابن عثمان بن داود بن

كيسان العبدي البصري.

(٣) راجع ٣/٣٧٥.

رُضْوَانٌ بِكسر الرَّاءِ وَضَمِّهَا كَالْعُدْوَانِ [وَالْعُدْوَانُ] <sup>(١)</sup>. ثم قال تعالى: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ليس من اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِهِ مِنْهُ. قيل: ﴿هُم دَرَجَاتٌ﴾ مُتَفَاوِتَةٌ، أي هم مُخْتَلِفُو الْمَنَازِلِ عِنْدَ اللَّهِ؛ فَلَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ الْكَرَامَةُ وَالثَّوَابُ الْعَظِيمُ، وَلَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِهِ مِنْهُ الْمَهَانَةُ وَالْعَذَابُ الْأَلِيمُ. ومعنى ﴿هُم دَرَجَاتٌ﴾. أي ذَوُو دَرَجَاتٍ، أو على دَرَجَاتٍ، أو في دَرَجَاتٍ، أو لهم دَرَجَاتٌ. وأهل النار أيضاً ذَوُو دَرَجَاتٍ؛ كما قال: «وجدته في غَمَرَاتٍ مِنَ النَّارِ فَأَخْرَجْتَهُ إِلَى ضَخْضَاحٍ» <sup>(٢)</sup>. فالمؤمن والكافر لا يستويان في الدَّرَجَةِ؛ ثم المؤمنون يختلفون أيضاً، فبعضهم أرفع درجة من بعض، وكذلك الكفار. والدَّرَجَةُ الرَّتَبَةُ، ومنه الدَّرَجُ؛ لَأَنَّهُ يُطَوَّى رُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةٍ. والأشهر في منازل جهنم دَرَكَاتٌ؛ كما قال: ﴿إِنَّ الْمُتَفَقِّحِينَ فِي الذِّكْرِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ <sup>(٣)</sup> فلمن لم يَغْلُ دَرَجَاتٍ فِي الْجَنَّةِ، وَلَمَنْ غَلَّ دَرَكَاتٍ فِي النَّارِ. قال أبو عبيدة: جهنمُ أَدْرَاكٌ، أي منازل؛ يقال لكل منزل منها: دَرَكٌ وَدَرَكٌ. والدَّرَكُ إِلَى أَسْفَلٍ، وَالدَّرَجُ إِلَى أَعْلَى.

[١٦٤] ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ مَا يَتْلُوهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَظِيمَ مَنِّهِ عَلَيْهِمْ بَعَثَهُ مُحَمَّدًا ﷺ. وَالْمَعْنَى فِي الْمَنَّةِ فِيهِ أَقْوَالٌ: مِنْهَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَى ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَي بَشَرٌ مِثْلَهُمْ. فَلَمَّا أَظْهَرَ الْبَرَاهِينَ وَهُوَ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَقِيلَ: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ مِنْهُمْ. فَشَرَّفُوا بِهِ ﷺ، فَكَانَتْ تِلْكَ الْمَنَّةُ. وَقِيلَ: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ لِيَعْرِفُوا حَالَهُ وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِمْ طَرِيقَتُهُ. وَإِذَا كَانَ مَحَلُّهُ فِيهِمْ هَذَا كَانُوا أَحَقَّ بِأَنْ يَقَاتِلُوا عَنْهُ وَلَا يَنْهَزُوا دُونَهُ. وَقَرِئَ فِي الشَّوَادِ <sup>(٤)</sup> «مِنْ أَنْفُسِهِمْ» (بَفَتْحِ الْفَاءِ) يَعْنِي مَنْ أَشْرَفَهُمْ؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَبَنُو هَاشِمٍ أَفْضَلُ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ أَفْضَلُ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ. ثُمَّ قِيلَ: لَفْظُ الْمُؤْمِنِينَ جَامٌّ وَمَعْنَاهُ خَاصٌّ

(١) فِي هـ وَجَدَ.

(٢) الضَّخْضَاحُ: مَا رَقَّ مِنَ الْمَاءِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَلَا يَبْلُغُ الْكَعْبِينَ، فَاسْتَعَارَهُ لِلنَّارِ.

(٣) رَاجِعَ ٥/٤٢٤. (٤) هَذِهِ قِرَاءَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَاطِمَةُ وَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

في العرب؛ لأنه ليس حيّ من أحياء العرب إلا وقد ولده عليه السلام، ولهم فيه نسب؛ إلا بني تغلب فإنهم كانوا نصارى فطهره الله من دَسّ النصرانية. وبيان هذا التأويل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾<sup>(١)</sup>. وذكر أبو محمد عبد الغني قال: حدّثنا أبو أحمد البصري<sup>(٢)</sup> حدّثنا أحمد بن عليّ بن سعيد القاضي أبو بكر المروزي حدّثنا يحيى بن معين حدّثنا هشام بن يوسف عن عبد الله بن سليمان النوفلي عن الزهري عن عُرْوَةَ عن عائشة رضي الله عنها: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ قالت: هذه للعرب خاصّة. وقال آخرون: أراد به المؤمنين كلّهم. ومعنى «مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أنّه واحدٌ منهم وبَشَرٌ مِنْهُمْ، وإنّما امتاز عنهم بالوحي؛ وهو معنى قوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> وخصّ المؤمنين بالذكر لأنهم الْمُتَتَفِعُونَ به، فالمِنَّةُ عليهم أعظم. وقوله تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ «يتلو» في موضع نصب نعتٌ لرَسُول، ومعناه يقرَأ. والتلاوة القراءة. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ تقدّم في «البقرة»<sup>(٤)</sup>. ومعنى ﴿وَأَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي ولقد كانوا من قبل، أي من قبل محمد، وقيل: «إن» بمعنى ما، واللام في الخبر بمعنى إلّا، أي وما كانوا من قبل إلّا في ضلال مبين. ومثله ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ أي وما كنتم من قبله إلّا من الضالين. وهذا مذهب الكوفيين. وقد تقدّم في «البقرة»<sup>(٥)</sup> معنى هذه الآية.

[١٦٥] ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(١٦٥)</sup>.

الآلف للاستفهام، والواو للعطف. ﴿مُصِيبَةً﴾ أي غلبة. ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ يوم بذر بأن قتلتم منهم سبعين وأسرتم سبعين. والأسير في حكم المقتول؛ لأن الأسير يقتل أسيره إن أراد. أي فهزمتهم يوم بذر ويوم أخذ أيضاً في الابتداء، وقتلتم فيه قريباً من

(١) راجع ٩١/١٨.

(٢) في ب و هـ: المصري.

(٣) راجع ٣٠١/٨.

(٤) راجع ١٣٠/٢. (٥) راجع ٤٢٧/٢.

عشرين، قتلتم منهم في يومين، ونالوا منكم في يوم أُحُد. ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أي من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل، ونحن نقاتل في سبيل الله، ونحن مسلمون، وفيما النبي والوحي، وهم مشركون! ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني مخالفة الرُّمّة. وما من قوم أطاعوا نبيهم في حرب إلا نُصِّروا؛ لأنهم إذا أطاعوا فهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون. وقال قتادة والزبيع بن أنس: يعني سؤالهم النبي ﷺ أن يخرج بعد ما أراد الإقامة بالمدينة. وتأولها في الرؤيا التي رآها درعاً حصينة<sup>(١)</sup>. علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل. وقد قيل لهم: إن فاديتم الأسارى قُتل منكم على عدّتهم. وروى البيهقي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ في الأسارى يوم بدر: «إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم وأستمعتم بالفداء واستشهد منكم بعدتهم». فكان آخر السبعين ثابت بن قيس قُتل يوم اليمامة. فمعنى ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ على القولين الأولين بذنوبكم. وعلى القول الأخير باختياركم.

[١٦٦] ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

[١٦٧] ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَأْفُوهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

يعني يوم أُحُد من القتل والجرح والهزيمة ﴿فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ أي بعلمه. وقيل: بقضائه وقدره. قال القفال: أي فبتخليته بينكم وبينهم، لا أنه أراد ذلك. وهذا تأويل المعتزلة. ودخلت الفاء في ﴿فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ لأن «ما» بمعنى الذي. أي والذي أصابكم يوم التقى الجمعان فَيَاذَنَ اللَّهُ؛ فأشبهه الكلام معنى الشرط، كما قال سيبويه: الذي قام فله درهم. ﴿وَلَيَعْلَمَ

(١) كذا في د وب وجد وح وه، وفي أ: حصناً حصيناً.

الْمُؤْمِنِينَ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴿١﴾ أَي لِيُمَيِّزَ. وقيل ليرى. وقيل: ليظهر إيمان المؤمنين بثبوتهم في القتال، وليظهر كفر المنافقين بإظهارهم الشَّماتة فيعلمون ذلك. والإشارة بقوله: ﴿نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ﴾ هي إلى عبد الله بن أُبَيٍّ وأصحابه الذين أنصروا معه عن نُصرة النبي ﷺ، وكانوا ثلاثمائة، فمشى في أثرهم عبدُ الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، أبو جابر ابن عبد الله، فقال لهم: آتقوا الله ولا تتركوا نبيكم، وقاتلوا في سبيل الله أو أَدفعوا، ونحو هذا من القول. فقال له ابنُ أبي: ما أرى أن يكون قتال، ولو علمنا أن يكون قتال لكننا معكم. فلما يش منهم عبد الله قال: أذهبوا أعداء الله فسيُغني اللهُ رسوله عنكم. ومضى مع النبي ﷺ واستشهد رحمه الله تعالى.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿أَوْ أَدَفَعُوا﴾ فقال السُّدِّي وابن جريج وغيرهما: كَثُرُوا سوادنا وإن لم تقاتلوا معنا؛ فيكون ذلك دَفْعاً وَقَمْعاً للعدو؛ فإن السواد إذا كثر حصل دفع العدو. وقال أنس بن مالك: رأيت يوم القادِسيَّة عبد الله بن أمِّ مَكْثُوم الأعمى وعليه دِزَع يجزُّ أطرافها، ويده رايةٌ سوداء؛ فقليل <sup>(١)</sup> له: [أليس <sup>(٢)</sup>] قد أنزل الله عذرك؟ قال: بلى! ولكنني أكثر [سواد] <sup>(٣)</sup> المسلمين بنفسي. ورُوي عنه أنه قال: فكيف بسوادي في سبيل الله! وقال أبو عون الأنصاري: معنى «أو أَدفعوا» رابطوا. وهذه قريب من الأوَّل. ولا محالة أن المرباط مدافع؛ لأنه لولا مكان المرباطين في الثَّغور لجاءها العدو. وذهب قوم من المفسرين إلى أن قول عبد الله بن عمرو ﴿أَوْ أَدَفَعُوا﴾ إنما هو استدعاء إلى القتال [حمية؛ لأنه استدعاهم إلى القتال] <sup>(٣)</sup> في سبيل الله، وهي أن تكون كلمة الله هي العليا، فلما رأى أنهم ليسوا على ذلك عرض عليهم الوجه الذي يَخْشِمُهُمْ ويبعث الأَنفَة: أي أو قاتلوا دِفَاعاً عن الحَوْزَة ألا ترى أن قُرْمان <sup>(٤)</sup> قال: والله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي. وألا ترى أن بعض الأنصار

(١) في ز: فقلت له.

(٢) الزيادة من ابن عطية.

(٣) الزيادة من ب ود وجـ.

(٤) هو قزمان بن الحارث العبسي المنافق الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر».

قال يوم أحد لما رأى قريشاً قد أرسلت الظهر<sup>(١)</sup> في زروع قناة<sup>(٢)</sup>، أُنْزَعَى زروع بني قَيْلَةَ<sup>(٣)</sup> ولما نضارب؟ والمعنى إن لم تقاتلوا في سبيل الله فقاتلوا دَفْعاً عن أنفسكم وحرِّيمكم.

قوله تعالى: ﴿هُم لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي بينوا حالهم، وهتكوا أَسْتَارَهُمْ، وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مسلمون؛ فصاروا أقرب إلى الكفر في ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التحقيق. وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي أظهروا الإيمان، وأضمروا الكفر. وذكر الأَفْوَاه تأكيد؛ مثل قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ﴾<sup>(٤)</sup>.

[١٦٨] ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(٥)</sup>.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ معناه لأجل<sup>(٥)</sup> إخوانهم، وهم الشهداء المقتولون من الخَزَج؛ وهم إخوة نسب ومجاورة، لا إخوة الدين. أي قالوا لهؤلاء الشهداء: لو قعدوا، أي بالمدينة ما قُتِلُوا. وقيل: قال عبد الله بن أبي وأصحابه لإخوانهم، أي لأشكالهم من المنافقين: لو أطاعونا، هؤلاء الذين قُتِلُوا، لما قُتِلُوا. وقوله ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يريد في ألا يخرجوا إلى قريش. وقوله: ﴿وَقَعَدُوا﴾ أي قالوا هذا القول وقعدوا بأنفسهم عن الجهاد؛ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا﴾ أي قل لهم يا محمد: إن صدقتم فادفعوا الموت عن أنفسكم. والدَّزء الدفع. بين بهذا أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن المقتول يقتل بأجله، وما عَلم الله وأخبر به كائن لا محالة. وقيل: مات يوم قَيْل هذا، سبعون منافقاً. وقال أبو الليث السمرقندي: سمعت بعض المفسرين بسمرقند يقول: لما نزلت الآية ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ مات يومئذ سبعون نفساً من المنافقين.

(١) الظهر: الركاب التي تحمل الأثقال في السفر؛ لحملها إياها على ظهورها.

(٢) قناة: وادي بالمدينة، وهي أحد أوديتها الثلاثة، عليه حرث ومال. قال المدائني: وقناة يأتي من الطائف ويصب في الأرضية وقرقرة الكدر، ثم يأتي بئر معونة، ثم يمر على طرف القدم في أصل قبور الشهداء بأحد. (عن معجم البلدان).

(٣) قيلة: أم الأوس والخزرج؛ وهي قيلة بنت كاهل بن عذرة، قضاعية. ويقال: بنت جفنة، غسانية. عن «شرح القاموس».

(٤) راجع ٤١٩/٦. (٥) في ب: لأهل.

[١٦٩] ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

[١٧٠] ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَسْتَشِيرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فيه ثمان مسائل :

**الأولى** - لما بين الله تعالى أنّ ما جرى يوم أُحُد كان أمتحاناً يُمَيِّزُ المنافق من الصادق، بين أن من لم ينهزم فقتل له الكرامة والحياة عنده. والآية في شهداء أُحُد. وقيل: نزلت في شهداء بئر معونة. وقيل: بل هي عامة في جميع الشهداء. وفي مصنف أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أَصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مَعْلَقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَا كُلُّهُمْ وَمَشَرِبَهُمْ وَمَقِيلَهُمْ قَالُوا مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَا أَحْيَاءُ فِي الْجَنَّةِ تُرْزَقُ لثَلَا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلَا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَا أَبْلَغُهُمْ عَنْكُمْ» - قال - فأنزل الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا...﴾ إلى آخر الآيات. وروى بقي<sup>(١)</sup> بن مخلد عن جابر قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال: «يا جابر مالي أراك مُنْكَسًّا مُهْتَمًّا؟» قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالاً وعليه دين؛ فقال: «أَلَا أَبْشُرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ أَبَاكَ؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «إِنَّ اللَّهَ أَخِيَا أَبَاكَ وَكَلِمَهُ كِفَاحًا<sup>(٢)</sup>» وما كلم أحد قط إلا من وراء حجاب فقال له يا عبدي تَمَنَّيَ أُعْطِكَ قال يا رب فرّدني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الربّ تبارك وتعالى إنه قد سبق مِنِّي أَنَّهُمْ [إِلَيْهَا]<sup>(٣)</sup> لا يرجعون قال يا ربّ فأبلغ من ورائي فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. أخرجه ابن ماجه في سنّنه، والترمذي في جامعه وقال: هذا حديث حسن غريب. وروى وكيع عن سالم بن الأفتّس عن سعيد بن جبیر ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ

(١) حافظ الأندلس ابن يزيد القرطبي.

(٢) كِفَاحًا (بكسر الكاف) أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول.

(٣) زيادة عن سنن الترمذي وابن ماجه.



اللَّهُ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾ قال: لما أصيب حمزة بن عبد المطلب ومُضْعَب بن عُمير ورأوا ما رزقوا من الخير قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كي يزدادوا في الجهاد رَغْبَةً؛ فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقال أبو الصُّحى: نزلت هذه الآية في أهل أحد خاصة. والحديث الأول يقتضي<sup>(١)</sup> صحة هذا القول. وقال بعضهم: نزلت في شهداء بَدْر وكانوا أربعة عشر رجلاً؛ ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين. وقيل: نزلت في شهداء بئر مَعُونَة، وقصتهم مشهورة ذكرها محمد بن إسحاق<sup>(٢)</sup> وغيره. وقال آخرون: إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة وسرور تحسروا وقالوا: نحن في النعمة والسرور، وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور. فأنزل الله تعالى هذه الآية تَنْفِيساً عنهم وإخباراً عن حال قتلاهم.

قلت: وبالجمله وإن كان يحتمل أن يكون التَّزُول بسبب المجموع فقد أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء أنهم أحياء في الجنة يُرزقون، ولا مَحَالَة أنهم ماتوا وأن أجسادهم في التراب، وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين، وفُضِّلوا بالرزق في الجنة من وقت القَتْل حتى كان حياة الدنيا دائمة لهم.

وقد اختلف العلماء في هذا المعنى. فالذي عليه المعظم هو ما ذكرناه، وأن حياة الشهداء محققة. ثم منهم من يقول: تُرَدُّ إليهم الأرواح في قبورهم فينعمون، كما يحيى الكفار في قبورهم فيعذبون. وقال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أي يجدون ريحها وليسوا فيها. وصار قوم إلى أن هذا مجاز، والمعنى أنهم في حكم الله مستحقون للتَّعْم في الجنة. وهو كما يقال: ما مات فلان، أي ذكره حي؛ كما قيل:

مَوْتُ النَّفْسِ حَيَاةٌ لَا فَنَاءَ لَهَا      قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ

(١) كذا في أ. وح. وفي د. يقتضي هذا القول، وفي ب وج. وهـ: يقتضي بصحة الخ.

(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ٦٤٨ طبع أوروبا.

فالمعنى أنهم يرزقون الشَّاءَ الجميل . وقال آخرون : أرواحهم في أجواف طَيْرٍ خُضِرَ وأنهم يُرزقون في الجنة ويأكلون ويتنعمون . وهذا هو الصحيح من الأقوال ؛ لأن ما صحَّ به النقل فهو الواقع . وحديثُ ابن عباس نصٌّ يرفع الخلاف . وكذلك حديث ابن مسعود خرَّجه مسلم . وقد أتينا على هذا المعنى مبيناً في كتاب «التَّذْكِرَة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» . والحمد لله .

وقد ذكرنا هناك كم الشهداء ، وأنهم مختلفو الحال . وأما من تأوَّل في الشهداء أنهم أحياء بمعنى أنهم سيخيَّون فبعيدٌ يرده القرآن والسنة ؛ فإن قوله تعالى : ﴿بَلْ أَحيَاءٌ﴾ دليل على حياتهم ، وأنهم يرزقون ولا يُرزق إلا حيٌّ . وقد قيل : إنه يكتب لهم في كل سنة ثوابُ غزوة ؛ ويُشركون في ثواب كلِّ جهاد كان بعدهم إلى يوم القيامة ؛ لأنهم سَنُوا أمر الجهاد . نَظيره قوله تعالى : ﴿مَنْ أَجَلُ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا﴾<sup>(١)</sup> . على ما يأتي بيانه هناك إن شاء الله تعالى . وقيل : لأن أرواحهم تركع وتسجد تحت العرش إلى يوم القيامة ، كأرواح الأحياء المؤمنين الذين باثوا على وُضوء . وقيل : لأن الشهيد لا يبلى في القبر ولا تأكله الأرض . وقد ذكرنا هذا المعنى في «التَّذْكِرَة» وأن الأرض لا تأكل الأنبياء والشهداء والعلماء والمؤذنين المحسِّنين وحملة القرآن .

الثانية - إذا كان الشَّهيد حيًّا حُكماً فلا يُصلى عليه ، كالحَيِّ حِسًّا . وقد اختلف العلماء في غُسل الشهداء والصلاة عليهم ؛ فذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة والثوري إلى غُسل جميع الشهداء والصلاة عليهم ؛ إلا قَتيلَ الْمُعْتَرَك في قتال العدو خاصة ؛ لحديث جابر قال قال النبي ﷺ : «ادفنوهم بدمائهم» يعني يوم أُحُد ولم يُغسلهم ، رواه البخاري . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ بقتلى أُحُد أن يُنزع عنهم الحديد والجلود وأن يُدفنوا بدمائهم وثيابهم . وبهذا قال أحمد وإسحاق والأوزاعي وداود بن علي وجماعةُ فقهاء الأمصار وأهل الحديث وابنُ عُليَّة . وقال سعيد بن السَّيِّب والحسن : يُغسلون . قال أحدهما : إنما لم تُغسل شهداء أُحُد لكثرتهم والشُّغل عن ذلك . قال أبو عُمر : ولم يقل بقول سعيد والحسن هذا أحد من فقهاء الأمصار إلا عبيد الله بن الحسن العنبري ، وليس

ما ذكروا من الشُّغل عن غُسل شهداء أحد علة؛ لأن كل واحد منهم كان له وليٌّ يشْتَغل به ويقوم بأمره. والعلة في ذلك - والله أعلم - ما جاء في الحديث في دمائهم «أنها تأتي يوم القيامة كريح المِسك» فَبَانَ أن العلة ليست الشُّغل كما قال من قال في ذلك، وليس لهذه المسألة مدخل في القياس والنظر، وإنما هي مسألة آتباعٍ للأثر الذي نقله الكافة في قتلى أُخذ لم يُغسلوا. وقد أحتج بعض المتأخرين بمن ذهب مذهب الحسن بقوله عليه السلام في شهداء أُخذ: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة». قال: وهذا يدل على خصوصهم وأنه لا يشركهم في ذلك غيرهم. قال أبو عمر: وهذا يشبه الشذوذ، والقول بترك غُسلهم أولى؛ لثبوت ذلك عن النبي ﷺ في قتلى أحد وغيرهم. وروى أبو داود عن جابر قال: رُمِيَ رجل بسهم في صدره أو في حلقه فمات فأُدرج في ثيابه كما هو. قال: ونحن مع رسول الله ﷺ.

الثالثة - وأما الصلاة عليهم فاختلف العلماء في ذلك أيضاً؛ فذهب مالك والليث والشافعي وأحمد وداود إلى أنه لا يُصلّى عليهم؛ لحديث جابر قال: كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: «أيُّهما أكثر أخذاً للقرآن؟» فإذا أشير له إلى أحدهما قَدَّمه في اللحد وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامة» وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يُغسلوا ولم يُصل عليهم. وقال فقهاء الكوفة والبصرة والشام: يُصلّى عليهم. ورووا آثاراً كثيرة أكثرها مراسيل أن النبي ﷺ صلى على حمزة وعلى سائر شهداء أُخذ.

الرابعة - وأجمع العلماء على أن الشهيد إذا حُمِلَ حَيًّا ولم يَمِت في المَعْتَرَك وعاش وأكل فإنه يُصلّى عليه؛ كما قد صُنِعَ بعمر رضي الله عنه.

واختلفوا فيمن قُتل مظلوماً كقتيل الخوارج وقُطَّاع الطريق وشبه ذلك؛ فقال أبو حنيفة والثوري: كل من قتل مظلوماً لم يُغسل، ولكنه يُصلّى عليه وعلى كل شهيد؛ وهو قول سائر أهل العراق. ورووا من طُرُق كثيرة صحاح عن زيد بن صُوحان، وكان قتل يوم الجَمَل: لا تَنَزِعُوا عَنِّي ثوباً ولا تَغْسِلُوا عَنِّي دَمًا. وثبت<sup>(١)</sup> عن عمار بن ياسر أنه قال مثل قول زيد

(١) كذا في دوج وهوب. وفي أوج: روى.

أَبْنُ صُوحَانَ. وَقُتِلَ عِمَارُ بْنُ يَاسِرٍ بِصَفِّينَ وَلَمْ يَغْسَلْهُ عَلِيٌّ. وَلِلشَافِعِيِّ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا - يُغْسَلُ كَجَمِيعِ الْمَوْتَى إِلَّا مَنْ قَتَلَهُ أَهْلُ الْحَرْبِ ؛ وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ. قَالَ مَالِكٌ : لَا يُغْسَلُ مَنْ قَتَلَهُ الْكَافَرُ وَمَاتَ فِي الْمُعْتَرَكِ. وَكُلُّ مُقْتُولٍ غَيْرِ قَتِيلِ الْمُعْتَرَكِ - قَتِيلُ الْكَافَرِ - فَإِنَّهُ يُغْسَلُ وَيُصَلَّى عَلَيْهِ. وَهَذَا قَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَالْقَوْلُ الْآخَرُ لِلشَّافِعِيِّ - لَا يُغْسَلُ قَتِيلُ الْبُغَاةِ. وَقَوْلُ مَالِكٍ أَصَحُّ ؛ فَإِنَّ غُسْلَ الْمَوْتَى قَدْ ثَبَتَ بِالْإِجْمَاعِ وَنَقَلَ الْكَافَّةُ. فَوَاجِبُ غُسْلِ كُلِّ مَيِّتٍ إِلَّا مَنْ أَخْرَجَهُ إِجْمَاعٌ أَوْ سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

**الخامسة -** العدو إذا صَبَحَ قَوْمًا فِي مَنْزِلِهِمْ وَلَمْ يَعْلَمُوا بِهِ فَقَتَلَ مِنْهُمْ فَهَلْ يَكُونُ حُكْمُهُ حُكْمَ قَتِيلِ الْمُعْتَرَكِ، أَوْ حُكْمِ سَائِرِ الْمَوْتَى ؛ وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ نَزَلَتْ عِنْدَنَا بِقَرْطُبَةٍ أَعَادَهَا اللَّهُ : أَغَارَ الْعَدُوُّ - قَصَمَهُ اللَّهُ - صَبِيحَةَ الثَّالِثِ مِنْ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِائَةَ وَالنَّاسِ فِي أَجْرَانِهِمْ عَلَى غَفْلَةٍ، فَقَتَلَ وَأَسَرَ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةٍ مَنْ قُتِلَ وَالَّذِي رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ فَسَأَلْتُ شَيْخَنَا الْمَقْرِيءَ الْأَسَازِدَ أَبَا جَعْفَرٍ أَحْمَدَ الْمَعْرُوفَ بِأَبِي <sup>(١)</sup> حُجَّةً فَقَالَ : غَسَلَهُ وَصَلَّاهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَبَاكَ لَمْ يُقْتَلَ فِي الْمُعْتَرَكِ بَيْنَ الصَّفِّينِ. ثُمَّ سَأَلْتُ شَيْخَنَا رِبِيعَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ رَبِيعِ بْنِ أَبِي فَقَالَ : إِنْ حُكِمَ حُكْمُ الْقَتْلَى فِي الْمُعْتَرَكِ. ثُمَّ سَأَلْتُ قَاضِي الْجَمَاعَةِ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ قَطْرَالٍ وَحَوْلَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ فَقَالُوا : غَسَلَهُ وَكَفَّنَهُ وَصَلَّاهُ عَلَيْهِ ؛ فَفَعَلْتُ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَفْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ فِي «التَّبَصُّرَةِ» لِأَبِي الْحَسَنِ اللَّخْمِيِّ وَغَيْرِهَا، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا غَسَلْتَهُ، وَكَانَتْ دَفْنَتُهُ بِدَمِهِ فِي ثِيَابِهِ.

**السادسة -** هذه الآية تدل على عظيم ثواب القتل في سبيل الله والشهادة فيه حتى أنه يكفر الذنوب ؛ كما قال ﷺ : «القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدين كذلك قال لي جبريل عليه السلام آنفًا». قال علماؤنا ذكر الدين تنبيه على ما في معناه من الحقوق المتعلقة بالدم، كالغصب وأخذ المال بالباطل وقتل العمد وجراحه وغير ذلك من اللِّبَعَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ هَذَا أَوْلَى الْأَلَّا يُغْفَرَ بِالْجِهَادِ مِنَ الدِّينِ فَإِنَّهُ أَشَدُّ، وَالْقِصَاصُ فِي هَذَا

(١) في ج: «بابن حجة».

كله بالحسنات والسيئات حسبما وردت به السُّنة الثابتة. روى عبد الله بن أنيس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله العباد - أو قال الناس، شكَّ همام<sup>(١)</sup>، وأوماً بيده إلى الشام - عُرَاةً غُرُلًا<sup>(٢)</sup> بُهْمًا<sup>(٣)</sup>. قلنا: ما بُهْمٌ؟ قال: ليس معهم شيء فيناديهم بصوت يسمعه مَنْ قُرْبٍ وَمَنْ بَعْدَ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدِّيان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتَّى اللَّطْمَة. قال قلنا: كيف وإنما نأتي الله حفاة عُرَاة غُرُلًا. قال: بالحسنات والسيئات». أخرجه الحارث بن أبي أسامة<sup>(٤)</sup>. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذَّفَ هذا وأكلَ مالَ هذا وسفكَ دَمَ هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فئيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار». وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قُتل في سبيل الله ثم أُخِيىَ ثم قتل ثم أُحْيى ثم قُتل وعليه دين ما دخل الجنة حتَّى يُقضى عنه». وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نفس المؤمن معلقة ما كان عليه دين». وقال أحمد بن زهير: سئل يحيى بن معين عن هذا الحديث فقال: هو صحيح. فإن قيل: فهذا يدل على أن بعض الشهداء لا يدخلون الجنة من حين القتل، ولا تكون أرواحهم في جوف طير كما ذكرتم، ولا يكونون في قبورهم، فأين يكونون؟ قلنا: قد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «أرواح الشهداء على نهر بباب الجنة يقال له بَارِقٌ يخرج عليهم رزقهم من الجنة بُكَرَةً وَعَشِيًّا» فلعلهم هؤلاء. والله أعلم. ولهذا قال الإمام أبو محمد بن عطية: وهؤلاء طبقات وأحوال مختلفة يجمعها أنهم ﴿يُزْزَقُونَ﴾. وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سنته عن

(١) هو همام بن يحيى، أحد رجال سند هذا الحديث.

(٢) الغرل (بضم فسكون): جمع الأغرل، وهو الأتلف.

(٣) في ط وه وب: ما بهما؟

(٤) في ج: أمانة. والصحيح ما أثبت كما في التمهيد.

سليم بن عامر قال سمعت أبا أمامة يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «شَهِيدُ الْبَحْرِ مِثْلُ شَهِيدِي<sup>(١)</sup> الْبَرِّ وَالْمَاءِ<sup>(٢)</sup> فِي الْبَحْرِ كَالْمُتَشَحِّطِ<sup>(٣)</sup> فِي دَمِهِ فِي الْبَرِّ وَمَا بَيْنَ الْمَوْجَتَيْنِ كَقَاطِعِ الدُّنْيَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَإِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَكَلَّ مَلِكُ الْمَوْتِ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ إِلَّا شُهَدَاءَ الْبَحْرِ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَتَوَلَّى قَبْضَ أَرْوَاحِهِمْ وَيَغْفِرُ لَشَهِيدِ الْبَرِّ الذَّنُوبَ كُلَّهَا إِلَّا الدِّينَ وَيَغْفِرُ لَشَهِيدِ الْبَحْرِ الذَّنُوبَ كُلَّهَا وَالدِّينَ».

السابعة - الدِّينَ الَّذِي يُخْبَسُ بِهِ صَاحِبُهُ عَنِ الْجَنَّةِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - هُوَ الَّذِي قَدْ تَرَكَ لَهُ وَفَاءً وَلَمْ يُوصَ بِهِ . أَوْ قَدَّرَ عَلَى الْأَدَاءِ فَلَمْ يُوَدِّهِ ، أَوْ آذَانَهُ فِي سَرَفٍ أَوْ فِي سَفَهٍ وَمَاتَ وَلَمْ يُوَفِّهِ . وَأَمَّا مَنْ آذَانَ فِي حَقٍّ وَاجِبٍ لِإِفَاقَةٍ وَعُسْرٍ وَمَاتَ وَلَمْ يَتْرُكْ وَفَاءً فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحْبِسُهُ عَنِ الْجَنَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ؛ لِأَنَّهُ عَلَى السُّلْطَانِ فَرَضاً أَنْ يُؤَدِّيَ عَنْهُ دِينَهُ ، إِمَّا مِنْ جُمْلَةِ الصَّدَقَاتِ ، أَوْ مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ ، أَوْ مِنَ الْفَيْءِ الرَّاجِعِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ . قَالَ ﷺ : «مَنْ تَرَكَ دِيناً أَوْ ضَيَاعاً<sup>(٤)</sup> فَعَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ تَرَكَ مَالاً فَلِوَرَثَتِهِ» . وَقَدْ زِدْنَا هَذَا الْبَابَ بَيَاناً فِي كِتَابِ (التَّذَكُّرَةِ) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

الثامنة - قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فِيهِ حَذْفُ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ عِنْدَ كَرَامَةِ رَبِّهِمْ . وَ «عِنْدَ» هُنَا تَقْتَضِي غَايَةَ الْقُرْبِ ، فَهِيَ كـ (لَدَى) وَلِذَلِكَ لَمْ تَصْغُرْ فَيُقَالُ ! عُنْدُ ، قَالَهُ سِيبَوَيْهِ . فَهَذِهِ عِنْدِيَّةُ الْكَرَامَةِ لَا عِنْدِيَّةُ الْمَسَافَةِ وَالْقُرْبِ . وَ «يُرْزَقُونَ» هُوَ الرِّزْقُ الْمَعْرُوفُ فِي الْعَادَاتِ . وَمَنْ قَالَ : هِيَ حَيَاةُ الذَّكْرِ قَالَ : يُرْزَقُونَ الشَّاءَ الْجَمِيلَ . وَالْأَوَّلُ الْحَقِيقَةُ . وَقَدْ قِيلَ : إِنْ الْأَرْوَاحُ تُدْرِكُ فِي تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي يَسْرَحُونَ فِيهَا مِنْ رَوَائِحِ الْجَنَّةِ وَطِيبِهَا وَنَعِيمِهَا وَسُرُورِهَا مَا يَلِيقُ بِالْأَرْوَاحِ ؛ مِمَّا تَرْتَزِقُ وَتَتَنَعَّشُ بِهِ . وَأَمَّا اللَّذَاتُ الْجِسْمَانِيَّةُ فَإِذَا أُعِيدَتْ تِلْكَ الْأَرْوَاحُ إِلَى أَجْسَادِهَا أَسْتَوَفَتْ مِنَ النِّعَمِ جَمِيعَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهَا . وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ الْمَجَازِ ، فَهُوَ الْمَوَافِقُ لِمَا أَخْتَرْنَاهُ . وَالْمَوْفَقُ الْإِلَهَ . وَ «فَرَحِينَ» نَصَبٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ

(١) قَالَ فِي «شرح الجامع»: بِلَفْظِ التَّثْنِيَةِ .

(٢) الْمَاءُ: الَّذِي تَدُورُ رَأْسُهُ مِنْ رِيحِ الْبَحْرِ ، وَأَضْطَرَابِ السَّفِينَةِ بِالْأَمْوَاجِ .

(٣) تَشَحَّطُ الْمَقْتُولُ فِي دَمِهِ تَخْبِطُ فِيهِ وَاضْطَرِبَ وَتَمَرَّغَ .

(٤) الضِّيَاعُ: (بِفَتْحِ أَوَّلِهِ): الْعِيَالُ .

من المضمّر في «يُزَرِّقُونَ». ويجوز في الكلام «فَرِحُونَ» على النعت لأحياء. وهو من الفرح بمعنى السرور. والفضل في هذه الآية هو النعيم المذكور. وقرأ ابن السَّمِيقَ «فَارِحِينَ» بالالف وهما لغتان كالْفَرِهَ والفَارِهَ، والحَذِرَ والحَاذِرَ، والطَّمَعُ والطَّامِعُ، والبَخِلَ والبَاخِلُ. قال النحاس: ويجوز في غير القرآن رَفَعَهُ، يكون نعتاً لأحياء.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ المعنى لم يلحقوا بهم في الفضل، وإن كان لهم فضل. وأصله من البَشْرَة<sup>(١)</sup>؛ لأن الإنسان إذا فَرِحَ ظهر أثر السرور في وجهه. وقال السَّدي: يؤتى الشهيد بكتاب فيه ذكر مَنْ يَقْدُمُ عليه من إخوانه، فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقدومه في الدنيا. وقال قتادة وابن جُرَيْج والزيَّع وغيرهم: استبشارهم بأنهم يقولون: إخواننا الذين تركنا خلفنا في الدنيا يقاتلون في سبيل الله مع نبيهم، فيستشهدون فينالون من الكرامة مثل ما نحن فيه؛ فيسرون ويفرحون لهم بذلك. وقيل: إن الإشارة بالاستبشار للذين لم يلحقوا بهم إلى جميع المؤمنين وإن لم يُقْتَلُوا، ولكنهم لما عاينوا ثواب الله وقع اليقين بأن دين الإسلام هو الحق الذي يشيب الله عليه؛ فهم فَرِحُوا لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، مستبشرون للمؤمنين بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ذهب إلى هذا المعنى الزجاج وأبن قُورْك.

[١٧١] ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي بجنة من الله. ويقال: بمغفرة من الله. «وَفَضْلٍ» هذا لزيادة البيان. والفضل داخل في النعمة، وفيه دليل على اتساعها، وأنها ليست كنعم الدنيا. وقيل: جاء الفضل بعد النعمة على وجه التأكيد؛ روى الترمذي عن المقدام بن معديكرب قال قال رسول الله ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ - كَذَا فِي التِّرْمِذِيِّ وَابْنُ مَاجَهَ «سِتٌّ»،

(١) كذا في ب وز وه وج. وفي ط: البشارة والبشارة.

وهي في العدد <sup>(١)</sup> سبع - يغفر له في أوّل دفعة <sup>(٢)</sup> ويرى مقعده من الجنة ويُجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاجُ الوَقَارِ الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ويُزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويُشَفَّع في سبعين من أقاربه قال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وهذا تفسير للنعمة والفضل. والآثار في هذا المعنى كثيرة. وروى عن مجاهد أنه قال: السيوف مفاتيح الجنة. وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكرم الله تعالى الشهداء بخمس كرامات لم يُكرم بها أحداً من الأنبياء ولا أنا أحدها أن جميع الأنبياء قبض أرواحهم ملكُ الموت وهو الذي سيقبض رُوحِي وأما الشهداء فالله هو الذي يقبض أرواحهم بقدرته كيف يشاء ولا يُسلط على أرواحهم ملكُ الموت، والثاني أن جميع الأنبياء قد غُسلوا بعد الموت وأنا أُغسَل بعد الموت والشهداء لا يُغسلون ولا حاجة لهم إلى ماء الدنيا، والثالث أن جميع الأنبياء قد كُفّنوا وأنا أُكفّن والشهداء لا يُكفّنون بل يُدفنون في ثيابهم، والرابع أن الأنبياء لما ماتوا سُئِلُوا أَمْواتاً وإذا مِتَ يقال قد مات والشهداء لا يُسمّون مَوْتَى، والخامس أن الأنبياء تُعطى لهم الشفاعة يوم القيامة وشفاعتي أيضاً يوم القيامة وأما الشهداء فإنهم يشفعون في كل يوم فيمن يشفعون».

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ قرأه الكِسائي بكسر الألف، والباقون بالنصب؛ فمن قرأ بالنصب فمعناه يستبشرون بنعمة من الله ويستبشرون بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين. ومن قرأ بالكسر فعلى الابتداء. ودليله قراءة ابن مسعود ﴿وَاللَّهُ لَا يضيع أجر المؤمنين﴾.

[١٧٢] ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

(١) في حاشية السندي على سنن ابن ماجه: «قوله ست خصال المذكورات سبع إلا أن يجعل الإجارة والأمن من الفزع واحدة».

(٢) دفعة: قال الدميري: ضبطناه في جامع الترمذي بضم الدال، وكذلك قال أهل اللغة: الدفعة بالضم ما دفع من إناء أو سقاء فانصب بمرة؛ وكذلك الدفعة من المطر وغيره مثل الدفقة بالقاف. وأما الدفعة بالفتح فهي المرة الواحدة فلا يصلح ههنا.



﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع على الابتداء، وخبره ﴿مَنْ بَعْدَ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾. ويجوز أن يكون في موضع خفض، بدل<sup>(١)</sup> من المؤمنين، أو من ﴿الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا﴾. ﴿اسْتَجَابُوا﴾ بمعنى أجابوا، والسين والتاء زائدتان. ومنه قوله:

فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ<sup>(٢)</sup>

وفي الصحيحين عن عروة بن الزبير قال قالت لي عائشة رضي الله عنها: كان أبوك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْحُ. لفظ مسلم. وعنه عن عائشة: يا ابن أختي كان أبوك - تعني الزبير وأبا بكر - من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْحُ. وقالت: لما أنصرف المشركون من أخذ وأصاب النبي ﷺ وأصحابه ما أصابهم خاف أن يرجعوا فقال: « من يَتَدَبَّ لهؤلاء حتى يعلموا أن بنا قوّة » قال فانتدب أبو بكر والزبير في سبعين؛ فخرجوا في آثار القوم، فسمعوا بهم وأنصرفوا بنعمة من الله وفضل. وأشارت عائشة رضي الله عنها إلى ما جرى في غزوة حَمْرَاءِ الأسد، وهي على نحو ثمانية أميال من المدينة؛ وذلك أنه لما كان في يوم الأحد، وهو الثاني من يوم أُحُد، نادى رسول الله ﷺ في الناس بإتباع المشركين، وقال: « لا يخرج معنا إلا من شهد بها بالأمس » فنهض معه مائتا رجل من المؤمنين. في البخاري فقال: « من يذهب في إثرهم » فانتدب منهم سبعون رجلاً. قال: كان فيهم أبو بكر والزبير على ما تقدّم، حتى بلغ حمراء الأسد، مُزْهِباً للعدوّ؛ فربّما كان فيهم المُثَقَّل بالجراح لا يستطيع المشي ولا يجد مرْكوباً، فربّما يحمل على الأعناق؛ وكل ذلك أمثالاً لأمر رسول الله ﷺ ورغبة في الجهاد. وقيل: إن الآية نزلت في رجلين من بني عبد الأشهل كانا مُثَخَّنِينَ بالجراح، يتوكّأ أحدهما على صاحبه، وخرجا مع النبي ﷺ؛ فلما وصلوا حمراء الأسد، لقيهم نُعيم بن مسعود فأخبرهم أن أبا سفيان بن حرب ومن معه من قريش قد جَمَعُوا جُمُوعَهُمْ، وأجمعوا رأيهم على أن يأتوا<sup>(٣)</sup> إلى المدينة

(١) كذا في الأصول. والذي في النحاس والعبارة له: بدلاً.

(٢) هذا عجز بيت لكعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار؛ صدره:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى

(٣) في جـ وهـ وط: يرجعوا.

فِيَسْتَأْصِلُوا أَهْلَهَا؛ فَقَالُوا مَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. وَبَيْنَا قَرِيشٌ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ إِذْ جَاءَهُمْ مَعْبُدُ الْخُرَاعِيِّ، وَكَانَتْ خُرَاعَةُ حُلَفَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَيْنِيَّةٌ<sup>(١)</sup> نُضَحُّهُ، وَكَانَ قَدْ رَأَى حَالَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ؛ وَلَمَّا رَأَى عِزْمَ قَرِيشٍ عَلَى الرَّجُوعِ لِيَسْتَأْصِلُوا أَهْلَ الْمَدِينَةِ احْتَمَلَهُ خَوْفٌ ذَلِكَ، وَخَالَصُ نَصَحِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ عَلَى أَنْ خَوْفٌ قَرِيشاً بِأَنْ قَالَ لَهُمْ: قَدْ تَرَكْتُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ بِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ، قَدْ أَجْتَمَعَ لَهُ مَنْ كَانَ تَخَلَّفَ عَنْهُ، وَهُمْ قَدْ تَحَرَّقُوا عَلَيْكُمْ؛ فَالِنَجَاءُ النَّجَاءُ! فَإِنِّي أَنْهَاكَ عَنْ ذَلِكَ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ حَمَلَنِي مَا رَأَيْتُ أَنْ قُلْتُ فِيهِ أَبْيَاتًا مِنَ الشَّعْرِ. قَالَ: وَمَا قُلْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ:

كَادَتْ تُهْذُ مِنْ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي	إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ <sup>(٢)</sup>
تُزْدِي بِأَسْدٍ كَرَامٍ لَا تَنَابِلَةُ	عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَاذِيلِ <sup>(٣)</sup>
فَظَلْتُ عَذْوًا أَظَنَّ الْأَرْضَ مَائِلَةً	لَمَّا سَمَوْا بِرَثِيسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ
فَقُلْتُ وَنِيلَ ابْنِ حَزْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ	إِذَا تَغَطَّمَتِ الْبَطْحَاءُ بِالْخَيْلِ <sup>(٤)</sup>
إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبَسَلِ ضَاحِيَةٌ	لِكُلِّ ذِي إِزْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ
مِنْ جَيْشٍ أَحْمَدَ لَا وَخْشٌ قَنَابِلُهُ	وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالْقِيلِ <sup>(٥)</sup>

قَالَ: فَتَنَى ذَلِكَ أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِم الرُّغْبَ، وَرَجَعُوا إِلَى مَكَّةَ خَائِفِينَ مُسْرِعِينَ، وَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ مَنْصُورًا؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ﴾ أَيُّ قِتَالٍ وَرُغْبٍ. وَأَسْتَأْذِنُ

(١) عيبة الرجل: موضع سره. (٢) الجرد: خيل قصيرة شعر الجلد. أبابيل: فرقا.

(٣) ردت الخيل ردياً وردياناً: رجعت الأرض بحوافرها في سيرها وعدوها. والتنايلة: القصار؛ واحدهم تنال. والأميل: الذي يميل على السرج ولا يستوي عليه. وقيل: هو الكسل الذي لا يحسن الركوب والفروسية. والمعازيل: القوم ليس معهم سلاح؛ واحدهم معزال.

(٤) في الروض الأنف: «تغطمت البطحاء» لفظ مستعار عن الغمطة، وهو صوت غليان القدر. قوله (الخيل) وفيه وابن هشام ط أوروبا: الجليل. والأول فيه سناد. ولعله: الخيل جمع أخيل فلا سناد.

(٥) الوخش: رذال الناس. والقنابل: الطائفة من الناس ومن الخيل، وفيه ج. وز والسيرة ط مصر مع الروض: تنايلة. وفيه ط وي وه: تنايلة: تتل الرجل إذا تقلد بعد التنظف.

جابر بن عبد الله إلى النبي ﷺ في الخروج معه فأذن له . وأخبرهم تعالى أن الأجر العظيم قد تحصل لهم بهذه القفلة . وقال رسول الله ﷺ «إنها غزوة» . هذا تفسير الجمهور لهذه الآية . وشذ مجاهد وعكرمة رحمهما الله تعالى فقالا : إن هذه الآية من قوله : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ... إلى قوله : - عَظِيمٌ﴾ إنما نزلت في خروج النبي ﷺ إلى بدر الصغرى . وذلك أنه خرج لميعاد أبي سفيان في أحد ، إذ قال : مؤعدنا بدر من العام المقبل . فقال النبي ﷺ : «قولوا نعم» فخرج النبي ﷺ قبل بدر ، وكان بها سوق عظيم ، فأعطى رسول الله ﷺ أصحابه دراهم ؛ وقرب من بدر فجاء نعيم بن مسعود الأشجعي ، فأخبره أن قريشاً قد اجتمعت وأقبلت لحربه هي ومن أنضاف إليها ، فأشفق المسلمون من ذلك ، لكنهم قالوا : «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» فصمّموا<sup>(١)</sup> حتى أتوا بدر فلم يجدوا أحداً ، ووجدوا السوق فاشتروا بدراهمهم أدماً وتجارة ، وأنقلبوا ولم يلقوا كيداً ، ورَبِحُوا في تجارتهم ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي وفضل في تلك التجارات . والله أعلم .

[١٧٣] ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ .

اختلف في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ فقال مجاهد ومقاتل وعكرمة والكلبي : هو نعيم بن مسعود الأشجعي . واللفظ عام ومعناه خاص ؛ كقوله : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾<sup>(٢)</sup> يعني محمداً ﷺ . السدي : هو أعرابي جعل له جعل على ذلك . وقال ابن إسحاق وجماعة : يريد بالناس ركب عبد القيس ، مؤوا بأبي سفيان فدسهم إلى المسلمين ليبتطوهم . وقيل : الناس هنا المنافقون . قال السدي : لما تجهز النبي ﷺ وأصحابه للمسير إلى بدر الصغرى لميعاد أبي سفيان اتاهم المنافقون وقالوا : نحن أصحابكم الذين

(١) صمم في السير وغيره : مضى .

(٢) راجع ٥/ ٢٥٠ .

نهيناكم عن الخروج إليهم وعصيتمونا، وقد قاتلوكم في دياركم وظفروا؛ فإن أتيتموهم في ديارهم فلا يرجع منكم أحد. فقالوا: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». وقال أبو مَعْشَر: دخل ناس من هُذَيْل من أهل تِهَامَةِ الْمَدِينَةِ، فسألهم أصحاب رسول الله ﷺ عن أبي سفيان فقالوا: «قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ» جموعاً كثيرة «فَاخْشَوْهُمْ» أي فخافوهم وأحذروهم؛ فإنه لا طاقة لكم بهم. فالتاس على هذه الأقوال على بابه من الجمع. والله أعلم.

قوله تعالى: «فَزَادَهُمْ إِيمَانًا» أي فزادهم قول الناس إيماناً، أي تصديقاً و يقيناً في دينهم، وإقامة على نصرتهم، وقوة وجراءة واستعداداً. فزيادة الإيمان على هذا هي في الأعمال. وقد اختلف العلماء في زيادة الإيمان ونقصانه على أقوال. والعقيدة في هذا على أن نفس الإيمان الذي هو تاجٌ واحدٌ، وتصديق واحد بشيء ما، إنما هو معنى فَرْدٌ، لا يدخل معه زيادة إذا حصل، ولا يبقى منه شيء إذا زال؛ فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقصان في متعلقاته دون ذاته. فذهب جمع من العلماء إلى أنه يزيد وينقص من حيث الأعمال الصادرة عنه، لا سيما أن كثيراً من العلماء يوقعون أسم الإيمان على الطاعات؛ لقوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون باباً فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» أخرجه الترمذي، وزاد مسلم «والحياء شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» وفي حديث علي رضي الله عنه: إن الإيمان لبيدو لُْمَظَةٌ بِيضَاءٍ فِي الْقَلْبِ، كلما أزداد الإيمان أزدادت اللُْمَظَةُ. وقوله «لمظة» قال الأصمعي: اللمظة مثل النُّكْتَةِ ونحوها من البياض؛ ومنه قيل: فرس أَلْمَظ، إذا كان بَجَحْفَلْتِه شيء من بياض. والمحدثون يقولون «لمظة» بالفتح. وأما كلام العرب فبالضم؛ مثل شُبْهَةٍ ودهمة وخُمْرة. وفيه حُجَّةٌ على من أنكر أن يكون الإيمان يزيد وينقص. ألا تراه يقول: كلما أزداد الإيمان أزدادت اللُْمَظَةُ حتى يبيض القلب كله. وكذلك النفاق يبدو لُْمَظَةً سَوْدَاءَ فِي الْقَلْبِ كلما أزداد النفاق أسود القلب حتى يسود القلب كله. ومنهم من قال: إن الإيمان عَرَضٌ، وهو لا يَثْبُتُ زمانين؛ فهو للنبي ﷺ وللصلحاء متعاقب، فيزيد باعتبار توالي أمثاله على قلب المؤمن، وباعتبار دوام حضوره.

وينقص بتوالي الغفلات على قلب المؤمن. أشار إلى هذا أبو المعالي. وهذا المعنى موجود في حديث الشفاعة، حديث أبي سعيد الخدري أخرجه مسلم. وفيه: «يقول المؤمنون يا ربنا إخواننا كانوا يصومون ويصَلُّون ويَحُجُّون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتَحَرَّمْ صُورُهُمْ على النار فيُخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصفِ ساقَيْهِ وإلى رُكْبَتَيْهِ ثم يقولون رَبَّنَا ما بَقِيَ فيها أحدٌ ممن أمرتنا به فيقول أَرَجِعُوا فمن وجدتم في قلبه مِثْقَالَ دِينَارٍ من خير فأخرجوه فيُخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون رَبَّنَا لم نَذَرْ فيها أحداً ممن أمرتنا ثم يقول أَرَجِعُوا فمن وجدتم في قلبه مِثْقَالَ دِينَارٍ من خير فأخرجوه فيُخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون رَبَّنَا لم نَذَرْ فيها أحداً ممن وجدتم في قلبه مِثْقَالَ ذَرَّةٍ من خير فأخرجوه» وذكر الحديث<sup>(١)</sup>. وقد قيل: إن المراد بالإيمان في هذا الحديث أعمالُ القلوب؛ كالنَّيَّةِ والإخلاص والخوف والنصيحة وشبه ذلك. وسَمَّاها إيماناً لكونها في محل الإيمان أو عني بالإيمان، على عادة العرب في تسمية الشيء باسم الشيء إذا جاوزه، أو كان منه بسبب. دليل هذا التأويل قولُ الشافعين بعد إخراج من كان في قلبه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ من خير: «لم نَذَرْ فيها خيراً» مع أنه تعالى يُخرج بعد ذلك جموعاً كثيرة ممن يقول لا إله إلا الله، وهم مؤمنون قطعاً؛ ولو لم يكونوا مؤمنين لما أخرجهم. ثم إن عِدَمَ الوجود الأول الذي يُرَكَّبُ<sup>(٢)</sup> عليه المِثْل لم تكن زيادة ولا نقصان. وقُدِّرَ ذلك في الحركة. فإن الله سبحانه إذا خلقَ عِلْماً فَرَدَّ وأخلق معه مِثْلَهُ أو أمثاله بمعلومات فقد زاد علمه؛ فإن أعدم الله الأمثال فقد نقص، أي زالت الزيادة. وكذلك إذا خلق حركة وأخلق معها مثلها أو أمثالها. وذهب قوم من العلماء إلى أن زيادة الإيمان ونقصه إنما هو من طريق الأدلة، فتزید الأدلة عند واحد فيقال في ذلك: إنها زيادة في الإيمان؛ وبهذا المعنى - على أحد الأقوال - فَضِّلَ الأنبياء على الخلق، فإنهم عِلْمُوهُ من وجوه كثيرة، أكثر من الوجوه التي علمه الخلق بها. وهذا القول خارج عن مقتضى الآية؛ إذ لا يُتَصَوَّرُ أن تكون الزيادة فيها من جهة الأدلة. وذهب قوم: إلى أن الزيادة في الإيمان إنما هي بنزول الفرائض والأخبار في مدة النبي ﷺ، وفي المعرفة بها بعد الجهل غابر الدهر.

(١) بقيته «فيُخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيراً» مسلم ١١٦/١.

(٢) في ز: يتركب.

وهذا إنما هو زيادة إيمان، فالقول فيه إِنَّ الإيمان يزيد قول مَجَازِيٍّ، ولا يُتَصَوَّرُ فيه النقص على هذا الحدِّ، وإنما يتصوَّرُ بالإضافة إلى من عُلِمَ. فاعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي كافينا الله. وحسب مأخوذ من الإحساب، وهو الكفاية. قال الشاعر:

فتملاً بيتنا إقطاً<sup>(١)</sup> وسمناً وحسبك من غنى شبع وري

روى البخاري عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ - إلى قوله: - ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم الخليل عليه السلام حين أُلْقِيَ في النار. وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم. والله أعلم.

[١٧٤] ﴿قَاتِلُوا بَنِي نَعْمَانَ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

قال علماؤنا: لما قَوَّضُوا أَمْرَهُمْ إِلَيْهِ، وَأَعْتَمَدُوا بِقُلُوبِهِمْ عَلَيْهِ، أَعْطَاهُمْ مِنَ الْجِزَاءِ أَرْبَعَةَ مَعَانٍ: النعمة، والفضل، وصرف السوء، وأتباع الرضا. فرضاهم عنه، ورضي عنهم.

[١٧٥] ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

قال ابن عباس وغيره: المعنى يخوفكم أوليائه؛ أي بأوليائه، أو من أوليائه، فحذف حرف الجر ووصل الفعل إلى الاسم فنصب. كما قال تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً﴾<sup>(٢)</sup> أي لينذركم ببأس شديد؛ أي يخوف المؤمنين بالكافر. وقال الحسن والسُّدِّي: المعنى يخوف أوليائه المنافقين؛ ليقعدوا عن قتال المشركين. فأما أوليائه الله فإنهم لا يخافونه إذا خوفهم. وقد

(١) الأقط: شيء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ويترك حتى يमصل.

(٢) راجع ٢٤٦/١٠.

قيل: إن المراد هذا الذي يخوفكم بجمع الكفار شيطاناً من شياطين الإنس؛ إمّا نعيم بن مسعود أو غيره، على الخلاف في ذلك كما تقدّم. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي لا تخافوا الكافرين المذكورين في قوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾. أو يرجع إلى الأولياء إن قلت: إن المعنى يخوف بأوليائه أي يخوفكم أوليائه.

قوله تعالى: ﴿وَخَافُونَ﴾ أي خافون في ترك أمري إن كنتم مصدّقين بوعدتي. والخوف في كلام العرب الدُّعْرُ. وَخَاوَفَنِي فلان فَخُفَّتُهُ، أي كنت أشدّ خوفاً منه. وَالْخَوْفَاءُ<sup>(١)</sup> الْمَقَارَةُ لا ماء بها. ويقال: ناقةٌ خَوْفَاءٌ وهي الجُرْبَاءُ. والخافة كالخريطة<sup>(٢)</sup> من الأدم يُشْتَارُ فيها العَسَلُ. قال سهل بن عبد الله: اجتمع بعض الصديقين إلى إبراهيم الخليل فقالوا: ما الخوف؟ فقال: لا تأمن حتى تبلغ المأمن. قال سهل: وكان الربيع بن خيثم إذا مرَّ بِكَيْرٍ<sup>(٣)</sup> يُغْشَى عليه؛ فليل لعلي بن أبي طالب ذلك؛ فقال: إذا أصابه ذلك فأعلموني. فأصابه فأعلموه، فجاءه فأدخل يده في قميصه فوجد حركته عالية فقال: أشهد أنّ هذا أخوف [أهل]<sup>(٤)</sup> زمانكم. فالخائف من الله تعالى هو أن يخاف أن يُعَاقِبَهُ إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة؛ ولهذا قيل: ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه، بل الخائف الذي يترك ما يخاف أن يُعَذَّبَ عليه. ففرض الله تعالى على العباد أن يخافوه فقال: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿وَلِإِيَّايَ فَآزْهَبُونَ﴾. ومدح المؤمنين بالخوف فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوِّهِمْ﴾. ولأرباب الإشارات في الخوف عبارات مرجعها إلى ما ذكرنا. قال الأستاذ أبو علي الدِّقَاق: دخلت على أبي بكر بن فُورَك رحمه الله عائداً، فلما رأيته دمعته عيناه، فقلت له: إنّ الله يعافيك وَيَشْفِيكَ. فقال لي: أترى أنّي أخاف من الموت؟ إنما أخاف مما وراء الموت. وفي سنن أبْنِ ماجه عن أبي ذرّ قال

(١) يقال مفازة خوقاء (بالقاف لا بالقاف) أي واسعة الجوف أو لا ماء بها؛ كما يقال ناقة خوقاء (بالقاف كذلك) أي جرباء (انظر اللسان مادة خوق) وليس فيه ولا في كتاب آخر من كتب اللغة هذان المعنيان في مادة «خوف» بالقاف.

(٢) كذا في الأصول. وفي اللسان: والخافة: خريطة.

(٣) الكير: كير الحداد، وهو زق أو جلد غليظ ذو حافات؛ وهو المعروف الآن بالمنفاح. وأما الكور فهو المبني من الطين.

(٤) عن جرود.

قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتْ<sup>(١)</sup> السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطُ مَا فِيهَا مَوْضِعَ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكَ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَّيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشَاتِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ<sup>(٢)</sup> تَجَاوِزُونَ<sup>(٣)</sup> إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ<sup>(٤)</sup>». خَرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَيُرْوَى مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ قَالَ: «لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ». وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[١٧٦] ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ هؤلاء قوم أسلموا ثم ارتدوا خوفاً من المشركين؛ فاعْتَمَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ وقال الكلبي: يعني به المنافقين ورؤساء اليهود؛ كَتَمُوا صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْكِتَابِ فَتَرَلْتُ. وَيُقَالُ: إِنْ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمَّا لَمْ يُؤْمِنُوا شَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ؛ فَلَوْ كَانَ قَوْلُهُ حَقًّا لَاتَّبَعُوهُ، فَتَرَلْتُ ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾. قِرَاءَةٌ نَافِعٌ بَضْمُ الْيَاءِ وَكَسْرُ الزَّايِ حَيْثُ وَقَعَ إِلَّا فِي - الْأَنْبِيَاءِ - ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾<sup>(٥)</sup> فَإِنَّهُ بَفَتْحِ الْيَاءِ وَبَضْمِ الزَّايِ. وَضَدَهُ أَبُو جَعْفَرٍ. وَقَرَأَ ابْنُ مُحَيْصِنٍ كُلَّهَا بَضْمُ الْيَاءِ وَ [كسراً]<sup>(٦)</sup> الزَّايِ. وَالْبَاقُونَ كُلُّهَا بَفَتْحِ الْيَاءِ وَبَضْمِ الزَّايِ.

(١) الأُطِيطُ: صوت الأُتَابِ،، وَأُطِيطُ الْإِلَهِ: أَصْوَاتُهَا وَحْنِيهَا. أَيِ إِنْ كَثُرَتْ مَا فِي السَّمَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَدْ أَثْقَلَهَا حَتَّى أَطَّتْ. وَهَذَا مِثْلُ وَإِذَانَ بِكَثْرَةِ الْمَلَائِكَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ أُطِيطُ، وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ تَقْرِيبٌ أُرِيدُ بِهِ تَقْرِيرُ عِظَمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (عَنْ ابْنِ الْأَثِيرِ).

(٢) الصُّعْدَاتُ: الطَّرِيقُ، وَهِيَ جَمْعُ صَعْدٍ: كَطَرِيقٍ وَطَرَقَاتٍ. وَقِيلَ: جَمْعُ صَعْدَةٍ؛ كَطَلْمَةٍ وَهِيَ فَنَاءُ بَابِ الدَّارِ، وَمَرَّ النَّاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

(٣) جَارَ الْقَوْمِ جَوَّارًا: رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالِدَّعَاءِ مُتَضَرِّعِينَ.

(٤) تُعْضَدُ: تَقَطَّعَ بِالْمَعْضَدِ؛ وَالْمَعْضَدُ وَالْمَعْضَادُ مِثْلُ الْمَنْجَلِ يَقَطَّعُ بِهِ الشَّجَرُ.

(٥) رَاجِعُ ٣٤٦/١١.

(٦) الْأَصُولُ كُلُّهَا: بَضْمُ الْيَاءِ وَالزَّايِ. وَالصُّوَابُ مَا أَثْبَتْنَاهُ. رَاجِعُ ٣٤٦/١١.



وهما لغتان: حَزَنَنِي الأمر يَحْزُنُنِي، وأَحْزَنَنِي أيضاً وهي [لغة] <sup>(١)</sup> قليلة؛ والأولى أفصح اللغتين؛ قاله النحاس. وقال الشاعر في «أحزن»:

مَضَى صُحْبِي وَأَحْزَنَنِي الدَّيَارُ

وقراءة العامة «يُسَارِعُونَ». وقرأ طلحة «يُسْرِعُونَ في الكفر». قال الضحاك: هم كفار قريش. وقال غيره: هم المنافقون. وقيل: هو ما ذكرناه قبل. وقيل: هو عام في جميع الكفار. ومُسَارِعَتُهُم في الكفر المظاهرة على محمد ﷺ. قال القُشَيْرِيُّ: والحُزْنُ على كُفْرِ الكافر طاعة؛ ولكن النبي ﷺ كان يُفْرِط في الحزن على كفر قومه، فنهى عن ذلك؛ كما قال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بِأَخِ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ <sup>(٣)</sup>.

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي لا ينقصون من ملك الله وسلطانه شيئاً؛ يعني لا ينقص بكفرهم. وكما روي عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلا من هديته فاستهدوني أهديكم. يا عبادي كلُّكم جائعٌ إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي كلُّكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسبوني أغسكم. يا عبادي إنكم تُخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي إنكم لن تبْلُغُوا صَرْيَ فَتَضُرُّوني ولن تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يا عبادي لو بَأْسٌ أُولَكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً. يا عبادي لو أن أُولَكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ ما نَقَصَ ذلك من مُلكي شيئاً. يا عبادي لو أن أُولَكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْأَلَتَهُ ما نَقَصَ ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُصُ الْمِخِيطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرُ. يا عبادي إنما هي أعمالكم أُخْصِيها لكم ثم أَوْفِيكُمْ إياها فمن وَجَدَ خيراً فليَخْمدِ اللهَ ومن وَجَدَ غيرَ ذلك فلا يُلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ». خرَّجه مسلم في صحيحه والترمذي وغيرهما، وهو حديث عظيم فيه طول

يكتب كله. وقيل: معنى ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي لن يَضُرُّوا أولياء الله حين تركوا نصرهم إذ كان الله عز وجل ناصرهم.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي نصيباً. والحِطُّ النصيب والجَدُّ. يقال: فلان أحطَّ من فلان، وهو محظوظ. وجمع الحِطِّ أحاطٍ على غير قياس<sup>(١)</sup>. قال أبو زيد: يقال رجل حَظِيظ، أي جديداً إذا كان ذا حظٍّ من الرزق. وحَظِظْتُ في الأمر أَحَظُّ. وربما جُمع الحِطُّ أَحْطًا. أي لا يجعل لهم نصيباً في الجنة. وهو نصٌّ في أن الخير والشر بإرادة الله تعالى.

[١٧٧] ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ تقدّم في البقرة<sup>(٢)</sup>. ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ كرّر للتأكيد. وقيل: أي من سوء تدبيره استبدال الإيمان بالكفر وبيعه به؛ فلا يخاف جانبه ولا تدبيره. وانتصب «شيئاً» في الموضعين لوقوعه موقع المصدر؛ كأنه قال: لن يضرّوا الله ضرراً قليلاً ولا كثيراً. ويجوز انتصابه على تقدير حذف الباء؛ كأنه قال: لن يضرّوا الله بشيء.

[١٧٨] ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَمْثَلُ لَمْ خَيْرٌ لَّ أَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَمْثَلُ لَمْ خَيْرٌ لَّ أَنْفُسِهِمْ﴾ الإملاء طول العمر ورَعَدَ العيش. والمعنى: لا يحسبن هؤلاء الذين يُخَوِّفون المسلمين؛ فإن الله قادر

(١) قال الجوهري: كأنه جمع أحط. قال ابن بري: وقوله «أحاط على غير قياس» وهم منه، بل أحاط جمع أحط؛ وأصله أحظظ فقلبت الظاء الثانية ياء فصارت أحط، ثم جمعت على أحاط. (عن اللسان).

(٢) راجع ٢١٠/١.

على إهلاكهم، وإنما يطول أعمارهم ليعملوا بالمعاصي، لا لأنه خير لهم. ويقال: أنما نملي لهم بما أصابوا من الظفر يوم أُخذ لم يكن ذلك خيراً لأنفسهم؛ وإنما كان ذلك ليزدادوا عقوبة. ورؤي عن ابن مسعود أنه قال: ما من أحد برّ ولا فاجر إلا والموت خير له؛ لأنه إن كان برّاً فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾<sup>(١)</sup> وإن كان فاجراً فقد قال الله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾. وقرأ ابن عامر وعاصم «لا يحسبن» بالياء ونصب السين. وقرأ حمزة: بالتاء ونصب السين. والباقون: بالياء وكسر السين. فمن قرأ بالياء فالذين فاعلون. أي فلا يحسبن الكفار. و﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ تسدّ مسدّ المفعولين. و«ما» بمعنى الذي، والعائد محذوف، و«خير» خبر «أن». ويجوز أن تقدّر «ما» والفعل مصدرأ؛ والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن إملاءنا لهم خير لأنفسهم. ومن قرأ بالتاء فالفاعل هو المخاطب، وهو محمد ﷺ. و«الذين» نصب على المفعول الأوّل لتحسب. وأن وما بعدها بدل من الذين، وهي تسدّ مسدّ المفعولين، كما تسد لو لم تكن بدلاً. ولا يصلح أن تكون «أن» وما بعدها مفعولاً ثانياً لتحسب؛ لأن المفعول الثاني في هذا الباب هو الأوّل في المعنى؛ لأن حسب وأخواتها داخله على المبتدأ والخبر؛ فيكون التقدير: ولا تحسبن أنما نملي لهم خير. هذا قول الزجاج. وقال أبو عليّ: لو صحّ هذا لقال «خيراً» بالنصب؛ لأن «أن» تصير بدلاً من «الذين كفروا»؛ فكأنه قال: لا تحسبن إملاء الذين كفروا خيراً؛ فقله «خيراً» هو المفعول الثاني لحسب. فإذا لا يجوز أن يقرأ «لا تحسبن» بالتاء إلا أن تكسر «إن» في «أنما» وتنصب خيراً، ولم يُزوّد ذلك عن حمزة، والقراءة عن حمزة بالتاء؛ فلا تصح هذه القراءة إذاً. وقال الفراء والكسائي: قراءة حمزة جائزة على التكرير؛ تقديره ولا تحسبن الذين كفروا، ولا تحسبن أنما نملي لهم خير؛ فسدت «أن» مسدّ المفعولين لتحسب الثاني، وهي وما عملت مفعول ثانٍ لتحسب الأوّل. قال القشيري: وهذا قريب مما ذكره الزجاج في دعوى البدل، والقراءة صحيحة. فإذا غرض أبي عليّ تغليط الزجاج. قال النحاس: وزعم أبو حاتم أن قراءة حمزة بالتاء هنا، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ لحن لا يجوز. وتبعه على ذلك جماعة.

(١) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء.

قلت: وهذا ليس بشيء؛ لما تقدم بيانه من الإعراب، ولصحة القراءة وثبوتها نقلاً. وقرأ يحيى بن وثاب ﴿إِنَّمَا تُنْمِلِي لَهُمْ﴾ بكسر إنَّ فيهما جميعاً. قال أبو جعفر: وقراءة يحيى حسنة. كما تقول: حسبت عمراً أبوه خالد. قال أبو حاتم. وسمعت الأخفش يذكر كسر «إن» يحتج به لأهل القدر؛ لأنه كان منهم. ويجعل على التقديم والتأخير «وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا تُنْمِلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا إِنَّمَا تُنْمِلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ». قال: ورأيت في مصحف في المسجد الجامع قد زادوا فيه حرفاً فصار «إِنَّمَا تُنْمِلِي لَهُمْ إِيْمَانًا» فنظر إليه يعقوب القاريء فتبين اللحن فحكاه. والآية نصٌّ في بطلان مذهب القدرية؛ لأنه أخبر أنه يطيل أعمارهم ليزدادوا الكفر بعمل المعاصي، وتوالى أمثاله على القلب. كما تقدم بيانه في ضده وهو الإيمان. وعن ابن عباس قال: ما من برٍّ ولا فاجر إلا والموت خير له ثم تلا: ﴿إِنَّمَا تُنْمِلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ وتلا ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ أخرجه رزين.

[١٧٩] ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَابِعُونُوا بِاللَّهِ وَرُسُلَهُ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

قال أبو العالية: سأل المؤمنون أن يعطوا علامة يفرقون بها بين المؤمن والمنافق؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية. واختلفوا من المخاطب بالآية على أقوال. فقال ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين: الخطاب للكفار والمنافقين. أي ما كان الله ليزر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق وعداوة النبي ﷺ. قال الكلبي: إن قريشاً من أهل مكة قالوا للنبي ﷺ: الرجل منا تزعم أنه في النار، وأنه إذا ترك ديننا وأتبع دينك قلت هو من أهل الجنة! فأخبرنا عن هذا من أين هو؟ وأخبرنا من يأتيك منا؟ ومن لم يأتك؟. فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ

المُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿١﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ﴿٢﴾ حَتَّى يُمَيِّزَ الْخَيْبَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴿٣﴾. وقيل: هو خطاب للمشركين. والمراد بالمؤمنين في قوله: ﴿لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من في الأصلاب والأرحام ممن يؤمن. أي ما كان الله ليذر أولادكم الذين حكم لهم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشرك، حتى يفرق بينكم وبينهم؛ وعلى هذا ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظِلَّكُمْ﴾ كلام مستأنف. وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين. وقيل: الخطاب للمؤمنين. أي وما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق، حتى يميّز بينكم بالمحنة والتكليف؛ فتعرفوا المنافق الخبيث، والمؤمن الطيب. وقد ميّز يوم أُحُد بين الفريقين. وهذا قول أكثر أهل المعاني. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظِلَّكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ يا معشر المؤمنين. أي ما كان الله ليعيّن لكم المنافقين حتى تعرفوهم، ولكن يظهر ذلك لكم بالتكليف والمحنة، وقد ظهر ذلك في يوم أُحُد؛ فإن المنافقين تخلفوا وأظهروا السمات، فما كنتم تعرفون هذا الغيب قبل هذا، فالآن قد أطلع الله محمداً عليه السلام وصحبه على ذلك. وقيل: معنى ﴿ليظلمكم﴾ أي وما كان [الله] <sup>(١)</sup> ليعلمكم ما يكون منهم. فقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظِلَّكُمْ [عَلَى الْغَيْبِ] <sup>(١)</sup>﴾ على هذا متصل، وعلى القولين الأولين منقطع. وذلك أن الكفار لما قالوا: لِمَ لَمْ يوح إلينا؟ قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظِلَّكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ أي على من يستحق النبوة، حتى يكون الوحي باختياركم. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي﴾ أي يختار ﴿مِنْ رُسُلِهِ﴾ لإطلاع غيبه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ يقال: طلعت على كذا وأطلعت [عليه] <sup>(٢)</sup>، وأطلعت عليه غيري؛ فهو لازم ومتعد. وقرئ «حَتَّى يُمَيِّزَ» بالتشديد من مَيَّزَ، وكذا في «الأنفال» <sup>(٣)</sup> وهي قراءة حمزة. والباقون «يُمَيِّزَ» بالتخفيف من مَازَ يُمَيِّزُ. يقال: مزت الشيء بعضه من بعض أميزه مَيَّزاً ومَيَّزته تُمَيِّزاً. قال أبو معاذ: مزت الشيء أميزه مَيَّزاً إذا فرقت بين شيئين. فإن كانت أشياء قلت: ميزتها تُمَيِّزاً. ومثله إذا جعلت الواحد شيئين قلت: فرقت بينهما، مخففاً؛ ومنه فرّق الشعر. فإن جعلته أشياء قلت: فرقته تفريقاً.

قلت: ومنه أمتاز القوم، تميز بعضهم عن بعض. ويكاد يتميَّز: يتقطع؛ وبهذا فسر قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ <sup>(٣)</sup> وفي الخبر «من مَازَ أَدَّى عن الطريق فهو له صدقة».

قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يقال: إن الكفار لما سألوا رسول الله ﷺ أن يبين لهم<sup>(١)</sup> من يؤمن منهم، فأنزل الله ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يعني لا تشتغلوا بما لا يعينكم، وأشتغلوا بما يعينكم وهو الإيمان. ﴿فَآمِنُوا﴾ أي صدقوا، أي عليكم التصديق لا التشؤف إلى أطلاع الغيب. ﴿وَأَن تُوْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي الجنة. ويذكر أن رجلاً كان عند الحجاج بن يوسف الثقفي منجماً؛ فأخذ الحجاج حصيات بيده قد عرّف عددها فقال للمُنْجَم: كم في يدي؟ فحسب فأصاب المنجّم. فأغفله الحجاج وأخذ حصيات لم يُعَدِّهن فقال للمنجم: كم في يدي؟ فحسب فأخطأ، ثم حسب أيضاً فأخطأ؛ فقال: أيها الأمير، أظنك لا تعرف عدد ما في يدك؟ قال لا. قال: فما الفرق بينهما؟ فقال: إن ذاك أخصيته فخرج عن حد الغيب، فحسبت فأصبت، وإن هذا لم تعرف عددها فصار غيباً، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى. وسيأتي هذا الباب في «الأنعام»<sup>(٢)</sup> إن شاء الله تعالى.

[١٨٠] ﴿وَلَا يَخْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَبْخُلُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْسَبَنَّ الَّذِينَ﴾ «الذين»<sup>(٣)</sup> في موضع رفع، والمفعول الأول محذوف. قال الخليل وسيبويه والفرّاء: المعنى البخل خيراً لهم، أي لا يحسبنّ الباخلون البخل خيراً لهم. وإنما حذف لدلالة يبخلون على البخل؛ وهو كقوله: من صدق كان خيراً له. أي كان الصدق خيراً له. ومن هذا قول الشاعر:

إِذَا نُهِِيَ السَّفِيهَ جَرَى إِلَيْهِ وَخَالَفَ وَالسَّفِيهَ إِلَى خِلَافٍ

فالمعنى: جرى إلى السفيه؛ فالسفيه دلّ على السفه. وأما قراءة حمزة بالتاء فبعيدة جداً؛ قاله النحاس. وجوازها أن يكون التقدير: لا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم. قال

(١) في ط وجد وه: أيهم.

(٢) راجع ١/٧ فما بعد. (٣) في ط وجد.

الزجاج: وهي مثل ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾. و «هو» في قوله ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ فاصلة عند البصريين، وهي العماد عند الكوفيين. قال النحاس: ويجوز في العربية «هو خير لهم» ابتداء وخبر.

الثانية - قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ ابتداء وخبر، أي البخل شرٌّ لهم. والسين في «سَيَطُوفُونَ» سين الوعيد، أي سوف يُطَوَّقُونَ؛ قاله المبرد. وهذه الآية نزلت في البخل بالمال والإنفاق في سبيل الله، وأداء الزكاة المفروضة. وهذه كقوله: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. ذهب إلى هذا جماعة من المتأولين، منهم ابن مسعود وابن عباس وأبو وائل وأبو مالك والسُّدِّي والشَّعْبِيُّ قالوا: ومعنى ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ﴾ هو الذي ورد في الحديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً<sup>(١)</sup> أفرغ<sup>(٢)</sup> له زبيبتان<sup>(٣)</sup> يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه<sup>(٤)</sup> ثم يقول أنا مالك أنا كنزك - ثم تلا هذه الآية - ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ الآية. أخرجه النسائي<sup>(٥)</sup>. وخرجه ابن ماجه عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد لا يؤدّي زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاع أفرغ حتى يطوق به في عنقه» ثم قرأ علينا النبي ﷺ مصداقه من كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الآية. وجاء عنه ﷺ أنه قال «ما من ذي رَجِم يأتي ذا رَجِمه فيسأله من فضل ما عنده فيبخل به عليه إلا أخرج له يوم القيامة شجاع من النار يتلمظ<sup>(٦)</sup> حتى يطوقه». وقال ابن عباس أيضاً: إنما نزلت في أهل الكتاب وبخلهم ببيان ما علموه من أمر محمد ﷺ. وقال ذلك مُجاهد وجماعة من أهل العلم. ومعنى ﴿سَيَطُوفُونَ﴾ على هذا التأويل سيحملون عقاب ما بخلوا به؛ فهو من الطاقة كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ

(١) الشجاع (بالضم): الحية الذكر؛ أو الذي يقوم على ذنبه ويواثب الراجل والفارس.

(٢) الأقرع: هو الذي تمرط جلد رأسه؛ لكثرة سبه وطول عمره.

(٣) الزبيبتان: النكتتان السوداءوان فوق عينيه، وهو أوحش ما يكون من الحيات وأخبثه. وقيل: هما زيدتان في شذقي الحية.

(٤) اللهزمتان: شدقاه. وقيل: هما عظمان ناتتان في اللحيين تحت الأذنين. (٥) هذه رواية البخاري عن أبي هريرة ولفظه. أما ما أخرجه النسائي فبلفظ آخر عن ابن مسعود. راجع «صحيح البخاري» و«سنن النسائي» في باب الزكاة. (٦) تلمظت الحية: أخرجت لسانها كتلمظ الأكل.

يُطِيقُونَهُ» وليس من التطويق. وقال إبراهيم التَّخَمِي: معنى «سَيَطَوَّقُونَ» سَيُجْعَلُ لَهُمْ يوم القيامة طَوْقٌ من النار. وهذا يجري مع التأويل الأول [أي] <sup>(١)</sup> قول السدي. وقيل: يُلْزَمُونَ أعمالهم كما يلزم الطوق العنق؛ يقال: طَوَّقَ فلان عمله طَوْقَ الحمامة، أي ألْزَمَ عمله. وقد قال تعالى: «وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ» <sup>(٢)</sup>. ومن هذا المعنى قول عبد الله بن جَحْشٍ لأبي سفيان:

أبلغ أبا سفيان عن	أمر عواقبه ندامه
دار <sup>(٣)</sup> ابن عمك بعثها	تقضي بها عنك الغرامة
وحليفكم بالله رب	الناس مجتهد القسامة
أذهب بها أذهب بها	طَوَّقَهَا طَوْقَ الحمامة

وهذا يجري مع التأويل الثاني. والبُخْلُ والبَخْلُ في اللغة أن يَمْنَعَ الإنسان الحقَّ الواجب عليه. فأما من مَنَعَ ما لا يجب عليه فليس ببخيل؛ لأنه لا يُدْمَ بذلك. وأهل الحجاز يقولون: يَبْخُلُونَ وقد بَخُلُوا. وسائر العرب يقولون: بَخِلُوا يَبْخُلُونَ؛ حكاه النحاس. وبَخْلٌ يَبْخُلُ بَخْلًا وبَخَلًا؛ عن ابن فارس.

**الثالثة -** في ثمرة البخل وفائده. وهو ما رُوي أن النبي ﷺ قال للأَنْصَار: «من سيدكم؟» قالوا الجَدُّ بن قيس على بُخْلٍ فيه. فقال ﷺ: «وأيُّ داءٍ أَدْوَى <sup>(٤)</sup> من البخل؟» قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «إن قوماً نزلوا بساحل البحر فكَّرَها لبخلهم نزول الأضياف بهم فقالوا: ليبعد الرجال منا عن النساء حتى يعتذر الرجال إلى الأضياف يبعد النساء؛ وتعتذر النساء يبعد الرجال؛ ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء» ذكره الماوردي في كتاب «أدب الدنيا والدين». والله أعلم.

(١) زيادة يقتضيها المقام.

(٢) راجع ٢٢٩/١٠.

(٣) لما هاجر بنو جحش من مكة إلى المدينة تركوا دورهم حجرة مغلقة، ليس فيها ساكن؛ فباعها أبو سفيان من عمرو بن علقمة. فقال عبد الله لأبي سفيان هذه الأبيات بعد فتح مكة. (راجع سيرة ابن هشام ص ٣٣٩ طبع أوروبا).

(٤) أي أي عيب أفصح منه.



الرابعة - واختلف في البخل والشح؛ هل هما بمعنى واحد أو بمعنىين. فقيل: البخل الامتناع من إخراج ما حصل عندك. والشح: الحرص على تحصيل ما ليس عندك.

وقيل: إن الشح هو البخل مع حرص. وهو الصحيح لما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلماً يوم القيامة وأتقوا الشح فإن الشح أهلكت من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم وأستحلوا محارمهم». وهذا يرد قول من قال: إن البخل منع الواجب، والشح منع المستحب. إذ لو كان الشح منع المستحب لما دخل تحت هذا الوعيد العظيم، والذم الشديد الذي فيه هلاك الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup>. ويؤيد هذا المعنى ما رواه النسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم في منخرن رجل مسلم أبداً ولا يجتمع شح وإيمان في قلب رجل مسلم أبداً». وهذا يدل على أن الشح أشد في الذم من البخل؛ إلا أنه قد جاء ما يدل على مساواتهما وهو قوله - وقد سئل: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «لا» وذكر الماوردي في كتاب «أدب الدنيا والدين» أن النبي ﷺ قال للأَنْصار: «من سيّدكم» قالوا: الجدّ بن قيس على بُخل فيه؛ الحديث. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أخبر تعالى ببقائه ودوام ملكه. وأنه في الأبد كهو في الأزل غني عن العالمين، فيرث الأرض بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم؛ فتبقى الأملاك والأموال لا مُدْعَى فيها. فجرى هذا مجرى الوراثة في عادة الخلق، وليس هذا بميراث في الحقيقة؛ لأن الوارث<sup>(٢)</sup> في الحقيقة هو الذي يرث شيئاً لم يكن ملكه من قبل، والله سبحانه وتعالى مالك السموات والأرض وما بينهما، وكانت السموات وما فيها، والأرض وما فيها له، وأن الأموال كانت عارية عند أربابها؛ فإذا ماتوا رُدَّت العارية إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾<sup>(٣)</sup> الآية. والمعنى في الآيتين أن الله تعالى أمر عباده بأن يُنْفَقُوا ولا يَبْخُلُوا قبل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثاً لله تعالى، ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا.

(١) في ج: هلاك الدنيا والآخرة والدين.

(٢) في الأصول: الميراث. والصواب ما ذكر.

(٣) راجع ١١/١٠٥.

[١٨١] ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا

وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

[١٨٢] ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ذكر تعالى قبيح قول الكفار لا سيما اليهود. وقال أهل التفسير: لما أنزل الله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾<sup>(١)</sup> قال قوم من اليهود - منهم حُيَيُّ بن أخطب؛ في قول الحسن. وقال عكرمة وغيره: هو فنحاص بن عازوراء - إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ يقترض منا. وإنما قالوا هذا تمويهاً على ضعفائهم، لا أنهم يعتقدون هذا؛ لأنهم أهل كتاب. ولكنهم كفروا بهذا القول؛ لأنهم أرادوا تشكيك الضعفاء منهم ومن المؤمنين، وتكذيب النبي ﷺ. أي إنه فقير على قول محمد ﷺ؛ لأنه اقترض منا. ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ سنجازيهم عليه. وقيل: سنكتبه في صحائف أعمالهم، أي نأمر الحفظة بإثبات قولهم حتى يقرءوه يوم القيامة في كتبهم التي يؤتونها؛ حتى يكون أوكد للحجة عليهم. وهذا كقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. وقيل: مقصود الكتابة الحفظ، أي سنحفظ ما قالوا لنجازيهم. «وما» في قوله «ما قالوا» في موضع نصب بـ «سنكتب». وقرأ الأعمش وحمزة «سيكتب» بالياء؛ فيكون «ما» اسم ما لم يُسم فاعله. واعتبر حمزة ذلك بقراءة ابن مسعود: ﴿ويقال ذوقوا عذاب الحريق﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي ونكتب قتلهم الأنبياء، أي رضاءهم بالقتل. والمراد قتل أسلافهم الأنبياء؛ لكن لما رَضُوا بذلك صحت الإضافة إليهم. وحسن رجل عند الشعبي قتل عثمان رضي الله عنه فقال له الشعبي: شَرِكْتَ في دمه. فجعل الرضا بالقتل قتلاً؛ رضي الله عنه.

(١) راجع ٢/٢٣٧.

(٢) راجع ١٢/٣٣٩.

قلت: وهذه مسألة عظيمة، حيث يكون الرضا بالمعصية معصية. وقد روى أبو داود عن العُزْس بن عميرة الكِنْدِيِّ عن النبي ﷺ قال: «إِذَا عَمِلْتَ الْخَطِيئَةَ فِي الْأَرْضِ كَانَ مِنْ شَهِدِهَا فَكْرِهَهَا - وَقَالَ مَرَّةً فَأَنْكَرَهَا - كَمَنْ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا». وهذا نص. قوله تعالى: ﴿يَغْنِرُ حَقٌّ﴾ تقدم معناه في البقرة<sup>(١)</sup>. «وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» أي يقال لهم في جهنم، أو عند الموت، أو عند الحساب هذا. ثم هذا القول من الله تعالى، أو من الملائكة؛ قولان. وقراءة ابن مسعود «ويقال». والحريق اسم للملتهبة من النار، والنار تشمل الملتهبة وغير الملتهبة. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي ذلك العذاب بما سلف من الذنوب. وخص الأيدي بالذكر ليدل على تولي الفعل ومباشرته؛ إذ قد يضاف الفعل إلى الإنسان بمعنى أنه أمر به؛ كقوله: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> وأصل «أَيْدِيَكُمْ» أَيْدِيَكُمْ فحذفت الضمة لثقلها. والله أعلم.

[١٨٣] ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

[١٨٤] ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض بدلاً من «الَّذِينَ» في قوله عز وجل ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ أو نعت «للعبيد» أو خبر ابتداء، أي هم الذين قالوا. وقال الكلبي وغيره. نزلت في كعب بن الأشرف، ومالك بن الصنّيف، ووهب بن يهودا، وفنحاص بن عازورا وجماعة أتوا النبي ﷺ؛ فقالوا له: أتزعم أن الله أرسلك إلينا، وأنه أنزل علينا كتاباً عهد إلينا فيه ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدقناك. فأنزل الله هذه الآية. فقيل: كان هذا في التوراة، ولكن كان تمام الكلام. حتى يأتاكم المسيح ومحمد فإذا أتياكم فآمنوا بهما من غير قربان.

وقيل: كان أمر القرابين ثابتاً إلى أن نسخت على لسان عيسى ابن مريم. وكان النبي منهم يذبح ويدعو فتنزّل نار بيضاء لها دويّ وحفيف لا دخان لها، فتأكل القربان. فكان هذا القول دغوى من اليهود؛ إذ كان ثمّ استثناء فأخفوه، أو نسخ، فكانوا في تمسكهم بذلك متعتين، ومعجزات النبي ﷺ دليل قاطع في إبطال دعواهم، وكذلك معجزات عيسى؛ ومن وجب صدقه وجب تصديقه. ثم قال تعالى: إقامة للحجة عليهم: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ من القران ﴿قَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني زكريا ويحيى وشعيا، وسائر من قُتلوا من الأنبياء عليهم السلام ولم تؤمنوا بهم. أراد بذلك أسلافهم. وهذه الآية هي التي تلاها عامر الشعبي رضي الله عنه، فأحتج بها على الذي حسن قتل عثمان رضي الله عنه كما بيّناه. وأن الله تعالى سمى اليهود قتلّة لرضاهم بفعل أسلافهم، وإن كان بينهم نحو من سبعمائة سنة. والقربان ما يتّقى به إلى الله تعالى من نُسك<sup>(١)</sup> وصدقة وعمل صالح؛ وهو فعلان من القرية. ويكون اسماً ومصدراً؛ فمثال الاسم السلطان والبُرْهان. والمصدر العُدوان والخُسران. وكان عيسى بن عمر يقرأ «بِقُرْبَانٍ» بضم الراء أتباعاً لضمة القاف؛ كما قيل في جمع ظلمة: ظُلُمات، وفي حجرة حُجرات. ثم قال تعالى معزياً لنبيه ومؤنساً له: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالدلالات. «وَالزُّبُرِ» أي الكتب المزبورة، يعني المكتوبة. «وَالزُّبُرِ جمع زَبُور وهو الكتاب. وأصله من زَبَرَت أي كتبت. وكل زبور فهو كتاب؛ قال امرؤ القيس:

لِمَنْ طَلَّلَ أَبْصَرُهُ فَشَجَانِي كَخَطِ زَبُورٍ فِي عَسِيْبٍ<sup>(٢)</sup> يَمَانِي

وأنا أعرف تَزَبَّرَتِي أي كتابتي. وقيل: الزُّبُور من الزُّبُر بمعنى الرُّجُر. وَزَبَرَت الرجل أنتهرته. وَزَبَرَت البئر: طويتها بالحجارة. وقرأ ابن عامر «بِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ» بزيادة باء في الكلمتين<sup>(٣)</sup>. وكذلك هو في مصاحف أهل الشام. «وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ» أي الواضح المضيء؛ من قولك: أُنْزِلَ الشَّيْءُ أَنْيرَه، أي أوضحته: يقال: نار الشَّيْءِ وَأَنَارَه ونَوْرَه وأَسْتَنَارَه بمعنى،

(١) في هـ وط: نسيكة. (٢) العسيب: سيف النخل الذي جرد عنه خوصه، وهي الجزيرة.

(٣) في ط وب: في الحرفين.

وكل واحد منهما لازم ومتعدّد. وجَمَعَ بين الزبر والكتاب - وهما بمعنى - لاختلاف لفظهما، وأصلها كما ذكرنا.

[١٨٥] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أجُورَكُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الضُّلُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

فيه سبع <sup>(١)</sup> مسائل:

الأولى - لما أخبر جلّ وتعالى عن الباخلين وكُفّرهم في قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَكِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وأمر المؤمنين بالصبر على أذاهم في قوله ﴿لَتُبْلَوْنَ﴾ الآية - بين أن ذلك مما ينقضي ولا يدوم؛ فإن أمد الدنيا قريب، ويوم القيامة يوم الجزاء. ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ من الذوق، وهذا مما لا مَحِيص عنه للإنسان، ولا مَحِيد عنه لحيوان. وقد قال أمية بن أبي الصلت:

من لم يمت عِبْطَةً <sup>(٢)</sup> يَمُتْ هَرَمًا لِلْمَوْتِ كَأْسٌ وَالْمَرءُ ذَائِقُهَا  
وقال آخر:

الموتُ بابٌ وكلُّ الناس داخلُه فليت شِعْري بعد البابِ ما الدَّارُ

الثانية - قراءة العامة ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ بالإضافة. وقرأ الأعمش ويحيى وابن أبي إسحاق «ذائقة الموت» بالتنوين ونصب الموت. قالوا: لأنها لم تُذَقْ بعدُ. وذلك أن اسم الفاعل على ضربين: أحدهما أن يكون بمعنى المُضَيِّ. والثاني بمعنى الاستقبال؛ فإن أردت الأول لم يكن فيه إلا الإضافة إلى ما بعده؛ كقولك: هذا ضارب زيد أمس، وقاتل بكر أمس؛ لأنه يُجرى مجرى الاسم الجامد وهو العلم، نحو غلام زيد، وصاحب بكر. قال الشاعر:

الحافظُ عَوْرَةُ العَشِيرَةِ لَا يَأْتِيهِمْ مِنْ وَرَائِهِمْ وَكَفَّ <sup>(٣)</sup>

(١) كذا في الأصول والتقسيم ثمانية إلا جـ فسبعة وعليها الاعتماد.

(٢) مات عبطة: أي شاباً صحيحاً.

(٣) الكوف: العيب: والبيت لعمر بن أمية القيس، ويقال لقيس بن الخطيم. (عن اللسان).

وإن أردت الثاني جاز الجز، والنصب والتنوين فيما هذا سبيله هو الأصل؛ لأنه يجري مجرى الفعل المضارع. فإن كان الفعل غير متعد، لم يتعد نحو قائمٌ زيدٌ. وإن كان متعداً عدّيته ونصبته به، فتقول: زيدٌ ضاربٌ عمروا بمعنى يضرب عمروا. ويجوز حذف التنوين والإضافة تخفيفاً، كما قال المَرَّار:

سَلَّ الهمومَ بكلِّ مُعْطِي رَأْسِهِ      نَاجٍ مُخَالِطٍ صُهْبَةً مُتَعَيِّسٍ<sup>(١)</sup>

مُغْتَالٍ أَخْبِلُهُ مُبِينٍ عُنُقَهُ      فِي مَنْكَبٍ زَيْنَ المِطِيِّ عَرْنَدَسٍ<sup>(٢)</sup>

[فحذف التنوين تخفيفاً، والأصل: معطٍ رأسه بالتنوين والنصب، ومثل هذا أيضاً في التنزيل قوله تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ صُرُوه﴾ وما كان مثله<sup>(٣)</sup>.

الثالثة - ثم أعلم أن للموت أسباباً وأماراتٍ؛ فمن علامات موت المؤمن عَرَقُ الجبين. أخرجه النَّسَائِيُّ من حديث بُرَيْدَةَ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المؤمن يموت بعَرَقِ الجبين». وقد بيّناه في «التذكرة» فإذا احْتَضَرَ لُقِنَ الشهادة؛ لقوله عليه السلام: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» لتكون آخر كلامه فيُخْتَمَ له بالشهادة؛ ولا يعاد عليه منها ثلثا يَضَجُّر. ويستحب قراءة «يس» ذلك الوقت؛ لقوله عليه السلام: «أَقْرءُوا يس على مَوْتَاكُمْ» أخرجه أبو داود. وذكر الآجُرِّي في كتاب النصيحة من حديث أم الدرداء عن النبي ﷺ قال: «ما من ميت يُقرأ عنده سورة يس إلا هُوَنَ عليه الموت». فإذا قُضِيَ وَتَعَ البصرُ الروح - كما أخبر ﷺ في صحيح مسلم - وارتفعت العبادات: وزال التكليف، توجَّهت على الأحياء أحكام؛ منها تغميضه، وإعلامُ إخوانه الصُّلَحَاء بموته؛ وكرهه قوم وقالوا: هو من النعي. والأولُ أصح، وقد بيّناه في غير هذا الموضع. ومنها الأخذ في تجهيزه بالغسل والدفن لثلاث يسرَع إليه التغيُّر؛ قال ﷺ لقوم أُخْرُوا دفن ميتهم: «عَجِّلُوا بَدْفَن جِيفَتِكُمْ»؛ وقال: «أسرِعُوا بالجنَازة» الحديث، وسيأتي.

(١) قوله معطى رأسه، أي ذلول. وناج: سريع. والصهبة: أن يضرب بياضه إلى الحمرة. والمتعيس والأعيس: الأبيض، وهو أفضل ألوان الإبل. والمعنى: سل همومك اللازمة لفراق من تهوى ونأيه عنك بكل بعير ترتحله للسفر.

(٢) وصف بعيراً بعظم الجوف؛ فإذا شد رحله عليه اغتال أجله (جمع جبل) واستوفاهما لعظم جوفه. والاغتيال: الذهاب بالشيء. والمبين: البين الطويل. وزين: زاحم ودفع. والعرنَدَس: الشديد. ويروى: متين عنقه. عن «شرح الشواهد للشتمري». (٣) الزيادة من جـ وط ود وهـ.

**الثالثة -** فأما غسله فهو سُنَّة لجميع المسلمين حاشا الشَّهيدَ على ما تقدم. وقيل: غسله واجب. قاله القاضي عبد الوهاب. والأوَّل: مذهب الكتاب<sup>(١)</sup>، وعلى هذين القولين العلماء. وسبب الخلاف قوله عليه السلام لأُم عطية في غسلها ابنته زينب، على ما في كتاب مسلم. وقيل: هي أم كلثوم، على ما في كتاب أبي داود: «أَغْسِلْنَهَا ثَلَاثًا أَوْ خَمْسًا أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ رَأَيْتَ ذَلِكَ» الحديث. وهو الأصل عند العلماء في غسل الموتى. فقيل: المراد بهذا الأمر بيانُ حكم الغسل فيكون واجباً. وقيل: المقصود منه تعليم كيفية الغسل فلا يكون فيه ما يدل على الوجوب. قالوا ويدلّ عليه قوله: «إِنْ رَأَيْتَ ذَلِكَ» وهذا يقتضي إخراج ظاهر الأمر عن الوجوب؛ لأنه فوّضه إلى نظرهن. قيل لهم: هذا فيه بُعْدٌ؛ لأن رَدَّكَ «إِنْ رَأَيْتَ» إلى الأمر، ليس السابق إلى الفهم بل السابق رجوع هذا الشرط إلى أقرب مذكور، وهو «أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ» أو إلى التخيير في الأعداد. وعلى الجملة فلا خلاف في أن غسل الميت مشروع معمول به في الشريعة لا يُترك. وصفته كصفة غسل الجنابة على ما هو معروف. ولا يجاوز السبع غسلات في غُسل الميت بإجماع؛ على ما حكاه أبو عمر. فإن خرج منه شيء بعد السبع غسل الموضع وحده، وحكمه حكم الجُنُب إذا أحدث بعد غسله. فإذا فرغ من غسله كَفَّه في ثيابه وهي:

**الرابعة -** والتكفين واجب عند عامة العلماء، فإن كان له مال فمن رأس ماله عند عامة العلماء، إلا ما حكى عن طاوس أنه قال: من الثلث كان المال قليلاً أو كثيراً. فإن كان الميت ممن تلزم غيره نفقته في حياته من سيّد - إن كان عبداً - أو أب أو زوج أو ابن؛ فعلى السيد باتفاق، وعلى الزوج والأب والابن باختلاف. ثم على بيت المال أو على جماعة المسلمين على الكفاية. والذي يتعيّن منه بتعيين الفرض سَتْرُ العورة؛ فإن كان فيه فضل غير أنه لا يعم جميع الجسد غُطي رأسه ووجهه؛ إكراماً لوجهه وستراً لما يظهر من تغيير محاسنه. والأصل في هذا قصّة مُصعب بن عُمير، فإنه ترك يوم أحد نَمرة<sup>(٢)</sup> كان

(١) كذا في كل الأصول.

(٢) النمرة (بفتح فكسر): شملة فيها خطوط بيض وسود، أو بردة من صوف تلبسها الأعراب.

إِذَا غُطِّيَ رَأْسُهُ خَرَجَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا غُطِّيَ رِجْلَاهُ خَرَجَ رَأْسُهُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضَعُوهَا مِمَّا يَلِي رَأْسَهُ وَأَجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ مِنَ الْإِذْخَرِ»<sup>(١)</sup> أَخْرَجَ الْحَدِيثُ مُسْلِمًا. وَالْوَتَرُ مُسْتَحَبٌّ عِنْدَ كَافَةِ الْعُلَمَاءِ فِي الْكَفَنِ، وَكُلُّهُمْ مُجْمَعُونَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَدٌّ. وَالْمُسْتَحَبُّ مِنْهُ الْبَيَاضُ؛ قَالَ ﷺ: «الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ وَكَفَّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ. وَكَفَّنَ ﷺ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ بَيِضَ سَحُولِيَّةٍ مِنْ كُرْسُفٍ<sup>(٢)</sup>. وَالْكَفَنُ فِي غَيْرِ الْبَيَاضِ جَائِزٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَرِيرًا أَوْ خَرًّا. فَإِنْ تَشَاخَ الْوَرْتَةُ فِي الْكَفَنِ قُضِيَ عَلَيْهِمْ فِي مِثْلِ لِبَاسِهِ فِي جُمُعَتِهِ وَأَعْيَادِهِ؛ قَالَ ﷺ: «إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُحَسِّنْ كَفَنَهُ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ. إِلَّا أَنْ يُوصِيَ بِأَقْلَ مِنْ ذَلِكَ. فَإِنْ أَوْصَى بِسَرَفٍ قِيلَ: يَبْطُلُ الزَّائِدُ. وَقِيلَ: يَكُونُ فِي الثَّلَاثِ. وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّهُ لِلْمَهْلَةِ<sup>(٤)</sup>. فَإِذَا فَرِغَ مِنْ غَسْلِهِ وَتَكْفِينِهِ وَوُضِعَ عَلَى سَرِيرِهِ وَأَحْتَمَلَهُ الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ وَهِيَ:

**الخامسة -** فالحكم الإسراع في المشي؛ لقوله عليه السلام: «أسرعوا بالجنائز» فَإِنْ تَكَ صَالِحَةٌ فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا إِلَيْهِ وَإِنْ تَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ فَسَرِّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ. لَا كَمَا يَفْعَلُهُ الْيَوْمَ الْجَهَّالُ فِي الْمَشْيِ رُويْدًا، وَالْوَقُوفُ بِهَا الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالْأَلْحَانِ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ وَلَا يَجُوزُ حَسَبَ مَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ بِمَوْتَاهُمْ. رَوَى النَّسَائِيُّ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قَالَ حَدَّثَنَا خَالِدٌ قَالَ أَنْبَأَنَا عُيَيْنَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: شَهِدْتُ جَنَازَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ وَخَرَجَ زِيَادٌ يَمْشِي بَيْنَ يَدَيِ السَّرِيرِ، فَجَعَلَ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَمَوَالِيهِمْ يَسْتَقْبِلُونَ السَّرِيرَ وَيَمْشُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَيَقُولُونَ: رُويْدًا رُويْدًا، بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ! فَكَانُوا يَدْبُونَ دَبِييًّا، حَتَّى إِذَا كُنَّا بَعْضَ طَرِيقِ التَّوْبِيدِ<sup>(٥)</sup> لَحَقْنَا أَبُو بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى بَغْلَةٍ فَلَمَّا

(١) الإذخر (بكسر الهمزة): حشيشة طيبة الرائحة، يسقف بها البيوت فوق الخشب.

(٢) قوله: سحولية، يروى بفتح السين وضمها؛ فالفتح منسوب إلى السحول، وهو القصار لأنه يسلمها أي يفسلها، أو إلى سحول وهي قرية باليمن. وأما الضم فهو جمع سحل، وهو الثوب الأبيض النقي: ولا يكون إلا من قطن. والكرسف كعصفر: القطن.

(٣) راجع ١١٠/٧. (٤) المهلة (مثلثة الميم): القيق والصديد الذي يذوب فيسيل من الجسد.

(٥) المرید كمعبر: موضع قرب المدينة.



رأى الذين يصنعون حمل عليهم ببغلتته وأهوى إليهم بالسَّوط فقال: خلوا! فوالذي أكرم وجه أبي القاسم ﷺ لقد رأيته مع رسول الله ﷺ وإنها لنكاد نرمُل بها رَمَلاً، فانبسط القوم. وروى أبو ماجدة عن ابن مسعود قال سألنا نبينا ﷺ عن المشي مع الجنازة فقال: «دون الخَبَب إن يكن خيراً يعجل إليه وإن يكن غير ذلك فبعداً لأهل النار» الحديث. قال أبو عمر: والذي عليه جماعة العلماء في ذلك الإسراع فوق السجّة قليلاً، والعجلة أحب إليهم من الإبطاء. ويكره الإسراع الذي يشقّ على ضَعْفَة الناس ممن يتبعها. وقال إبراهيم النَّخَعِي: بَطَّثُوا بِهَا قَلِيلاً وَلَا تَدْبُثُوا دَيْبِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. وقد تأوّل قوم الإسراع في حديث أبي هريرة تعجيل الدفن لا المشي، وليس بشيء لما ذكرنا. وبالله التوفيق.

السادسة - وأما الصلاة عليه فهي واجبة على الكفاية كالجهاد. هذا هو المشهور من مذاهب العلماء: مالك وغيره؛ لقوله ﷺ في النجاشي: «قوموا فصلّوا عليه». وقال أصبغ: إنها سنّة. وروي عن مالك. وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان في «براءة»<sup>(١)</sup>.

السابعة - وأما دفنه في التراب ودسه وسّره فذلك واجب؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوَاءَ أَخِيهِ﴾<sup>(٢)</sup>. وهناك يذكر حكم بنيان القبر وما يستحب منه، وكيفية جعل الميت فيه. ويأتي في «الكهف» حكم بناء المسجد<sup>(٣)</sup> عليه، إن شاء الله تعالى.

فهذه جملة من أحكام الموتى وما يجب لهم على الأحياء. وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «لَا تَسْبُوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا» أخرجه مسلم. وفي سنن النسائي عنها أيضاً قالت: دُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ هَالِكٌ بِسُوءٍ فَقَالَ: «لَا تَذْكُرُوا هَلَكَاكُم إِلَّا بِخَيْرٍ».

(١) راجع ٢١٨/٨.

(٢) راجع ١٤١/٦.

(٣) راجع ٣٧٨/١٠.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّمَا تُوقَنُ أُجُورُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فَأَجْرُ الْمُؤْمِنِ ثَوَابٌ، وَأَجْرُ الْكَافِرِ عِقَابٌ، وَلَمْ يَعْتَدَ بِالنَّعْمَةِ وَالْبَلِيَّةِ فِي الدُّنْيَا أَجْراً وَجْزاً؛ لَأَنَّهَا عَرِصَةُ الْفَنَاءِ. ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ﴾ أَي أَبْعَدَ. ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظَفِرَ بِمَا يَرْجُو، وَنَجَا مِمَّا يَخَافُ. وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ الْكَعْبِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُزْحَرَ عَنِ النَّارِ وَأَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلَتَاتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ». عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَوْضِعُ سَوَاطِئِ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَقْرَبُ إِنْ شِئْتُمْ» ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أَي تَغَرُّ الْمُؤْمِنَ وَتَخْدَعُهُ فَيُظَنُّ طَوِيلَ الْبَقَاءِ وَهِيَ فَانِيَةٌ. وَالْمَتَاعُ مَا يُتَمَتَّعُ بِهِ وَيَنْتَفَعُ؛ كَالْفَأْسِ وَالْقِدْرِ وَالْقَصْعَةِ ثُمَّ يَزُولُ وَلَا يَبْقَى مَلَكُهُ؛ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفْسِّرِينَ. قَالَ الْحَسَنُ: كَحُضْرَةِ النَّبَاتِ، وَلَعِبِ الْبَنَاتِ لَا حَاصِلَ لَهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ مَتَاعٌ مَتْرُوكٌ تَوْشِكُ أَنْ تَضْمَحِلَّ بِأَهْلِهَا؛ فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ هَذَا الْمَتَاعِ بِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مَا اسْتَطَاعَ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ مِنْ قَالَ:

هي الدار دارُ الأذى والقذى	ودارُ الفناء ودارُ الغِيَرِ <sup>(١)</sup>
فلو نلتها بحذافيرها	لُمتُ ولم تُقْضَ منها الوَطَرُ
أيا مَنْ يؤمِّلُ طولَ الخلود	وطولُ الخلود عليه ضَرَرُ
إذا أنت شئت وبيان الشباب	فلا خير في العيش بعد الكِبَرِ

وَالْغُرُورُ (بِفَتْحِ الْغَيْنِ) الشَّيْطَانُ؛ يَغُرُّ النَّاسَ بِالتَّمْنِيَةِ وَالْمَوَاعِيدِ الْكَاذِبَةِ. قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: الْغُرُورُ مَا رَأَيْتَ لَهُ ظَاهِراً تَحِبُّهُ، وَفِيهِ بَاطِنٌ مَكْرُوهٌ أَوْ مَجْهُولٌ. وَالشَّيْطَانُ غُرُورٌ؛ لِأَنَّهُ يَحْمِلُ عَلَى مُحَابَبِ النَّفْسِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ مَا يَسُوءُ. قَالَ: وَمِنْ هَذَا بَيْعُ الْغَرَرِ، وَهُوَ مَا كَانَ لَهُ ظَاهَرٌ يَبِيعُ يَغُرُّ وَبَاطِنٌ مَجْهُولٌ.

(١) في ج: العبر.

[۱۸۶] ﴿لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا  
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَلَئِنْ تَصْبِرُوا  
وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ .

هذا الخطاب للنبي ﷺ وأمه والمعنى : لتختبرن ولتمتحنن في أموالكم  
بالمصائب والأرزاء بالإتفاق في سبيل الله وسائر تكاليف الشرع . والابتلاء في  
الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب . وبدأ بذكر الأموال لكثرة المصائب بها .  
﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ إن قيل : لم ثبتت الواو في «لتبلون» وحذفت من ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ ؛  
فالجواب أن الواو في ﴿لتبلون﴾ قبلها فتحة فحركات لالتقاء الساكنين ، وخُصّت  
بالضمة لأنها واو الجمع ، ولم يجر حذفها لأنها ليس قبلها ما يدل عليها ، وحذفت من  
«ولتسمعن» لأن قبلها ما يدل عليها . ولا يجوز همز الواو في «لتبلون» لأن حركتها  
عارضة ؛ قاله النحاس وغيره . ويقال للواحد من المذكور : لَتَبْلِيَنَّ يا رجل . وللإثنين :  
لتبليان يا رجلان . ولجماعة الرجال : لتبلون . ونزلت بسبب أن أبا بكر رضي الله عنه  
سمع يهودياً يقول : إن الله فقير ونحن أغنياء . ردأ على القرآن واستخفافاً به حين  
أنزل الله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ فلطمه ؛ فشكاه إلى النبي ﷺ  
فنزلت . قيل : إن قائلها فنحاص اليهودي ؛ عن عكرمة . الزهري : هو كعب بن  
الأشرف نزلت بسببه ؛ وكان شاعراً ، وكان يهجو النبي ﷺ وأصحابه ، ويؤلّب عليه  
كفار قريش ، ويشتبب بنساء المسلمين حتى بعث [إليه]<sup>(۱)</sup> رسول الله ﷺ محمد بن  
مسلمة وأصحابه فقتله القتيلة المشهورة<sup>(۲)</sup> في السير وصحيح الخبر . وقيل غير هذا .  
وكان ﷺ لما قدم المدينة كان بها اليهود والمشركون ، فكان هو وأصحابه يسمعون  
أذى كثيراً . وفي الصحيحين أنه عليه السلام مرّ بأبن أبي وهو عليه السلام على حمار  
فدعاه إلى الله تعالى فقال ابن أبي : إن كان ما تقول حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا ! ارجع  
إلى رحلك ، فمن جاءك فأقصص عليه . وقبض على أنفه لئلا يصيبه غبار الحمار ، فقال

(۱) في جـ وهـ وزـ .

(۲) راجع سيرة ابن هشام ص ۵۴۸ طبع اوروبا .

ابن رَوَاحَة: نعم يا رسول الله، فَأَغَشْنَا فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَّا نَحِبُ ذَلِكَ. وَأَسْتَبِ الْمَشْرُكُونَ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَ ابْنِ أَبِيٍ وَالْمُسْلِمُونَ، وَمَا زَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْكَنُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا. ثُمَّ دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ يَعُودُهُ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقَالَ: «أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ فُلَانٌ» فَقَالَ سَعْدٌ: اعْفُ عَنْهُ وَأَصْفَحْ، فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي نَزَلَ، وَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ<sup>(١)</sup> عَلَى أَنْ يَتَوَجَّهَ وَيَعْصِبُوهُ بِالْعَصَابَةِ؛ فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَهُ شَرِّقَ بِهِ، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ. فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. قِيلَ: هَذَا كَانَ قَبْلَ نَزُولِ الْقِتَالِ، وَنَذَّبَ اللَّهُ عِبَادَهُ إِلَى الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مِنْ عِزِّ الْأُمُورِ. وَكَذَا فِي الْبَخَارِيِّ فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ، أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ نَزُولِ الْقِتَالِ. وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَنْسُوخٍ؛ فَإِنَّ الْجِدَالَ بِالْأَحْسَنِ وَالْمُدَارَاةَ أَبَدًا مَدُوبٌ إِلَيْهَا، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ يُوَادِعُ الْيَهُودَ وَيُذَارِيهِمْ، وَيَصْفَحُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، وَهَذَا بَيِّنٌ. وَمَعْنَى «عِزِّ الْأُمُورِ» شِدَّاهَا وَصَلَابَتُهَا<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ تَقَدَّمَ<sup>(٣)</sup>.

[١٨٧] ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُذِئُوا مَاسِيْرُونَ﴾ (١٨٧).

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هذا متصل بذكر اليهود؛ فإنهم أمروا بالإيمان بمحمد عليه السلام وبيان أمره، فكتبوا نعتة<sup>(٤)</sup>. فالآية توبيخ لهم، ثم مع ذلك هو خبر عام لهم ولغيرهم. قال الحسن وقتادة: هي في كل من أوتي علم شيء من الكتاب. فمن علم شيئاً فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة. وقال محمد بن كعب: لا يحل لعالم أن يسكت على علمه، ولا للجاهل أن يسكت على جهله؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ

(١) يريد المدينة.

(٢) في جـ وهـ وزـ ويـ: شداهـ وصلابها. من السداد.

(٣) راجع ١١٠/٣.

(٤) في جـ: أمره. وفي زـ: بعثه.

اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴿الآية﴾. وقال: ﴿فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>. وقال أبو هريرة: لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء؛ ثم تلا هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. وقال الحسن بن عمار: آتيت الزُّهري بعد ما ترك الحديث، فألفيته على بابه فقلت: إن رأيت أن تحدثني. فقال: أما علمت أني تركت الحديث؟ فقلت: إنا أن تحدثني وإنا أن أحدثك. قال حدثني. قلت: حدثني الحكم بن عتيبة عن يحيى بن الجزار قال سمعت علي بن أبي طالب يقول: ما أخذ الله على الجاهلين أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا. قال: فحدثني أربعين حديثاً.

الثانية - الهاء في قوله: ﴿لَتَبَيَّنَهُ لِلنَّاسِ﴾ ترجع إلى محمد ﷺ وإن لم يجز له ذكر. وقيل: ترجع إلى الكتاب؛ ويدخل فيه بيان أمر النبي ﷺ؛ لأنه في الكتاب. وقال: ﴿وَلَا تَكْفُرُونَهُ﴾ ولم يقل تكفُّمُهُ لأنه في معنى الحال، أي لتبينه غير كاتمين. وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وأهل مكة ﴿لَتَبَيَّنَهُ﴾ بالتاء على حكاية الخطاب. والباقون بالياء لأنهم<sup>(٢)</sup> غُيِبَ. وقرأ ابن عباس<sup>(٣)</sup> ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَتَبَيَّنَهُ﴾. فيجيء قوله ﴿فَتَبَدُّوهُ﴾ عائداً على الناس الذين بين لهم الأنبياء. وفي قراءة ابن مسعود ﴿لَتَبَيَّنُونَهُ﴾ دون النون الثقيلة. والتَّبَدُّ الطَّرَح. وقد تقدّم بيانه في «البقرة»<sup>(٤)</sup>. ﴿وَرَأَى ظُهُورَهُمْ﴾ مبالغة في الاطراح؛ ومنه ﴿وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ وقد تقدّم في «البقرة»<sup>(٤)</sup> بيانه أيضاً. وتقدّم معنى قوله: ﴿وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ في «البقرة»<sup>(٥)</sup> فلا معنى لإعادته. ﴿فَيَسْئَلْ مَا يَشْتَرُونَ﴾ تقدّم أيضاً<sup>(٦)</sup>. والحمد لله.

[١٨٨] ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَاوَا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١) راجع ١٠٨/١٠ و ٢٧٢/١١.

(٢) كذا في جود وهزوب، وفي أوح: لأنه غيب.

(٣) الذي في الطبري أنها قراءة عبد الله؛ وسيأتي.

(٤) راجع ٤٠/٢. (٥) راجع ٣٣٤/١. (٦) راجع ٢٧/٢.

أي بما فعلوا من القعود في التخلف عن الغزو وجاءوا به من العذر. ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزو وتخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم النبي ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا؛ فنزلت ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية. وفي الصحيحين أيضاً أن مزوان<sup>(١)</sup> قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له : لئن كان كل أمرئ منا فرح بما أوتي وأحب أن يُحمد بما لم يفعل معذباً لنعذب أجمعون. فقال ابن عباس : مالكم ولهذه الآية ! إنما أنزلت هذه الآية في أهل الكتاب. ثم تلا ابن عباس ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُ مَنَةً﴾ و ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾. وقال ابن عباس : سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ؛ فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ، وما سألهم عنه . وقال محمد بن كعب القرظي : نزلت في علماء بني إسرائيل الذين كتموا الحق ، وأتوا ملوكهم من العلم ما يوافقهم في باطلهم ، ﴿وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي بما أعطاهم الملوك من الدنيا؛ فقال الله لنبيه ﷺ : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فأخبر أن لهم عذاباً أليماً بما أفسدوا من الدين على عباد الله. وقال الضحاك : إن اليهود كانوا يقولون للملوك إنا نجد في كتابنا أن الله يبعث نبياً في آخر الزمان يختم به النبوة؛ فلما بعثه الله سألهم الملوك أهو هذا الذي تجدونه في كتابكم؟ فقال اليهود طمعاً في أموال الملوك : هو غير هذا، فأعطاهم الملوك الخزائن ؛ فقال الله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ الملوك من الكذب حتى يأخذوا عرض الدنيا. والحديث الأول خلاف مقتضى الحديث الثاني. ويحتمل أن يكون نزولها على السببين

(١) هو مروان بن الحكم بن العاصي، وكان يومئذ أميراً على المدينة من قبل معاوية. (عن شرح القسطلاني).

لاجتماعهما في زمن واحد، فكانت جواباً للفريقين. والله أعلم. وقوله: واستحمدوا بذلك إليه، أي طلبوا أن يحمدوا. وقول مزوان: لئن كان كل أمرئ منا الخ دليل على أن للعموم صيغاً مخصوصة، وأن «الذين» منها. وهذا مقطوع به من تفهم ذلك من القرآن والسنة. وقوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ إذا كانت الآية في أهل الكتاب لا في المنافقين المتخلفين؛ لأنهم كانوا يقولون: نحن على دين إبراهيم ولم يكونوا على دينه، وكانوا يقولون: نحن أهل الصلاة والصوم والكتاب؛ يريدون أن يُحْمَدُوا بذلك. و«الذين» فاعل يَحْسِبْنَ بالياء. وهي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو؛ أي لا يحسبن الفارحون فرحهم مُنجياً لهم من العذاب. وقيل: المفعول الأول محذوف، وهو أنفسهم. والثاني «بمفازة». وقرأ الكوفيون «تحسبن» بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ؛ أي لا تحسبن يا محمد الفارحين بمفازة من العذاب. وقوله ﴿فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ﴾ بالتاء وفتح الباء، إعادة تأكيد، ومفعول الأول الهاء والميم، والمفعول الثاني محذوف؛ أي كذلك، والفاء عاطفة أو زائدة على بدل الفعل الثاني من الأول. وقرأ الضحّاك وعيسى بن عمر بالتاء وضم الباء «فلا تَحْسِبْنَهُمْ» أراد محمداً ﷺ وأصحابه. وقرأ مجاهد وابن كثير وأبو عمرو ويحيى بن يعمر بالياء وضم الباء خبراً عن الفارحين؛ أي فلا يحسبن أنفسهم؛ «بِمَفَازَةِ» المفعول الثاني. ويكون «فلا يحسبنهم» تأكيداً. وقيل: «الذين» فاعل «يحبسبن» ومفعولها محذوفان لدلالة «يحسبنهم» عليه؛ كما قال الشاعر:

بأيّ كتاب أم بأية آية<sup>(١)</sup> ترى حبهم عاراً عليّ وتحسب

أستغنى بذكر مفعول الواحد عن ذكر مفعول الثاني، و«بمفازة» الثاني، وهو بدل من الفعل الأول فأغنى لإبداله منه عن ذكر مفعوليه، والفاء زائدة. وقيل: قد تجيء هذه الأفعال ملغاة لا في حكم الجمل المفيدة نحو قول الشاعر:

وما خلّت أبقي بيننا من مودة عراض المذاكي المُسْنِفَاتِ القلائصا

(١) في ط وز: سنة. وهي الرواية المشهورة.

الْمَذَاكِي: الخيل التي قد أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان؛ الواحد مُذَكٌّ، مثل الْمُخْلِف من الإبل؛ وفي المثل جَزِي المَذَكَّاتِ غِلَاب<sup>(١)</sup>، والمسندات اسم مفعول؛ يقال: سَنَفَتِ البعيرَ أَسْنَفُهُ سَنَفًا إذا كَفَفَتْه بزمامه وأنت راكمه، وأسْنَفَ البعيرَ لغة في سنْفه، وأسْنَفَ البعيرَ بنفسه إذا رفع رأسه؛ يتعدى ولا يتعدى. وكانت العرب تركب الإبل وتَجُنَّب الخيل؛ تقول: الحرب لا تُبْقِي مَوَدَّة. وقال كعب<sup>(٢)</sup> بن أبي سُلَمَى:

أرجو وأمل أن تَدُنُو مَوَدَّتْهَا وما إخال لَدَيْنَا منك تَنْوِيلُ

وقرأ جمهور القراء السبعة وغيرهم «أتوا» بقصر الألف، أي بما جاءوا به من الكذب والكتمان. وقرأ مَزْوان بن الْحَكَم والأعمش وإبراهيم النخعي «أتوا» بالمد، بمعنى أَعْطَوْا: وقرأ سعيد بن جبير «أوتوا» على ما لم يسم فاعله؛ أي أعطوا. والمفازة المنجاة، مفعلة من فاز يفوز إذا نجا؛ أي ليسوا بفائزين. وسُمِّي موضع المخاوف مفازة على جهة التفاضل؛ قاله الأصمعي. وقيل: لأنها موضع تفويض ومِطَّة هلاك؛ تقول العرب: فَوَّزَ الرجل إذا مات. قال ثعلب: حكيت لابن الأعرابي قول الأصمعي فقال أخطأ، قال لي أبو المكارم: إنما سُمِّيت مفازة؛ لأن من قطعها فاز. وقال الأصمعي: سُمِّي اللدِّيغ سليماً تفاؤلاً. قال ابن الأعرابي: لأنه مُسْتَسْلِم لما أصابه. وقيل: لا تحسبهم بمكان بعيد من العذاب؛ لأن الفوز التباعذ عن المكروه. والله أعلم.

[١٨٩] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذا احتجاج على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، وتكذيب لهم. وقيل: المعنى لا تظنن الفرحين ينجون من العذاب؛ فإن لله كل شيء، وهم في قبضة القدير؛ فيكون معطوفاً على الكلام الأول، أي إنهم لا ينجون من عذابه، يأخذهم متى شاء. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي مُمَكِّن ﴿قَدِيرٌ﴾ وقد مضى في «البقرة»<sup>(٣)</sup>.

(١) الغلاب: المغالبة. أي أن المذكي يغالب مجاريه فيغلبه لقوته.

(٢) كذا في الأصول. وهو اختصار من كعب بن زهير النخ.

(٣) راجع ١/٢٢٤.



[١٩٠] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

[١٩١] ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

[١٩٢] ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

[١٩٣] ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

[١٩٤] ﴿رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾.

[١٩٥] ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذْخَلُهُمْ جَهَنَّمَ بَلْ يَجْرُونَ فِي جَنَّاتٍ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا مِنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

[١٩٦] ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾.

[١٩٧] ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَتَسَاءَلُونَ الْمُهَادَّةَ﴾.

[١٩٨] ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

[١٩٩] ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَوْ لِيُكَلِّمَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

[٢٠٠] ﴿يَتَائِبَاتِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

فيه خمس وعشرون مسألة:

**الأولى** - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدم معنى هذه الآية في « البقرة » <sup>(١)</sup> في غير موضع . فختتم تعالى هذه السورة بالأمر بالنظر والاستدلال في آياته ؛ إذ لا تصدر إلا عن حَيِّ قَيُّومٍ قَدِيرٍ قُدُّوسٍ سَلَامٍ غَنِيِّ عَنِ الْعَالَمِينَ ؛ حتى يكون إيمانهم مستنداً إلى اليقين لا إلى التقليد . ﴿ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الذين يستعملون عقولهم في تأمل الدلائل . ورُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ قام يُصَلِّي ، فاتاه بلالٌ يُؤذنه بالصلاة ، فرآه يبكي فقال : يا رسول الله ، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ! فقال : « يا بلال ، أفلا أكون عبداً شكوراً ولقد أنزل الله عليّ الليلة آية ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ » - ثم قال : وَئِلَّ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا .

**الثانية** - قال العلماء : يستحب لمن أنتبه من نومه أن يمسح على وجهه ، ويستفتح قيامه بقراءة هذه العشر الآيات اقتداءً بالنبي ﷺ ، ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما وسيأتي ؛ ثم يصلي ما كُتِبَ له ، فيجمع بين التفكير والعمل ، وهو أفضل العمل على ما يأتي بيانه في هذه الآية بعد هذا . ورُوي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة « آل عمران » كل ليلة ، خرّجه أبو نصر الوائلي السجستاني الحافظ في كتاب « الإبانة » من حديث سليمان بن موسى عن مظاهر بن أسلم المخزومي عن المقبري عن أبي هريرة . وقد تقدّم أول <sup>(٢)</sup> السورة عن عثمان قال : من قرأ آخر آل عمران في ليلة كُتِبَ له قيام ليلة .

**الثالثة** - قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ ذكر تعالى ثلاث هيئات لا يخلوا أبْن آدم منها في غالب أمره ، فكانها تحضر زمانه . ومن هذا المعنى قولُ عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل

(١) راجع ٢/ ١٩١ .

(٢) راجع ص ٢ من هذا الجزء .

أحيائه. أخرجه مسلم. فدخل في ذلك كونه على الخلاء وغير ذلك. وقد اختلف العلماء في هذا؛ فأجاز ذلك عبد الله بن عمرو وأبن سيرين والنخعي، وكره ذلك ابن عباس وعطاء والشعبي. والأول أصح لعموم الآية والحديث. قال النخعي: لا بأس بذكر الله في الخلاء فإنه يصعد. المعنى: تصعد به الملائكة مكتوباً في صحفهم؛ فحذف المضاف. دليله قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾<sup>(١)</sup>. وقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾<sup>(٢)</sup>. ولأن الله عز وجل أمر عباده بالذكر على كل حال ولم يستثن فقال: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾<sup>(٣)</sup> وقال: ﴿فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾<sup>(٤)</sup> وقال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾<sup>(٥)</sup> فعم. فذاكر الله تعالى على كل حالاته مثاب مأجور إن شاء الله تعالى. وذكر أبو نعيم قال: حدثنا أبو بكر بن مالك حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبي قال حدثنا وكيع قال حدثنا سفيان عن عطاء بن أبي مَرْزُوان عن أبيه عن كعب الأحمار قال قال موسى عليه السلام: «يا رب أقرب أنت فأنأجيك أم بعيد فأنأديك قال: يا موسى أنا جليس من ذكرني قال: يا رب فإننا نكون من الحال على حال نُجَلِّك ونُعْظَمُك أن تَذْكُرْكَ قال: وما هي؟ قال: الجنابة والغائط قال: يا موسى اذكرني على كل حال». وكرهية من كره ذلك إما لتنزيه ذكر الله تعالى في المواضع المرغوب عن ذكره فيها ككرهية قراءة القرآن في الحمام، وإما إبقاء على الكرام الكاتبين على أن يحلهم موضع الأقدار والأنجاس لكتابة ما يلفظ به. والله أعلم. و ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ نصب على الحال. ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ في موضع الحال؛ أي ومضطجعين ومثله قوله تعالى: ﴿دَعَا نَا لِجَنَّتِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾<sup>(٦)</sup> على العكس؛ أي دعانا مضطجعاً على جنبه. وذهب جماعة من المفسرين منهم الحسن وغيره إلى أن قوله ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ إلى آخره، إنما هو عبارة عن الصلاة؛ أي لا يضيعونها، ففي حال العذر يصلونها قعوداً أو على جنوبهم. وهي مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾<sup>(٧)</sup> في قول ابن مسعود على ما يأتي بيانه. وإذا كانت الآية في الصلاة ففقهها أن الإنسان يصلي قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنبه؛ كما ثبت عن عمران

(١) راجع ٨/١٧. (٢) راجع ٢٤٥/١٩. (٣) راجع ١٩٧/١٤.

(٤) راجع ١٧١/٢. (٥) راجع ٣٩٥/١٠. (٦) راجع ٣١٧/٨.

(٧) راجع ٣٧٣/٥.

ابن حُصَيْن قال: كان بي البَوَاسِير فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جُنُب» رواه الأئمة. وقد كان ﷺ يصلي قاعداً قبل موته بعام في النافلة؛ على ما في صحيح مسلم. وروى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: رأيت رسول الله ﷺ يصلي متربّعاً. قال أبو عبد الرحمن<sup>(١)</sup>: لا أعلم أحداً روى هذا الحديث غير أبي داود الحَفَرِي<sup>(٢)</sup> وهو ثقة، ولا أحسب هذا الحديث إلا خطأ. والله أعلم.

**الرابعة** - واختلف العلماء في كيفية صلاة المريض والقاعد وهيئتها؛ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك أنه يتربّع في قيامه، وقاله البُؤَيْطِيُّ عن الشافعي. فإذا أراد السجود تهياً للسجود على قدر ما يطيق، قال: وكذلك المتنفل. ونحوه قول الثوري، وكذلك قال الليث وأحمد وإسحاق وأبو يوسف ومحمد. وقال الشافعي في رواية المُزَنِّي: يجلس في صلاته كلها كجلوس التشهد. وروى هذا عن مالك وأصحابه؛ والأول المشهور<sup>(٣)</sup> وهو ظاهر المدونة. وقال أبو حنيفة وزفر: يجلس كجلوس التشهد، وكذلك يركع ويسجد.

**الخامسة** - قال<sup>(٤)</sup>: فإن لم يستطع القعود صلى على جنبه أو ظهره على التخيير؛ هذا مذهب المدونة وحكى ابن حبيب عن ابن القاسم يصلي على ظهره، فإن لم يستطع فعلى جنبه الأيمن ثم على جنبه الأيسر. وفي كتاب ابن المَوَاز عكسه، يصلي على جنبه الأيمن، وإلا فعلى الأيسر، وإلا فعلى الظهر. وقال سحنون: يصلي على الأيمن كما يجعل في لحدّه، وإلا فعلى ظهره وإلا فعلى الأيسر. وقال مالك وأبو حنيفة: إذا صلى مضطجعا تكون رجلاه مما يلي القبلة. والشافعي والثوري: يصلي على جنبه ووجهه إلى القبلة.

**السادسة** - فإن قوي لخفة المرض وهو في الصلاة؛ قال ابن القاسم: إنه يقوم فيما بقي من صلاته ويبني على ما مضى؛ وهو قول الشافعي وزفر والطبري. وقال أبو حنيفة

(١) أبو عبد الرحمن: كنية النسائي.

(٢) الحفري (بفتح المهملة والفاء) نسبة إلى موضع بالكوفة واسمه عمر بن سعد بن عبيد.

(٣) في ي: المذهب. وذلك في الهامش تصحيحاً.

(٤) في هـ.

وأصحابه يعقوب ومحمد فيمن صلى مضطجعاً ركعة ثم صَحَّ: إنه يستقبل الصلاة من أولها، ولو كان قاعداً يركع ويسجد ثم صَحَّ بَنَى في قول أبي حنيفة ولم يَبْنِ في قول محمد. وقال أبو حنيفة وأصحابه: إذا أفتتح الصلاة قائماً ثم صار إلى حَدِّ الإيماء فليَبْنِ؛ وروي عن أبي يوسف. وقال مالك في المريض الذي لا يستطيع الركوع ولا السجود وهو يستطيع القيام والجلوس: إنه يصلي قائماً ويومئ إلى الركوع، فإذا أراد السجود جلس وأومأ إلى السجود؛ وهو قول أبي يوسف وقياس قول الشافعي. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يصلي قاعداً.

**السابعة -** وأما صلاة الراقد الصحيح فروي من حديث عمران بن حصين زيادة ليست موجودة في غيره، وهي «صلاة الراقد مثل نصف صلاة القاعد». قال أبو عمر: وجمهور أهل العلم لا يُجيزُونَ النافلة مضطجعاً؛ وهو حديث لم يروه إلا حسين المعلم وهو حسين بن ذَكْوَانَ عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ عن عمران بن حصين، وقد اختلف على حسين في إسناده ومتمنه اختلافاً يوجب التوقف عنه، وإن صَحَّ فلا أدري ما وجهه؛ فإن كان أحد من أهل العلم قد أجاز النافلة مضطجعاً لمن قدر على القعود أو على القيام فوجه هذه الزيادة في هذا الخبر، وهي حجة لمن ذهب إلى ذلك. وإن أجمعوا على كراهة النافلة راقداً لمن قدر على القعود أو القيام، فحديث حسين هذا إما غلط وإما منسوخ. وقيل: المراد بالآية الذين يستدلون بخلق السموات والأرض على أن المتغيّر لا بدّ له من مُغيّر، وذلك المغيّر يجب أن يكون قادراً على الكمال، وله أن يبعث الرسل، فإن بعث رسولاً ودل على صدقه بمعجزة واحدة لم يبق لأحد عذر؛ فهؤلاء هم الذين يذكرون الله على كل حال. والله أعلم.

**الثامنة -** قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قد بينا معنى ﴿وَيَذْكُرُونَ﴾ وهو إما ذكر باللسان وإما الصلاة فرضها ونفلها؛ فعطف تعالى عبادة أخرى على إحداها بعبادة<sup>(١)</sup> أخرى، وهي التفكير في قدرة الله تعالى ومخلوقاته والعبر الذي بَثَّ<sup>(٢)</sup>، ليكون ذلك أزيد في بصائرهم:

وفي كل شيء له آية      تدلُّ على أنه واحد

(١) في أوجوبه وهو وط: بعبادة أخرى وهي الفكر.

(٢) كذا في هـ وب ود وجوي. وفي أ وحـ: نبه؛ وفي ز: ثبت.

وقيل: «يتفكرون» عطف على الحال. وقيل: يكون منقطعاً؛ والأول أشبه. والفكرة: تردد القلب في الشيء؛ يقال: تفكر، ورجل فكير كثير الفكر، ومَرَّ النبي ﷺ على قوم يتفكرون في الله فقال: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره» وإنما التفكر والاعتبار وأنسباط الذهن في المخلوقات كما قال: «ويتفكرون في خلق السموات والأرض». وحكي أن سفيان الثوري رضي الله عنه صلى خلف المقام ركعتين، ثم رفع رأسه إلى السماء، فلما رأى الكواكب غشى عليه، وكان يبول الدم من طول حزنه وفكرته. وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل مستلقٍ على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال أشهد أن لك رباً وخالقاً اللهم أغفر لي فنظر الله إليه فغفر له» وقال ﷺ: «لا عبادة كتفكر». وروي عنه عليه السلام قال: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة». وروى ابن القاسم عن مالك قال: قيل لأم الدرداء: ما كان أكثر شأن أبي الدرداء؟ قالت: كان أكثر شأنه التفكر. قيل له: أترى التفكر عمل من الأعمال؟ قال: نعم، هو اليقين. وقيل لابن المسيب في الصلاة بين الظهر والعصر، قال: ليست هذه عبادة، إنما العبادة الورع عما حرم الله والتفكر في أمر الله. وقال الحسن: تفكر ساعة خير من قيام ليلة؛ وقاله ابن عباس وأبو الدرداء. وقال الحسن: الفكرة مرآة المؤمن ينظر فيها إلى حسناته وسيئاته. ومما يتفكر فيه مخاوف الآخرة من الحشر والنشر والجنة ونعيمها والنار وعذابها. ويروى أن أبا سليمان الداراني رضي الله عنه أخذ قدح الماء ليتوضأ لصلاة الليل وعنده ضيف، فرآه لما أدخل أصبعه في أذن القدح أقام لذلك متفكراً حتى طلع الفجر؛ فقال له: ما هذا يا أبا سليمان؟ قال: إني لما طرحت أصبعي في أذن القدح تفكرت في قول الله تعالى: ﴿إِذِ الْآغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾<sup>(١)</sup> تفكرت في حالي وكيف أتلقى الغل إن طرح في عنقي يوم القيامة، فما زلت في ذلك حتى أصبحت. قال ابن عطية: «وهذا نهاية الخوف، وخير الأمور أوساطها، وليس علماء الأمة الذين هم الحجة على هذا المنهاج، وقراءة علم كتاب الله تعالى ومعاني سنة رسول الله ﷺ

لمن يفهم ويُرجى نفعه أفضل من هذا». قال ابن العربي: اختلف الناس أي العاملين أفضل: التفكير أم الصلاة؛ فذهب الصوفية إلى أن التفكير أفضل؛ فإنه يثمر المعرفة وهو أفضل المقامات الشرعية. وذهب الفقهاء إلى أن الصلاة أفضل؛ لما ورد في الحديث من الحث عليها والدعاء إليها والترغيب فيها. وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه بات عند خالته مَيْمُونَةَ، وفيه: فقام رسول الله ﷺ فمسح النوم عن وجهه ثم قرأ الآيات العشر الخواتم من سورة آل عمران، وقام إلى شَنْ<sup>(١)</sup> معلق فتوضأ وضوءاً خفيفاً ثم صلى ثلاث عشر ركعة؛ الحديث. فأنظروا رحمكم الله إلى جمعه بين التفكير في المخلوقات ثم إقباله على صلاته بعده؛ وهذه السنة هي التي يعتمد عليها. فأما طريقة الصوفية أن يكون الشيخ منهم يوماً وليلة وشهراً مفكراً لا يفتر؛ فطريقة بعيدة عن الصواب غير لائقة بالبشر، ولا مستمرة على السنن. قال ابن عطية: وحدثني أبي عن بعض علماء المشرق قال: كنت باثناً في مسجد الأقدام<sup>(٢)</sup> بمصر فضليت العتمة فرأيت رجلاً قد اضطجع في كساء له مسجى بكسائه حتى أصبح، وصلينا نحن تلك الليلة؛ فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة وصلى مع الناس، فأستعظمت جراته في الصلاة بغير وضوء؛ فلما فرغت الصلاة خرج فتبعته لأعظه، فلما دنوت منه سمعته ينشد شعراً:

مُسْجَى الْجِسْمِ غَائِبٌ حَاضِرٌ	مُتَّبِعِ الْقَلْبِ صَامِتٌ ذَاكِرٌ
مَنْقَبُضٌ فِي الْغُيُوبِ مَنْبَسِطٌ	كَذَاكَ مَنْ كَانَ عَارِفاً ذَاكِرٌ
يَبِيتُ فِي لَيْلِهِ أَخَا فِكْرٍ	فَهُوَ مَدَى اللَّيْلِ نَائِمٌ سَاهِرٌ

قال: فعلمت أنه ممن يعبد بالفكرة، فانصرف عنه.

**الثامنة** - قوله تعالى: ﴿وَرَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ أي يقولون: ما خلقته عبثاً وهزلاً، بل خلقته دليلاً على قدرتك وحكمتك. والباطل: الزائل الذاهب؛ ومنه قول لبيد:

أَلَا كُلَّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ

(١) الشن: القرية.

(٢) مسجد الأقدام: مسجد كان بجهة مصر العتيقة قريباً من سقاية ابن طولون. راجع المقرئ

أي زائل. و «بَاطِلًا» نَصِبَ لأنه نعت مصدرٍ محذوف؛ أي خلقاً باطلاً. وقيل: أنتصب على نزع الخافض، أي ما خلقتها للباطل. وقيل: على المفعول الثاني، ويكون خلق بمعنى جعل. «سُبْحَانَكَ» أسند النحاس عن موسى بن طلحة قال: سئل رسول الله ﷺ عن معنى «سبحان الله» فقال: «تنزيه الله عن السوء» وقد تقدّم في «البقرة»<sup>(١)</sup> معناه مستوفى. «وَقَيْنَا عَذَابَ النَّارِ» أجزنا من عذابها، وقد تقدّم<sup>(٢)</sup>.

**العاشرة** - قوله تعالى: «رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ» أي أذلّته وأهنته. وقال المفضل: أي أهلكته؛ وأنشد:

أَخْزَى الْإِلَهَ مِنَ الصَّلِيبِ عَيْدَهُ      وَاللَّاسِيْنَ قَلَانِسَ الرَّهْبَانِ

وقيل: فضحته وأبعدته؛ يقال: أخزاه الله: أبعدته ومقّته. والاسم الخِزْيُ. قال ابن السكيت: خَزِيٌّ يَخْزِي خِزْيًا إذا وقع في بليّة. وقد تمسك بهذه الآية أصحاب الوعيد وقالوا: من أدخل النار ينبغي ألا يكون مؤمناً؛ لقوله تعالى: «فَقَدْ أَخْزَيْتُهُ»؛ فإن الله يقول: «يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ»<sup>(٣)</sup>. وما قالوه مردود؛ لقيام الأدلة على أن من ارتكب كبيرة لا يزول عنه اسم الإيمان، كما تقدّم ويأتي. والمراد من قوله: «مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ» من تخلد في النار؛ قاله أنس بن مالك. وقال قتادة: تدخّل مقلوب تخلد، ولا نقول كما قال أهل حروراء. وقال سعيد بن المسيب: الآية خاصة في قوم لا يخرجون من النار؛ ولهذا قال: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» أي الكفار. وقال أهل المعاني: الخزي يحتمل أن يكون بمعنى الحيّاء؛ يقال: خَزِيٌّ يَخْزِي خِزْيَةً إذا استنحيا، فهو خَزْيَان. قال ذو الرمة:

خِزْيَةٌ أَدْرَكَتْهُ عِنْدَ<sup>(٤)</sup> جَوْلَتِهِ      مِنْ جَانِبِ الْحَبْلِ مَخْلُوطًا بِهَا الْغَضَبُ

فخِزْيُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمُئِذٍ اسْتَحْيَاؤُهُمْ فِي دُخُولِ النَّارِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ إِلَى أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا. والخِزْيُ لِلْكَافِرِينَ هُوَ إِهْلَاكُهُمْ فِيهَا مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ؛ وَالْمُؤْمِنُونَ يَمُوتُونَ، فَافْتَرَقُوا. كَذَا ثَبِتَ فِي صَحِيحِ السَّنَةِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ وَيَأْتِي.

(١) راجع ١/٢٧٦.

(٢) راجع ٢/٤٣٣.

(٣) راجع ١٨/١٩٧. (٤) في الديوان: بعد.



الحادية عشرة - قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّتَا سَمِعْنَا مَنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أي محمداً ﷺ؛ قاله ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين. وقال قتادة ومحمد بن كعب القرظي: هو القرآن، وليس كلهم سمع رسول الله ﷺ. دليل هذا القول ما أخبر الله تعالى عن مؤمني الجن إذ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾<sup>(١)</sup>. وأجاب الأولون فقالوا: من سمع القرآن فكأنما لقي النبي ﷺ؛ وهذا صحيح معنى. وأن<sup>(٢)</sup> من ﴿أَن آمَنُوا﴾ في موضع نصب على حذف حرف الخفض، أي بأن آمنوا. وفي الكلام تقديم وتأخير، أي سمعنا منادياً للإيمان ينادي؛ عن أبي عبيدة. وقيل: اللام بمعنى إلى، أي إلى الإيمان؛ كقوله: ﴿ثُمَّ يَعْوُدُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾<sup>(٣)</sup>. وقوله: ﴿بِأَن رَّبِّكَ أَوْحَى لَهُا﴾<sup>(٤)</sup> وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾<sup>(٥)</sup> أي إلى هذا، ومثله كثير. وقيل: هي لام أجل، أي لأجل الإيمان.

الثانية عشرة - قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ تأكيد ومبالغة في الدعاء. ومعنى اللفظين واحد؛ فإن الغفر والكفر: الستر. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أي أبراراً مع الأنبياء، أي في جملتهم. واحدهم برٌّ وبارٌّ وأصله من الاتساع؛ فكان البر متسع في طاعة الله ومتسعة له رحمة الله.

الثالثة عشرة - قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ أي على السنة رسلك؛ مثل ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾<sup>(٦)</sup>. وقرأ الأعمش والزهري «رُسُلِكَ» بالتخفيف، وهو ما ذكر من استغفار الأنبياء والملائكة للمؤمنين؛ والملائكة يستغفرون لمن في الأرض. وما ذكر من دعاء نوح للمؤمنين ودعاء إبراهيم واستغفار النبي ﷺ لأُمَّته. ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ أي لا تعذبنا ولا تهلكنا ولا تفضحنا، ولا تهنا ولا تبعدنا ولا تمقتنا يوم القيامة ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. إن قيل: ما وجه قولهم ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ وقد علموا أنه لا يخلف الميعاد؛ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول - أن الله سبحانه وعد من آمن بالجنة، فسألوا أن يكونوا ممن وعِد بذلك دون الجزئي والعقاب.

(١) راجع ١٩/٦. (٢) من هـ وجد وط. (٣) راجع ١٧/٢٩٠.

(٤) راجع ٢٠/١٤٩. (٥) راجع ٧/٢٠٨. (٦) راجع ٩/٢٤٥.

الثاني - أنهم دعوا بهذا الدعاء على جهة العبادة والخضوع؛ والدعاء مُخَّ العبادة. وهذا كقوله: ﴿قُلْ رَبِّ أَخْكُم بِالْحَقِّ﴾<sup>(١)</sup> وإن كان هو لا يقضي إلا بالحق.

الثالث - سألوا أن يُعطوا ما وعدوا به من النصر على عدوهم معجلاً؛ لأنها حكاية عن أصحاب النبي ﷺ، فسألوه ذلك إعزازاً للدين. والله أعلم. وروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من وعده الله عز وجل على عمل ثواباً فهو مُنْجَزٌ له رحمة ومن وعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار». والعرب تَذَمُّ بالمخالفة في الوعد وتمدح بذلك في الوعيد؛ حتى قال قائلهم<sup>(٢)</sup>:

ولا يرهَبُ أبْنُ العم ما عَشْتُ صَوْلَتِي      ولا اخْتَفَيْ<sup>(٣)</sup> من خَشِيَةِ المتهَدِّدِ  
وإِنِّي متى<sup>(٤)</sup> أُوْعِدْتُهُ أو وعدته      لمَخْلِفٍ إِيْعَادِي ومُنْجِزٍ مَوْعِدِي

الرابعة عشرة - قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي أجابهم. قال الحسن: ما زالوا يقولون ربنا ربنا حتى استجاب لهم. وقال جعفر الصادق: من حَزَبَهُ<sup>(٥)</sup> أمرٌ فقال خمس مرات ربنا أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد. قيل: وكيف ذلك؟ قال: اقرأ وإن شتتم ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ - إلى قوله: إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ.

الخامسة عشرة - قوله تعالى: ﴿أَنِّي﴾ أي بَأَنِّي. وقرأ عيسى بن عمر «إني» بكسر الهمزة، أي فقال: إني. وروى الحاكم أبو عبد الله في صحيحه عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله، ألا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ الآية. وأخرجه الترمذي. ودخلت «من» للتأكيد؛ لأن قبلها حرف نفي. وقال الكوفيون: هي للتفسير ولا يجوز حذفها؛ لأنها دخلت لمعنى لا يصلح الكلام إلا به، وإنما تحذف إذا كانت تأكيداً للجحد. ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ ابتداء وخبر، أي دينكم واحد. وقيل: بعضكم من بعض في الثواب والأحكام والنصرة وشبه ذلك. قال الضحاك: رجالكم شكل نسائكم في الطاعة، ونساؤكم شكل رجالكم في الطاعة؛ نظيرها قوله

(١) على قراءة نافع راجع ٣٥١/١١. (٢) هو عامر بن الطفيل؛ كما في اللسان.

(٣) في هـ - وي: اختبى. (٤) كذا في جميع الأصول، والذي في اللسان: وإني إن، وفي التاج: وإني وإن. (٥) حزه الأمر: إذا نزل به مهم أو أصابه غم.

عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾<sup>(١)</sup>. ويقال: فلان مِنِّي، أي على مذهبي وخلقِي.

السادسة عشرة - قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ ابتداء وخبر، أي هجروا أوطانهم وساروا إلى المدينة. ﴿وَأَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ في طاعة الله عز وجل. ﴿وَقَاتِلُوا﴾ أي وقاتلوا أعدائي. ﴿وَقُتِلُوا﴾ أي في سبيلي. وقرأ ابن كثير وأبن عامر: ﴿وقاتلوا وقُتِلوا﴾ على التثنية. وقرأ الأعمش «وقتلوا وقاتلوا» لأن الواو لا تدل على أن الثاني بعد الأول. وقيل: في الكلام إضمار قد، أي قتلوا وقد قاتلوا؛ ومنه قول الشاعر:

تَصَابِي وَأَمْسَى عَلَاهُ الْكِبَرُ

أي وقد علاه الكبر. وقيل: أي وقد قاتل من بَقِيَ منهم؛ تقول العرب: قتلنا بني تميم، وإنما قتل بعضهم. وقال امرؤ القيس:

فَإِنْ تَقْتُلُونَا نَقْتُلْكُمْ

وقرأ عمر بن عبد العزيز: «وقتلوا وقُتِلوا» خفيفة بغير ألف. ﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي لأستترها عليهم في الآخرة، فلا أوبئهم بها ولا أعاقبهم عليها. ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد عند البصريين؛ لأن معنى ﴿لَا دَخَلَنَّهُمْ جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لأثبتهم ثواباً. الكسائي: أنتصب على القطع. الفراء: على التفسير ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أي حسن الجزاء، وهو ما يرجع على العاقل من<sup>(٢)</sup> جزاء عمله؛ من ثاب يثوب.

السابعة عشرة - قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ قيل: الخطاب للنبي ﷺ والمراد الأمة. وقيل: للجميع. وذلك أن المسلمين قالوا: هؤلاء الكفار لهم تجائر وأموال واضطراب في البلاد، وقد هلكنا نحن من الجوع؛ فنزلت هذه الآية. أي لا يغرنكم سلامتهم بتقلبهم في أسفارهم. ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ أي تقلبهم متاع قليل. وقرأ يعقوب «يَغُرُّكَ» ساكنة النون؛ وأنشد:

لَا يَغُرُّكَ عِشَاءٌ سَاكِنٍ      قَدْ يُوَافِي بِالْمَيِّتَاتِ السَّحَرُ

(١) راجع ٢٠٢/٨. (٢) في ز وه ود وجد: جزاء.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾<sup>(١)</sup>. والمتاع: ما يعجّل الانتفاع به؛ وسماه قليلاً لأنه فاني، وكل فاني وإن كان كثيراً فهو قليل. وفي صحيح الترمذي عن المستورد الفهري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة في اليم، فلينظر بماذا يرجع». قيل: «يرجع» بالياء والتاء. ﴿وَيَسِّرَ الْمِهَادَ﴾ أي يسهل ما مهّدوا لأنفسهم بكفرهم، وما مهد الله لهم من النار.

الثامنة عشرة - في هذه الآية وأمثالها كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ﴾<sup>(٢)</sup> الآية. ﴿وَأُمِلِّي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾<sup>(٣)</sup>. ﴿أَيُخْسَبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾<sup>(٤)</sup>. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٥)</sup> دليل على أن الكفار غير مُنعم عليهم في الدنيا؛ لأن حقيقة النعمة الخلوص من شوائب الضرر العاجلة والآجلة، ونعم الكفار مشوبة بالآلام والعقوبات، فصار كمن قدّم بين يدي غيره حلاوة من عسل فيها السم، فهو وإن استلذّ أكله لا يقال: أنعم عليه؛ لأن فيه هلاك روحه. ذهب إلى هذا جماعة من العلماء، وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعري. وذهب جماعة منهم سيف السنة ولسان الأمة القاضي أبو بكر: إلى أن الله أنعم عليهم في الدنيا. قالوا: وأصل النعمة من النعمة بفتح النون، وهي لين العيش؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾<sup>(٦)</sup>. يقال: دقيق ناعم، إذا بولغ في طحيته وأجيد سحقه. وهذا هو الصحيح، والدليل عليه أن الله تعالى أوجب على الكفار أن يشكروه وعلى جميع المكلفين فقال: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾<sup>(٧)</sup>. ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾<sup>(٨)</sup> والشكر لا يكون إلا على نعمة. وقال: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾<sup>(٩)</sup> وهذا خطاب لقارون. وقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾<sup>(١٠)</sup> الآية. فنبّه سبحانه أنه قد أنعم عليهم نعمة دنيوية فجحدها. وقال: ﴿يَغْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾<sup>(١١)</sup> وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾<sup>(١٢)</sup>. وهذا عام

(٢) راجع ص ٢٨٦ من هذا الجزء.

(١) راجع ٢٨٩/١٥.

(٤) راجع ١٣٠/١٢.

(٣) راجع ٣٢٩/٧ و ٢٣٧.

(٦) راجع ٢١٥/٢.

(٥) راجع ١٣٨/١٦.

(٨) راجع ١٩٣/١٠ و ١٦١.

(٧) راجع ٣١٤/١٣.

(٩) راجع ٣٢١/١٤.

في الكفار وغيرهم. فأما إذا قَدَّمَ لغيره طعاماً فيه سَمٌّ فقد رَفَقَ به في الحال؛ إذ لم يجرعه السَمُّ بحتاً، بل دَسَّهُ في الحلاوة، فلا يستبعد أن يقال: قد أنعم عليه، وإذا ثبت هذا فالنعم ضربان: نِعْمٌ نَفْعٌ ونِعْمٌ دَفْعٌ؛ فَنِعْمُ النَفْعِ ما وصل إليهم من فنون اللذات، ونِعْمُ الدَفْعِ ما صرف عنهم من أنواع الآفات. فعلى هذا قد أنعم على الكفار نِعْمُ الدَفْعِ قولاً واحداً؛ وهو ما رُوِيَ عنهم من الآلام والأسقام، ولا خلاف بينهم في أنه لم يُنعم عليهم نعمة دينية. والحمد لله.

**التاسعة عشرة -** قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ استدراك بعد كلام تقدّم فيه معنى النفي؛ لأن معنى ما تقدّم ليس لهم في تقليبهم في البلاد كبير<sup>(١)</sup> الانتفاع، لكن المتقون لهم الانتفاع الكبير<sup>(٢)</sup> والخُلْدُ الدائم. فموضع «لكن» رفع بالابتداء. وقرأ يزيد بن القعقاع «لكن» بتشديد النون.

**الموفية عشرين -** قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ نُزُلًا مثل ثواباً عند البصريين، وعند الكسائي يكون مصدراً. الفراء: هو مفسر. وقرأ الحسن والنخعي «نُزُلًا» بتخفيف الزاي استيقلاً لِمُضْمَتَيْنِ، وثقله الباقون. والنُّزْلُ: ما يهبط للنزِيل، والنزِيل الضيف. قال الشاعر:

نَزِيلُ الْقَوْمِ أَعْظَمُهُمْ حَقُّوًا      وَحَقُّ اللَّهِ فِي حَقِّ النَّزِيلِ

والجمع الأنزال. وحظ نزيل: مجتمع. والنزل<sup>(٢)</sup>: أيضاً الرِّيع؛ يقال: طعام كثير النزل والنُّزْل.

**الحادية والعشرون -** قلت: ولعل النزل - والله أعلم - ما جاء في صحيح مسلم من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ في قصة<sup>(٣)</sup> الجَنَرِ الذي سأل النبي ﷺ: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين» قال اليهودي: فما تُحَفَّتُهُمْ حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ فقال: ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شربهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلاً» وذكر الحديث. قال أهل

(١) في جـ و أ: كثير.

(٢) النزل: بضم فسكون وبالتحريك.

(٣) من جـ و هـ و ي و د. وفي ب و أ: من حديث.

اللغة: والتحفة ما يتحف به الإنسان من الفواكه. والطَّرَف محاسنه وملاطفه، وهذا مطابق لما ذكرناه في النزول، والله أعلم. وزيادة الكيد: قطعة منه كالأصبح. قال الهروي: ﴿نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي ثواباً. وقيل رزقاً. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ أي مما يتقلب به الكفار في الدنيا. والله أعلم.

**الثانية والعشرون** - قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية. قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقتادة والحسن: نزلت في النجاشي، وذلك أنه لما مات نعا جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ؛ فقال النبي ﷺ لأصحابه: «قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي»؛ فقال بعضهم لبعض: يأمرنا أن نصلي على عُلُوج من عُلُوج الحبشة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾. قال الضحاك: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ القرآن. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ التوراة والإنجيل. وفي التنزيل: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾<sup>(١)</sup>. وفي صحيح مسلم: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين - فذكر - رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم أدرك النبي ﷺ فأمن به وأتبعه وصدقه فله أجران» وذكر الحديث. وقد تقدم في «البقرة»<sup>(٢)</sup> الصلاة عليه وما للعلماء في الصلاة على الميت الغائب، فلا معنى للإعادة. وقال مجاهد وابن جريج وابن زيد: نزلت في مؤمني أهل الكتاب، وهذا عام والنجاشي واحد منهم. وأسمه أضحمة، وهو بالعربية عطية. و«خاشعين» أذلة، ونصب على الحال من المضمير الذي في «يؤمن». وقيل: من الضمير في «إلَيْهِمْ» أو في «إلَيْكُمْ». وما في الآية بين، وقد تقدم.

**الثالثة والعشرون** - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا﴾ الآية. ختم تعالى السورة بما تضمنته هذه الآية العاشرة من الوصاة التي جمعت الظهور في الدنيا على الأعداء والفوز بنعيم الآخرة؛ فحض على الصبر على الطاعات وعن الشهوات، والصبر الحبس، وقد تقدم في «البقرة» بيانه<sup>(٣)</sup>. وأمر بالمصابرة فليل: معناه مصابرة الأعداء؛ قاله زيد بن أسلم.

(١) راجع ١٣/٢٩٧.

(٢) راجع ٢/٨١. (٣) راجع ٢/١٧٤.

وقال الحسن: على الصلوات الخمس. وقيل: إدامة مخالفة النفس عن شهواتها فهي تدعو وهو يَنْزِع. وقال عطاء والقرظي: صابروا الوعد الذي وعدتم. أي لا تيأسوا وانتظروا الفرج؛ قال ﷺ: «أنتظار الفرج بالصبر عبادة». وأختار هذا القول أبو عمر رحمه الله. والأول قول الجمهور؛ ومنه قول عنترة:

فلم أرَ حَيًّا صابروا مثل صبرنا ولا كافحوا مثل الذين نُكافِحُ  
فقوله «صابروا مثل صبرنا» أي صابروا العدو في الحرب ولم يبدُ منهم جُبْن ولا خَوَر. والمكافحة: المواجهة والمقابلة في الحرب؛ ولذلك اختلفوا في معنى قوله ﴿وَرَابِطُوا﴾ فقال جمهور الأمة: رابطوا أعداءكم بالخيال، أي أرتبطوها كما يرتبطها أعداءكم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾<sup>(١)</sup>. وفي الموطأ عن مالك عن زيد بن أسلم قال: كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم وما يَتَخَوَّفُ منهم؛ فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعدد مؤمن من مُنَزَلِ شدةٍ يجعل الله له بعدها فَرْجاً، وإنه لن يغلب عسرٌ يسرين، وإنَّ الله تعالى يقول في كتابه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: هذه الآية في أنتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن في زمان رسول الله ﷺ غَزْوٌ يربط فيه؛ رواه الحاكم أبو عبد الله في صحيحه. واحتج أبو سلمة بقوله عليه السلام: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط» ثلاثاً؛ رواه مالك. قال ابن عطية: والقول الصحيح هو أن الرباط [هو]<sup>(٢)</sup> الملازمة في سبيل الله. أصلها من ربط الخيل، ثم سُمِّي كل ملازم لِثَغْرٍ من ثُغُور الإسلام<sup>(٣)</sup> مرابطاً، فارساً كان أو راجلاً. واللفظ مأخوذ من الربط. وقول النبي ﷺ «فذلكم الرباط» إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله. والرباط اللغوي هو الأول؛ وهذا<sup>(٤)</sup> كقوله: «ليس الشديد بالصُّرعة»<sup>(٥)</sup> وقوله «ليس المسكين بهذا الطواف» إلى غير ذلك.

(١) راجع ٣٦/٨. (٢) من ب وجه و ط. (٣) في ب: المسلمين.

(٤) في ب: هكذا. (٥) الصرعة بضم ففتح المبالغ في الصراع الذي لا يغلب.

قلت: قوله «والرباط اللغوي هو الأول» ليس بمسلم، فإن الخليل بن أحمد أحد أئمة اللغة وثقاتها قد قال: الرِّبَاط ملازمة الثَّغُور، ومواظبة الصلاة أيضاً، فقد حصل أن أنتظار الصلاة رباط لغوي حقيقة؛ كما قال ﷺ. وأكثر من هذا ما قاله الشيباني أنه يقال: ماءً مترابطاً أي دائم لا يَنْزُح<sup>(١)</sup>؛ حكاه ابن فارس، وهو يقتضي تعدية الرباط لغة إلى غير ما ذكرناه. فإن المراقبة عند العرب: العقد على الشيء حتى لا ينحل، فيعود إلى ما كان صبراً عنه، فيحبس القلب على النية الحسنة والجسم على فعل الطاعة. ومن أعظمها وأهمها ارتباط الخيل في سبيل الله كما نص عليه في التنزيل في قوله: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ على ما يأتي. وارتباط النفس على الصلوات كما قاله النبي ﷺ؛ رواه أبو هريرة وجابر وعليّ، ولا عِطْرَ بعد عَرُوسٍ.

**الرابعة والعشرون** - الرباط في سبيل الله عند الفقهاء هو الذي يَشَخَّص إلى ثَغْر من الثَّغُور ليرابط فيه مدةً ما؛ قاله محمد بن المَوَاز [ورواه]<sup>(٢)</sup>. وأما سُكَّان الثَّغُور دائماً بأهلهم الذين يعمرهم ويكتسبون هنالك، فهم وإن كانوا حُماة فليسوا بمرابطين. قاله ابن عطية. وقال ابن خُوَزَيْمَةَ مَنَاد: وللرِّبَاط حالتان: حالة يكون الثَّغْر مأموناً مَنِعاً يجوز سكناه بالأهل والولد. وإن كان غير مأمون جاز أن يرابط فيه بنفسه إذا كان من أهل القتال، ولا ينقل إليه الأهل والولد لئلا يظهر العدو فيسبي ويسترق. والله أعلم.

**الخامسة والعشرون** - جاء في فضل الرِّبَاط أحاديث كثيرة، منها ما رواه البخاري عن سهل بن سعد السَّاعِدِيِّ أن رسول الله ﷺ قال: «رِباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ عند الله من الدنيا وما فيها». وفي صحيح مُسلم عن سلمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رِباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهر وقيامه وإن مات جَرَى عليه عمله الذي كان يعملُه وأُجِرَ عليه رزقه وأُمنَ القَتَان»<sup>(٣)</sup>. وروى أبو داود في سننه عن فضالة

(١) في الأصول: لا يَنْزُح. والتصويب من اللسان.

(٢) كذا في زوب وجود وهوي وطوابن عطية وفي أوحود داود.

(٣) القَتَان: الشيطان. ويروى بفتح الفاء وضمها. فمن رواه بالفتح فهو واحد، لأنه يفتن الناس عن الدين. ومن رواه بالضم فهو جمع فتن؛ أي يعاون أحدهما الآخر على الذين يضلون الناس عن الحق ويفتنونهم.



ابن عبيد أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيُؤْمَنُ مِنْ قَتَانِ الْقَبْرِ». وفي هذين الحديثين دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت؛ كما جاء في حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ<sup>(١)</sup> انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» وهو حديث صحيح أنفرد بإخراجه مسلم؛ فإن الصدقة الجارية والعلم المنتفع به والولد الصالح الذي يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهاب العلم وموت الولد. والرباط يُضَاعَفُ أَجْرُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لَأنَّهُ لَا مَعْنَى لِلنَّمَاءِ إِلَّا الْمِضَاعِفَةُ، وهي غير موقوفة على سبب فتنتقطع بانقطاعه، بل هي فضلٌ دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة. وهذا لأن أعمال البر كلها لا يُتِمَكَّنُ منها إلا بالسلامة من العدو والتحزُّز منه بحراسة بَيِّضَةِ الدِّينِ وإقامة شعائر الإسلام. وهذا العمل الذي يجري عليه ثوابه هو ما كان يعملُه من الأعمال الصالحة؛ خرَّجه ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ مُرَابِطاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُجْرِيَ عَلَيْهِ أَجْرَ عَمَلِهِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأُمِنَ مِنْ الْقَتَانِ وَبَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آمِناً مِنَ الْفَزَعِ». وفي هذا الحديث قيدٌ ثانٍ وهو الموت حالة الرِّبَاطِ. والله أعلم.

وَرُوِيَ عَنْ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَابِطَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَتْ لَهُ كَأَلْفِ لَيْلَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا». وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِرِبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مُحْتَسِباً مِنْ غَيْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ أَعْظَمُ أَجْراً مِنْ عِبَادَةِ مِائَةِ سَنَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا وَرِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ عَوْرَةِ الْمُسْلِمِينَ مُحْتَسِباً مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَعْظَمُ أَجْراً».

(١) هذه رواية مسلم كما في كتاب الوصية. وكذا في زوطي وجد وهـ. وفي رواية: «ابن آدم» والحديث رواه الترمذي وأبو داود والنسائي بلفظ: «إلا من ثلاث صدقة» الحديث، والبخاري في الأدب المفرد.

أراه قال: - من عبادة ألف سنة صيامها وقيامها فإن رده الله إلى أهله سالماً لم تكتب عليه سيئة ألف سنة وتكتب له الحسنات ويُجرى له أجرُ الرِّباط إلى يوم القيامة<sup>(١)</sup>. ودلّ هذا الحديث على أن رِباط يوم في شهر رمضان يحصل له من الثواب الدائم وإن لم يمت مرابطاً. والله أعلم. وعن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حَرَسَ ليلة في سبيل الله أفضلُ من صيام رجل وقيامه في أهله ألف سنة ثلاثمائة يوم [وستان يوماً]<sup>(٢)</sup> واليوم كَألف سنة».

قلت: وجاء في انتظار الصلاة بعد الصلاة أنه رِباط، فقد يحصل لِمُنْتَظِرِ الصلوات ذلك الفضل إن شاء الله تعالى. وقد روى أبو نعيم الحافظ قال حدّثنا سليمان بن أحمد قال حدّثنا علي بن عبد العزيز قال حدّثنا حَجَّاج بن المِنْهَالِ ح<sup>(٣)</sup> وحدّثنا أبو بكر بن مالك قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدّثني أبي قال حدّثني الحسن بن موسى قال حدّثنا حماد بن سلمة عن ثابت البُنَانِيّ عن أبي أيوب الأزدي عن تَوْفِ الْبِكَالِيّ عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ صلى ذات ليلة المغرب فصلينا معه فعقب من عقب ورجع من رجع، فجاء رسول الله ﷺ قبل أن يثوب<sup>(٤)</sup> الناس لصلاة العشاء، فجاء وقد حضره الناس رافعاً أصبعه وقد عقد تسعاً وعشرين يُشير بالسبابة إلى السماء فَحَسَرَ ثوبه عن ركبتيه وهو يقول: «أبشروا معشر المسلمين هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء يُباهي بكم الملائكة يقول يا ملائكتي أنظروا إلى عبادي هؤلاء قَضَوْا فريضة وهم ينتظرون أخرى». ورواه حَمَّاد بن سلمة عن عليّ بن زيد عن مُطَرِّف بن عبد الله: أن نَوْفًا

(١) رواية ابن ماجه.

(٢) في جـ.

(٣) جرت عادة المحدثين أنه إذا كان للحديث إسناده أو أكثر، كتبوا عند الانتقال من إسناده إلى إسناده «ح» وهي حاء مهملة مفردة. والمختار أنها مأخوذة من التحول لتحول من إسناده إلى إسناده، وأنه يقول القاريء إذا انتهى إليها: «ح» ويستمر في قراءة ما بعدها. وقيل: إنها من حال بين الشيتين إذا حجز؛ لكونها حالت بين الإسنادين، وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشيء، وليست من الرواية. وقيل: إنها رمز إلى قوله: الحديث. وأن أهل المغرب كلهم يقولون إذا وصلوا إليها: الحديث. ثم هذه الحاء توجد في كتب المتأخرين كثيراً وهي كثيرة في صحيح مسلم قليلة في صحيح البخاري. (راجع مقدمة النووي على صحيح مسلم).

(٤) في جـ: يتوجه.

وعبد الله بن عمرو اجتمعا فحدّث نَوْفٌ عن التوراة وحدّث عبد الله بن عمرو بهذا الحديث عن النبي ﷺ. ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ أي لم تؤمروا بالجهاد من غير تقوى. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لتكونوا على رجاء من الفلاح. وقيل: لعل بمعنى لكي. والفلاح البقاء، وقد مضى هذا كله في «البقرة» مستوفى<sup>(١)</sup>، والحمد لله.

نجز تفسير سورة آل عمران

من (جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان)  
بحمد الله وعونه.

صححه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

تمّ الجزء الرابع من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس، وأوله: «سورة النساء»

\*

\*\*

## فهرس الجزء الرابع

### تفسير سورة آل عمران

تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية. وفيها خمس مسائل: ما يتعلق بميم  
«آل» من الأبحاث. فضل سورة آل عمران. تسمية البقرة وآل عمران بالزهاوين.

حديث وفد نجران ..... ١/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ...﴾ الآيات. الكلام على التوراة  
والإنجيل واشتقاقهما ..... ٤/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ...﴾ الآية ..... ٧/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ...﴾ الآية. وفيها مسألان: كيفية  
التصوير في الرحم. دليل وحدانيته تعالى ..... ٧/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ...﴾ الآية. وفيها  
تسع مسائل: أقوال العلماء في المحكم والمتشابه. الكلام على «آخر». معنى الزيف.  
بحث في أقسام متبعي المتشابه وبيان أحكامهم. أقوال العلماء في قوله تعالى:  
﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ..... ٨/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا...﴾ الآية. وفيها مسألان: الردّ على المعتزلة  
في قولهم: إن الله لا يفضل العباد. والردّ على من قال: العلم ما وهبه الله ابتداء من  
غير كسب ..... ١٩/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ...﴾ الآية ..... ٢١/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ...﴾ الآية ..... ٢١/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ...﴾ الآية ..... ٢٢/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ...﴾ الآية. وذكر حديث رسول الله ﷺ  
للإهود عندما قدم المدينة ..... ٢٤/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ...﴾ الآية. والاختلاف في معنى الرؤية  
تفسير قوله تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ الآية. وفيها إحدى عشرة مسألة:  
الاختلاف فيمن يزين لهم الشهوات. بيان فتنة النساء. ذكر الخلاف في تقدير

- القطار. بيان اشتقاق الذهب والفضة. الكلام على الخيل وفضلها. ذكر معنى  
 ٢٧/٤ ..... السائمة والأنعام والحرث. متاع الإنسان في الحياة الدنيا
- ٣٧/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّؤُنْثِيَكُمْ بَخِيرٌ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ الآية
- ٣٨/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا آمَنَّا...﴾ الآية. وذكر الخلاف في معنى  
 ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾. والكلام على الاستغفار
- ٤٠/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ الآية. وفيها أربع مسائل: بيان ما  
 كان حول الكعبة من الأصنام. فضل العلم وشرف العلماء. معنى شهادة الله
- ٤٣/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ الآية. والمراد بمعنى الدين  
 والإسلام في هذه الآية. بيان أن اختلاف أهل الكتاب كان على علم منهم بالحقائق
- ٤٥/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ...﴾ الآية. وذكر معنى الوجه
- ٤٦/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ...﴾ الآية. وفيها ست  
 مسائل: كيف كان بنو إسرائيل يقتلون الأنبياء والصالحين. وجه الاستدلال على أن  
 الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب قبل الرسالة. ما يشترط في الناهي. الكلام  
 على تغيير المنكر
- ٤٩/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ...﴾ الآية. وفيها ثلاث  
 مسائل: سبب نزولها. بيان وجوب ارتفاع المدعو إلى الحاكم. شرائع من قبلنا شريعة  
 لنا
- ٥١/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا...﴾ الآية
- ٥١/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ...﴾ الآية والكلام في فضلها. اختلاف  
 النحويين في ﴿اللَّهُمَّ﴾
- ٥٦/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿تَوَلَّجَ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ﴾ الآية
- ٥٧/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ...﴾ الآية. وفيها مسألتان: نهى  
 المؤمنين أن يتخذوا الكفار أولياء. بيان التقية ومتى تحل
- ٥٨/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ...﴾ الآية
- ٥٩/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي...﴾ الآية معنى الحب، وبيان  
 محبة الله
- ٦١/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ الآية
- ٦٢/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا...﴾ الآية. بيان آل إبراهيم وآل عمران.  
 ذكر نسب عمران. بيان ما اختاره الله لكل نبي
- ٦٤/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ذَرِيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ...﴾ الآية
- ..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ...﴾ الآية. وفيها ثمان مسائل: نسب

امراة عمران واسمها. سبب نذرهما. الكلام على نذر الولد. ذكر ما في قوله تعالى: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ من أوجه القراءات، وهل هو من قول الله تعالى، أم قول امرأة عمران. بيان أن الذرية قد تقع على الولد خاصة. وأن الشيطان ينخس جميع ولد آدم ..... ٦٤/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿فتقبلها ربهما يقبول حسن...﴾ الآيات معنى التقبل والإنبات، كفالة زكريا لامراة عمران. بيان اللغات التي في زكريا. خبر حمل امرأة عمران. في الآية دليل على طلب الولد، وردّ على جهال المتصوفة. ما يجب على الإنسان نحو ولده وزوجه ..... ٦٩/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿فنادته الملائكة وهو قائم...﴾ الآية. وبيان ما فيها من أوجه القراءات. معنى الكلمة والسيد والحضور ..... ٧٤/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿قال رب أنى يكون لى غلام...﴾ الآية. وبيان المراد بالرب هنا. معنى العقر والغلام ..... ٧٩/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿قال رب اجعل لى آية...﴾ الآية. وفيها ثلاث مسائل: بيان الآية التي طلبها زكريا عليه السلام. معنى الرمز. بيان أن الإشارة تنزل منزلة الكلام ... ٨٠/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم...﴾ الآية. وبيان خير نساء العالم. ما جاء في نبوة مريم ..... ٨٢/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿يا مريم اقنتى لربك...﴾ الآية ..... ٨٤/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه...﴾ الآية. وفيها أربع مسائل: معنى الإيحاء. استدلال العلماء بهذه الآية على إثبات القرعة، وأن الخالة أحق بالحضانة من سائر القربات ما عدا الجدّة ..... ٨٥/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك...﴾ الآية. وبيان اختلاف العلماء في معنى المسيح واشتقاقه. معنى الكهل، عدد من تكلم في المهد ..... ٨٨/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿قالت رب أنى يكون لى ولد...﴾ الآية. وبيان كيفية خلق سيدنا عيسى عليه السلام ..... ٩٢/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة...﴾ الآيات. وبيان معنى الأكمه والأبرص. ما أتى به عيسى عليه السلام من المعجزات ..... ٩٣/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿ومصدّقاً لما بين يدي...﴾ الآية ..... ٩٦/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر...﴾ الآيات. والكلام على الحوارين وسبب تسميتهم بذلك ..... ٩٧/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله...﴾ الآية. القول في تواطؤ اليهود على قتل سيدنا عيسى ..... ٩٨/٤

تفسير قوله تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلّى...﴾ الآية. وبيان

- اختلاف العلماء في معنى وفاة سيدنا عيسى عليه السلام ورفعته، بيان أن المصاب هو من ألقى عليه الشبه ..... ٩٩/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآيات ..... ١٠٢/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ...﴾ الآية. وبيان أنها نزلت بسبب وفد نجران حينما أنكروا على النبي عليه السلام قوله: ﴿إِنْ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ﴾ ..... ١٠٢/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ...﴾ الآية. وفيها ثلاث مسائل: الدليل على أن أبناء البنات يسمون أبناء. معنى المباهلة ..... ١٠٣/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ...﴾ الآيات ..... ١٠٥/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ...﴾ الآية. وفيها ثلاث مسائل: الخلاف في هذه الآية هل هي خطاب لأهل نجران، أم هي لليهود والنصارى جميعاً. خطاب النبي ﷺ إلى هرقل ملك الروم ..... ١٠٥/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ...﴾ الآية. وسبب دعوى كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه السلام كان على دينه ..... ١٠٧/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَّجْتُمْ...﴾ الآية. وفيها مسألتان: الكلام على ﴿هَا أَنْتُمْ﴾ و﴿هَؤُلَاءِ﴾. المنع من الجدال لمن لا علم له ..... ١٠٨/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا...﴾ الآيات ..... ١٠٩/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآية. وأنها نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم ..... ١١٠/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ...﴾ الآيات ..... ١١٠/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآية. نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف بسبب تليسه على قومهم، أول تشكيك المسلمين ..... ١١١/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ...﴾ الآيات. وما يتعلق بها من الأبحاث وأوجه الإعراب ..... ١١٢/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنْ إِنْ تَأْمَنَهُ...﴾ الآية. وفيها ثمان مسائل: اختلاف العلماء فيمن نزلت. الاستدلال على ملازمة الغريم. فضل الأمانة. الدليل على أن الكافر غير أهل لقبول شهادته ..... ١١٥/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿بَلَى مِنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ...﴾ الآية ..... ١١٩/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ...﴾ الآية. وفيها مسألتان: بيان سبب نزولها. حكم الحاكم لا يحل المال إذا علم المحكوم له بطلانه ..... ١١٩/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلُوونَ أَلْسِنَتَهُمْ...﴾ الآية. وبيان معنى اللي ..... ١٢٠/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ...﴾ الآية. بيان المراد بالبشر هنا. معنى

- الربانيين ..... ١٢١/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُتَخَلَّوْا بِالْمَلَائِكَةِ...﴾ الآية ..... ١٢٣/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ...﴾ الآية. بيان ما يتعلق بها من أوجه الإعراب. معنى أخذ الميثاق ..... ١٢٤/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ...﴾ الآيات. اختصاص كعب بن الأشرف وأصحابه مع النصارى إلى النبي ﷺ ..... ١٢٧/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا...﴾ الآيات. وبيان حكم من ارتد عن الإسلام ..... ١٢٨/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا...﴾ الآية. نزلت في ارتداد الحارث بن سويد عن الإسلام ..... ١٢٩/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ...﴾ الآية. وبيان الخلاف فيمن نزلت ..... ١٣٠/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا...﴾ الآية ..... ١٣١/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا...﴾ الآية. وفيها مسألتان: في الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه. الخلاف في تأويل ﴿البر﴾ ..... ١٣٢/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِيَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ الآيات وفيها أربع مسائل: بيان ما حرمه يعقوب على نفسه. الخلاف في التحريم هل كان باجتهاد منه أو بإذن من الله تعالى. شفاء عرق النساء ..... ١٣٤/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ...﴾ الآيات. وفيها خمس مسائل: الكلام على المسجد الحرام. بيان ما فيه من الآيات. حكم من دخله ..... ١٣٧/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾ الآية. وفيها تسع مسائل: بيان أن الحج يجب مرة في العمر، وأنه على التركخي لا على الفور. خروج الصغير والعبد من عموم الخطاب. أقوال العلماء في معنى الاستطاعة. حكم من ترك الحج وهو قادر عليه ..... ١٤٢/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ يَكْفُرُوا...﴾ الآيات ..... ١٥٤/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا...﴾ الآيات. بيان ما كان بين الأوس والخزرج في الجاهلية. معنى الاعتصام ..... ١٥٥/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ...﴾ الآية. وفيها مسألة واحدة ..... ١٥٧/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا...﴾ الآية. وفيها مسألتان: بيان المراد بالحبل، انقسام الفرق الإسلامية ..... ١٥٨/٤



- تفسير قوله تعالى: ﴿ولكن منكم أمة يدعون...﴾ الآية ..... ١٦٥/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا...﴾ الآية ..... ١٦٦/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه...﴾ الآيات. وفيها ثلاث مسائل ..... ١٦٦/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿تلك آيات الله نتلوها...﴾ الآيات ..... ١٦٩/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس...﴾ الآية. وفيها ثلاث مسائل ..... ١٧٠/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿لن يضرركم إلا أذى...﴾ الآية ..... ١٧٣/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا...﴾ الآيات ..... ١٧٤/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم...﴾ الآية ..... ١٧٧/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿مثل ما يثفون في هذه الحياة الدنيا...﴾ الآية ..... ١٧٧/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة...﴾ الآية. وفيها ست مسائل: تأكيد الزجر عن الركود إلى الكفار. شهادة العدو على عدوه لا تجوز ..... ١٧٨/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم...﴾ الآية ..... ١٨١/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إن تمسكم حسنة تسؤهم...﴾ الآية ..... ١٨٣/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ غدوت من أهلك...﴾ الآية. والخلاف في سبب نزولها، وهل هو غزوة أحد أو غزوة الخندق أو يوم بدر ..... ١٨٤/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إذ همّت طائفتان منكم...﴾ الآية. المراد بالطائفتين. شيء من حديث غزوة أحد. رثاء حمزة رضي الله عنه. بيان التوكل والخلاف في حقيقته ..... ١٨٥/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر...﴾ الآيات. وفيها ست مسائل: بيان عدد غزوات رسول الله ﷺ. والكلام على غزوة بدر. إمداد المسلمين بالملائكة، والدليل على اتخاذ العلامة للقبائل والكتاب عند الحرب ..... ١٩٠/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وما جملته الله إلا بشرى لكم...﴾ الآيات ..... ١٩٨/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء...﴾ الآيات. وفيها ثلاث مسائل: بيان سبب نزولها. اختلاف العلماء في القنوت في صلاة الفجر ..... ١٩٩/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا...﴾ الآيات. ما كانوا يأتونه في الجاهلية من أنواع الربا ..... ٢٠٢/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم...﴾ الآية. وفيها مسألتان: أقوال العلماء في الجنة وعرضها وخلقتها ..... ٢٠٣/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿الذين يتفقون في السراء...﴾ الآية. وفيها أربع مسائل: الكلام على كظم الغيظ، والعفو والإحسان ..... ٢٠٦/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة...﴾ الآية. وفيها سبع مسائل: الكلام على الفاحشة والاستغفار منها. الدليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب.

- ٢٠٩/٤ ..... بيان الذنوب التي يتاب منها، وهل هي حق لله تعالى أو حق لغيره
- ٢١٥/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ...﴾ الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا...﴾ الآية. وبيان تسلية المسلمين على ما
- ٢١٦/٤ ..... أصابهم من القتل والجراح يوم أحد، وحُثُّهم على قتال عدوهم
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ...﴾ الآية. وبيان أن الأيام دول بين الناس.
- ٢١٧/٤ ..... الكلام على الشهيد
- ٢١٩/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِيَمْحَصِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ...﴾ الآية. وفيها خمس مسائل:
- ذكر ما أصاب المسلمين يوم أحد عندما بلغهم أن رسول الله ﷺ قتل. تأخير دفن
- رسول الله ﷺ لاشتغالهم بالخلاف الذي وقع في البيعة. الخلاف في الصلاة عليه.
- ٢٢١/٤ ..... تغيير الحال بعد وفاة النبي ﷺ
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ الآية. فيها حض على
- الجهاد، وإعلام بأن الموت لا بد منه، وأن المقتول مقتول عند أجله. وردّ على
- ٢٢٦/٤ ..... المعتزلة في أن الأجل يتقدّم ويتأخّر
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَأَيْنَ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ...﴾ الآيات. الكلام على ﴿كأين﴾
- ٢٢٧/٤ ..... الخلاف في معنى الربيين
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآيات. فيها
- ٢٣٢/٤ ..... تحذير من طاعة الكافرين
- تفسير قوله تعالى: ﴿سَتَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّيبَ...﴾ الآية. إيقاع الرعب في
- قلوب المشركين عند انصرافهم من أحد. ما تم للمؤمنين من النصر والانهزام بسبب
- ٢٣٢/٤ ..... المخالفة
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ...﴾ الآية. خبر غزوة أحد
- ٢٣٣/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ...﴾ الآية. الفرق بين الصعود
- ٢٣٩/٤ ..... والإصعاد
- تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نَاعَسَا...﴾ الآية
- ٢٤١/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ...﴾ الآية. والمراد بها
- ٢٤٣/٤ ..... من تولى عن المشركين يوم أحد
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية. والكلام
- ٢٤٦/٤ ..... على ﴿غُزًى﴾
- ٢٤٧/٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا قَتَلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْ تُكْتَلَبَ بِهِمُ...﴾ الآية. وفيها ثمان مسائل: بيان

- معنى الاستشارة. الشورى من قواعد الشريعة. اختلاف العلماء في المعنى الذي أمر الله نبيه عليه السلام أن يشار فيه أصحابه. ما يشترط في المستشار. معنى العزم ٢٤٨/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ...﴾ الآية ٢٥٣/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ...﴾ الآية. وفيها إحدى عشر مسألة: سبب نزول هذه الآية. معنى الغلول، وأنه كبيرة من الكبائر. ما يفعل بالغال يوم القيامة ٢٥٤/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ...﴾ الآيات ٢٦٢/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية. وبيان معنى المنة ٢٦٣/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَكُمْ مِصْيَةٌ...﴾ الآية. وبيان أن ما أصاب المسلمين من الانهزام هو بسبب مخالفتهم أمر الرسول ٢٦٤/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ...﴾ الآيات. واختلاف الناس في معنى قوله: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ ٢٦٥/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ...﴾ الآية ٢٦٧/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآيات. وفيها ثمان مسائل: بيان ما يتعلق بالشهداء، والحياة التي تكون لهم. اختلاف العلماء في غسل الشهداء والصلاة عليهم. واختلافهم فيمن قتل مظلوماً. دلالة الآية على عظيم ثواب القتل في سبيل الله ٢٦٨/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ...﴾ الآية. وبيان فضل الشهداء ٢٧٥/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولَ...﴾ الآية. وخبر غزوة حمراء الأسد ٢٧٦/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ...﴾ الآيات. الخلاف في المراد بالناس، وفي زيادة الإيمان ونقصه ٢٧٩/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ...﴾ الآية. وبيان الكلام على معنى الخوف ٢٨٢/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ...﴾ الآية. نزلت في قوم أسلموا ثم ارتدوا خوفاً من المشركين فاغتم النبي صلوات الله عليه. بيان أن الحزن على كفر الكافر طاعة ٢٨٤/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ...﴾ الآية ٢٨٦/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ...﴾ الآية. وبيان ما فيها من أوجه الإعراب ٢٨٦/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِرَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية. بيان الخلاف في المخاطب بهذه الآية ٢٨٨/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يِيْخُلُونَ...﴾ الآية. وفيها أربع مسائل: الخلاف

- ٢٩٠/٤ ..... في سبب نزول هذه الآية. معنى البخل وثمرته. الفرق بين البخل والشح
- تفسير قوله تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا...﴾ الآيات. وتشكيك اليهود للضعفاء منهم ومن المؤمنين ..... ٢٩٤/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا...﴾ الآيات. وبيان سبب نزولها .. ٢٩٥/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت...﴾ الآية. وفيها سبع مسائل: أسباب الموت وأماراته. الكلام على غسل الميت وتكفينه. حكم المشي به والصلاة عليه ودفنه ..... ٢٩٧/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿تلبثون في أموالكم وأفسكم...﴾ الآية. وبيان أنها خطاب للنبي ﷺ وأمة، موادة النبي صلوات الله عليه لليهود ومداراته لهم ..... ٣٠٣/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب...﴾ الآية. وفيها مسألتان: الآية خطاب لليهود ثم هي عامة في كل من كنتم علماً ..... ٣٠٤/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿لا تحسبن الذين يفرحوا بما أتوا...﴾ الآية. بيان ما كان يفعل بعض المنافقين من التخلف عن الغزو ..... ٣٠٥/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وإن في خلق السموات والأرض...﴾ الآية ..... ٣٠٨/٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض...﴾ إلى آخر السورة. وفيه خمس وعشرون مسألة: الأمر بالنظر والاستدلال في آياته تعالى. ذكر الله تعالى. اختلاف العلماء في كيفية صلاة المريض والقاعد وهيئتها. صلاة الراقد الصحيح. الفكرة في قدرة الله تعالى. اختلاف العلماء في أي العملين أفضل: التفكير أم الصلاة. الدليل على أن الكفار غير منعم عليهم في الدنيا. الصلاة على النجاشي. ما جاء في الرباط وفضله، ومن هو المرباط ..... ٣٠٩/٤

